اندريه غروميكو

من الذاكرة

الجزء الأول

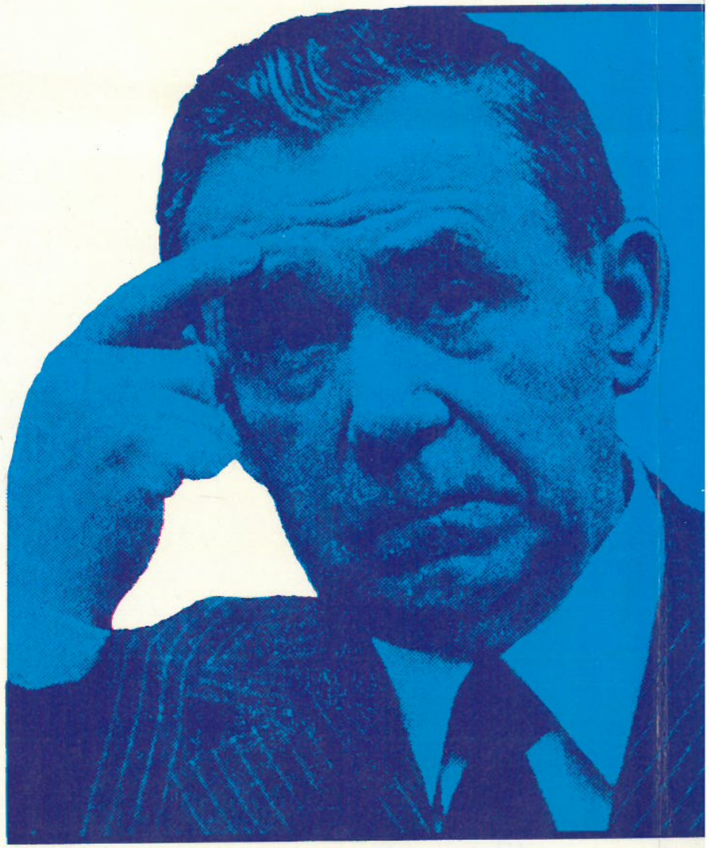

الفارابي

A
327.47
G634m
V.1

اندريه غروميكو

من الذاكرة

الجزء الأول

نقله الى العربية

د. محمد أحمد شومان — علي العرب

د. حسّان حيدر — د. حسين الأمين

راجعَ الترجمة
عن الروسية وحرّرها — د. محمد أحمد شومان

الفارابي
١٩٨٩

B. U. C. LIBRARY
17 NOV 1989
RECEIVED

THE STOLTZFUS LIBRARY
Beirut University College

الكتاب	من الذاكرة (الجزء الأول)
التأليف	أ. أ. غروميكو
نقله إلى العربية	د. محمد أحمد شومان
	د. حسان حيدر
	علي العرب
	د. حسين الأمين
راجع الترجمة عن الروسية وحرّرها	د. محمد أحمد شومان
الناشر	دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
	ص.ب: ١١/٣١٨١ ـ هاتف: ٣٠٥٥٢٠
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية. ش.م.ل.
تصميم الغلاف	حسني الحاج حسن
الطبعة الأولى	١٩٨٩

حقوق الترجمة والطبع محفوظة للناشر

B. U. C. LIBRARY
RECEIVED

من المؤلف

هذا الكتاب لم يخرج إلى النور فجأة، أما فكـرة كتـابـة المذكـرات ففكرة اقترحها عليَّ كثير من الناس، كما أعرب عنها رفاقي في العمل والمقرَّبون ومواطنون سوفيات لا أعرفهم.. وحتى أجانب.

وكثيراً ما كانت تردني رسائل تطرح السؤال البسيط:

ـ هل ستصدُر المذكرات قريباً؟

وكانت بعض الرسائل أيضاً تتضمّن عتباً لأنني لا أكترث لرغبة الناس في قراءة مذكراتي.

بيد أنني، ولفترة طويلة، لم أكن أملك في ذهني أموراً محدَّدة غير تلك النية الشديدة الضبابية في أنني سأتصدّى في مقبلات الأيام لكتابة ما يشبه المذكرات. ورغم ذلك كله فقد فكَّرت حين بلغت السبعين: أما آن الأوان حقاً للكتابة؟

وتباطأتَ في اتخاذ القرار، وغالباً بسبب تلك العادة التي تسكنني منذ سنيَّ المبكرة: إن أزمعت النهوض بأمر فلا بدَّ من بذل كل المحاولات لإنجازه.

وأنا لم أُرد تقديم مذكراتٍ « مزاحماً » الكُتّاب المحترفين، غير أنني فكّرت بعدُ: « لقد شاهدت ما ندر أن يكون باستطاعة أي أمرىء مشاهدته؛ كما تعرّفت شخصياً إلى أولئك الذين لم يكن بوسع الكتّاب المحترفين التعرف إليهم أو مجالستهم، وهو ما أُتيح لي ». ولذا، فقد قرّرت أن أكتب على طريقتي. وقد يكون ذلك دون حبكة فنية روائية، بيد أن الكتابة هنا ستكون تسجيلاً لما حدث وجرى في الواقع.

وهكذا، لم يبق إلاّ أن أتناول القلم والأوراق وأبدأ العمل.. والنقاط الأولى: أهلي وفجر الطفولة والخطوات الأولى في الحياة؛ ثُمَّ ما لبث شريط الأيام المتصرّمة يمر أمام ناظري، وكانت الصعوبة ـ وقد لا تكون ضئيلة ـ تكمن في تمييز المهمّ من الثانوي.

وشيئاً فشيئاً لم تكن تصعّب، غربلة الوقائع والحقائق والمشاهد والوجوه والحوادث، عملية الكتابة بقدر ما كانت تسهّلها وتساعدها، لأنها كانت تفتح أمامها الآفاق رحبةً.

ولقد حاولت أن أتساوى والقارىء الجماهيري ذا المستوى الرفيع في بلادنا راهناً. غير أنني، ومن جهة ثانية، لم أرد التضحية بجوهر المشكلات من أجل وسم ذكرياتي بسمة جماهيرية لأجل الجماهيرية..

ها هوذا نصف قرن تقريباً يمضي على تعرُّفي إلى عشرات بل مئات الشخصيات من مختلف بلدان العالم. من بينهم رجال سياسة واجتماع وقادة عسكريون وعلماء ومثقفون مبدعون ورجال أعمال. كما كان بين معارفي وبين مَنْ جالستهم أشخاص يستحيل تصنيفهم في أيٍّ من الفئات التي ذكرت.

أيّ غنى في الشخصيات الإنسانية والآراء السياسية وأنماط التفكير!

وقد يكون بمقدور شخص محترف للإبداع أن يهب بالطبع أولئك وصفاً تفصيلياً ممتلئاً، بما يتمتع به من ملكات إبداعية مميِّزة، وأن يصور عالمهم الداخلي ونظرتهم إلى العالم وسيكولوجيتهم. ففي الأدب، على سبيل المثال، وفرة من الأعمال والمؤلَّفات الشيقة الحافلة بأبطال متصلين بقضايا السلم والحرب، بل إنهم متصلون بمجال النشاط الديبلوماسي أيضاً.

وبالطبع، لم نضع في هذا الكتاب نصب أعيننا مهمة تقديم وصف إبداعي للشخصيات الذين التقيتهم عند مختلف مفترقات طرق الحياة، ولكنني رغبت أن أقول فيهم كلمتي، مستعملاً ما تمخّضت عنه تجربتي الشخصية. ووددت قبل أي شيء أن أتحدّث عن أولئك القادة الذين أداروا أو يديرون دفّة السياسة في بلادهم مباشرة، سواء أكان ذلك صياغة لاتجاهاتها أو تنفيذاً لها. والحديث، بالطبع، يتناول السياسة الخارجية.

وهكذا، يشتمل هذا الكتاب على ذكريات المؤلِّف، بالدرجة الأولى، عن لقاءاته بشخصيات رسمية من مختلف بلدان العالم ومحادثاته معهم؛ كما يتضمَّن كذلك أهم أحداث السياسات الخارجية. أما الحقبة الزمنية فتمتد بشكل رئيسي على طول النصف الثاني من القرن الراهن. وبذا، يبرز مضمون الكتاب وكأنّه سبيكة، يكوِّن الناسُ والأحداثُ والزمانُ معادنَها.

وثمة كثير من الحوادث، التي جرت خلال هذه المرحلة، يكتسب طابعاً تاريخياً حقاً. ومن ذلك وعلى رأسه الحرب العالمية الثانية والانتصار العظيم على المعتدين الفاشيين، الذي مجّد بلادنا وخلّد شعبها التاريخي على مرِّ الزمن.

ولعلَّ المحور الرئيسي الذي تحلّق حوله نشاطي في المناصب التي أوكلها إليَّ الحزب والدولة، هو، بشكل أساسي، السياسة الخارجية.

ها إني أقرأ ما كتبت وأعيد القراءة. ثمة مكان فيه ثغرة ما.. فيه انقطاع ما، وبحاجة إلى إنجاز. أوَليست الذكريات (وهي من خصائص الذاكرة البشرية) بذاتها لا يمكن أن تكون انعكاساً كاملاً لكل ما جرى في وقت ما، آنذاك..؟

وفي القرن العشرين توجد مفارقة، فقد أمكن للبشرية أن تستخدم طاقة الذّرة وتتغلغل في الفضاء، ولكنها إلى ذلك خلقت الخطر الذي يتهدّد شروط البقاء نفسها في المستقبل.

والقضاء على هذه المفارقة غير ممكن إلاّ عبر طريقة واحدة، وهي القضاء على الخطر المخيّم فوق البشرية. وهذا لا يتطلّب تفكيراً جديداً وحسب، الأمر الذي يكثر الكلام عليه والكتابة عنه في الأيام الراهنة، بل يتطلّب أيضاً ترجمته إلى الواقع الفعلي وإدخاله في سياسات الدول النووية قبل أي شيء، وتحديداً في سياسات كبريات الدول النووية بالدرجة الأولى.

إن تحليل الوضع العام هو من مهمات البحوث العلمية، أما مهمتي فلا أراها إلاّ على نحو أضيق: أي أن أستدعي من الذاكرة، وبأكمل ما يمكن، تلك الأحداث التي أسهمتُ شخصياً في حدوثها، وأولئك الأشخاص الذين قُدّر لي أن ألتقي بهم.

إن كتابة المذكرات، على ما أراه، أمرٌ ليس سهلاً دائماً. فالتقليد المتّبع يحتّم ألاّ يورد الكاتب سوى النزر الأدنى من المعطيات الذاتية. بيد أن الأمر الأساس، بطبيعة الحال، ليس في هذا، بل في إعادة التأمّل في كثرة

من المشكلات الكبرى التي تؤثّر بهذا الشكل أو ذاك في مصير العالم، مشكلات حقيقية ومُلِحّة يتعيّن على البشرية التصدي لها. وبكلمات أخرى، فإن الحديث يتناول، بالدرجة الأولى، الأحداث السياسية الأساسية التي ارتبطت بها، وهذا أمر منطقي للغاية.

وأودّ أن أشير إلى أنني أثناء تأدية عملي أخوض عملاً مشتركاً في نظام واحد يجمعني والعديد من شخصيات الحزب والدولة السوفيات، الذين تكوّنوا ونشأوا تحت جناح السلطة السوفياتية، في ظلّ الاشتراكية وفي ظروف تحقّق إرادة الحزب اللينيني، إرادة الشعب، في الواقع والحياة. في هذا الجانب تنعكس جزئياً حقيقة بسيطة هي أن سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية سياسة متّسقة، محبة للسلام، مدافعة عن مصالح الشعب. إنها سياسة بعيدة كل البعد وغريبة تماماً عن التقاط الراهن وانتهاز الفرص.

وقد يحدث أن تلتقي بأناس ليسوا على اطلاع كافٍ، فتشعر أنهم غالباً ما يرون في الدبلوماسية نزوعاً أو قدرة على خداع الطرف الآخر في المفاوضات، أو يمكن مثلاً تمرير «المكر» عليه أو التلفّظ بكلام في محله، أو ابهاره بحكمة لا يتوقّعها أو سَوْقُ مقبوس يجهله. إن هذا كله، بالطبع، تصوّر بعيد كلّ البعد عن الحقيقة.

إن نشاط الممثّل مطلق الصلاحية، وخصوصاً الممثل المنتدب إلى الخارج، يشتمل على دائرة واسعة من الموجبات، ولعل أوّلها القدرة على التحليل واستخلاص جوهر المشكلة بدقة ثم عرضها بالشكل الممتلىء، الحقيقي والفعلي.

ومنذ عام ١٩٨٥ وأنا أعمل في منصب رئيس هيئة مجلس السوفيات

الأعلى للاتحاد السوفياتي، وأشعر أثناء أدائي واجباتي، التي ائتمنني عليها الحزب والدولة، برضى كبير.

وأودّ هنا أن أؤكد، على وجه الخصوص، على تلك المروحة الواسعة من المشكلات التي يتعيّن على هيئة مجلس السوفيات الأعلى النظر فيها والتصدي لحلّها في الوقت الحاضر. فالمشكلات كلها مرتبطة، إلى هذه الدرجة أو تلك، إما بتطور بلادنا الاقتصادي ـ الاجتماعي أو بخط سياستها الخارجية المستمر لتوطيد السلام في العالم أجمع.

وتتيح لي الزيارات إلى مختلف مدن بلادنا فرص اللقاء بالعديد من المواطنين، ابتداءً من العمال في مواقعهم الانتاجية وانتهاءً بالمسؤولين الحكوميين وأعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. فهذا النوع من اللقاءات المباشرة يتكشّف عن فرص حقيقية للنظر في عمق المشكلات الموجودة في بلادنا، وبالتالي تقليبها على وجوهها كافة، ومن ثم العثور على الحلول الملائمة. ذلك أن العلاقة المستمرّة مع الجماهير تغني، إلى حدّ بعيد، العمل كما تسدي إليه مساعدة كبرى.

ولا يسعني إلاّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل للجنة الحزب المركزية على كل تلك الفرص التي أتيح لي الحصول عليها.

وثمة أمر آخر: إنني شيوعي راسخ العقيدة منذ بداية حياتي الواعية، ولشدّ ما أنحني أمام القوة الجبارة التي يتميّز بها مذهب ماركس وإنجلس ولينين.

إن الناس يشيدون بناءً، وهذا البناء ليس موجوداً بعد، ولكن تصميمه موجود، وشيئاً فشيئاً سرعان ما سيتحوّل إلى طبقات وسلالم

وأروقة وغرف. إنه ليس جاهزاً بعد، ولكن الناس يطلقون عليه اسم البناء وهو لا يزال بعد في عملية الإشادة. هكذا هو المجتمع الشيوعي الذي يبنيه شعبنا تحت قيادة الحزب الشيوعي. إنه ليس نجماً متلألئاً بعيد المنال، بل هو عملية بناء واقعية يقوم بها شعبنا بأكمله. ولقد بيّن لنا المؤتمر السابع والعشرون للحزب خط سير حركتنا.

لقد تحوّل الشيوعيون في العالم قوةً جبارةً، فيما عددهم يزداد عاماً بعد عام.

وإنني لفخور بكوني أُسهم بتواضع في تحقيق قضيتي الحزب والشعب، قضيتي السلام والشيوعية.

لن أقول إنني عكفت على العمل في هذا الكتاب دون تردُّد. ولقد حاكمت الأمور ببساطة: المذكرات تكون جيدة عندما تكون قراءتها مشوقة، أما إذا لم تستطع بعث الشوق لدى القارىء فلماذا يجب وضعها على الورق؟

ولعل الكاتب ـ الفنان يجد نفسه، بمعنى معلوم، في وضع أقلّ تعقيداً. فهو يُلزم أعماله بشخصيات يشعر أنه يجب أن تستثير اهتمام جمهور القراء حتماً. وأبطاله قد يكونون أناساً «عاديين»، أو ربما يكونون نصابين.

ولكن بناء العمل الفني بمجمله يجب أن يثير لدى القارىء الاهتمام. وكاتب المذكّرات حينما ينكب على العمل إنما يستقدم أبطاله من الحياة. وقد يقول بعضهم: إن هذا لأسهل بكثير من اختلاق الأبطال.

هذا صحيح، ولكن ثمة شيئاً آخر صحيحاً أيضاً.

فمهما حاول المؤلف أن يكون متواضعاً، غير أنه يسير في طريق حياته

الخاصة، فلا يحكي عن تصرّفات الآخرين فحسب، بل يجد نفسه مضطراً إلى الكلام على تصرّفاته الخاصة أيضاً. فبالنسبة إليه تبرز الكتابة وكأنها المرآة التي أوجدها بيديه، فلا تعكس فقط تصرّفات الآخرين وأفكارهم وقوتهم وضعفهم ونظرتهم إلى العالم. إنها تعكس أيضاً، وبدرجة أولى، صفاته الخاصة، الشخصية منها والاجتماعية بكل أبعادها وحدودها.

إن مهمة أيّ كاتب مذكرات مهمّة شاقّة: تجنُّب الوقوع في أيٍّ من التطرّفات. فهو لا يملك الحق في أن يجبر مرآته على عكس الواقع بصورة منحنية، هذا إذا شاء أن يكون موضوعياً. والمرء الذي يريد يرغب في أن ينقل إلى الآخرين أفكاره وأحكامه على الناس والأحداث عليه أن يعثر على تلك النقطة الوسطى الذهبية، التي لا يمكن من خلالها إلقاء اللوم عليه واتهامه باللاموضوعية.

وعندها، عند العثور على تلك النقطة الذهبية، سيكون بمقدور الكاتب الأخذ بيد قارئه بثقة، والتجوال معه عبر الكتاب.

وبالطبع، فإن ألوان الكلمة تلعب دوراً كبيراً، ومن هذه الزاوية يمكن القول إن لكل كتاب نكهته الخاصة ووجهه الفريد، والأمر ينطبق على كل أدب المذكرات أيضاً.

والحكم الفصل على حسنات «من الذاكرة» ونقائصه لا يعود إليَّ، بل إنه متروك للقارىء مع كل الإخلاص.

الفصل الاول

عند بداية الطريق

الذاكرة الإنسانية عجيبة، فالوقت يقصّر عادة عن أن نسترسل في ذكرياتنا عن الأيام الخاليات أمام الهموم اليومية الراهنة وفي مواجهة الأحداث المتجدِّدة أبداً. ولذا، فقد يحسب المرء أحياناً أن الحياة تمحو دون رحمة ما كان وما عشنا، ولكن ذلك ليس إلاّ ما يتهيّأ لنا.

فحينما يخلو المرء إلى نفسه يبدأ باستعراض شريط الماضي وهو يتتالى أمام ناظريه، وتلحّ سنوات الحياة الأولى خصوصاً، فتطفو على سطح الذاكرة. لقد حاولت في البداية تجاهل هذه المرحلة، ولكن الذاكرة كانت تعود بي، دون إرادة مني، إلى سنوات الطفولة والشباب. أما أحداث تلك السنوات فلا تكاد جذوتها تنطفىء.

لا، ليس صدفة أن كثيراً ممَن حكوا عن فجر حياتهم أعطوا زمن الطفولة حقه، وخصوصاً مرحلته التي تبدأ فيها الذاكرة باستيعاب الأحداث وتثبيتها. أليس رائعاً، على سبيل المثال، أن قارىء اليوم لا تزال تُبهره طفولة عملاق الأدب ليف تولستوي وصباه وشبابه التي حكاها لنا؟ كم كان رائعاً ما رواه الكاتب الروسي العظيم سرغي أكساكوف عن سنوات طفولته. وماذا عن مكسيم غوركي؟!

جاءتنا في أيامنا الراهنة أخبار حقيقية جديرة بالملاحظة. ففيلسوف اليونان القديمة المادي العظيم ديموقريط عاش ما ينوف على مائة عام، وكانت عظمته تكمن في أن علمي الفيزياء والكيمياء اعتمدا على مفهوم الذرة «الديموقريطية»، أي امتداداً حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما أصبحت ذرته «غير القابلة للتجزّؤ» ذرةً «منشطرة». فعند أفول أيام عمره سَمَلَ المفكّر عينيه بيديه وأطفأ نورهما. سُئِلَ:

- لِمَ فعلت هذا؟

أجاب الحكيم قائلاً:

- كي أرى بشكل أفضل.

حدث ذلك بحسب ما ترويه لنا الأسطورة، المتوارية خلف غلالات الزمن ودخانه، منذ خمسة وعشرين قرناً تقريباً.

ما أراده ابن اليونان العظيم ـ البلد الذي وصف كارل ماركس ازدهاره بأنه «طفولة البشرية الرائعة» ـ هو التدليل بتصرّفه القاسي تجاه نفسه، وبكل وضوح، على جبروت الفكر البشري وقوة الذاكرة البشرية. هذه الذاكرة التي تخزن الواقع الموجود موضوعياً، وتشد أواصر لا تنفصم عراها بين الأزمان كلها: الماضي والحاضر والمستقبل.

وكل من يستخرج من خزّان ذكرياته شذرات انطباعاته التي تبدو له وضاءة، تحدوه الرغبة في جعلها ملكاً للآخرين، وهو إنما يفعل ذلك طبعاً بالطريقة والأسلوب اللذين يميّزانه. ولعل هذا هو القيّم، لأنه يوفّر فرص مقاربة الظاهرات والأحداث والوقائع وبما يجعل فهمها أعمق. ولا يمكن لأيّ كان أن يقول كيف كان يمكن للبشرية أن تكون لو لم تتعلّم كيف

تجسّد خبرتها في الكتب واللوحات والمنحوتات والعمارة، وفي كل ما أنشأه عقل الإنسان وعمله.

أريد أن أسجّل بعض الشطحات التي تعود إلى سنيَّ المبكرة، وقد قررت القيام بذلك لأن السنوات اللاحقة من حياتي انطبعت بشدة بتأثيرات الطفولة والصبا، أي في الوقت الذي تتكوّن فيه شخصية المرء بوجهيها الفيزيقي والخلقي.

شيء من التاريخ

يحدث أنني أسأل:

- ما هو أصل عائلة غروميكو؟

ولكنني لم أصرف الجهد للتفكير في ذلك، فاسم العائلة عادي ككل الأسماء تُعطى للناس لتمييزهم بعضهم عن بعض.

والحقيقة أن الناس في قريتنا كانوا يعرفون بعضهم بعضاً وفق نظام خاص غالباً ما نعثر عليه في كل قرى روسيا القديمة وضياعها. وبالفعل، كيف يمكن تمييز المرء من خلال اسم عائلته إذا كان هناك أكثر من مائة بيت في «ستاريي غروميكي»، وجميع ساكنيها تقريباً من آل غروميكو. وفي الجوار كانت قرية «نوفيي غروميكي» حيث ينتشر أكثر من مائتين وخمسين بيتاً من آل غروميكو. ولم يكن هناك أكثر من خمسة بيوت من عائلات أخرى. وأخيراً، كانت هناك ضيعة «بوتسّي» الواقعة على بُعد ستة كيلومترات من قريتنا، وكان عدد بيوتها يعد أكثر من مائتي بيت، وجميع سكانها من آل غروميكو. وليحاول المرء، إذن، تمييز هذه العائلة

من تلك، ولذا فقد ابتدع فلاّحو القرى والضياع الألقاب ليتعرَّف بعضهم إلى بعض.

أما لقب عائلتنا فكان بورماكوف، حيث عُرف به أبي وجدي وجد أبي، حتى أنني كنت أجيب في « ستاريي غروميكي » عندما كنت أُنادى باسم أندريه بورماكوف.

وأصل عائلتنا فلاّحي، من أولئك الذين كانوا يزرعون القمح ويعملون في الأرض من الفجر حتى المساء. أما في سجلات الكنيسة وفي وثائق السلطات الرسمية فقد كنّا من آل غروميكو، العائلة الأرثوذكسية الكبيرة. بيد أن الأمر في حدود القرية يختلف، إذا كان الناس يتنادون بألقابهم التي منحوها لأنفسهم.

وعائلة غروميكو واسعة الانتشار نسبياً حتى الآن وفي أرجاء البلاد على رحابتها، ومع ذلك فأعضاؤها يرتبطون إلى هذه الدرجة أو تلك بمسقط رأسهم القديم، بتلك الأماكن القديمة والضياع والغابات والمراعي والحقول الممتدة بين تلال « دنيبر » و « ديسْنا »، وفي حوض « سوجا » عند نهر « بيسِّيد » الصغير.

في عائلة فلاّح فقير

وُلدتُ عام ١٩٠٩ في قرية « ستاريي غروميكي » غير البعيدة من « غوميل »، لربِّ عائلة يعمل فلاحاً حيناً وعاملاً حيناً؛ فكان ينتمي إلى هذه الفئة من المواطنين التي عرفتها روسيا قبل الثورة. وكانت هذه الفئة تضم سكاناً لم يكونوا يمتلكون أرضاً كافية لسدِّ أقواتهم وأقوات عيالهم؛ فكانوا يسعون إلى العمل في المدينة حيث المصانع، طلباً للرزق، ولكن

موسمياً وبصورة مؤقّتة. وباختصار كانت ممتلكاتنا ضحلة للغاية والأرض غير صالحة؛ ولذا فقد كان علي، وأنا بعدُ في الثالثة عشرة من عمري، مرافقة أبي للعمل خارج القرية، وتحديداً في الغابات، حيث كنّا نقطع الأشجار ونوضب أخشابها، تمهيداً لإرسالها إلى المنشآت الصناعية في غوميل.

إذاً، فموطني غوميل. والقبيلة السلافية التي سكنت هذه المنطقة منذ القدم مَن عليها القدر بأرزاق متواضعة، أو كما يقال في لغة اليوم ببيئة طبيعية متواضعة.

والشعب هنا طيب دمث لمن لم يأتِ المنطقة بالسيف. فعندما اجتاحت جحافل ألمانيا الفاشية الاتحاد السوڤياتي، هبَّ أهل المنطقة، بشبابهم وشيبهم، لمقاتلة الغزاة كما فعل شعب البلاد بأسره. ولقد سبَّب الهتلريون لهذه الأرض ولأهليها مآسي كثيرة. فأرض الجمهورية تمتلىء بالشواهد وقبور المواطنين السوڤيات، الذين سقطوا في ساحة النضال ضد المعتدين الفاشيين.

ولعلي أظهر تواضعاً لا مبرر له إن لم أعترف أن المنطقة التي ولدت فيها، وأمضيت فيها سنوات الطفولة، جعلتني في سنوات المراهقة أتعشَّق الأماكن القديمة والآثار التاريخية والتراث الثقافي الشعبي. فقد بلغتنا، نحن الفتيان، حكايا الكبار عن الماضي، الحقيقية منها والأسطورية.

كان سكان مدينة ڤيتكا يشكِّلون طائفة معارضة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية وللإصلاحات التي أعلنتها في القرن السابع عشر. ولم يكن عدد هذه الطائفة في قرى الناحية قليلاً، وقد تميَّز السكان بالطيبة ومحبة الغريب. وكنا، على سبيل المثال، إذا قطعنا عشرة كيلومترات وبعض كيلومتر من طريقنا إلى ڤيتكا، توقَّفنا عند بئر لترتاح

الدابه وتشرب، ثم ما يلبث أن يطل صاحب البيت حاملاً الدلو:

ـ أتكونون في حاجة إلى شيء آخر؟

لقد أحببنا هؤلاء الناس. وعندما شببت قليلاً علمت أنهم جميعاً أحفاد أولئك الذين هربوا من ملاحقات البطريرك نيكون وأتباع الكنيسة في القرن السابع عشر، فما كان منهم إلاّ أن أسَّسوا مدينة ڤيتكا، فظلَّ روحهم المتمرد موجوداً عند أحفادهم.

وفي عام ١٧٣٥ نفت الإمبراطورة آنّا إيڤانوڤنا ـ ولم يكن لغبائها وبلهها حدود ـ أربعين ألفاً من سكان ڤيتكا والجوار إلى عمق روسيا لعدم خضوعهم، أما البلدة نفسها فقد أشعلت فيها النار. بيد أن معارضي الكنيسة كانوا من القادرين على البقاء فأعادوا بناء ڤيتكا من جديد، وكأنهم بعثوها من تحت الأرض.

بيد أنه وفي سنة ١٧٦٤ وقع سيف القهر القيصري مرة ثانية على رؤوس أهل ڤيتكا، فكان أن نفت الإمبراطورة ـ وكانت هذه المرة كاترين الثانية ـ عشرين ألفاً منهم إلى سيبيريا نفياً مؤبداً، وحُمِلوا على تنفيذ الحكم سيراً على الأقدام قوافل قوافل، إلى أن وصلوا شيلكا وسيلينغا بعد خمس سنوات طوال. واليوم نعثر في هذه المناطق على أحفادهم حيث يبلغ عددهم حوالى مائة ألف نسمة.

ولكن أحداً لا يعرف أصل كلمة «ڤيتكا» على وجه التحديد، إذ يؤكد بعضهم أنها مشتقة من لفظة «ڤيتڤ» (فرع أو رافد) لوجود نهر صغير يتفرَّع من نهر سوج؛ فيما يعتقد آخرون أن في سوج نفسه توجد جزيرة صغيرة اسمها ڤيتكا، ومنها اشتُقَّ اسم البلدة. وثمة بعض ثالث ـ وأنا منه ـ يرى أن ڤيتكا ما هي إلاّ فرع صغير من فروع موسكو.

وبكلمات أخرى، ووفق الرأي الأخير، يعتبر أهل ڤيتكا المعارضون موسكوڤيين من حيث أصولهم.

ولعل روح أهل هذه المنطقة المتمرد، الذي لا يقبل الضيم، كان سبباً في لجوء قائد الحرب الفلاحية يميليان پوغاتشوڤ إلى البلدة. حدث ذلك قبيل اندلاع الحرب بين زبانية السلطة وبين جماهير المنتفضين، المتسلِّحين بالفؤوس والمناجل، الذين تزعَّمهم. ففي ڤيتكا بالتحديد أعطاه الأهالي «جوازاً» يمكّنه من عبور نقاط التفتيش التي أقامها عسكر السلطة وأمدّوه بكل ما يحتاج إليه ليعبر الأماكن الخطرة بنجاح. وكان يميليان يجول في عمق البلاد ويجنّد الفلاحين المتململين والمقهورين للنضال. وهنا، في ڤيتكا، سُمِّيَ پوغاتشوڤ «بطرس الثالث»، بيد أن كاترين الثانية قمعت الانتفاضة وسارعت إلى إعدامه. وراحت ڤيتكا المكلومة في حزن عميق على هذا «القيصر الفلاّحي الطيب».

واشتُهرت ڤيتكا بحرفيِّيها من بنائين ونجارين وصاغة ورسامي أيقونات وسباكين. وفي الأزمنة القديمة كان هؤلاء يُدْعَوْنَ إلى بناء القصور والكاتدرائيات وزخرفتها في كييف وبطرسبرغ وموسكو. فهم الذين زخرفوا قاعة السلاح في الكرملين وكذلك دَيْرَيْ نوڤوديڤيتشي وإيڤرسكي، جنباً إلى جنب مع غيرهم من الحرفيين الفنانين المبدعين.

كما تشتهر ڤيتكا أيضاً بمخطوطات وكتب محفورة على الخشب فريدة في نوعها. وفيها هذَّب أصحاب مهنة صناعة الكتب القديمة (كنيغاري)(*) فنهم. ومنذ زمن غير بعيد أُقيم مزاد في باريس حيث بيع

(*) كنيغار: صانع الكتب، وهي مشتقة من لفظة «كْنِيغَا» التي تعني بالروسية الكتاب (المترجم).

أثمن كتاب لقاء مبلغ طائل، وقد حمل عنوان «أپوسْتول»(*)، وهو كتاب أصدره في مدينة لْڤوف سنة ١٥٧٤ إيڤان فيدوروف، أول طبّاع كتب روسي؛ فهل لا يفتخر المرء بنجاح كهذا يحقِّقه علماء سوڤيات؟!

وأعترف بإخلاص أنني كنت طوال حياتي أهتمّ كثيراً بالكتب واللوحات والأشياء الأثرية القديمة المرتبطة بالتاريخ. وأنا أحبُّ القراءة، حتى أنني كنت في طفولتي أتأمّل مفكّراً في ما يغلُق علي فهمه. ولعلّني تأثّرت كثيراً بتلك الحالة العامة التي ميّزت منطقتنا حيث نشأت، وخصوصاً النواحي الروحية الثقافية.

وبالقرب من ڤيتكا كانت ستاري غروميكي، مسقط رأسي. وكثيراً ما كنت في طفولتي أسمع أنه ثمة مكان غير بعيد من قريتنا جرت فيه معركة «هزم فيها الروسُ الغزاةَ الإسوجيين». كان شيوخ القرية الطاعنون يروون عن آبائهم وأجدادهم كيف أخذتهم الشفقة على «الإسوجيين الهاربين» الذين جاؤوا غزاة لينهبوا البلاد.

وقد أتيحت لي الفرصة عندما أصبحت طالباً أن أقوم بزيارة هذه المناطق وأحط في العاصمة الإقليمية «كورْمْ».

وكنت قد وصلتها عبر إقليم سلاڤغورودسكي من أعمال ناحية موغيليڤسكايا. وهناك على الطريق العام، الذي يربط بين موغيليف وسلاڤغورود، تقع قرية صغيرة تُدعى «ليسْنايا»، لا شيء مميزاً فيها. ولكن اسمها دوى في كل أرجاء أوروبا منذ ثلاثمائة عام تقريباً فخلّده تاريخ البلاد. ففي هذه القرية وتحديداً في شهر أيلول (سبتمبر) من سنة

(*) أپوستول: الحواريَ أو الرسول (المترجم).

١٧٠٨ جرت معركة حامية الوطيس. فقد أبادت قوات مينشيكوف ـ القائد العسكري المحبوب من القيصر بطرس الأول ـ الجيش الإسوجي الاحتياطي الذي استُقْدِم لمساعدة كارل الثاني عشر. فاستولى الروس على حملة مكوّنة من ألف عربة نقل تحمل ذخائر وإمدادات كانت مخصصة لجيش الملك. وقد وصف بطرس الأكبر الانتصار الذي تحقّق قرب ليسنايا بأنه «أمّ الانتصار في معركة پولتاڤا». ويقول المؤرّخ المُحْدَث (القرن العشرين) ف. أو. كليوتشيفسكي في معرض تحليله لأحداث التاريخ الروسي في القرن الثامن عشر:

ـ «كان من المخجل ألّا ينتصر الروس في پولتاڤا بعد انتصارهم في ليسنايا».

وبعد مرور أعوام عديدة وقع بين يدي مجلّد ضخم يحمل عنوان «حرب الشمال» لمؤلفه المؤرّخ السوڤياتي العظيم، الأكاديمي ييڤغيني ڤيكتوروڤيتش تارلي، الذي تشرفت بلقائه عدة مرات. وفي هذا المجلد وقعتُ على كلام يؤكّد كل ما كنت قد سمعته في قريتنا، وأنا بعد صبي، مما قاله الشيوخ: فهؤلاء الجنود والضباط الإسوجيون، «الذين حِيلَ بينهم وبين قواتهم ولم يقعوا أسرى في أيدي الروس، تاهوا فترة من الزمن في الغابات، ثم ما لبثوا أن صُفُّوا شيئاً فشيئاً على أيدي الفلاحين البيلوروسيين»، وكانت الحرب قد اتخذت طابعاً شعبياً بعد أن اجتاح الإسوجيون الأرض الروسية، وقد شارك فيها سكان منطقتنا والجوار.

أما غوميل، المدينة التي قضيت فيها طفولتي، فقد ورد ذكرها لأول مرة في صحائف قديمة تعود إلى القرن الثاني عشر. وفي القرن الرابع عشر سُلخت عن روسيا وأُتبعَت بالإمارة الليتوانية العظيمة، ثم ما لبثت أن أصبحت جزءاً من بولندة التي اتحدت مع ليتوانيا في ما عُرِفَ بـ «ريتش

بوسبوليتا ». وفي عام ١٧٧٢ عادت المدينة مرة أخرى إلى روسيا بوصفها أرضاً روسية بحكم التاريخ.

وانطبعت صورة غوميل في ذاكرتي على هيئة مركز لشبكة من السكك الحديدية، كانت تنتشر فيها المؤسسات الصناعية وفي طليعتها معمل أعواد الثقاب « ڤيزوڤي » الذي حلمت يوماً أن أعمل فيه.

والمدينة التي دمَّرها فاشيّو هتلر كلها تقريباً أُعيد بناؤها بالكامل مجدداً، وأصبحت أحد أكبر المراكز الصناعية والثقافية في جمهورية بيلوروسيا السوڤياتية الاشتراكية. (حتى عام ١٩٢٤ كانت مدينة غوميل وجوارها لا تزال تابعة لجمهورية روسيا السوڤياتية الاتحادية الاشتراكية). وفي عام ١٩٧٠ مُنحت مدينة غوميل وسام راية العمل الحمراء للنجاحات التي حققَها شغيلتها في تنفيذهم مهمات الخطة الخمسية الهادفة إلى تطوير الإنتاج الصناعي.

الوالدان والأقارب

عندما يبدأ المرء بكتابة مذكراته فمن المحتَّم أن ينشأ سؤال: منذ متى بدأت آراؤه في الحياة والعالم تتكوَّن، ولتكن الآراء طفولية غير ناضجة.

في حياة الإنسان تتراكم بالتدريج الانطباعات والحقائق والتجارب التي ما تلبث أن تتحوَّل قناعاتٍ ونظاماً من الآراء. ليست لدي نية البتة للتعمُّق في هذا الموضوع، ذلك أنه من مهمات الأدباء، ولنقل الأدباء الذين لا يصوِّرون الحالة المحيطة فحسب، بل يصوِّرون كذلك استواء العالم الداخلي لأبطال أعمالهم. غير أنَّ هذا السؤال لا بدَّ ناشىء عند كل من يفكر في إلقاء نظرة على ماضيه.

أذكر مثلاً نفسي عندما كان لي من العمر أربع سنوات. وبغضِّ النظر عن ذلك الارتباط العائلي الوثيق، بوصفه سمة ينفطر عليها الإنسان عموماً، فإن أول شعور قوي تولَّد عندي هو عشق الأماكن الحميمة وحب البيت الذي وُلدت فيه.

كان بيتنا يقع عند أطراف القرية، وقد اعتقدت آنذاك أنه بُني منذ مئات الأعوام، إذ لَشدَّ ما بدا عليه القدم. كان مؤلَّفاً من غرفتين يوجد في كلٍّ منها سرير ودكَّتان أو ثلاث. وكانت تعيش في هاتين الغرفتين عائلتان، كان لإحداهما أطفال. وتحت البيت توزَّعت في القبو ممتلكاتنا المكونة من بقرة وحصان.

وبالقرب من ستاريي غروميكي كانت ثمة بحيرة صغيرة متصلة بنهر بيسيِّد. وذكريات الطفولة مرتبطة بالسباحة في النهر والبحيرة وسط تصايح الأولاد. فقد كانت السباحة بالنسبة إلينا قمة السعادة، فضلاً عن كونها سراً كبيراً نجهد لإخفائه عن الكبار.

وحين أتذكَّر تلك السنوات لا أستطيع إلاَّ أن أذكر والديَّ بكلمات مفعمة بالطيبة والحب، فأنا معترف لهما بجميل كبير من الأعماق، كما وأحفظ لهما ذاكرة الاعتراف به.

كان والدي أندريه ماتڤييڤيتش متعلماً بالقدر الذي يخدم حياة المرء اليومية. فقد كان يعرف القراءة والكتابة إلاَّ أنه لم يُنْهِ سوى مدرسة الكنيسة بسنواتها الأربع.

وأذكر كيف كنت شديد الإعجاب بخطه الجميل، الأمر الذي لم أتميَّز به منذ البداية. فقد كنت أحاول دائماً إخراج الحروف على نحو صحيح وكما لقِّنت، ولكنها ـ أي الحروف ـ ما كانت تُنتج على الورق إلاَّ

مكسرة متناثرة. صحيح أنها كانت تأتي أكثر استكانة وخضوعاً لدى نقلها إلى الدفاتر، خصوصاً المسطَّرة منها، ولكن ما أن أبدأ كتابتها على ورق أبيض حتى تبدأ بالرقص والتمايل.

وفي هذا الجانب كنت شديد الإعجاب بوالدي، بل شديد الاندهاش لأمره. كان يأخذ قلماً وورقة ثم فجأة تبدأ بالظهور أشكال بشرية وأشكال حيوانية مختلفة، كالخيول والأبقار والخراف. وكنت وأترابي نمعن النظر في الرسوم ويُخيَّل لنا أنها حية رغم أنها رسمت بقلم رصاص عادي. وكان القليل منا يعرف شيئاً ما عن الرسم بألوان الزيت، وإن عرف فبالسمع فقط. ولا أعتقد أن أبي كان يرغب في التفرغ للإبداع الفني.

وكان أبي يحب أن يروي لأعضاء العائلة والأقارب عن تلك المعارك التي جرت على أرض منشوريا إبان الحرب الروسية ـ اليابانية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)، ثم فيما بعد في القطاع الجنوبي ـ الغربي للجبهة الروسية ـ الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى. كان يحكي من موقع العارف بالموضوع نظراً لاشتراكه في كلتا الحربين، ويرفق أحكامه بكلمات «مالحة»، موجَّهة إلى جنرالات الجيش الروسي، الذين كان يسميهم بأسماء عائلاتهم. وأذكر كيف كان يحكي:

ـ لقد أحببت دائماً الجنود وأولئك الضباط المقاتلين الذين قاسمونا الأعباء الحربية. أما في ما يتعلق بقيادة الجيش الروسي العليا، فقد كنّا، نحن الجنود، نظهر تململنا منها وضيقنا بها. كنا نخوض المعارك والسلاح لا يكفي وخصوصاً المدفعية، كما كنت أشعر دائماً بنقص الذخائر. كانت قدرة العدو النيرانية أقوى بمرات، ولهذا السبب كان من المحتَّم أن تنزل بالجيش الروسي خسائر جسيمة.

وكنتُ أعجب:

ـ كيف يتسنى لأبي أن يتذكّر كل ذلك؟

وما كان يسترعي انتباهي في حديثه أن الجنود كانوا يلقون باللوم على قيادة الجيش لانكسارهم في الحرب الروسية ـ اليابانية، وليس على القيصر.

وكنت أسأله:

ـ ولكن لماذا؟

وكان والدي يجيب بعد إطراق:

ـ كانوا يخافون إلقاء التبعة على القيصر مباشرة، حتى أنهم كانوا يتهامسون في ما بينهم: «سيبيريا ليست بعيدة عن منشوريا، فهنا الجبهة وهناك المنفى».

وللحقيقة، كانت هذه الحكايات مع ذلك تتعرَّض للحُكّام الفاسدين. كان والدي يقول:

ـ في بداية الحرب كان ثمة تعبير شائع بين الضبّاط: «باستطاعتنا أن نصل إليهم برمي قبعاتنا، فنحن الروس أكثر منهم عدداً». وكان الجنود يجيبون: «صحيح. باستطاعتنا رميهم بقبعاتنا، ولكن لماذا علينا السير طويلاً لنفعل ذلك؟».

كان الشبان ينصتون إلى هذه الحكايات وأنفاسهم تكاد تتوقَّف.

ولا أذكر البتة أنني رأيت والدي غير منشغلٍ بعملٍ ما، حتى أثناء حديثه وحكاياه ما كان يتوقف عن تصليح أو صنع شيء ما بما في ذلك

أدوات العمل الفلاحي كالمحراث والمِسلَفة وغيرهما. وإذا كان كل شيء على ما يرام، وإذا لم يترك والدي القرية سعياً وراء عمل موسمي قد يطول أشهرا، كنت تراه يقبل على خلق عملٍ ما، كأن يحضّر الحطب للشتاء أو يجمع الأغصان في الغابة ويجتث الشجيرات اليابسة ليأتي بها إلى فناء البيت ويوضّبها.

ورغم كل شيء لم يكن أبي كثير الكلام، فقد تعوّد على العمل في الحقل وفي نواحي البيت وفي قصّ الأعشاب وفي الغابة للاحتطاب ساعات وساعات دون أن يتفوه بكلمة، مع أن أشخاصاً عديدين ممن يستطيع ويريد محادثتهم كانوا في المحيط وتحت ناظريه. ولكنه كان، وببساطة، لا يحب ذلك معتبراً أنّ الكلام يعطّل العمل. وكان يُخيّل إليّ أنه لن يستطيع العيش دون عمل مهما كان هذا العمل خفيفاً.

ولكن كان يصادف أنه يسمح لنفسه بالكلام أحياناً سواء مع الأقرباء حول المائدة أو في أمسيات الصيف عندما يجتمع بعض الرجال قرب أحد البيوت. وفي هذه الحالات كان الحديث حديثاً بين رجال، ولا حاجة للنساء بسماعه من قريب أو بعيد، إذ قد يعمد بعضهم إلى التقاذف بألفاظ ثقيلة على مسامعهن.

ومرة، خاض أبي وجمع من الرجال نقاشاً عن أي البلاد أغنى، فاختلفت الآراء. أحدهم قال إن ألمانيا أغنى من أي دولة أخرى، وذلك لأن الألمان نهابون، كما وأنهم نهبوا حتى روسيا. وأعلن آخر أن أميركا هي الأغنى، وهكذا لم يُسَمّ أحد روسيا في عداد البلدان الغنية. ومن بين الجمع انبرى رجل ليعرب عن الفكرة التالية:

ـ كان للأميركيين رئيس ذكي اسمه تيودور روزفلت؛ ويقال إنه أدار البلاد بشكل جيد.

أما أبي فقال ما يلي:

ـ أجل، لعل أميركا هي أغنى بلد لأن الأميركيين يستولون على ثروات الآخرين، وتيودور روزفلت كان رئيساً ماكراً.

وتلقى أبي دعماً من أحد جيرانه:

ـ أجل، روزفلت رئيس ذكي وماكر.

كانوا يقولون إن ذلك ما تكتب عنه الجرائد أيضاً. وهكذا انطبع في ذاكرتي، ومنذ الطفولة، وصف «الذكي والماكر» الذي اتسم به الرئيس الاميركي.

وكانت «مؤتمرات المصاطب» هذه تنتهي بعد نقاشات، نشارك نحن الاولاد فيها كمستمعين، بأن يوافق الجميع مع رجل منهم، الأمر الذي كان إيذانا بتفرّقهم وعودة كل واحد منهم إلى بيته استعداداً ليوم العمل الآتي.

ولم تكن هذه «المؤتمرات» ظاهرة نادرة في القرية، إذ كان الرجال يجدون فيها مُتَنَفَساً للتعبير عن آرائهم. وكانت هذه «المؤتمرات» التي تعقد حول مسائل دولية الأولى في حياتي، وبالطبع لم أكن لأشارك فيها مباشرة، إلا أنني كنت أنصت جيداً إلى ما يقال.

كان ذلك في سنوات الحرب العالمية الأولى، عندما عاد والدي إلى البيت في إجازة قصيرة من الجبهة. وقتذاك كان وودرو ويلسون قد أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأميركية، بيد أن روزفلت ظلّ في ذاكرتي «رئيساً ذكياً وماكراً».

وحدث في عام ١٩٣٣ أن ذهب والدي، كعادته، إلى الغابة للاحتطاب،

وكنت آنذاك أتلقى علومي في مينسك. وبعد ساعات من البحث وُجِدَ مُغمى عليه وفيه شيء ضئيل من رمق. وسرعان ما فارق الحياة لعدم وجود إسعاف طبي قريب، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة تقريباً.

أما والدتي أولغا ييڤغينيڤنا فقد وُلِدَتْ لعائلة فلاَّح فقير من قرية «جيليزنيكي» المجاورة. كانت امرأة ذات قلب ذهبي، فلم تكن تتحدَّث عن الناس إلاّ بالخير، فهي لم تكن ترى في أحد إلاّ الخير، والأهم أنها لم تكن تريد أن ترى إلاّه.

ووالدتي لم تمضِ في المدرسة إلا عامين أو ثلاثة، فلم تنهِ الدراسة، ذلك أنها فقدت أباها وهي بعدُ طفلة صغيرة، الأمر الذي جعلها ترعى شؤون البيت والحقل منذ يفاعتها. ومع ذلك فقد تعلَّمت القراءة والكتابة، وما قرأته ليس ضئيلاً.

ولعلّ كل ما أوردته عن حبّ أبي للعمل ينطبق كلياً على والدتي. كانت كادحة، تعمل بلا كلل واهبة كثيراً من جهدها وصحتها للإشراف على أرزاقنا، وفيما بعد في الكولخوز (*) الذي وحَّد فلاَّحي قرية ستاريي غروميكي.

ولطالما حملت لوالدتي أحرّ الذكريات عبر سنوات حياتي. كانت تدهشني منذ الطفولة: كيف يمكن للمرء أن يعمل دون راحة؟ كان عليها أن تهتم بقطعة الأرض الصغيرة التي نملكها، فتزرعها بطاطا وملفوفاً وخيارا، فضلاً عن زراعة الكتّان الذي كان يحظى بأهمية كبرى في حساب رزقنا، وإلاّ فلن تكون هناك قمصان وبياضات، أي أن الأمر

(*) الكولخوز ـ تعاونية زراعية (المترجم).

دونه سيكون سيئاً في ما يتعلّق بالألبسة بوجه عام. كما كان عليها أن ترعى شؤون العلف للبقرة. أما ما يتّصل بمحاصيل الحبوب ـ والجودار أولها ـ فلم يكن جهد المرأة بأقل من جهد الرجل في جميع مراحل الموسم، وخصوصاً في الجانب المتعلّق بتموين العائلة ووضع سياستها.

كان هذا العمل كله من حصة النساء، ولم يكن في بيتنا منهن إلاّ اثنتان. فعدا والدتي كانت شقيقتي التي تصغرني، ولم تصبح مساعِدةً قادرة إلاّ عندما بدأت علاقاتي بالعائلة تضعف لابتعادي عنها لطلب العلم.

وقد ورثتُ حبّ الكتب عن والدتي، إذ كان أهل قريتنا يسمونها «الأستاذة». كان ذلك أمراً غريباً، ولكن الجميع، صغاراً وكباراً، ينادونها: «العمّة أولْيا، الأستاذة».

وإنني ما زلت أذكر رعايتها وكلماتها الدافئة العميقة حتى الآن:

ـ أنت تحب الكتب، والمعلّمون يمتدحونك. لعله يجب أن تتابع الدراسة... قد يكون لك شأن بين الناس.

وقد أثبتت الحياة أن والدتي أسدتني نصحاً طيباً، وأيّدها والدي في ذلك، الأمر الذي حدّد لي مصيري.

وتوفّيت والدتي في موسكو عام ١٩٤٨. قضت حياتها كلها في القرية ولم تقم في العاصمة إلاّ بضعة أشهر قبل وفاتها بداعي المعالجة، وكنت قد وصلت إلى الوطن من الولايات المتحدة قبل اسبوعين من وفاتها، فتسنّى لي أن ألقاها وأحادثها. وكان الحديث صعباً.

كانا مثالُ الوالدين قدوةً، والحياة نفسها خلقت الظروف لنا ـ أترابي

وأنا ـ للخوض باكراً في معترك العمل. وكان لي من العمر سبعة أو ثمانية أعوام حين تعرَّفت إلى العمل الجسدي، وذلك حين كنت أساعد والدي في أعمال الحقل.

وقد تزوَّجا إثر إنتهاء الحرب الروسية ـ اليابانية. كان لأبي آنئذٍ سبع وعشرون سنة فيما ناهزت أمي التاسعة عشرة. وكانت بكرهما تاتيانا، التي وُلدت قبل مولدي بعام ونصف، قد توفِّيت في عمر السنتين، ولذا فأنا لا أذكرها.

ولبضع سنوات عاشت عائلتنا مع جدي لأبي ماتفيف غريغوريفيتش الذي عاصر إلغاء قانون القنانة الإقطاعية عام ١٨٦١. وكان يعرف القراءة وكثيراً ما كنت أسمعه قبل الغداء وهو يقرأ « الكتاب المقدَّس » بتلاوة واضحة ولكن ممطوطة بعض الشيء. وقد وافاه الأجل عام ١٩٢٧ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

ومن نِعَم الحياة على جدي زوجه مارفا جدتي، التي بدا أنها لم تولد إلاّ لزرع الخير بين الناس.

كنت بعد صغيراً جداً، ربما وقتها كان باستطاعتي المشي منتصباً تحت الطاولة، حين سمعت من جدتي كلمة غير عادية. لعلي يومها اقترفت ذنباً، فما كان منها إلاّ أن هزَّت سبابتها مهدِّدة وهي تقول:

ـ أيها الديمقراطي! لماذا تعثَّرت؟

كان ذلك قبل نشوب الثورة في عهد القيصر، وكانت تعرف بالسمع أن « الديمقراطيين » يُزجُّون في السجون أو يُنفَوْن إلى سيبيريا، فقرَّرت أن تخيفني بهذه الكلمة « المرعبة ». وفيما بعد، غالباً ما كنت أسمع

الآخرين يقولون لي هذه الكلمة، ولكن بشكل يختلف قليلاً عمّا كانت تقصده جدتي:

ـ يا لك من « ديمقراطي »!

ولكنني كنت أعرف أن جدتي الطيبة لا تملك أن تغضب، ولهذا فقد حملت كلمة « ديمقراطي » معنى التدليل، فضلاً عن ارتباطها بشخص عزيز جداً على قلبي.

وكانت عائلتنا المؤلفة من عمين وعمَّتين (هما صوفيا وماريا) تعيش في وئام ومحبة. وظلَّ الوضع كذلك إلى أن آن الأوان لاقتسام قطعة الأرض الأخيرة الصالحة للزراعة، التي كان يملكها جدي. وكانت الأرزاق منذ البداية لا تكفي لإطعام العائلة كلها، فكيف الحال وقد أصبحت عرضة للتقسيم وباتت ملكيات صغيرة.. عندئذٍ بدأت المشاحنات وخصوصاً بين والدي وبين شقيقه الأصغر إيفان. أما عائلة عمي نيقولاي التي سبق أن اِنفصلت منذ آخر قسمة للأرض فلم تشترك في هذه الخلافات.

ولم يكن يعجبني مطلقاً كيف كانت تدور المشاحنات، إذ لم أكن أستطيع أن أفهم لماذا ينبغي للأقارب أن يختلفوا ويتشاحنو ويتبادلوا الكلمات المسيئة.

ورغم كل شيء ظلَّ الانتماء والارتباط العائليان متماسكين، بغضِّ النظر عن التعقيدات المعروفة التي كانت تحدث في جميع عائلات ناحيتنا الفقيرة، حيث كان الناس يشعرون دائماً بالعوز وبالحاجة إلى تحسين ظروف حياتهم بمزيد من الأعمال الشاقة.

وكنّا نشعر حيال قريتنا بعاطفة حارة، وكذلك نحو الأقارب

والمعارف الذين كان يقطن بعضهم في القرى المجاورة. فكنا نتبادل الزيارات فنستضيفهم ويستضيفوننا. وكانت هذه الزيارات حدثاً سعيداً. وإني لأذكر تماماً أن تعاطي المسكرات والخمور في عائلتنا لم يكن أمراً متبعاً. ولكن كان بإمكان المرء العثور في القرية على مخمورين مرتين أو ثلاثة في العام، وفي العادة يكونون فتياناً. ولم يكن أحد يولي ذلك اهتماماً، فمثل هذا التصرف لم يكن هدفه سوى جذب أنظار الفتيات.

وكنت أقدّس كل ما يحيط بستاريي غروميكي: الحقول والغابات والمراعي والأنهر. وكان يُخيَّل إليَّ أن هذه الأمكنة هي الفضلى علماً أن الناس هنا – باستثناء قلة منهم – كانوا يعانون من نقص في تموين البطاطا، حيث كان ينفد قبل انتهاء موسم الشتاء.

وكان نهر بيسيّد الصغير يثير إعجابي الشديد، وما كانت تبحر فيه الزوارق الصغيرة إلاّ ربيعاً، لأن مياهه في الصيف كانت تشحُّ فلا تعود قادرة على حملها. كانت ضفافه تجذب كالمغناطيس، يركن الفتيان إليها بصنانيرهم ويحدقون في المياه: أمَا غمزت بعد؟ وأسفاه لم تعلق السمكة.. أكلت الطعم ولم تعلق. وإذا حظي أحدنا بصيد خمس أو ست سمكات فقد كان يعتبر صيداً موفقاً. وكان أحدنا إذا وفق إلى مثل هذا الصيد يعود مرفوع الرأس، شاعراً أنه أصبح من الكبار.

وعندما كان يصبح بإمكان الأولاد والبنات العمل، كانوا يعمدون إلى مساعدة الكبار في الحقل، وخصوصاً في الأعمال النسائية كحصاد الكتان والقنب وحصاد محاصيل الحبوب ودرسها. ولم يكن ذلك العمل يهين على من كان عوده غضاً. أما الحيوانات فكانت قليلة وينقصها العلف.

وعلى بعد كيلومترات ثلاثة من قريتنا امتدت غابة غرافشينا كبيرة

عميقة، فبدت وكأنها بلا نهاية. وكان يقال إنها غابة تحوي كل شيء: الحيوانات المفترسة وعصابات الأشقياء وربما حتى السَّحرة. وأما حين ينطلق عنان الخيال لدى الصبية فتصبح مسكونة حتى من العفاريت. فكنَّا نحاكم الأمر على النحو التالي:

– وأين يمكن للعفاريت أن تكون إلاّ في الغابة؟

ولكن ما أن يهلَّ الصيف، فصل نمو الفطر، حتى كان الناس يدخلون الغابة دون خوف أو وجل. وبالمناسبة لم يكن جامعو الفطر يختلفون عن صيّادي الأسماك والحيوانات من حيث التشوُّف والافتخار. والحقيقة أن الصيّادين في منطقتنا كانوا قلّة ضئيلة لأن الأسلحة والذخائر كانت شيئاً نادراً.

وفي أيام الشتاء كنا نخاف الذئاب، ولذلك لم نكن نجرؤ على السعي إلى جمع الحطب إلاّ جماعات. وحينما كنت أرافق والدي في الذهاب إلى الغابة غالباً ما كان يتهيأ لي كيف سأفتك بالذئاب بفأسي شمالاً ويميناً، منقذاً بذلك أبي والحصان.. بيد أن الذئاب تعمَّدت ألا تظهر ولو مرة واحدة نكاية بي. وكنت بيني وبين نفسي راضياً عن ذلك، غير أنني جهدت دائماً أن أبدو أمام أبي شجاعاً مقداماً.

وكنا، صبية القرية، قد تعوَّدنا على العيش بوئام منذ نعومة أظفارنا، نرعى الصغار فينا، وقد برز روح التعاون والتضامن هذا دائماً. كان مثل هذا الوضع ناجماً من العادات التي ترسَّخت بين الفلاحين على مرِّ القرون. ومن ذلك أنه إذا شبَّ حريق مثلاً في بيت فلاح هبَّت القرية بكليتها لمساعدته، فتحضر جذوع الأشجار وتنشرها وتبني له بيتاً وحظيرة جديدين. كان ذلك قدوة للأطفال والصبية والشبان.

واندلعت الحرب العالمية الأولى . . .

سرعان ما انتشر خبر مفاده أن ألمانيا أعلنت الحرب على روسيا، وسرى كالرعد في سماء صافية. انفجرت الحرب العالمية الأولى... تلقّيت النبأ وراقبت الحدث بطفولية، فيما كان ردّ فعل الكبار حاداً.

قال والدي:

- ها هو الألماني يزحف إلى روسيا. إنه قوي وخطير، وهو لم يجلب إلى الناس إلاّ المآسي دائماً.

آنذاك فقط، أحسست لأوّل مرة ودون وعي ماذا يعني الحب نحو الحقول والغابات ونحو الناحية والوطن بمجمله. وتردّدت في الأجواء أصداء المعركة عند بحيرة تشودسكوييه، عندما أباد ألكسندر نيڤسكي فرسان التفتون. كانت هذه الأصداء تتناهى إلينا عبر القرون. وصادف أنني عثرت على كتاب في قريتنا يروي السيرة المفصلة لمآثر هذا النبيل في مواجهته لأعداء الأرض الروسية. وكراهية المحتل الغازي كانت متأصّلة في قرارة الشعب، وضرب جذوره عميقاً كذلك الإيمان الشديد بقواه الذاتية. أكان ذلك لأن الأساطير التي تُروى في السير الشعبية عن الأبطال العمالقة، المدافعين عن البلاد، لم ينسها الشعب فعاشت في أعماق وعيه؟ وبدأت التعبئة العامّة وكان من نصيب والدي الذهاب إلى الجبهة. وكانت هذه الحرب بالنسبة إليه هي الثانية.

وودّع الأقاربُ والأصدقاءُ والجيرانُ الذاهبين إلى الجبهة. ودّعوهُم بالدموع وكذلك طبعاً بمرافقة عزف الهارمونيكا الحزين: «أيعود أعزاؤنا من ساحات القتال أم تراهم لن يعودوا؟». وتماسك المجنّدون كما يليق بهم، بل إنهم أبدوا الشجاعة في الرحيل، وإذا اغرورقت الدموع في

مآقيهم سارعوا إلى مسحها من طرف خفي، أما الكبار فقد عمدوا إلى رفع الأنخاب. ففي قريتنا كان ينظر إلى المشروبات الروحية كأمرٍ لازبٍ يتواءم والتقاليد، أو بوصفه ظاهرة حتمية ملازمة لأي حدث جَلَل. وكان يُعتبر أن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو وليس على نحو آخر. والواقع أن ذلك كان مظهراً من مظاهر امتصاص الحزن على الأقربين الذين قد لا يتمكنون من العودة إلى الأبد.

وأمضى والدي خدمة سنوات ثلاث في أحد فيالق الجبهة الجنوبية - الغربية التي قادها الجنرال أ. أ. بروسيلوف. وقد أجيز لوالدي العودة إلى البيت بعد سنتين من بدء الحرب فأمضى بيننا أسبوعاً عاد بعده إلى الجبهة مجدداً.. إلى الخنادق وتحت نيران المدافع الألمانية في منطقة پيريميشلا.

ترّهات الأعوام البعيدة

قد لا يستطيع أبناء المدن أن يفهموا بسهولة أي عالم من الأساطير والخرافات يحيط بسكان القرى، وخصوصاً الأولاد الذين هم في سني. وهذه الخرافات والأساطير التي تشكّل مزيجاً من الهواجس ونوعاً فريداً من الرومانسية، كانت تنتقل من جيل إلى جيل، فيما تضرب جذورها - على ما يبدو - عميقاً في القدم. وعادةً ما تلامس هذه الحكايا الجذابة الأوتار الحسّاسة في الروح الإنسانية، كالإخلاص للكلمة والعهد المقطوع والمحبة والشرف والترفّع في السلوك.

وعلى سبيل المثال، كثيراً ما كان الأولاد الذين يكبروننا قليلاً يتكلّمون على أن هناك طرق يستطيع المرء بواسطتها معرفة قدره ومصيره. فكيف يمكن القيام بذلك؟ إنه لأمر بسيط جداً. ما عليك إلاّ

الذهاب ليلاً إلى بناءٍ قائمٍ في مكان منعزلٍ وبالضرورة خارج حدود القرية. وقد تكون حمّامات القرية مكاناً مناسباً لأنها بنيت خارجها وهي معزولة عن البيوت والأكواخ بالحدائق. ومن الضروري أن يكون الليل مدلهماً حالك الظلمة، وإذا كانت السماء تنذر بمطر فذلك أفضل.

كما يجب أن تأخذ معك قنديلاً ومرآة، ولا بأس أن تكون قطعة من واحدة مكسورة. وينبغي، والحال هذه، أن تضع المرآة بشكل ينعكس فيها باب البناء مفتوحاً على أن تنظر فيها في الآن نفسه.

وفي منتصف الليل تماماً سيظهر أمامك شبح فتاة إذا كنت ولداً أو شبح شاب إذا كان الناظر في المرآة بنت. وباختصار، هناك سيتبدّى لك كل ما هو مكتوب لك أو عليك.

وكان الأمر يتطلّب شجاعة وقدرة على التحمّل كبيرتين، كي يعرف المرء مصيره بهذه الطريقة، ولذلك لم يكن يخوض المغامرة إلاّ من أوتي الشجاعة الكافية.

ولم يكن الصِّبْيَةُ في عمر السابعة حتى التاسعة يرهقون أنفسهم بالسؤال حول ما إذا تسنّى لأحدٍ ما في وقت ما رؤية مُراده. وهكذا فقد عقدت وابن عمّي أرتيمكا اتفاقاً بأن نؤمن بالأمر كما هو وكما يجري عليه الكلام. وقطعنا وعداً متبادلاً أنه إذا قُدِّر لأحدنا الجلوس في الحمّام، فعليه أن يُمسك عن الفرار ومعه العار. وعلى الرغم من أن حمّام بيت جدّنا كان بدائياً، إلاّ أنه كان حمّاماً والسلام!

ولتنفيذ «خطتنا الستراتيجية» اقتضى الأمر حلَّ بعض المسائل «المفصلية». فقد كان علينا أن نقرر، أولاً، من منّا سيذهب إلى الحمّام

ليواجه المرآة ومن سيكون مختبئاً في الأكمة بانتظار النتائج. وكانت القرعة طريقة مُجَرَّبَة للتقرير.

واتفقنا على ذلك. ووقعت القرعة علي لأكون ذلك المقدام (ولعلني لحظتذاك بدوتُ كمن انطبق عليه قول صديق پوشكين، الديسيمبري إيڤان پوشين: «نصف روسيا يسير نحو الموت في إذعانه للقرعة»). وأصيب أرتيمكا أيضاً بالحزن بعض الشيء، ولكن بقي عليه أن يتولّى تنفيذ الشق الثاني من العملية.

وكان علينا، ثانياً، أن نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة ما لن يكون حدوثه في الحسبان، كأن ترافق الرؤيا روح شريرة. فقرّ رأينا على أن يسرع أرتيمكا لمساعدتي إذا شعر أن شيئاً ما غير طبيعي يحدث. حسناً، ولكن ما هي الوسائل التي سنستعملها للدفاع؟ ذلك أنه لم يكن لدينا أيّ سلاح، كما لا يوجد في البيت أيضاً أي سلاح. واتخذنا قراراً بأن نأخذ أداة حديدية حادة من المخزن دون أن يتنبّه أحد. وتمكنّا من تنفيذ هذه «العملية» بوجه كامل.

وهكذا اختفى أرتيمكا في الأجمة ومعه «السلاح الأبيض»، فيما تموقعت أنا في الحمام بمواجهة المرآة، والقنديل مضيء. ولم يكن لدينا ساعة لمعرفة الوقت، ولذا فقد قرّرنا إطالة الانتظار قدر الاستطاعة وكي لا نخرج من المواقع قبل حلول منتصف الليل.

وطال انتظاري. ران صمت مطلق، فلم تكن لتسمع أي صوت، وتبيّن أنه حتى الكلاب في القرية تنام نوماً عميقاً في مثل هذا الوقت. واعتراني شعور بأن كلّ عفاريت العالم ترقبني عبر ثقوب ما. أما الشيء الوحيد الذي كان يجعلني أصمد في الحمام فتلك الكلمة التي قطعتها لابن عمي.

فقد كنت أدرك أنني إذا تركت موقعي الخطير فسيعلم الجميع وسيلحق بي عار كبير، فإذن لم يكن من الجائز أن أتراجع.

وبعد مضي بعض الوقت، قرَّر أرتيمكا أن موعد ظهور الرؤيا قد فات، وأن عليه رؤية صديقه وابن عمه. وكان ضوء القنديل قد خفت عندما تناهى إليَّ صوت ضعيف يناديني:

– أندريه، هل أنت حي؟

وأسرعت في انتزاع المرآة والخروج من الظلمة الحالكة. كان شعور قوي بالخيبة يكتسحنا، ولكن ثمة في أعماقي شعوراً آخر يتحرَّك: أليس جيداً أنه لم تحدث مصيبة في الحمام، وأنني خرجت من بين كل العفاريت ولم يمسني سوء أو حتى خدش واحد. غير أنني لم أعرب لابن عمي عن هذا الشعور وآثرت الاحتفاظ بالمعاناة لنفسي. ثم ما لبثنا أن افترقنا كلٌّ إلى بيته عند الفجر.

وكانت عائلتانا اعتادتا أن باستطاعة كلينا قضاء الليل عند الآخر، وهذه المرة لم تكن استثناء. فقد ظنَّ أهلي أنني قضيت الليل عند عائلة أرتيمكا، فيما ظنَّ أهله أنه قضى الليل عندنا؛ لذا تمكنَّا من الاحتفاظ بسرنا لبعض الوقت، سيَّما وأنه لم يكن لدينا شيء يمكننا الافتخار به بوجه خاص. ولكن والدينا علموا بالأمر بعد حين، إلاَّ أنهم لم يعاقبونا على فعلتنا نظراً لمرور الزمن!. والجدير بالذكر أن الكبار لم يكونوا يشددون كثيراً علينا في هذه الأمور.

ثم إن الكثيرين كانوا يؤمنون بمختلف أنواع الظاهرات الخارقة للطبيعة رغم كونها غير ذات أهمية عملية. كان الناس يحصِّلون عيشهم بالعمل المضني، أضف إلى ذلك أن الأراضي لم تكن خصبة وقليلة الغلال. فليس

من الغريب أن يرووا لبعضهم الحكايات المثيرة المفعمة بالأسرار والتشويق بقصد الترويح عن النفس.

وبشكل عام، لم تكن حياة سكان الريف تخلو من الأساطير المترعة بعناصر الابهام. وليس واضحاً ما هو الأكثر في هذه الأساطير: أهي المبالغة في تضخيم العنصر الخارق للطبيعة، أم هو ببساطة ذلك الاختلاق الجميل الذي حاول الفتيان والفتيات عبره إيجاد متنفَّس لخيالهم؟

وقد سادت في بيئتنا أيضاً العادة التالية: تجتمع الفتيات في أحواش البيوت في يوم محدَّد من كل عام، وأظن أنه قبيل عيد الميلاد. وكُنَّ يرمين بأحذيتهن فوق عتبات الأبواب ثم ينظرن في الاتجاه الذي وقعت فيه أطرافها الأمامية.. ففي هذا الاتجاه يجب التفتيش عن المكتوب وعن المصير. وقد لاحظ مؤسِّس الشعر الغنائي الكلاسيكي، الشاعر الروسي العظيم ڤاسيلي أندرييڤيتش جوكوڤسكي، وجود مثل هذا التقليد في ستاري غروميكي فصوَّره في الأبيات الأولى من غنائيته الرائعة «سڤيتلانا».

مرةً، في أمسية قارسة البرد،
رمت الفتيات بأحذيتهن،
عبر الأبواب...
رجاءً بالغيب.

وعندما تعلَّمت القراءة، كنت غالباً ما أصطحب كتاباً، في الفترات الفاصلة بين ساعات العمل، وأذهب إلى الحقل أو الغابة لأستلقي على الأعشاب ولأحلم. وكان يحدث ذلك عندما لا يكون دوام في المدرسة. كنت أحلم وأسائل نفسي:

ـ ما هي النجوم؟ لماذا تضيء ليلاً؟ ولماذا يُعتقد أن الرب يعيش في السماء؟ ومن رآه؟

وكنت أجيب نفسي:

ـ ولكن أحداً من الذين أعرفهم لم يره.

وكنت أطرح هذا السؤال الحسَّاس على الجدَّة مارفا:

ـ من رأى الرب؟

فكانت تجيب:

ـ إن الإنسان لا يستطيع رؤية الرب.

وعندها اطرح سؤالاً آخر:

ـ فكيف يمكن، إذن، الحديث عن الرب ولم يره أحد؟

فتجيب ببساطة:

ـ ستعرف كل شيء، عمّا قريب ستشيخ.

وبذا كانت تصدر الإشارة أن باب الحديث عن الرب قد أُقفل.

وكانت الأجوبة نفسها تقريباً تصدر عن الكبار الآخرين، ولكن كلّما كان الـمُجيب شاباً كلّما كان صدره أرحب لهذه الأسئلة الطفولية. وكان بعضهم يعلن أن الإنسان لم يُعْطَ المعرفة كلها عن الرب، وأنه أي الرب تدبّر الأمور على هذا النحو.

وكان لأحد جيراننا المقربين، ميخائيل شيليوتوف، وجهة نظر متحررة، إذ كان يعلن لنا، نحن اليافعين، وللكبار بحكمة رحبة:

ـ وجود الرب مسألة تحت الشك، وكثير من العلماء لا يؤمن بوجوده.

وفي أكثر الأحيان كان ميخائيل يفترش مصطبة كوخ ما ويجاذب

الرجال والفتيان أطراف الحديث عن «المواد العليا»، كالشمس والقمر والنجوم، وكذلك عن البلدان البحرية. وكان الجميع ينصتون إليه باهتمام بالغ ويعرفون أنه قرأ كثيراً رغم كونه لم يتلقَّ علوماً. ولكن الواضح أن رحلاته العديدة وتجواله في المدن البعيدة ـ حيث كان يعمل فيطيل الإقامة ـ أعطته إمكانية توسيع آفاقه والتعرُّف على ثقافات وأمور شيقة عديدة.

وكان الأولاد يسألونه دائماً:

ـ أيها العم ميخائيل، من أين لك كل هذه المعارف؟

ويأتي جوابه مرحا:

ـ أنا أعرف القراءة.

وكنت أشعر حياله باحترام كبير. ولعلّ تحت تأثيره هو بالذات قررت وابن جيراننا ڤاسيا، الذي كان يكبرني بعام، بحزم، أن نقرأ كل الكتب الموجودة في المكتبات التي يمكننا الوصول إليها. وبالطبع لم نقرأ كل ما في المكتبات من كتب، بيد أننا ابتلعنا ما توفر دون أن نستوعب مضامينها بالكامل.

وقد يكون من الصعب على من نشأ في ظروف مغايرة أن يصدّق مدى ذلك التأثير الهائل الذي تركته فينا، ونحن بعد أطفال، مطالعة الكتب والمسامرات مع الأشخاص الذين اغتنوا بتجارب الحياة وأصابوا منها الحكمة. وأحياناً لا يبذل الناضجون كبير انتباه إلى السرعة التي يستوعب بها الصغار ما يقوله الكبار، ولكن الأمر الرئيسي لا يكمن في هذا، بل في تيقّظ الوعي الذاتي عندهم، هذا إذا لم نتكلّم على الشبّان حتى قبل أن يبدأوا بسماع محاضرات معلّميهم وأساتذتهم بوقت طويل.

وبدأت بالتعرّف على الأدب الإلحادي مذ كان عمري تسعة أعوام تقريباً، حيث بدأت تصدر مطبوعات في هذا الموضوع إثر انتصار الثورة، وتحديداً بعد سنتين. وكان الحصول عليها ليس بالأمر السهل لأنها نادراً ما كانت تصل قريتنا.. كان بالإمكان العثور عليها في المكتبات المركزية.

ومع ذلك فقد وعيت وأصدقائي مفاهيم الإلحاد على نحو بدائي وبسيط، بالقدر الذي تسمح السّن باستيعابه. وحتى العائلة التي نشأت فيها ـ وكانت في الماضي عائلة متديّنة ـ انشقّت حيال هذه المسألة بحسب الأعمار.

وبقي جدّي وجدّتي مؤمنين بطبيعة الحال، وأما أولادهما، في العادة، فلم يقيموا الصلوات بل اكتفوا برسم إشارة الصليب عند جلوسهم إلى المائدة، ثم ما لبثوا أن نسوا حتى هذا التقليد بالتدريج.

أما الجيل الثالث، وهو جيلي، فلم يعتد رسم الصليب باستثناء مرة واحدة في يوم عيد الفصح. فقد كان يعجبنا أن ندخل الكنيسة لحضور القدّاس والاستماع إلى الكورس وهو يرتّل التراتيل الجميلة. من ذا الذي كان يعثر على أشخاص يتميّزون بأصواتهم الرائعة؟!

وما كان يجذب الفتية إلى الكنيسة أنهم خلال المناولة كانوا يُعطَوْنَ قليلاً من ذلك الكاغور(*) اللذيذ الطعم، الحلو المذاق، الأشبه بعقار شافٍ. والحقيقة أنهم طالما اعتبروا الراهب ڤاسيلي ڤولتوڤسكي شخصاً بخيلاً، لأنه كان يحمل ملعقة شاي غير مملوءة. وكان الفتية يتغامزون:

(*) نوع من الخمور يُقدّم أثناء المناولة في الكنائس الروسية ـ . (المترجم).

ـ هذا الكاهن البخيل، لعلّ الشيطان يدعمه.

وكانت للراهب هذا ـ الذي يناديه الناس الأب ـ عائلة مكوّنة من امرأته وابنتين من عمرنا. وكنا نجتمع، نحن الأولاد، قرب الكنيسة ونطلق العنان لأفكارنا حول كيفية جعله «يدفع» ثمن شحّه. وقد اقترح مرة جاري إيڤان قائلا:

ـ فلنحفر له حفرة وراء الكنيسة، هناك في الطريق الذي يسلكه، حتى يقع فيها.

ولكني عارضته بقولي:

ـ وماذا سيقول والدك؟ ثم ماذا لو وقع فيها أحد غيره، فقد تكون زوجته أو ربما ابنتاه.

وبدا أنني لم أستطع إقناعه، فقال بإصرار:

ـ كما تريدون، أما أنا فسأحفرها وحدي. سآتي إلى هنا في الليل ومعي رفش.

يومها افترقنا وكان ما كان.. وكنّا نتساءل: أيُقْدِم إيڤان على ما وعد به أم أن الشجاعة لن تسعفه؟

وفي تلك الليلة لم أذق طعم النوم. وكنت أتقلّب في الفراش على جنبيّ مفتوح العينين في العتمة وأنا أفكر: ها هو إيڤان الحازم يحفر حفرة عميقة. وها هو يتسرّق عائداً إلى البيت بعد إنجاز فعلته. وها هو أبونا يسير على الطريق مأخوذاً بنعاسه.. ثم، فجأة يقع في الحفرة.

وما أن طلع الصبح حتى أسرعت بالنهوض وخرجت من البيت لأعبر

الفناء والبوابة. نظرت فوجدت الصحاب ينتظرونني.. وبدا أنهم أيضاً لم يَغْفُ لهم جفن.

وانطلقنا جماعةً نعدو باتجاه الكنيسة لنشهد «الأعظم»، مفترضين أن الراهب واقع في الحفرة ويطلق عقيرته بالصياح طالباً المساعدة. وصلنا وداهمنا سكون مطبق، فكل شيء يسوده هدوء وسلام. لم يتغيَّر شيء منذ يوم البارحة.

وأصبح جلياً أن المقدام إيفان لم يحزم أمره، وخشي أن يحمّل نفسه خطيئة معاقبة الراهب...

لينين ومساعدوه

... أوكتوبر سنة ١٩١٧. انتشر خبر الثورة بسرعة البرق.

كان الفلاحون في قريتنا يقولون:

ـ استولى العمّال على زمام السلطة. علينا نحن أيضاً السير في طريقهم. دنت ساعة الاقطاعيين، «كابوت»(*) للإقطاعيين.

ولم يكن الصبيان يفهمون معنى الكثير من الألفاظ والكلمات. فما هي «السلطة»؟ مثلاً. وأخذ الكبار على عاتقهم مسؤولية الشرح والتفسير. وكيف يكون «السير في طريق العمال»؟ أيعني ذلك حقاً أن يتأبَّط جدي ماتڤي ذراع ميخائيل شيليوتوف ـ الذي جسَّد بالنسبة إليَّ نموذج الإنسان الشغيل ـ فيسيرا معاً في طريق واحدة؟ بيد أننا كنا نعرف تماماً ماذا تعني كلمة «كابوت»: فقد كانت الحرب على أشدِّها والألمان على بُعدٍ يسير

(*) «كابوت»: كلمة ألمانية تعني الهزيمة أو السقوط ـ (المترجم).

منا يتحادثون، فكان أن تعلَّمنا منهم بعض الكلمات الألمانية، فسارت على ألسنتنا في الحياة اليومية.

وورد من پتروغراد نبأ مفاده أن «لينين ومساعديه» يقودون الثورة.

وهكذا، سمعت لأول مرة باسم لينين، وظلَّ بعدئذٍ وطوال حياتي مضيئاً في قلبي كأحلى ذكريات الطفولة. وكان لينين ومساعدوه، الذين تزعَّموا الثورة، يذكِّرونني بالنبلاء الأثرياء الطيبين، الذين كانوا يخوضون المعارك ضد العدو دائماً في الوقت المناسب، ودائماً يحقِّقون نصراً محتماً.

وإثر قيام الثورة مباشرة بدأت قريتنا تشهد تغيُّرات ملموسة تجسَّدت في أننا لم نعد نسمع جرس ثكنة الشرطة، الذي كان الفلاحون يخافونه بحكم التقليد القديم، فقد نظروا إليه دائماً وكأنه غول. كما اختفى أيضاً رجال «الأوريادنيك»(*)، الذين كان سكان القرى يخشون سطوتهم رغم أنهم كانوا يتبادلون معهم الأحاديث وأحياناً يجادلونهم.

إلاّ أن الرعب الأكبر الذي سكن منذ القدم قلوب الفلاحين تمثَّل دائماً بالقيصر. ولذا، فقد كان المرء يسمع أحياناً بعد الثورة من يقول من الفلاحين رغم التحوُّلات العميقة في النظام والبنى:

ـ ماذا سيحدث لنا إذا ما عاد القيصر؟

كان ذلك تعبيراً عن الرعب القديم.

وسرعان ما جاءت مرحلة معقدة وصعبة في حياة قريتنا.. إنه

(*) أوريادنيك: الشرطة القيصرية في المناطق الريفية ـ (المترجم).

الاحتلال الألماني يعقبه التحرير، ثم فترة زمنية غير قصيرة تصرَّمت قبل أن تتوطَّد السلطة السوڤياتية.

المحتلّون القيصريون (*) يعيثون فساداً

في أوائل عام ١٩١٨ احتلت القوات الألمانية المناطق الغربية من البلاد، بما فيها منطقة غوميلْشينا. خرجوا لنا من تحت الأرض. فقد كانت تتحرك قطعات الجيش القيصري (*) نحو الشرق الواحدة تلو الأخرى. وتحقَّقت التوقعات المخيفة التي هجس بها الشعب لدى تلقيه النبأ الأول عن الحرب مع ألمانيا.

جاء المعتدي بالسلاح مستعبداً، ولم يستطع منعه من التقدُّم إلاَّ اتفاق بريست للسلام (آذار/ مارس ١٩١٨)، الذي يُعتبر إحدى خطوات لينين السياسية العبقرية. وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق كان عبئاً ثقيلاً رزحت تحته الجمهورية السوڤياتية، إلا أنه لم يمسّ المكتسبات الجذرية لثورة أوكتوبر، الأمر الذي كان يشكِّل حاجة ضرورية للبلاد.

خرجت الجمهورية السوڤياتية من الحرب الامبريالية وحصلت على فرصة تلتقط أثناءها أنفاسها ولتتصدَّى لحلِّ المشكلات الداخلية المعقَّدة ولبناء الجيش الأحمر. ولم يمض إلاَّ ثمانية أشهر حتى أسقطت الثورة في ألمانيا سلطة الإمبراطور ڤيلهيلم الثاني. وفي الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ألغت الحكومة السوڤياتية اتفاق بريست. كان ذلك نصراً للموقف اللينيني، بل لبعد النظر والتنبؤ اللينينيَّيْن.

(*) المقصود الجيش الألماني - (المترجم).

عندما اندفع جند القيصر نحو الشرق، لم يكونوا يمشون بل إنهم خطوا بخطوات عسكرية واثقة. ثم آن أوان الانسحاب غرباً فكنت تراهم يتراكضون يجرُّون وراءهم أذيال العار. وخلال احتلالهم لأرضنا وانسحابهم منها عاث المعتدون فيها فساداً. نهبوا المدن والقرى، وساقوا قطعان الماشية وشحنوها على القطارات المتَّجهة إلى ألمانيا، وصادروا الخيول من الفلاحين لتجرَّ العربات المحمَّلة بالجنود. وممَّا اقترفوه أنهم أوسعوا جارنا ضرباً حتى كاد أن يموت، لأنه لم يخبرهم اسم مالك حصان حاولوا الإمساك به فلم يفلحوا. وبشكل عام كانوا يضربون أو يقتلون كلَّ من سوَّلت له نفسه مقاومة النهب والسلب والسرقة. هذا ما حدث في قريتنا وفي القرى المجاورة.

ففي ستاريي غروميكي عرَّجوا على كل حظائر الأكواخ والبيوت وساقوا أبقار الفلاحين.

وإني لأذكر الآن بوضوح تام كيف عمد ثلاثة من الجنود المسلحين إلى إخراج بقرتنا. وكان والدي وشقيقاه نيقولاي وإيڤان في الغابة، فلم نعوِّل على مساعدتهم، ولم يكن في البيت من الكبار إلاَّ الجدُّ ماتڤي، فما كان منه إلاَّ أن هجم عليهم محاولاً استعادة البقرة بشجاعة وغليان شديد. وصوَّب أحد الثلاثة بندقيته نحو جدي، وفي هذه اللحظة تعثَّرت البقرة بالحبل المشدود إلى رقبتها فوقعت أرضاً. وكانت الدقائق القليلة التي استغرقتها الدهشة الممتزجة بالذهول كافية بالنسبة إلينا جميعاً (نساء وأطفالاً بمن فيهم أنا، وكان عمري آنذاك تسعة أعوام، ومعنا شقيقتي ذات الأعوام السبعة) كي نهرع ونتعلّق بيدي جدي منعاً له من مقاومة غير مجدية.

أذكر كيف كانت معاناة جدي عميقة لأن المحتلين أخذوا البقرة،

ويمكن القول إنه بعد هذه الحادثة لم يستطع إيجاد مكان لنفسه لما سبّبته له من إحراج. كان شخصاً صبوراً بطبيعته ويتميّز باتزان ولياقة داخلية عميقة. ولا أستطيع تذكُّر أنه تفوّه ولو مرة واحدة بتلك الألفاظ الفلاّحية الصلفة، الثقيلة الوقع. كان جدي يقول حين يحتدم أو يحنق:

- ماذا يريد هذا الألماني الملعون؟ لماذا ساق البقرة الوحيدة؟ لقد حرم الأطفال من الحليب.

وخرجت نساء القرية، بمن فيهم أمي، إلى ظاهر القرية لينظرن طويلاً إلى الناحية التي غاب وراءها النهّابون، يحدوهنّ الأمل في أن يفيئوا إلى أنفسهم فجأة، ويعيدوا الأبقار.. ولكنها، أي الأبقار، لم تعد. وخلت حظيرتنا من البقرة التي اعتدت وشقيقتي أن نشرب حليبها صباح كل يوم.

وفي صباح يوم من الأيام استفاق أهل القرية وقد غابت ستاريي غروميكي في غلالة من الدخان، وتبين أن الهواء حمله من قرية كبيرة جداً اسمها بيريلوڤكا تبعد عن قريتنا حوالى ثلاثين كيلومتراً. كانت بيريلوڤكا تشتعل، وأتت عليها النيران بالكامل. كان ذلك الثمن الذي دفعته القرية وغيرها الكثير من القرى والضياع انتقاماً رد به المحتلّون على عجز محاولاتهم للقبض على الأنصار المقاومين وتصفية حركتهم.

كان الغيظ والكراهية نحو النهّابين والقتلة عظيمين إلى حدّ أن الأولاد كانوا يشكّلون مجموعات صغيرة، على غرار ما فعله الكبار، ويخرجون إلى تخوم الغابة. وكانت تلك ظاهرة تلقائية عفوية لم يكن للكبار أي ضلع في تنظيمها. والحقيقة أن الأهالي كانوا يفتشون عن أولادهم ويوقعون عليهم العقاب المخفّف، نظراً لشيوع مناخ عام مفهوم.

ولقد شاركت في تشكيل إحدى هذه المجموعات. كنا نختفي بين سيقان الجودار وفي الشجيرات. وفي إحدى المرات، وبينما نحن مختبئون وسط حقل كبير من الجودار، ظهر فصيل من فرسان الأعداء فاكتشفونا لكوننا أطول من الزرع. وتوقف الفصيل، وقرّرنا أننا أشرفنا على نهايتنا، إذ لم يكن بحوزة أحد منا بندقية أو مسدس، واقتصر سلاحنا على بضع سكاكين صغيرة حملها بعضنا. وتقدم فارس منهم نحونا ثم... ما لبث أن استدار وعاد أدراجه. ولعله قام بحركة استكشاف عاد على أثرها إلى الضابط ينبئه بالوضع «الستراتيجي». وأكمل الفرسان طريقهم متجهين إلى القرية الكبيرة جيليزنيكي.

ولقد شهدت منطقتنا، قبل سقوطها في أيدي المحتلين، حركة نزوح لسكان المناطق الغربية نحو الشرق هرباً من الألمان، فكانوا يعبرون خراج قريتنا. واستمر الوضع على هذا النحو بضعة أسابيع. وكان النازحون بمعظمهم من البولونيين والبيلوروس القاطنين في الأراضي التابعة آنذاك لبولندة. ولم يكونوا يتقنون التكلّم بالروسية، ولكن السكان تفاهموا معهم وأحسنوا معاملتهم، وبادلوهم المنتجات الغذائية ببعض مقتنياتهم. ومع تراجع الجيوش الألمانية باتجاه الغرب عاد هؤلاء إلى أرضهم.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ طُهّرت غوميليشينا من الاحتلال الألماني نهائياً.

وفي المراجع التاريخية الغربية التي تناولت أحداث هذه المرحلة ثمة محاولات للتعتيم على الجرائم الدموية التي ارتكبها جند القيصرية الألمانية على الأراضي السوڤياتية، ولكن الحقائق والوقائع تدحض «تزيين» سلوك المحتلين. الذين لم يبزهم في جرائمهم إلاّ الهتلريّون.

واستقرت في أعماق وعيي مُذّاك فكرة أن الحرب بين الدول شر عظيم، وأن الألماني الذي هجم على بلادنا عدو. فما له وأرضنا، ولماذا يريد قتل الروس؟ وكنا، نحن الأولاد، نختلق اللعب فيأخذ بعضنا، دور المحتلين فيما بعضنا الآخر يجسِّد الروس. وكان «استراتيجيُّونا» يحرصون على تنظيم «العمليات الحربية» على نحو ينتصر فيه الروس دائماً تقريباً.

وأيّ صبي من صبيان تلك السنوات لم يحب اللعب بـ «الحرب»؟ وكانت دائماً تجري عملية الإعداد نفسها قبل بدء اللعبة، إذ كان المشاركون يتسابقون في اختطاف أسماء القادة العسكريين. وكانت العملية سريعة حازمة وبتصايح:

- أنا سوڤوروڤ!
- أنا پوتيمكين!
- أنا ألكسندر نيڤسكي!
- أما أنا فديمتري دونسكوي!

أما أسماء الذين قاتلهم هؤلاء الأبطال فلم تكن معروفة لنا دائماً. ثم يصيح أحدنا:

- وأنا كوتوزوف!

عندئذٍ سرعان ما كان ينطرح السؤال:
- ومن سيلعب نابليون؟

ولم يكن أحد يريد لعب دور ناپليون. فمن حكايات الكبار ومن خلال الكتب كنّا نعرف أنه محتل، فضلاً عن أنه حرق موسكو. وهكذا يسقط اسم كوتوزوف لسبب بسيط جداً:

- ليس هناك ناپليون، يعني لن تكون كوتوزوف.

كما لم يرد أحد أيضاً لعب دور جنكيزخان وباتيخان.

ولست أدري لماذا كنت دائماً أصرخ:
- أنا روميانتسيڤ!

كانت تعتريني رغبة شديدة في أن أهزم الأتراك، ولهذا كنت أحجز الاسم لنفسي سريعاً قبل أن يسبقني إليه أحد، فهو اسم لم أرد التنازل عنه لأحد أبداً.

ولو سُئلت أيامذاك من هو روميانتسيڤ لما كنت أعطيت جواباً شافياً، وجل ما عرفته أنه قائد عسكري قاتل الأتراك.

ومع ذلك فقد كنت أبذل جهداً عظيماً في الصياح كي يسمع الجميع:
- أمّا أنا فرُّو - رُّو - رُّوميانتسيڤ!

لعلّ ما كان يعجبني هو أوّل الاسم مشدَّداً وذا وقع على الأسماع. كان يذكّرني بألوان ما نضج من ثمر الكرز والخوخ، وبدا أنه قريب جداً من كل ما أحاط ببيتنا، متوائم مع القيقب ذي الأوراق الحمر والغابة الخريفية قرمزية اللون.

ولم يكن سهلاً الاتفاق على العدو وقادته، وما أكثر ما تولّد من المشادات.. ورغم كل شيء كانت اللعبة تجري.

وجاء الخريف ففتحت المدرسة أبوابها. وفصل الشتاء ليس بالوقت المناسب للعب لعبة الحرب. ويمرّ عام فيتغيّر الأولاد وتتغيّر أحلامهم الطفولية فكأنَ صفوها يتكدّر، ثم ما تلبث أن تتساقط من تلقاء نفسها.

وكنا حينما يأتي الربيع مرة أخرى ننادي بعضنا بأسماء القادة، بيد أن حماس الربيع المنصرم قد شابَهُ الفتور.. لقد كبرنا.

أين أنتم يا سوڤوروڤيّي طفولتي؟ أعرف أنكم حملتم في تلك السنة البائسة بين أيديكم سلاحاً حقيقياً، ولم يعد منكم أحد، تقريباً، إلى قريتنا الحبيبة من ساحات الحرب الوطنية العظمى (*)... وقبوركم منثورة في أربع أرجاء البلاد وخارج حدودها.. ولكن قد تكون أسماء عائلاتكم الحقيقية محفورة على الشواهد الرخامية المرفوعة فوق قبوركم في مكان ما..

واجتاح الجذل ناحيتنا بعد أن تمّ تطهيرها من القوات الألمانية في السنوات الأولى التي أعقبت انتصار الثورة، وبدأت مؤسّسات السلطة السوڤياتية تتوطّد في أنحائها. وللحقيقة أشير إلى أنه كان في ذلك الوقت بعض عصابات قطاع الطرق والنهب، جعلت من الغابات المحيطة مستقراً لها، وكان الأهالي يطلقون عليهم أحياناً اسم «الخضر»، وفي أكثر الأحيان لم يعطوهم اسماً. والواقع أن معظم هؤلاء لم يعثر على مكان في الحياة السلمية فآثر امتهان النهب والسرقة. ولم يكن باستطاعة السكان توجيه ضربة إليهم لعدم وجود السلاح في أيديهم، بيد أن هذه الظاهرة لم تستمر طويلاً.

وبدأت السياسة الاقتصادية الداخلية للسلطة السوڤياتية تتحسّن بالتدريج، فبرز اهتمام الفلاحين لإرساء تطوير الإنتاج الزراعي. فمن الحوافز الخاصة التي طبقت في هذا السياق إلغاء نظام تسليم المواد الغذائية

(*) يقصد المؤلف الحرب العالمية الثانية، ويطلق السوڤيات عليها اسم الحرب الوطنية العظمى، نظراً لما عاناه الشعب بمختلف قومياته من مآسٍ وتضحيات في مقاومته للعدوان الهتلري ـ (المترجم).

الإلزامي وإحلال نظام ضريبة المواد الغذائية محله. وكان لهذه الفكرة اللينينية أثر فعّال بين الفلاّحين.

وأذكر هنا الحادثة التالية: ففي أحد المهرجانات القروية وقف خطيب في الناس ليشرح لهم سياسة السلطة الجديدة وليعطيهم فكرة عامة عمّا هي عليه نظرية ماركس ولينين التي تقوم عليها تلك السياسة.

وأذكر أن الخطيب حاول تقديم الموضوع بلغة يتمكن الجميع من فهمها:

ـ في سياق صياغته لمذهبه على أساس من الفكر الطليعي، استخدم ماركس إنجازات العلماء الآخرين على نحو انتقادي وأفاد منها، ومن بين هؤلاء العلماء هيغل بوجه خاص. فقد أخذ ماركس عنه كل ما هو جيد، أي أنه أخذ من مذهبه البذرة الصالحة، وما عدا ذلك فقد تركه.

وبدا للخطيب أن كل شيء كان واضحاً. وبعد انتهائه قال:

ـ هل ثمة أسئلة؟ هل كل شيء مفهوم؟

ووقف أحد الفلاحين، وكان شخصاً مرحاً شبه أمي، لم يسمع من قبل باسم هيغل:

ـ هل لي أن أطرح سؤالاً؟

وبالطبع فقد أذن له بالكلام، ولكنه سرعان ما تحوّل سؤاله إلى شبه إعلان أو بيان. قال الفلاح:

ـ ها أنت تقول إن ماركس أخذ عن هيغل البذرة الصالحة، ولم يأخذ

أي شيء آخر؛ ولكنهم منذ أيام أخذوا كل البذار حتى لم يبق منه لدينا شيء للزرع.

وهكذا، كان على الخطيب أن يعيد شرح الاختلاف بين آراء ماركس وهيغل الفلسفية. وأما في ما يتعلق بكلام الفلاح فكانت تكمن وراءه حقيقة بسيطة: فخلال عملية تطبيق نظام تسليم المواد الغذائية الإلزامي، كان يُسمح للفلاح باستبقاء نزر من الحبوب يقيم به أوده ويحتفظ ببعضه ليزرع في الموسم المقبل، ويبدو أنه في ذلك العام لم يُسمح له بذلك.

هكذا كان الوضع قبل اعتماد نظام ضريبة المواد الغذائية. بعد ذلك أصبح الفلاح يعرف ماذا وكم عليه أن يقدمه إلى الدولة وماذا سيبقى في مزرعته. وهكذا أيضاً أصبح واثقاً من أن السلطة الجديدة تحترم مصالحه، الأمر الذي لم يستطع إلاّ أن ينعكس إيجاباً على إنتاجية العمل الزراعي، وفي الوقت نفسه انفتحت أمام الدولة آفاق وفرص جديدة لإمداد المدن والطبقة العاملة بالمواد الغذائية.

«الجامعات الليلية»

وبغير ما انتباه يتكوّن العالم الروحي والخلقي للإنسان، مع كل شهقة هواء وفي حنايا أغنيات الأمهات المهدهدة في زمن الطفولة، وفيما بعد تحت تأثير الحكايات والأقاصيص والأساطير والأغنيات الشعبية الجميلة والحزينة، التي لا يعرف المرء في أيٍّ من أعماق التاريخ تولّدت.

وماذا عن التاريخ ووقائع سير الشخصيات العظيمة التي لم تبخل بحياتها في الدفاع عن الوطن؟

وماذا عن تلك الآثار القديمة، التي لا تقدَّر بثمن، حتى ولو كانت مجرد ركام يشغل بال علماء الآثار؟

وماذا عن المنقوشات الحجرية والكاتدرائيات القديمة وأبراج الساعات والأيقونات والكتب والمخطوطات، وحتى الأشياء الصغيرة القديمة الثاوية في باطن الأرض منذ قرون، ومنذ قرون كانت تلمسها أيدي أجدادنا الأبعدين؟

وهذا كله، ألا يحفر في نفس كل طفل ويافع وراشد ليبقى فيها مدى الحياة؟

وقد يكون أدبنا، وخصوصاً الفني الأبداعي، مقصّراً في الإفادة من خزائن تاريخنا الثرية، المكتنزة بلا حدود بأشياء لا يمكن وضع ثمن لها أو قيمة! أوَليس أنه لا مناص من استثمار ذلك الطيف الواسع الرحب من الأدوات والوسائل المؤثرة في نفس الإنسان وروحه ومشاعره، عندما يُراد تربية نشء وطني الهوى والروح؟

فمجلدات التاريخ، كأدب الإبداع الفني المكرّس لأحداث التاريخ، وكذلك الكتب التي خطّتها أقلام الكتّاب النابهين والمسكونة بأبطال الشعب؛ هذه كلها ستثير القرّاء وتوقظ فيهم مشاعر الحب والكره وتُغني تصوّراتهم حول الخير والشر، حول الحب والحقد، حول الحقيقة والزيف. تلك كلها أمور ستهذّب في الإنسان حسّ الولاء للوطن، الحس الذي حرك في سنوات الحرب ملايين المواطنين للدفاع عن الشعب وعن الأرض والغابات والمدن والقرى والضياع التي بنتها سواعد الآباء والأجداد.

إن شعور الوطنية يولد مع بداية حياة كل فرد، بل حالما تبدأ حياته، ومن هنا ارتباطه العميق ببيته حيث ولد ولفظ كلمته الأولى؛ ومن هنا علاقاته الوطيدة بالأهل والأقارب، ومن هنا ولاؤه لمدينته ودسكرته وقريته التي تبقى في ذاكرته على مرِّ الزمن.. وتلك التلال والأنهار التي

نشأت فوقها وعلى ضفافها. كل ذلك بمجمله يكوِّن الحب للوطن.

ونحن اليوم حين نقول الوطنية إنما نردف، وبحق، هذه الكلمة المقدسة بكلمة أخرى هي «سوڤياتي». إنها تعبِّر عن الولاء لكل قيم مجتمعنا الاشتراكي: وهي لا تنفصل في هذا المجتمع بالذات عن حب الوطن والتعلّق بالحرية، كما لا تنفصل عن احتقارنا لاستغلال الإنسان للإنسان ولنموذج ذلك المجتمع الذي يمثّل الرأسمال فيه السيد المطلق.

ومن المشروع طرح السؤال التالي: وكيف تسنّى لي ملاحظة كل ذلك في نعومة أظفاري، وكيف أمكن لي أن أتشرَّب كل ذلك من العالم المحيط بي فيؤثر فيَ وفي تشكّل آرائي حوله وفي التزاماتي اللاحقة؟ وإذا مُنحت حق الإجابة لقلت: إن كل ذلك وَلّدَ الفضول والعطش نحو المعرفة والنزوع إلى معاملة الناس بالخير وخدمة الوطن. كان هذا الشعور لدي قوياً جداً، حتى أنني لطالما حلمت أن أكون في عداد الجيش الروسي المدافع عن حياض الوطن ضد هجمات المعتدين من منغول وتتار وسويديين ويابانيين وألمان.

فالمنطقة التي ولدت ونشأت فيها حتى سنّ الخامسة عشرة مزروعة بالتلال التي تقوم على ذراها قبور قديمة، لم يستطع أحد أن يفسِّر لي منشأها أو أصلها، وهو أمر عجز حتى معلمونا في المدارس الثانوية عن الإجابة عنه بما يقنع.

وهكذا، فقد قررت مجموعة من المراهقين يوماً أن تحفر أحد القبور العتيقة فوق تل من التلال المحيطة بستاريي غروميكي. وظللنا نحفر بالرفوش بضعة أيام حول القبر، إلاّ أننا لم نعثر على شيء مميَّز، باستثناء قطعة معدنية لعلها كانت جزءاً من حدوة حصان. ولم يلقَ أحد من الكبار بالاً إلى لقيتنا.

وما كان شائعاً بين الناس أن هذه القبور ظهرت منذ قديم الزمان أو بعد غارات البولونيين في بداية القرن السابع عشر، أيام كانت روسيا تعيش «زمناً حالكاً»، أو إنها - أي القبور - ظهرت في أوائل القرن الثامن عشر عندما اجتاحت جيوش الإسوج أراضي غوميلشينا متجهة إلى پولتاڤا حيث هزمت شرّ هزيمة في المعارك. وكان ثمة رأي يُرجع أصل القبور إلى عام ١٨١٢، عام الحملة النابليونية على روسيا. ولكن الشائعات تبقى شائعات لا أكثر. فما هي حقيقة الأمر في الواقع؟ من الطبيعي أن علماء الآثار اليوم قد توصّلوا إلى بعض الحقيقة.

وكان لغز القبور بالنسبة إليَّ دافعاً من نوع خاص، حفّزني للتعمُّق في تاريخ البلاد.

وقد لا يعرف أهمية «الجامعة الليلية» إلاَّ من درس فيها من الغلمان والشبان، إذ لم يكن هناك من أسطورة مشهورة - وأضيف طرفة ظريفة - لم تُروَ في هذه «الجامعة» الفريدة. ففي خلال الفترة الممتدة بين التاسعة أو العاشرة ليلاً وحتى الثامنة صباحاً كان الحكواتيون يروون ما عندهم - كلٌّ على امتداد ساعتين أو ثلاث -، وكانت حكاياهم تقرب من حدود الكمال.

وأرى من الضروري القول إن هذه الاجتماعات الليلية لم تكن تضيف إلى معرفتنا معارف جديدة فريدة وخاصة فحسب، بل إنها أغنت كذلك وعينا اليومي المعيوش، أو كما يقال اليوم أمدّت الشباب بالمعلومات. ومن عرف طعم السعادة التي تمخضت عنها تلك الدروس الليلية (وأقول السعادة بالمعنى المعروف، لأن ذلك كان عملاً، وعملاً شاقاً)، فإنه سيتأسف على اندثار «الجامعة» وسقوطها في غياهب الماضي. أجل، لم يبق

منها إلا الذكريات. فالجرارات الزراعية والحصّادات، والمكننة بوجه عام، لم تترك مكاناً لـ « الجامعات الليلية ».

القراءة، القراءة، ثم القراءة...

أجل، لطالما أحببت وما زلت أحب القراءة، منذ الطفولة حين تعلّمت أن أجمع من الحروف كلمات، ومن الكلمات جملاً. وما كنت أقرأه جعلني أفكر، وبهذه الطريقة تعلّمت التفكير.

وكان يحدث أنني أسرع في العودة من المدرسة إلى البيت لكي أتلقف كتاباً وأنزوي في ركن هادىء ما حتى لا يزعجني أحد. كنت أقرأ وأتأمل في ما عرفته لتوّي، وأتابع القراءة والتأمّل مجدّداً، وأفكر في أسطر الصفحات المفتوحة أمامي.

وكنت أقع على الكتب بالصدفة أغلب الأحيان، ولذا لم تكن مطالعاتي متسقة أو مؤطّرة في نظام محدّد، غير أنّني جهدت دائماً لأفهم ما أقرأ.

وفي إحدى المرّات عثرت بمساعدة من الأصدقاء على كتاب « علم الفلك المصوّر ». كان مجلداً قديماً من فترة ما قبل الثورة. وورد في النص حرف « يات ». وعلى جلدة الكتاب كان اسم المؤلف وعائلته: كميل فلاماريون. ولعل هذا الكاتب الفرنسي لم يكن ليصدق بأي حال من الأحوال لو قيل له إن تلميذاً في قرية ما من القطاع الأوسط في روسيا يغوص في كتابه الفلكي كما لو كان يحضر لتقديم امتحان.

ولست أدري لماذا انطبع في ذاكرتي، وعلى مدى الحياة، ذلك الرسم

الأول في كتاب « علم الفلك المصور » وتحته الكلمات التالية: « أرضنا محمولة على أجنحة الزمان، تطوف سابحة نحو هدف مجهول... ».

ومضت خمسة وستون عاماً قبل أن اهتم مجدداً بهذا الموضوع وأسأل العاملين في مكتبة لينين فأجابوني بسؤال:

ـ وأي طبعة لكتاب فلاماريون تريد؟

أجبت:

ـ تلك الطبعة التي تتصدرها الكلمات التالية (وأوردت التوقيع الآنف الذكر) تحت الرسم الأول...

وعثروا على الطبعة المطلوبة. وتأكّدت من أن الذاكرة لم تخني..

ومن المعروف أنّ هذا الفلكي العظيم كان يعقوبياً، وقد ابتلعته دوّامة أحداث الثورة الفرنسية العظمى في نهاية القرن الثامن عشر، ولكنه اضطر إلى الهجرة بعد أن أطارت مقصلة الترميدور رأس روبسبيير في باريس.

بيد أن اسم هذا الفرنسي لم يُنس، إذ حفظه التاريخ جيداً، فهو اسم لا يملكه عالم فحسب، بل مناضل من أجل العدالة الاجتماعية، و « العدالة » هنا أنظر إليها من خلال الفهم الذي كان سائداً في أوساط رجال الثورة الفرنسية آنذاك.

ومن التساؤلات التي كنت أطرحها على نفسي ما يلي: « من هم الناس؟ ما هي الحيوانات، البرية والمدجّنة؟ وما هي الطيور؟ من أين أتى كل ذلك؟ ».

ولم أكن قد سمعت بعد باسم داروين، إذ لم يكن من السهل الحصول على مثل هذه المراجع.

وعندما كنت أعرف بوجود كتاب ذي عنوان مثير في مكان بعيد، كنت أشعر بأنني قادر على قطع المسافات لتصيُّده، حتى ولو كان على بعد ثلاثين أو أربعين كيلومتراً. في هذه الأمور لم أكن أضنُّ بجهد. وكنت أعود في نهاية المطاف إلى البيت حاملاً «الصيد» بين يدي. وكنت أسعى إلى الحصول على الكتب في القرى والدساكر المجاورة وفي مركز المنطقة، حيث اعتبرت آنذاك أن مكتبتها مكتبة كبيرة. ولقد عثرت فيها مرة على كتاب للعالم الطبيعي ڤيلهيلم بيولْشهْ بعنوان: «الحبُّ في الطبيعة». وقلت لنفسي: «هنا يستطيع المرء قراءة شيء ما.. أيُّ مزاحٍ هذا.. الحبُّ في الطبيعة؟».

وغرقت في الكتاب.. صادفتني بعض الصعوبات فاستوضحت الآخرين عنها، ولكن بقيت أمور كثيرة غير واضحة لي. كان جهد المؤلف هائلاً، فقد خلق عملاً مفصلاً يصف فيه مختلف الظاهرات سواء في عالم النبات أو في عالم الحيوان. وأذهلني ذلك النظام المتماسك من الحقائق المتمحورة حول ظاهرة معينة، فضلاً عن غزارة الرسوم والبيانات، وخصوصاً تلك المتعلّقة بالمملكة النباتية.

وبالإضافة إلى الكتب والمراجع التي تتناول موضوع الإلحاد والطبيعة، حاولت التوسّع في الاطلاع على كتب تاريخ روسيا وتاريخ أصولنا، وكذلك ترجمات حياة الثوريين الذاتية وبطولاتهم، بمن فيهم الشعبيون (نارودنيكي). ولقد جذبتني الأقاصيص عن ف. زاسوليتش، و س. خالتورين، و ن. موروزوف الذي التقيته فيما بعد في موسكو. وباندهاش عظيم قرأت كراساً يروي قصة فرار ديتش وستانوڤيتش وبوخانوڤسكي من السجن القيصري (*).

(*) في عام ١٩٨٦ تمكّن عاملو مكتبة الدولة التاريخية وحدهم من العثور على =

وكان الحصول على كتاب في التاريخ العام أصعب الأمور. ومن بين الكتب المتوفرة آنذاك قرأت باهتمام خاص مؤلّف م. ن. پوكروڤسكي، ولعل السبب كمن في أنه أول كتاب مهم وقع بين يدي، على الرغم من أن المؤلف دافع، كما هو معروف، عن بعض المفاهيم والتصوُّرات التي لا يمكن التسليم بها.

ومن الطبيعي أن أفق اهتماماتي بدأ يصبح أرحب، فبرز عندي هوى لكتب الرحلات والاكتشافات الجغرافية، وخصوصاً قصص جيمس كوك عن رحلاته البحرية.

وفي أثناء بضع سنوات، بما فيها سنوات الدراسة في الصفوف الأولى للمدرسة المتوسّطة، كنت «أبتلع» الكتب دون أن أحدِّد بصورة ملموسة ماهية اختصاصي في المستقبل، وما أودّ أن أكون عليه. فلبعض الوقت، مثلاً، أحببت الهندسة ورياضة المثلّثات. وكان أكثر ما أقلقني أيامذاك سؤال هو: كيف استطاع الناس اكتشاف وجود قوانين في الرياضيات، بل قوانين حازمة؟ ولنفرض أن القانون الرياضي ليس معقّداً: ففي المثلّث القائم يساوي مربع الضلع الأكبر مجموع مربَّعي الضلعين الآخرين. بل إنه من الممكن، هنا، إثبات ذلك بالتجربة والقياس العادي للبرهنة على مصداقية القانون. ولكن، كيف يكون الأمر في المسائل الأشد تعقيداً؟

كل ذلك لقي في نفسي هوى، حتى أنني غالباً ما كنت أخرج إلى

= نسخة من هذا الكراس. ولقد سررت جداً حينما قرأت غلاف الكراس: «م.ف. فرولينكو»، «فرار ديتش وستانوڤيتش وبوخانوفسكي»، موسكو ١٩٢٤، إصدار رابطة المحكومين والمنفيين لعموم الاتحاد السوڤياتي». وهنت إلى الذاكرة أيام المراهقة.. (**ملاحظة من المؤلف**).

الغابة، في عطلة الصيف، لأقيس المسافات بين الأشجار ولأحسب ارتفاعها دون تسلّق، مستخدماً في ذلك الطرائق والقوانين الهندسية وحساب المثلّثات. وكنت أعرف أن القوانين الرياضية مثبتة منذ زمن بعيد ولكنني لم أكن استطيع أن أمسك نفسي عن القيام بمحاولات إثباتها مجدداً وبالاختبار.. كان ذلك يملأني سعادة ورضا. ومع مرور الزمن خفت حدّة الاهتمام بالرياضيات بالتدريج، فيما تعاظمت حدة الاهتمام بالعلوم الإنسانية، علماً بأنني كنت أعود دائماً إلى قوانيني الهندسية والمثلّثية، حتى في أوقات الراحة.

وفي سياق استيعابي لكتب التاريخ والأدب وغيرهما، لم يكن نادراً أن تدهشني قراءة الكتب.. إذن، يقرأ المرء وتذهله كتب ألّفها أشخاص! ولكنهم أشخاص من نوع خاص! وأغلب الظن أنهم يولدون وهم على هذه العبقرية، وإلاّ فهل يستطيع المرء تعلّم كيف تُكتب الكتب؟ كنت أفكّر على هذا النحو، وأتلو بعضاً من محفوظاتي من شعر پوشكين، أو من رواية إ.أ. غونتشاروف: «أوبلوموف» أو من كتاب «العشّ النبيل» لتورغينيف. وكنت أستشهد بصفحات وأجزاء من صفحات. والواقع أنني كنت أحفظ دون جهد وبسهولة.

كانت كتابات أدبائنا الكلاسيكيين تثير فيَّ اختلاجاً روحياً، ولذا فقد أكثرت من قراءتها وأعدت قراءتها مرات عديدة. وكثيراً ما حدث أنني سمعت بعضهم ينشدون شعر پوشكين: «أكتب لكم، فلماذا الألم...»، وأنتظر منهم أن يكملوا..، فضلاً عن الأغنيات الملحّنة على نصوص لشعراء روس. وكان القلب يؤخذ بالكلمة الجميلة الواضحة الرنانة، فموسيقى الشعر نفسها وبحد ذاتها تشكّل أغنية.

أما غوغول فقد تعرّفت إلى أعماله ممّا كان يرويه الكبار. وبدت لي

مجموعته «أماسي عزبة بالقرب من ديكانكا»، المفعمة بالرومانطيقية والغنائية، مفزعة وجميلة حين تقرأ شفهياً. وبعد ذلك قرأت الكتاب مرة جديدة فسحرني عالم الأكواخ البيض والقوزاق المرحين والفوارس المشاكسين وعالم السخرية الغوغولية. خلبت لي شعبية كتابته وصدقها إلى حدّ تراجع معه كل الرعب ليصبح أمراً ثانوياً، وبتُّ أرغب بشدة أن يتحقق في الواقع كل ما جاء عند غوغول، كل الرؤى والمشاكسات وصولاً حتى طيران أبطاله على متون المكانس والعفاريت إلى بطرسبرغ.

وبعد ردح من الزمن حصلت على «الأوديسَّة» بترجمة ڤ. جوكوڤسكي و«الإلياذة» بترجمة ن. غنيديتش. وكنت أعرف جوكوڤسكي شاعراً، فعجبت أشد العجب حين تعرّفت إليه مترجماً.

فملحمة طروادة، الآتية إلينا من ماضٍ سحيق وعالم الأساطير، تحتلّ مكانة خاصة في قلب الإنسانية. ومهما اختلف المؤرخون وعلماء الآثار حول التفاصيل المتعلقة بهذه الملحمة، فإن إبداعاتها لا تخبو على مرور الزمن، بل إنها تأتلق أكثر مما كانت عليه في السابق. ومما يذهل كذلك تلك الموسوعية التي امتاز بها مبدع «الأوديسة» و«الإلياذة»، فموهبته الشعرية وضعت بين أيدينا الحدث نفسه بكل توهجات حدوده وقوة ألوانه، حتى ليبدو لنا اليوم واضحاً ودقيقاً وممتلئاً.

والأحداث الواقعية وثمار مخيلة الشاعر الجبارة، ألم تنعكس في إبداع هوميروس بقوة لتغني خزائن معرفتنا عن العالم القديم؟

وينبغي التنويه أيضاً بأبطال الملحمة أنفسهم، پريام ومنيال وأخيل وهيكتور وأغاميمنون وأوديسة وپينيلوپ وإيلينا وكاسّاندرة وغيرهم من

الأبطال، بغض النظر عن كونهم يمثّلون شخصيات تاريخية واقعية أو أنهم من بنات مخيلة الشاعر.

وماذا عن أسطورة «حصان طروادة» نفسها؟ إنها، اليوم، ليست كلمة من كلمات الفن فحسب، بل إن فكرة الناس كان يمكن أن تكون هزيلة لو لم توجد هذه الهبة الأدبية الآتية إلينا من الماضي البعيد.

وتبقى «الإلياذة» و«الأوديسة» مصدراً غنياً لمعرفة العالم القديم، إذ يمكن للمرء أن يكتشف من خلالها معلومات عن حياة الأجداد القدماء وعن قيمهم الخلقية والمفاهيم التي كانت سائدة بينهم عن الخير والشر والحب والكراهية والشعور بالواجب والخيانة، وكذلك عن الفلسفة.

وها هي كنوز الشاعر العديدة وثقت العُرى بين البشرية، حتى أننا لا نستطيع العثور على شخص متعلّم أو مثقف متواضع لم يسمع بهوميروس وبمؤلفاته. كما لا يمكننا تصوّر الفن، وخصوصاً الرسم والمسرح، منفصلاً عن جرس الأغنية الشعرية ـ وأعني هنا بها الملحمتين ـ المتهادي إلينا عبر ألوف السنين.

ولا أدعي أن قراءة سُداسيّات الشعر الإغريقي القديم كانت سهلة. ومن الطبيعي أن الأبيات والمقاطع كانت ثقيلة الوقع عليَّ، بالرغم من أنها ترجمت بقلمي شاعرين ـ مترجمين عظيمين. بيد أن الحكاية أخذت مني كل مأخذ، وأعجبت أشد الإعجاب بخيال أبطال مثل أخيل وهيكتور، وكنت أقارنها، على غير إرادة منّي، بالفرسان الروس النبلاء، الذين تعرفت إليهم من كتب الأدب.

وبعد ذلك كان لقائي بـ«فاوست» غوته، وأعترف أنه لم يثر عندي

في بداية الأمر أي اهتمام. فقد بدا لي معقداً ومبالغا أو متكلّفاً إلى حد ما. وتراءى لي أنه من الغرابة بمكان أن تكون شخصيته الرئيسية مكونة من نصف إنسان ونصف أسطورة. ولقد تطلب الأمر مضي سنوات قبل أن أرى إلى الدكتور فاوست، وخصوصا إلى ميفيستوفل، في ضوء جديد.

وأفضى بي هذا النوع من القراءات إلى التساؤل مرة: «ولم لا أقتني «ألبوماً» وأحاول أن أكتب فيه شيئاً ما؟ ولماذا لا يكون هذا الشيء شعرا؟».

وبدأت العمل.. ثم ما لبثت أن ظهرت قصائدي الشعرية العشر. وقد بذلت كل ما في وسعي لأقفيها، إلا أنني جهدت كذلك كي تبقى سري الأعظم. ومع ذلك فقد نظرت إلى إنتاجي الفني نظرة شك. وفي نهاية المطاف تغلب الشك، وكما كتبت في السرّ والخفاء عمدت إلى إحراق كل شيء في السرّ والخفاء أيضاً. وقمت وأنجزت الأمر دون أن أتفوه بكلمة أمام أي من أهل البيت. وهدأت نفسي على نحو خاص وفريد نوعاً ما: «.. حتى غوغول أحرق المجلد الثاني من «النفوس الميتة» لأنه لم يعجبه.. وهو مع ذلك كاتب عظيم وليس كاتبا هاويا او مغمورا».

وأنا لم أبح بهذا السر إلا في هذا الكتاب.

وفي بعض الأحيان كانت تخطر في رأسي الفكرة التالية: «هل تبدو تصرفاتي طبيعية؟ لماذا أميل أوقاتا إلى الانفراد والتأمل في كتاب شيّق قراءته؟».

وشيئا فشيئا بدأت تتقاطع هموم الخلود إلى النفس والتأمّل مع أفعال

ناشطة وحيوية. وأحببت أن أعمل من أجل الناس بمشاركة الأصدقاء ممن كانوا مؤهلين من حيث مستواهم، وكان معظمهم تِرْباً لي في السن. وظهر أصدقاء مفعمون توقاً إلى المعرفة، مع أن بعضهم لم يكن يهوى المطالعة والكتب والتأمّل في مضامينها، معتبراً أن ما تعلّمه الحياة كفيل بجعلهم أهلاً لخوض غمارها في المستقبل.

ولكن الدراسة والعمل الاجتماعي فتحا مسرباً لطاقتنا، وبدأ الشبان يكتشفون «أنا» ـ هُم، فكان كل واحد يقوم بذلك على طريقته. غير أنه لم يمر يوم دون أن نتوجّه «إلى الشعب».. هكذا كنا نسمّي تنفيذ هذا أو ذاك من الأعمال الاجتماعية. وغالباً ما كنا، نحن أنفسنا، نُدهش: لماذا يصغي إلينا الناس، بل لماذا هذا الاحترام الذي يقابلوننا به؟

كان موقف الكبار هذا يمنحنا طاقة للعطاء أكثر فأكثر.

«الحزب حي، ومعه سنحيا»

أما في ما يتعلق بنظرتي إلى العالم وإلى حياة الإنسان الروحية، فلم تتكون لدي رؤية متماسكة إلاّ بعد أن بدأت أتعرَّف على الأدبيات الثورية التي صدرت بعد سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨. ولكن بادراتٍ ما كانت بدأت تنضج. وعلى سبيل المثال كان يسترعي انتباهي تنقُّل الكاهن ڤولتوڤسكي بين القرى على عربة، وكيف أن الفلاحين كانوا يقدِّمون له الأعطيات من حبوب وقموح كل بحسب ما يرتئيه. أما هو فلم يكن يدخل البيوت بنفسه حفاظاً على «كرامته». كنت أرى ذلك وأسائل نفسي: «حسناً، إذا كان الراهب يؤمن بالرَّب، ألا يجب أن يساعده الرَّب أيضاً؟ هذا ما استنتجته. ولم يكن الكبار يتطرّقون في أحاديثهم إلى هذا الموضوع المثير

للجدل، وكانوا حين تُطرح عليهم أسئلة من هذا النوع يعزفون عن الإجابة بحركة من أيديهم، بحكم العادة، كأنما يذبُّون ذباباً مزعجاً.

ولكني أستطيع القول إن ماديةً ما، غير واعية، كانت قد ترسَّخت في رؤوس الأولاد. ولذا، فما إن بلغت الثالثة عشرة حتى أصبحت عضواً في اتحاد الشبيبة الشيوعية اللينينية (الكومسومول)، وأصبحت أخوض مع أصدقائي الكومسومولين نقاشات عن مواضيع إلحادية أمام سكان القرية. وأذكر كيف أن بعض الفلاحات الطاعنات في السنّ، مررن بالقرب من إحدى العُزَب حيث كان يعقد اجتماع للكومسومولين، وعندما عرفن أن أحدهم يقول ما معناه أن لا وجود للرب، رسمن الصليب على صدورهن.

وأتذكّر برضا أن أبي أو أمي أو أحداً من الأقارب لم يلمني أو يوبخني على قناعاتي علماً بأنهم لم يكونوا مجمعين على تأييدي فيها.

ومما يجدر ذكره هنا أن أسجّل كيف قرّرنا، نحن اليافعين، أن نثبت ذاتنا في مجال الفنّ. ففي أعقاب الثورة صدر عدد كبير من الكراريس المختلفة، حوَت حتى مسرحيات تعكس الروح الثورية للأحداث التي جرت في البلاد بعد ثورة أوكتوبر العظمى.

ووقعنا على إحدى المسرحيات التي تتعرّض علناً للتصادم بين الأفكار الثورية وبين الأفكار المعادية للثورة.. وكانت أحداثها تدور في أيام الحرب الأهلية العاصفة.

ولا أذكر الآن عنوان المسرحية، بيد أن مضمونها رسخ في ذاكرتي. وكان من شخصياتها الرئيسية «القائد الأحمر» و «ضابط الجيش

الأبيض »، اللذان يفترض أن تجري بينهما على المسرح مشادَّة حادَّة.

ولكن، كيف يمكن العثور على ممثِّلين؟

اخترنا أحد الفتيان المتحمسين، وكان مستيئساً قنوطاً بطبعه. وأُعطي إيڤان دور « الضابط الأبيض ».

ومن سيلعب دور « القائد الأحمر »؟ وصاح أصدقائي بصوت واحد:

ـ أندريه. فهو يجيد إلقاء التقارير، فليتصارع مع « الضابط الأبيض ».

ولم أتوان عن قبول الدور، إذ كان ذلك ثقة عظيمة بي جعلتني أشعر بالفخر.

وكانت في المسرحية شخصيات أخرى، ولكنها لم تكن ذات مكانة مهمة فيها.

وأجرينا بروڤات حارة، فيما قدّمت المدرسة المكان، حيث لم تكن صالتها تتسع لأكثر من مائة أو مائة وخمسين شخصاً.

أما الملابس وكل متطلبات العمل المسرحي الضرورية فقد غابت تماماً، فصعدنا إلى الخشبة بملابسنا العادية التي كنا نرفل بها في بيوتنا، غير أننا بذلنا الجهد كي لا تكون ممزّقة: وهكذا، ورغم كل شيء، كان علينا التمثيل فوق خشبة المسرح! ووضعنا على كتفي « الضابط الأبيض » شيئاً ما يرمز إلى رتبته العسكرية، وقد استمر إيڤان ينظر إليهما من طرف عينيه ليتحقق من أن الكتافتين لم تقعا وأنهما لا تزالان ملتصقتين. أما ما ميز زيّه فذاك البسطار الجديد الذي جهد في تلميعه حتى غدا يبرق.. وكيفما كان الحال بدا إيڤان « ضابطاً »! أما بسطاري، فعلى العكس،

كان عتيقاً على نظافة..، كان بسطاراً « پروليتارياً حقيقياً » كما أسميناه.. ودققنا في كعبيه « ميَالتين » معدنيتين، ما يشبه حدوتي الحصان. وبشكل عام قصدنا أن نبرز زيّي متواضعاً قدر الإمكان، ولائقاً بـ « قائد أحمر » في الوقت نفسه. وكان على خصرينا جرابان فارغان من مسدسيهما.

وفي سياق المسرحية، كان على « القائد الأحمر » أن يظهر بطولته وشجاعته، آخذاً بعين الاعتبار أنه لا يعرف بعد كيف سيتصرَّف « الضابط الأبيض ».

واحتدم النقاش بينهما. ومن الطبيعي أن يقف الأبيض موقف الدفاع عن الأغنياء، أما عن الفقراء فقد قال ما يلي:

ـ ينبغي على أحدٍ ما أن يعمل، أليس كذلك؟ يجب، وهذه هي كل المسألة! وإذن، فليعمل الناس الموجودون في المصانع والفبارك والحقول. ليشقوا الطرق ويجذفوا ويشدوا الأطواف في الأنهار ولا بد من أناس آخرين ليقودوا، ليقودوا أولئك الذين يعملون.

تلك كانت فلسفة « الضابط الأبيض » ڤوڤا، وهو الاسم الذي أطلقناه على الشخصية.

ولكن « القائد الأحمر » عارضه في أن يقود الجميعَ الأغنياءُ الاستغلاليون:

ـ يجب أن يكون الناس متساوين، وعلى الجميع أن يعملوا، ومن أجل ذلك ثار العمال والفلاحون بقيادة لينين.

كانت تلك هي الفلسفة التي دافع عنها « القائد الأحمر » كيوشا.

أما الشخصيات الأخرى فقد تدخَّلت في النقاش بحذر وانقسمت بدورها إلى مجموعتين، فتفوقت مجموعة « الحمر » من حيث عددها على مجموعة « البيض ».

ولم يستطع « الممثّلون » حفظ الحوار لضيق الوقت، ولذلك فقد كان هناك ملقّن اتخذ لنفسه مكاناً تحت الخشبة، وأعطيت له التعليمات بأن ينجز مهماته بدقة وشرف؛ غير أنه لم يكن مرتاحاً في جلسته، ولذا فلم نتمكن من سماعه بوضوح. وكان ذلك سبباً في لجوئنا إلى الارتجال منتقين كلمات من الوزن الثقيل، مع الحفاظ على حدود معيَّنة كي لا نبعث احتجاجات المشاهدين الكبار.

وكانت والدتي بالمناسبة من بين المشاهدين. وبذل الملقّن ما بوسعه لتأدية دوره على الوجه الأكمل، فجاء صوته مرتفعاً ليطغى على أصوات الممثلين المنخفضة حينما أدلوا بكلام خارج عن إطار النص الموضوع. وعندما كانت تردنا كلمات الملقّن واضحة كنا نكررها كما هي.

وكان من الطبيعي أن تبدو المسرحية بمجملها غريبة جداً.

ولكن القطوع مرّ، حتى أن لاعبي الدورين الرئيسيين لم يشتبكا رغم أنهما كانا على وشك القيام بذلك. وعندما عدت إلى البيت قالت لي أمي:

ـ خشيت أنه سيمزّق قميصك الجديدة.

وباختصار كان الجميع راضياً، بدءاً من الممثّلين ومنظّمي العرض وانتهاءً بجمهور المشاهدين الذي تصرَّف بهدوء وبصبر مغايرين لما اعتاده.

ولعل سبب تصرّفه هذا أنه لم يشهد في قريتنا أي عرض مسرحي من قبل.

وعند هذه التجربة انتهى « مستقبلي التمثيلي ».

ولست أدري لماذا لا تقتصر ذكرياتي على الكلام الذي وجّهته إلى خصمي، بل تشمل كذلك تلك الكلمات التي قذف بها « الضابط الأبيض » « تابعه »:

ـ يا للشيطان، أي مفارقة! هل بسطاري مُلَمَّع؟ إنني أسألك؟

وما إن سمع « التابع » ملاحظة ضابطه حتى هرع ليلمّع البسطار الاحتياطي... وحين تراجع انحنى على كُوَة الملقّن، الذي لم يرحّب بهذه الحركة، فغضب وكاد أن يترك مكانه، ولكن سرعان ما عولج الموقف الطارىء.

وفيما بعد لم نعد في القرية إلى القيام بمثل هذا النشاط الاجتماعي، أي تحضير عرضٍ مسرحي، وفضلنا أشكالاً أخرى أكثر نضوجاً وحيوية وقوة.

وفي بداية عام ١٩٢٣ اختارني الكومسموليون كي أكون سكرتيراً لخلية الكومسومول في القرية. وكان قادة الكومسومول اليافعون بحاجة إلى دعم الكبار ومساعدتهم حاجتهم إلى الهواء. وكانت خلية المركز، بالطبع، تتلقى التعليمات من لجنة القيادة المركزية للكومسومول في المنطقة. أما التعليمات فقد شملت جميع نواحي الحياة في القرية، إذ كان على الكومسموليين أن يكونوا قدوة للفلاحين ولمثقفي القرية. قدوة! أجل، لقد عنى ذلك بالنسبة إلينا أموراً كثيرة.

وبكثير من الحماس كنت أقرأ التعليمات الواردة إلينا من اللجنة المركزية المنطقية، حتى أنه خُيِّل إليَّ أحياناً أنني على علاقة مباشرة مع كارل ماركس نفسه. فقد كنت أقرأها وأعيد قراءتها مجدَّداً، وفي كل مرة يعتريني رضا عظيم. ودعمني الأهل في عملي الكومسومولي قدر ما استطاعوا. وعندما رأوا، مع غيرهم من أهل قريتنا، أن كومسومولين مرشحين من قبل خليتهم اقترحوا ليكونوا أعضاء في مجلس القرية، تبدلت نظرتهم إلينا وأصبحوا يعاملوننا بجدية اكبر.

ولقد تركت أحداث شبابي هذه بصماتها على وعي وعلى تشكُّل آرائي في الحياة. وغدت الحقائق المتناثرة التي استوعبتها مادة صحَّ تعميمها. فالدراسة، وصولاً إلى نيلي درجة مرشَّح في العلوم(*) عام ١٩٣٦، أغنت ذاكرتي من الناحيتين السياسية والفكرية وجلت شخصيتي على نحو كامل. وبمعنى ما فإنني مدين حتى للظروف المادية المعقدة، إذ كان عليَّ التغلُّب على صعوبات كثيرة، فتعلَّمت كيفية مصارعتها، بما أسهم أيضاً في تكوّن شخصيتي.

وفي عمر الصبا غالباً ما كان علي أن أكون وحيداً في الحقل أو في المرعى القريب من القرية، والجو حارٌّ وما من أحد في الجوار.. وحتى الطيور كانت تلجأ إلى أعشاشها هرباً من القيظ. ثم فجأة يتهادى إلى مسمعي رنين جرس الكنيسة.. تقطَّع الرنين لم يكن يبشر بنبأ طيب. كانت كل ضربة تخترق السكون كما الرعد. وتدافعت الأفكار في رأسي ثقيلة مقلقة. أيكون دفناً مفاجئاً؟ لم تكن مقبرة ستاريي ونوڤي غروميكي

(*) درجة تعادل درجة دكتور فلسفة في العلوم. ph.D. في النظام الأكاديمي الأنكلوسكسوني - (المترجم).

بعيدة. الأفكار الحزينة تتلاحق، ثم تتذكَّر فجأة وتهزُّ رأسك وتقول في نفسك:

- يا صاح، ما بك قد تراخيت، أما تستطيع أن تتماسك؟

ويداهمك شعور بأن القلب منقبض وفي الحلق غصة، وكأن شيئاً ما يضغط عليها. وهنا تَعِدُ نفسك: يجب وضع حدٍّ لهذا الوهن المفاجيء. وتختلف الى وراء وإلى امام، أو قد تقفز فوق ظهر الحصان قبل أن يعود كل شيء إلى طبيعته.

مثل هذه اللحظات تمرُّ بالآخرين، وعن هذا حدَّثني بعض أترابي أيضا.

وثمة أمثلة كثيرة يمكن العثور عليها في روائع الأدب العالمي حينما تصف الحالة الروحية لفتى صودف وجوده وحيداً في أحضان الطبيعة إلاَّ مع نفسه. ونعثر على ذلك عند ل. ن. تولستوي و م. ف. دوستويڤسكي و إ.س. تورغينيف وغيرهم من أرباب الكلم وفنانيه. وهم في وصفهم لا يجانبون الحقيقة.

وإذا نظر المرء إلى الوراء، إلى الطريق التي قطعها، يخلص إلى الاستنتاج أن كل مرحلة فيها لا تتسم بجوانب مضيئة فحسب، بل وبأوقات صعبة أيضاً. وهذا ما ينطبق كذلك على مرحلة تحصيلي العلوم ابتداءً من سن السابعة وحتى إنهائي الدراسات الجامعية العليا. وبالطبع، فقد بذل والداي ما أمكنهما لمساعدتي رغم عوزهما. فقد كانت تنقصنا المواد الغذائية دائماً، الأمر الذي جعلني أعمل في الصيف لتأمين بعضها.

وفي شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٤ خيَّم على البلاد حزن

عميق.. مات لينين. وكان الشتاء قاسياً، وبالكاد تمكّنت جموع الجماهير من قطع الطريق نحو المدرسة حيث أقيم مهرجان تأبيني. وألقى المعلمون الكلمات وكنا نحن نصغي إليهم ونفكّر: كم من الأعمال الجليلة قدّم لنا هذا الإنسان الذي لم يره منّا أحد البتة.. كم قدّم لنا، نحن الجالسين هنا على مقاعد الدراسة وفي المشاغل؛ وكم قدّم لعمّال روسيا وفلاحيها.

ولم يكن أبناء قريتنا يتحدثون إلاّ عن وفاة ڤلاديمير إيليتش لينين، وطرحوا العديد من الأسئلة أهمها:

ـ ماذا سيحدث؟

وتوجهوا حتى إلي معتبرين أنني ملزم بتفسير الأمور بوصفي سكرتيراً للخلية الكومسومولية:

ـ أنت، أيها الكومسومولي، قل لنا كيف سنعيش دون لينين؟

وماذا كان بوسعي أن أجيبهم؟ فقد كنت أنا نفسي بحاجة إلى من يفسر لي حيثيات الوضع الآتي. ولكني تذكّرت لحظتذاك قولة سمعتها عن لينين في الأيام الأولى لثورة أوكتوبر: «إن من صنع الثورة هو لينين ومساعدوه». واتفق أنني أجبت كما يلي:

ـ إن لينين قد مات، ولكن مساعديه والحزب أحياء، ومعهم ومعه سنحيا.

لقد أهمّت مصائر البلاد الفلاحين، وانعكست الهموم كذلك حتى عند أهل قريتنا، إلاّ أنهم آمنوا بالمستقبل، بذلك الجديد الذي بدأ مع لينين. وهكذا، لم يكن ثمة مكان لليأس في حياتنا!

وفي تلك الفترة كنت قد قرأت خطاب لينين في المؤتمر الثالث

للكومسومول، وانغرزت في وعيي كلماته: «الدراسة ثم الدراسة ثم الدراسة». وكأنما كان لينين ينظر في أعماق روحي.

وبعدما أنهيت الدراسة في المدرسة الابتدائية ثم المدرسة المهنية في غوميل، توجهت إلى مدينة بوريسوف غير البعيدة عن مينسك (*) وانتسبت إلى الثانوية المهنية.

وسكنت بيتاً خشبياً مكوّناً من طابق واحد، بُني وفق تصميم معماري رفيع الذوق. وقد اشتهر بأنه البيت الذي قضى فيه ناپليون بوناپرت إحدى لياليه. وقد حدث ذلك إثر جرّه اذيال الخيبة مع فلول جيشه المهزوم، أثناء تركه روسيا عائداً إلى بلاده. وعلى بعد كيلومتر من البيت يقع نهر بيريزينا الذي خلّده التاريخ.

فقد قرر ناپليون أن تعبر ألويته النهر للوصول إلى قرية ستودينكا، غير أن عبورهم تحول إلى مأساة، إذ غرق ألوف الفرنسيين في بيريزينا بعدما أوقع بهم مقاتلو الجيش الروسي. وكنا، نحن الطلاب، نعتبر زيارة هذا المكان واجباً وطنياً، حيث نقف هناك وشعور الفخر يخالجنا.. لقد استحقت هذه الأرض أن ننحني لها احتراماً لما قدّمته من تضحيات للبلاد.

أما البيت الذي ذكرت فقد أطلقنا عليه اسم «البيت الناپليوني»، ونحن بذلك ضمّنّاه شحنة كبيرة من السخرية حيال هذا الإمبراطور ـ المفلس الذي لم يأتِ به التاريخ إلاّ ليكون عبرة للأجيال، فرفعه إلى أعلى مراتب المجد وألقى به إلى أسفل سافلين.

(*) عاصمة جمهورية بيلوروسيا السوڤياتية ـ (المترجم).

وليس يكفي أن نحكي لشبان اليوم عمّا يُسمّى « برنامج دالتون »(*)، ولكنني أشير هنا إلى أن الخطة الموضوعة في أساس هذا البرنامج كانت متبعة إبان سنوات دراستي في بوريسوف ومينسك في المؤسسات التربوية، العالية والمتوسطة. وكانت الخطة تتلخّص في ما يلي: كان الصف يُقسم إلى مجموعات، تضم كل واحدة منها من أربعة إلى ستة طلاب. أما المدرِّس فلم يكن يتابع نشاط كل طالب على حدة بقدر ما كان يتعامل مع المجموعة بمجملها. وبموجب هذه الطريقة كان الأفراد يـمَّحون في الواقع بما هم أفراد، أي يُجردون من شخصياتهم الفردية، لتبرز المجموعة ككل. وكان مستوى المعرفة يتحدّد من طريق تقويم مداخلة أحد أعضاء المجموعة التي تقوم هي باقتراحه. وهكذا كان حسن الحظّ يتهرّب بأن يُلقي بجملتين أو ثلاث، وهي كمية من الكلام لا تعكس المستوى الحقيقي للمعرفة بالطبع، كما لا تكفي لتقويم قائلها.

ولم أكن شخصياً، ومعي سواد الطلاب في المدارس المتوسطة والمعاهد العالية، لأؤيد هذا النوع من التجارب التربوية، وحسناً فعل المسؤولون أنهم سرعان ما استنكفوا عن اعتمادها في وقت قريب لاحق.

فقد ورد في مقررات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصادرة بتاريخ ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٣٢ أن « برنامج دالتون » - أو كما كان يسمى آنذاك « طريقة المجموعات الاختبارية » - أدّى إلى « تشويه العمل التربوي وتجريده من المسؤولية الشخصية الفردية، وكذلك إلى خفض دور

(*) أسمي هكذا نسبة إلى بلدة تقع في ولاية ماساتشوستيس (الولايات المتحدة الأميركية)، حيث اعتُمدت لأول مرة خطة التعلم الجديدة في المدارس - (ملاحظة من الناشر).

المربي وتجاهل دراسة كل فرد في أكثر الأحيان ».

وفي عام ١٩٣١ انتسبت إلى الحزب، وكان ذلك في بوريسوف. وكان حلم الانضمام إلى صفوف الحزب يراودني مُذْ علمت أن ثمة حزباً يعبر عن مصالح الجماهير ويجسّدها. كان ذلك في تلك السنوات حين بدأت أعي الفرق بين فقراء الفلاحين والملاك، وبين العمّال وأصحاب الرساميل. وتسلّمت بطاقتي الحزبية قبيل انعقاد الاجتماع الانتخابي بوقت قصير، وهكذا تـم انتخابي أثناءه، أنا الشيوعي الغضّ، سكرتيراً للخلية الحزبية.

واستحوذ العمل الحزبي علي حتى غرقت فيه تماماً، كما كان أمري حين انتسبت إلى الكومسومول. وكان علي الغوص في علاقات لا نهاية لها مع الناس لحل مشكلات تلك الفترة، مما يعني أنني كنت أعيش في غمار الأحداث بصورة دائمة. بيد أن عملي، هذه المرة، لم يكن مع الشبيبة، بل مع أناس ناضجين خبروا الحياة وخاضوا غمارها ووعوا سياسة الحزب. كان أولئك شيوعيين.

وكان أعضاء الحزب في تلك المرحلة - وبالمناسبة في كل مراحل تاريخ دولتنا - في الطليعة وفي أهم وأصعب المراكز. فنحن لم نمارس عملاً تفسيريا ودعائياً لـنشر سياسة الحزب فقط، بـل إن الحركة التعاونية الزراعية في الريف (الكلخزة) كانت العنوان الرئيس والشغل الشاغل. فكنا، نحن الشيوعيين، أول من يتوجّه إلى العمل التطوّعي أيام السبوت والآحاد، بل كنا نحتطب أيضاً ونشحن القطارات حين تدعو الحاجة. لقد كانوا يوجهوننا للعمل إلى الأماكن التي تعاني من نقص في الأيدي العاملة. كان الحماس يدفعنا لتنفيذ أي مهمة تُلقى على عاتقنا، فلم نتبرّم

قط ولم نخجل من أي عمل مهما كان. لقد فهم الحزب والكومسومول الصعوبات فأمدا بالدعم حرارة القناعة الشيوعية التي سكنت الأفئدة الشابة المخلصة لقضية لينين، قضية الشعب.

ولم تكن المنحة الشهرية المالية كبيرة. وبغض النظر عن المصاعب التي واجهتنا، أذكر تلك المرحلة بحرارة، على الأقل لأنني بنيت أثناءها عائلتي بمشاركة ليديا دميترييڤنا غرينيڤتش الطالبة، ابنة أحد الفلاحين البيلوروسيين من سكان قرية كامينكا الواقعة إلى الغرب من مينسك.

ومن أوقات الشباب أذكر بعض المشاهد، التي وإن كانت مليئة بأحداث صغيرة، إلا أنها رغم ذلك تلقي بعض الضوء على الوضع الذي كان سائدا آنذاك.

فقد أعرب الطلاب عن تململهم من ضآلة وقعات الطعام، وتجلّى ذلك في ابتياعهم بعض المنتجات من البازار، منفقين القسط الأكبر من منحتهم الشهرية، لقاء الشعور بالشبع يومين أو ثلاثة في الشهر. ومن المنصف طرح السؤال: ولكن كيف تمكنوا من إعالة أنفسهم بقية الشهر؟

هاكم الجواب: كان الطلاب يتقاسمون في ما بينهم ما يُرسل إليهم من أهلهم، أضف إلى ذلك أنهم كانوا يعملون ليلاً. وكان بعضهم يرتب أوضاعه على النحو التالي: كأن يبيع مثلاً «معطفاً زائداً» أو «بسطاراً زائدا» أو شيئا آخر «زائدا». وهكذا كانوا يتعاضدون في ما بينهم للخروج من الأزمة، يدفعهم في ذلك كله الشباب والحماس.

مضى على ذلك الزمن أكثر من خمسة وخمسين عاماً. رزقت وزوجي بطفلين هما: أناتولي وإميليا. وأناتولي يحمل، الآن، درجة دكتوراه في

العلوم التاريخية ولقب پروفيسور، إضافة إلى كونه عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم للاتحاد السوڤياتي، إذ يرئس معهد أفريقيا التابع لها. أما ابنتنا إميليا فهي مرشحة في العلوم التاريخية وتعمل في شؤون التحرير. وأستطيع القول إننا، زوجي وأنا، راضيان عن ولدينا كل الرضا. وعندنا ثلاثة أحفاد هم إيغور وأندريه وألكسي، وحفيدتان هما ليديا وآنّا. ولدى أحد الأحفاد ابن هو أوليغ. أما شقيقتي ييڤدوكيو فما زالت على قيد الحياة وتعيش في غوميل مع ابنتها صوفيا.

ولم تمر كارثة الحرب القاسية مرور الكرام، ودون أن تنال من أقربائي. فقد استشهد شقيقاي اللذان يصغرانني: ألكسي وفيدور، وكانا ضابطين في الجيش السوڤياتي. أحدهما استشهد في الحرب العالمية الأولى على جبهة البلطيق؛ والثاني، قائد بطارية مدفعية، أثناء عبور بيريزينا في منطقة بوبرويسك عندما كانت ألوية الجيش السوڤياتي تطارد الهتلريين المنسحبين. أما شقيقي الثالث ديمتري فقد كان من نصيبه تجارب صعبة وقاسية. ففي أثناء الحرب قاتل في صفوف الأنصار والتحق فيما بعد بالجيش، ولكن صحته تدهورت إثر عودته من الجبهة، فظل معتلاً حتى وفاته عام ١٩٧٨. وكان لي خالان هما فيدور وماتڤي بيكاريڤيتش استشهدا أيضاً في الحرب. وكانت قرينتي ليديا دميترييڤنا شديدة التعلّق بشقيقها الوحيد أركادي، الذي استشهد في المعارك ذوداً عن موسكو.

سنوات الدراسة في مينسك

امتدت سنوات دراستي بعد إنهائي مدرسة الصفوف السبعة الابتدائية لاثنتي عشرة سنة، قضيتها في المدرسة المهنية (غوميل) والثانوية المهنية (بوريسوف) والمعهد العالي (مينسك) والدراسات العليا (مينسك -

موسكو) . وأذكر أن تلك الأعوام كانت مكثّفة ومليئة بالعمل المتوتّر . ولم تكن المرحلة المذكورة مخصّصة فقط لتحصيل المعرفة ، بل شملت أيضاً تنفيذ مهمات اجتماعية عديدة ومتنوعة ، كان الحزب يوكل أمرها إليَّ .

وحقيقة أنني أصبحت شيوعياً ، بل وانتخبت سكرتيراً للمنظمة الحزبية في الثانوية المهنية ، جعلت رحلاتي لتنفيذ المهمات التي تكلفني بها الهيئات الحزبية العليا ظاهرة عادية . فقد كنت أسافر مرة أو مرتين خلال الشهر ، فيما اتسمت المهمات بالتنوّع .

كنت أغادر بوريسوف للإسهام في تعزيز الحركة الكولخوزية والمساعدة في تأسيس الكولخوزات وتقوية العمل الحزبي في الظروف الجديدة الناشئة في القرى .

ومن المهمات التي كلّفت بها كذلك اتّصلت بتنفيذ خطط تحضير هذه أو تلك من المحاصيل والمنتجات الزراعية ، كالكتّان . وكان الطلاب الشيوعيون في مينسك ، وأنا منهم ، يواصلون تنفيذ هذه الواجبات التي اقتضتها مصالح الحزب والدولة .

وبعدما أنهيت سنتين من دراستي في المعهد عُيِّنت مديراً لمدرسة متوسطة في منطقة دزيرجينسكي غير البعيدة عن مينسك ، حيث كانت زوجي تعمل مدجنة في مزرعة للأبقار تابعة لسوفخوز . وفي ظل هذه الظروف مارست التدريس والعمل الإداري في المدرسة وتابعت في الوقت نفسه الدراسة في المعهد منتسباً .

وفي إحدى المرات زارني الممثل الخاص للجنة المركزية للحزب الشيوعي البيلوروسي . وبدا لي ما طرحه مفاجئاً جداً :

ـ نقترح أن تكمل الدراسات العليا لنيل درجة مرشح في العلوم ، هذا إذا كنت موافقاً .

ـ ولكنني لم أكمل تقديم امتحاناتي عن الفترة المتبقّية لي في المعهد .

وجاء جوابه :

ـ لا بأس . ستقدم الامتحانات بعد بضعة أشهر مع المنتسبين ، وبعد ذلك ستذهب مباشرة للتسجيل في الدراسات العليا .

ولم أعطِ الموافقة فوراً ، بل سألته :

ـ أريد مهلة للتفكير .

ما كان يشغل بالي هو مسألة النفقات المادية المطلوبة لمتابعة التحصيل ، ذلك أنني كنت أتلقى مخصصاً شهرياً بدلاً لإدارتي المدرسة ، فخشيت أن مخصص الدراسات العليا سيؤدي إلى خفض المستوى المعيشي لعائلتي ، وقد باتت مكوّنة من ثلاثة أشخاص : زوجي وأنا وابننا . ولكن مفوّض اللجنة المركزية قال شارحاً الأمر :

ـ لست أدري أي شيء عن الظروف التي ستحيط بالدراسة . كل ما أعرفه هو أنك ستستمر في إدارة المدرسة طيلة الفترة قبل تقديم الامتحانات وتخرّجك في المعهد . أما الجوانب الأخرى من المسألة فعليك مناقشتها في مينسك .

وأسرعت إلى مينسك التي لم تكن تبعد إلاّ ثلاثين دقيقة بالسيارة ، ومعي العنوان الذي أعطانيه المفوَّض الحزبي .

واتضح لي فيما بعد أن ثمة تقريراً حول دراستي ونشاطي الحزبي كان قد

ورد إلى اللجنة. آنذاك بلغ عمر تجربتي الحزبية ثلاث سنوات. وأبدت اللجنة التي رئسها الپروفيسور إ. م. بوريسيڤيتش عن اللياقة حيالي. وفي نهاية اللقاء بادرني الپروفيسور بالقول:

- أخذاً بعين الاعتبار مؤشّرات دراستك ونشاطك الاجتماعي والانتاجي، اتخذت اللجنة قراراً بترشيحك لإكمال الدراسات العليا التي أنشأناها هنا، في مينسك. وسيكون اختصاصك دراسة مشكلات علم الاقتصاد.

وكان من الطبيعي أن أسأل:

- وأي نوع من الاختصاصيين سيجري إعدادهم في الدراسات العليا؟

- نريد إعداد أخصائيين اقتصاديين بوجه عام، ممارسين ونظريين. من المعروف أن معهد التعليم الأحمر في موسكو يُعِدُّ مدرّسي العلوم الاجتماعية للمعاهد العليا السوڤياتية، ونحن ننوي القيام بالمهمة نفسها هنا، حيث نريد أن تنتسب.

وشَرح لي بعدها أنه من الضروري التركيز على الأفضليات والامتيازات التي تحملها السلطة السوڤياتية والاقتصاد السوڤياتي وإعادة بناء القطاع الزراعي إلى فلاحينا، وكذلك ما توفره لهم الحركة الكولخوزية، مقارنة بما ورثناه عن روسيا القيصرية من ملكيات خاصة. وباختصار، فقد كان المطلوب تبيان أن السلطة السوڤياتية، من وجهة النظر الاقتصادية، قادرة على تأمين ظروف أفضل لحياة الشعب، وبما لا يقارن مع ما كانت تفرضه السلطة البرجوازية - الإقطاعية.

وعلمت فيما بعد من رفاقي، الذين استدعوا كذلك إلى اللجنة، أنهم

وافقوا فوراً على اقتراح تقديمهم لمتابعة الدراسات العليا. إلاّ أنني استغرقت في التفكير بضعة أيام أخرى.

وأعلنت أمام اللجنة بصراحة:

- لقد مللت العيش على المنحة.

وجاءني الجواب مطمئناً:

- بعد وقت قصير سيصار إلى تصحيح وضع الدارسين لجهة زيادة المنحة على غرار المخصصات الحزبية القصوى، وهذا لن يكون بالوضع السيء.

وقال بوريسيڤيتش:

- في ما يتعلّق بتقديم الامتحانات في المعهد لن يكون هناك أي صعوبات، فهم يعرفونك جيداً وسيتّخذون منك موقفاً إيجابياً. أما مجموعة الدارسين فلن تبدأ عملها قبل مرور ستة أشهر تقريباً، وهذه فترة كافية تماماً.

وفي نهاية حديثه أضاف الپروفيسور:

- وفي حدّ ما أعلم فأنت ستعيَّن للعمل في مينسك في كل الأحوال، حتى لو لم توافق على الانتساب إلى برنامج الدراسات العليا.

لقد عنى ذلك أنه سيتعيَّن علي ترك المدرسة ومنطقة دزيرجنسكي في كل الأحوال.

وبعد أن وازنت بين كل «النعم» و «اللا»، وأنفقت الوقت القصير كله في التفكير بالموضوع، قلت:

ـ أنا موافق.

وهكذا تمّ تسجيلي طالباً في الدراسات العليا لنيل درجة مرشح في العلوم.

وكان عليّ القيام بزيارة إلى مينسك لتقديم الامتحانات وحلّ مسألة السكن. وتقدّمت إلى الامتحانات فحزت درجة امتياز في أرصدة العام الدراسي الأخير وفقاً للبرنامج الذي أعدّته اللجنة الفاحصة. وتلا ذلك لقاء طويل مع لجنة القبول للدراسات العليا، حيث قبلت مع رفاق آخرين.

وكانت دراساتنا العليا تحت إشراف البروفيسور إ.م. بوريسيڤيتش نفسه ومساعده البروفيسور غ. ن. كليمكو، الذي شارك في الحرب الأهلية وفَقَدَ إحدى ذراعيه في المعارك من أجل سلطة السوڤياتات.

وهكذا، انتقلت وعائلتي للاستقرار في مينسك، فاستأجرنا شقة في بداية الأمر. وكان البروفيسور على حق في ما يتعلّق بالمخصّص الذي صُرف لنا، إذ كان يعتبر مبلغاً كافياً في ذلك الوقت بالنسبة إلى عائلة مثل عائلتنا.

وبدأت عملية دراسة جدية ومكثّفة للعلوم، وبدت لنا كلمة « معيد » التي أطلقت علينا غريبة بعض الشيء. ثم إننا، نحن أنفسنا، لم نعرف كيف يمكن التكيف مع وضعنا الجديد. كان عددنا سبعة معيدين دخلنا في عداد الباحثين العلميين.

لقد رأت فينا اللجنة المركزية أشخاصاً عليهم أن يعملوا في مجال البحث العلمي. وهكذا التحقنا بأكاديمية العلوم في جمهورية بيلوروسيا السوڤياتية الاشتراكية تنفيذاً لنداء الحزب.

وبعد مضي بعض الوقت أقيم احتفال في أكاديميتنا بيوبيل ما.. لا أستطيع الآن تذكّر بمَ كان مرتبطاً، وجلّ ما أذكره أننا جئنا، نحن المعيدين، للقاء علماء كبار وأكاديميين وأعضاء مراسلين عظماء. وكم كان عجبنا كبيراً عندما لم يجر تخصيصنا بأمكنة للجلوس إلى المائدة، بل جلسنا في مقاعد إسوة بالمدعوين من العلماء، وكانت الضيافة كريمة للغاية.

ولا أذكر على وجه الدقّة عمّ تحدثنا آنذاك، ولكن الحديث كان يتجه عموماً للاعتراف بذلك الاحترام العميق نحو المعيدين الذي تجلّى في احتفاء عظماء العلماء بنا. وتأكّد لنا لماذا تقف الدولة السوڤياتية موقف الاحترام من العلماء وأن هذا الموقف ليس عبثاً. كان جلياً أنهم يحترمون العلم وأن البلاد بحاجة ماسّة إلى جهود من يعمل في مجالاته.

وأعترف بإخلاص أنني وبعد لقائي بالأكاديميين وتلمّسي موقفهم منا والرعاية التي تحيط بها الدولة العلماء، أدركت أنه ينبغي السير في طريق العلم إذا أتيح للمرء قدر معين من المعطيات، وأن هذه الطريق هي الخيار الصحيح.. ولقد اخترته.

واقتصرت الدراسة في النصف الأول للعام الدراسي على التركيز على الاقتصاد السياسي والفلسفة واللغة الإنكليزية. وكانت الهيئة التعليمية مؤلفة من أساتذة أقوياء.

فقد كان المحاضر الأول والمستشار في مادة الفلسفة البروفيسور إ. س. ڤولفسون علاّمة الفلسفة الماركسية وواضع كتاب المادية التاريخية الدراسي.

أما الأستاذ المشرف على مادة الاقتصاد السياسي فقد كان البروفيسور

أ . إ . نوتكين، الذي تميّز بقدراته الكبيرة ومعرفته العميقة بنظرية ماركس الاقتصادية.

وفيما بعد، حين بات ي. ف. ستالين يولي اهتمامه لبعض المشكلات النظرية في الاقتصاد الاشتراكي ويعالجها، كان نوتكين هو الذي انبرى له بسؤال يتصدّى لإشكالية المعالجة. ونشرت الصحافة سؤال نوتكين وجواب ستالين. وعمل نوتكين إلى وقت قريب في معهد الاقتصاد بموسكو بعد أن أصبح عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم السوفياتية. وكنت أحب مناقشته في بعض مسائل الاقتصاد السياسي، وأتمتع بذكائه العميق. وقد وافت نوتكين المنية عام ١٩٨٢.

الانتقال إلى موسكو

وقع حدث عام ١٩٣٤ أثّر على مجرى حياتي لاحقاً، إذ أعلنت إدارة المعهد لنا، نحن المعيدين:

- تُنقل مجموعتكم إلى موسكو للالتحاق بمعهد بحوث متخصص في مجالكم نفسه.

أيّ نبأ هذا! وأصبحنا نتداول في ما بيننا المثل القائل: «زعمتَ أنّك عتّال، هيّا فارزح تحت الحمل»، وشعرنا أنه ينطبق على وضعنا. ألاَ يجب الإعراب عن احتجاجنا ضد قرار النقل؟

وهكذا يمّمنا شطرنا نحو موسكو، واستوعبت حقائب ثلاث كل أغراضنا العائلية الخاصة.

لا أستطيع نسيان ذلك الشعور الذي انتابني وأنا في طريقي إلى

موسكو. كأنّ شعوراً داخلياً كان يقول لي إن حياتي المقبلة ستكون مرتكزة إلى قرارات ستُتّخذ في المدينة الأولى لدولتنا، في العاصمة.. ولكن من ذا الذي سيتخذ هذه القرارات ومتى وعلى أي مستوى؟ هذا ما كنت أجهله.

وقبل الانتقال كانت ثمة فكرة تحفر فيّ، ولم أستطع التخلّص منها، وهي أنني أبتعد أكثر فأكثر عن الأماكن التي أمضيت فيها عقدين ونيفاً من حياتي. فالمرء تربطه جذور غير مرئية بتلك الأماكن، حيث ولد، فلا تفتأ تذكره بكل عزيز وقريب. ومنّيت النفس بأمل العودة يوماً لأذرع كل مكان شهد طفولتي وصباي.

ولكني ظللت أطرد كل الأفكار الكئيبة، فكان يأتيني الصوت الداخلي قائلاً:

- ومع ذلك فأنت وعائلتك لن تتغرّب في أي مكان.. إنها عاصمة بلادك العظيمة.

وحملني خيالي في إحدى المرات حتى إلى الكرملين. أيعقل أنني سأسير في أرجائه وأرى جدرانه عن قرب لا في الصور واللوحات فحسب؟ أمن المعقول أنه سيكون في إمكاني قريباً أن أقطع الساحة الحمراء؟ هل سيصبح الحلم واقعاً؟

عندما وصلنا موسكو، كان يعيش في مدينة ألكسييف الطلابية عدد كبير من الطلاب والمعيدين. ويمكنني القول بجرأة إن هذا المكان كان الجزء الشبيي من المدينة. يخرج المرء من البيت فلا يرى إلاّ شباناً وفتيات ممتلئين سعادة وتفاؤلاً، وهما صفتان ميّزتا دائماً أجيال الطلاب السوفيات.

وكان انتقالنا إلى موسكو في مقتبل الربيع، في آذار (مارس).

وتعرّفنا على المعهد الذي كان يرئسه البروفيسور م. أ. لور‍ـ‍ـه، المنظّر الاقتصادي الشهير. وسرعان ما أُعطينا سكناً، وشعرنا أن اللجنة المركزية للحزب تحبونا برعاية كبيرة. وبقيت أقطن في مدينة ألكسييڤ الطلابية إلى أن حصلت، من أكاديمية العلوم السوڤيا‍ـ‍ـ، على شقة جيدة في بناء كبير يقع في شارع تشالكوف.

وكان جاري، المشارك في الشقّة، عالم الڤيروسات الشاب ميخائيل پتروڤيتش تشوماكوڤ. في الوقت الراهن أصبح هذا العالم يتمتع بشهرة عالمية. فمن مآثره وإسهاماته التي لا تقدر بثمن انتصاره على المأساة - الكارثة التي اسمها مرض شلل الأطفال (الپولْيُومِيليتْ). فكم من الأنفس البريئة أنقذها اللقاح الذي اكتشفه جاري بالاشتراك مع العالم أ. أ. سمورودينتسيڤ، فكان اللقاح الأنجع في العالم أجمع.

وفي الثلاثينات اشتغل تشوماكوڤ في ميدان مكافحة مرضٍ آخر هو الإنسيفاليت(*). خاطر بصحته، وحتى بحياته، حين عمل في عداد بعثة من علماء الڤيروسات توجهت لإجراء البحوث في الشرق الأقصى. وكانت مهمة البعثة معرفة لماذا وكيف يصاب الناس بالإنسيفاليت. وأصيب تشوماكوڤ أثناء العمل، آنذاك، بالمرض الذي ترك بصماته على تأثُّر سمعه وشلل يده.

بيد أن هذه المعاناة لم تثنِ العالِم، بحيث شكّل نشاطه اللاحق أسطع برهان على استمراره.

(*) الإنسيفاليت: مرض ڤيروسي يفتك بالدماغ والجهاز العصبي التهاباً وقد تأتي نتيجته موتاً محققاً، ويعتبر القملُ الناقلَ للڤيروسات المسبِّبة للمرض - (المترجم).

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٨٤، عندما بلغ حامل جائزتي لينين والدولة عضو أكاديمية العلوم الطبيعية في الاتحاد السوڤياتي م. پ. تشوماكوڤ، الخامسة والسبعين من حياته مُنح لقب بطل العمل الاشتراكي للمآثر الكبيرة والعظيمة التي حقّقها في تطوير العلم الطبي والصحة العامة وتحضير الكادرات العلمية. ولقد بعثت بتهاني القلبية الحارة إلى جاري القديم، وامتلأت سعادة حين تسلّمت منه برقية جوابية حارّة.

لم تختلف دراستي في موسكو كبير اختلاف عمّا كانت عليه في مينسك، فضلاً عن أن التكليفات الحزبية ازدادت عدداً فاق عدد ما كانت عليه بوريسوڤ ومينسك. بيد أن أهداف المهمّات الحزبية هنا تنوعت أكثر، إذ كانت متعلّقة بانتزاع ممتلكات الكولاك(*) إبان مرحلة الكلخزة وبتوطيد الكولخوزات وتوضيح سياسة الحزب والوضع الدولي للكولخوزين. وألقيت العديد من المحاضرات ذات المواضيع المختلفة في مالوياروسلاڤتس ونارو - فومينسك وأوريخوڤو - زوييڤ وغيرها من البلدات المحيطة بموسكو. كما عقدت اجتماعات كثيرة مع كادحي القرى والمناطق الزراعية.

والحقيقة أنه إضافة إلى كل ذلك طُرحت مهمة القضاء على الأمية والإشراف على ضبط أوضاع المسائل في مواقعها. فقد كان مطروحاً على سبيل المثال معرفة ما إذا كان نظام الكولخوزات مفهوماً من قبل الكولخوزيين وما إذا كانت ثمة نقاط وبنود غير واضحة. ولم تكن الرحلات لإلقاء المحاضرات النظرية نادرة أيضاً، ومنها القيام بشرح

(*) الكولاك: الاقطاعيون الروس - (المترجم).

كتابي ف. إ. لينين «المادية ومذهب النقد التجريبي» و «تطوُّر الرأسمالية في روسيا».

وأذكر في هذا المجال حادثة. ففي إحدى رحلاتي، وعندما حان أوان المبيت ليلاً اقترح علي رئيس السوفيات الزراعي المحلي قائلاً:

ـ يمكنك قضاء الليل إما في كوخ تسكنه عائلة كثيرة الأولاد، وهذا ما قد يسبب بعض الإقلاق، أو في عنبر للتبن حيث يتوقف، دائماً، المكلفون بمهمات، للراحة.

فأجبته:

ـ بل أفضل الخيار الثاني.

وسرعان ما تذكرت كيف كنت أعنى في السابق بالخيول ليلاً، فأسوقها إلى العنابر وأبيت الليل مفترشاً التبن، تماماً كما أزمع القيام به الآن.

وقادني رئيس السوفيات إلى المكان، وما كدنا أن نصل إلى فناء العنبر حتى بادرني بالقول:

ـ في مكان ليس بعيداً من هنا، قتل أعداء السلطة السوفياتية في عنبر كهذا أحد المبعوثين المكلفين بمهمة منذ وقت قريب.

هكذا إذاً! من الطبيعي أن تلك الملاحظة لم تكن لترفع من معنوياتي، كما لا أدعي القول إنني نمت بعمق، ولكنني أمضيت الليل دون أي مغامرة.

وبشكل عام كانت رحلاتي كلها تتكلّل بالنجاح والفائدة على حدّ ما كانت المنظمات الحزبية تقوله لي.

وفي تلك الفترة تقريباً قررت الانتساب إلى مدرسة الطيران دون الانقطاع عن ممارسة البحث العلمي. فقد أضحت السماء بالنسبة إلى كثير من زملائي حلماً، وحقق الطيران في الاتحاد السوفياتي آنذاك نجاحاتٍ كبيرة، إذ بات بإمكان الطيارين التحليق فوق القطب واكتشافه والإفادة من ثرواته. كان يُنظر إلى الطيران بعين مميزة. بيد أن الخيبة كانت تنتظرني، إذ قابلني مدير المدرسة على النحو التالي:

ـ اسمك واسم عائلتك.

ـ أندريه غروميكو.

ـ ما حاجتك؟ قل من فضلك.

ـ أريد أن أصبح تلميذاً في مدرستكم، أريد أن أطير، وأرجو قبول الطلب.

ـ كم لك من العمر؟

ـ خمس وعشرون سنة.

هل أتممتها؟

ـ أجل.

ـ إننا نقبل من لم تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين، وأنت دخلت في السادسة والعشرين. للأسف لا نستطيع قبولك. إني آسف حقاً. التعليمات صارمة.

وهكذا، يتبين أنني تأخرت في إعلان رغبتي لتعلّم الطيران. وعانيت كثيرا من معاندة القدر وتقلّبه. وكنت شديد الرغبة في تعلُّم الطيران. ولكن مدراء مدارس الطيران كانوا أمام سعة في الاختيار لكثرة الساعين

من الشبان إلى الالتحاق بهذا السلك. وكان علي أن أرضى بالوضع فقلت لنفسي: «وداعاً أيها الطيران، يبدو أنك لن تكون لي مستقبلاً».

إصغاءً لقدماء البلاشفة

ثبتت في ذاكرتي اللقاءات مع بعض الثوريين العظماء في رابطة قدماء البلاشفة، التي أُنشئت على عهد لينين، وتـمَّ تشكيلها من الناحية التنظيمية في أوائل الثلاثينات. وجاء تأسيس الرابطة نتيجة طبيعية لشعور البلاشفة القدماء بضرورة التواصل في ما بينهم، وتذكُّر ما كـان مـن أمرهـم في الماضي والمشاركة في حركة الحاضر.

ولم يكن يقبل في الرابطة إلاّ الشيوعيون الذين مضى على عضويتهم الحزبية ثماني عشرة سنة على الأقل. وفي كانون الثاني ١٩٣٤ أصبحت الرابطة تضم في صفوفها أكثر من ألفي عضو. ومن أهداف الرابطة، كما ورد في نظامها الأساسي الذي أُقر عام ١٩٣١، استثمار الخبرة الثورية للبلاشفة القدماء لمساعدة الحزب على تربية الشبيبة وجمع المواد التاريخية ـ الثورية.

وكنت وزملائي في الدراسات العليا نعرف جيداً أسماء أعضاء الحزب القدماء، المقربين إلى لينين ومؤيدي أفكاره. ومن الطبيعي أن هؤلاء الرفاق القدماء كانوا قد بلغوا من العمر والصحة مبلغاً لم يعد يسمح لهم بالقيام بنشاط حزبي كبير. كان من بينهم ثوار أماجد نشأ بعضهم في رحم حركة الشعبيين (نارودنيكي)، فكانوا يشكلـون جسراً يمتـد مـن الشعبيين إلى حزب البلاشفة الذي أيدوا برنامجه وأهداف نضاله وتقبّلوها.

ولم يكن أعضاء الرابطة يجتمعون كثيراً، ولكننا كنا نحضر اجتماعاتهم

التي كانوا يدعوننا إليها. وكانوا أيضاً يجتمعون بعضهم إلى بعض على نطاق ضيق على الرغم من عدم توفُّر الظروف المثالية لذلك.

وكان نادي رابطة قدماء البلاشفة يقع في شارع پيترڤيا ميشانسكايا (جادة «مير» حالياً). وكنا نشعر بالرهبة والإثارة كل مرة ندخل فيها إلى صالة الاجتماعات. ولعل تعليل ذلك بسيط جداً. فالجيل الجديد، الذي نال قسطاً وافراً من التعلم، قرأ بحبور كل المنشورات والكراريس والكتب الكبيرة التي تناولت سير ثوريّي الجيل اللينيني القدماء ونضالهم ضد القيصرية انتصاراً لقضية الثورة. لقد كنّا نقرأ الكتب المفعمة بروح العمل السري الرومانطيقية وبطولات المناضلين. وكـانـت نـار النضـال الثوري التي أشعلها لينين والحزب تستحوذ على خيال الشبيبة. كنا نريد أن نعرف كيف جرى كل الذي جرى، وكيف تحدَّدت مصائر الناس الذين وقفوا حياتهم للنضال من أجل حرية الشعب.

وهاكم مشهداً لأحد الاجتماعات. في هيئة الرئـاسـة يجلس أشخـاص حيكت الأساطير حولهم منذ زمن بعيد، ورُبيّت على بطولاتهم الشبيبة سنوات طويلة.

برز واحد من أوائلهم نيقولاي ألكسندرڤيتش موروزوف، الثوري الباسل الذي كان في الماضي عضواً في المنظمة الثورية السرية «الأرض والإرادة» («زيمليـا إي ڤـوليـا») ومـن ثم عضـو اللجنـة التنفيـذيـة لـ «الإرادة الشعبية» («نارودنَايَا ڤولْيَا»). فقد قابل في شبابه كارل ماركس وامتد لقاؤهما ساعات. وكان ماركس يقـدِّر علاقـاتـه بمواطني روسيا الطليعيين ويحرص على الاتصال بهم. بيد أن موروزوف، الشاب آنذاك، لم يتقبل رغم ذلك الماركسية، وآثر أن يصبح عضواً في «الإرادة

الشعبية». وفي عام ١٨٨٢ حُكم عليه بالنفي المؤبّد لاشتراكه في محاوله اغتيال القيصر ألكسندر الثاني. وكان له من العمر آنذاك ثمانية وعشرون عاما، فأمضى ربع قرن إلاّ قليلاً سجيناً في زنزانتين انفراديتين في قلعتي پتروپاڤلوڤسكايا وشليسلبورغسكايا.

وبعد مضي سنين عديدة سجيناً في القلعتين أفرج عنه، إذ لم يستطع الجلادون كسر شوكته أو النيل من إرادته، فانخرط مجدَّداً في النضال الثوري، حيث لم يفقد صفته كمناضل حقيقي. وما لبث أن قبض عليه مرة ثانية زبانية القيصر وزجّوا به في قلعة دڤينسكايا التي لم يخرجه من «أحضانها» إلاّ انتصار الثورة.

ومن الطبيعي أن صحته تدهورت إلى حدٍّ بعيد، غير أنه لم يستسلم فوهب نفسه للبحث العلمي وحقق نجاحاً منقطع النظير. ويحكي اشتغاله بقية عمره في العلم عن تعدُّد وجوه شخصيته الفذة. فقد قال كلمته في ميادين الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات والتاريخ.

وما لبثت أكاديمية العلوم في الاتحاد السوڤياتي أن منحته لقب عضو فخري فيها، وأما علماء الفلك فقد أطلقوا اسمه على أحد النجوم اعترافاً منهم بإنجازات هذا العالم الكبير.

وخلال سنوات شبابي كان موروزوڤ يقوم بنشاط كبير في رابطة قدماء البلاشفة، حيث رأيته أول مرة، إضافة إلى اشتغاله بالبحث العلمي.

ويبدو أن الطبيعة نفسها أسهمت في جعل هذا الإنسان موضع شهرة أكثر من غيره. كان مظهره الخارجي وذلك المشيب الرائع الذي وخط

رأسه ولحيته الكثة يستدعيان الاحترام، حتى أن أعضاء هيئة الرئاسة كانوا يستقبلونه دائماً بحرارة وحب.

وكان موروزوڤ حيوياً في حركاته على المنصة يشارك الجالسين إلى جانبه الحديث. وكان أكثر ما يسترعي انتباهنا ذلك الوجه الوضّاء الريّان، ذو اللون الوردي، وفي الوقت نفسه بدت بشرته رقيقة حتى ليخيّل للمرء أنها شفافة. وجلست قريباً من المسرح لأرى جميع الجالسين على المنصة عن كثب. وتطابقت انطباعاتي مع انطباعات زملائي عندما تبادلنا الآراء.

وانتظرنا كلمة موروزوڤ، إلاّ أنه لم يتكلّم في هذا الاجتماع.

وأعطيت الكلمة لبيلا كون القائد الشيوعي المجري والشخصية الفذة المعروفة في أوساط الحركة الشيوعية العالمية وأحد مؤسّسي الحزب الشيوعي المجري. وكان كون قد شغل منصب مفوض الشعب للشؤون الخارجية والحربية في جمهورية المجر السوڤياتية عام ١٩١٩. وبعدما تمكّنت البرجوازية وملاك الأراضي من ضرب الثورة في المجر هجر الوطن إلى روسيا السوڤياتية عام ١٩٢٠ إنقاذاً لنفسه من موت أكيد.

وتكلّم كون بثقة وإقناع. ومع أنه كان يستعين بالمترجم إلاّ أنه أقنعنا من سياق كلمته أنه درس اللغة الروسية. كانت ذكرياته تدور حول الفترة التي وجدت فيها جمهورية المجر السوڤياتية.

وكانت الفكرة الرئيسية التي تمحورت حولها كلمة كون تقوم في أن البرجوازية وملاّك الأراضي يُعتبرون الأعداء الملعونين للعمّال، الأعداء الذين لا يمكن التغلّب عليهم إلاّ بواسطة تنظيم الطبقة العاملة بزعامة حزبها

الثوري. وعبّر الخطيب في كلمته عن ثقته بأن جماهير المجر الكادحة ستنتزع حريتها. وقال كون:

ـ إن بلاد السوفيات وحزب لينين يمثلان بالنسبة إليّ النموذج الملهم.

وعلى الرغم من أن كون أتى على ذكر ستالين في كلمته، إلاّ أن ذلك كان من قبيل الإشارة السريعة. وخلق الخطيب انطباعاً يجعل المرء يرى فيه ثورياً مقاتلاً يعرف وضع بلاده تمام المعرفة، إذ كان يسوق الوقائع بطلاقة ويتكلم بارتجال. ولم يكن سياق الأفكار وأسلوب المعالجة يتركان أي شك في أن هذا الشخص عميق الثقافة قوي الشكيمة. هكذا انطبعت صورة كون في ذاكرتي.

وفي هذا الاجتماع نفسه تكلّم ڤيلهيلم غيورغيفيتش كنورين، الثوري اللاتفي المحترف الذي أسهم في نشاط الحركة الثورية الروسية منذ سنة ١٩٠٥، وقد كان يعمل آنذاك في اللجنة التنفيذية للكومنترن. وتناول في كلمته الوضع الدولي، مركّزاً على المهات المطروحة أمام الأحزاب الشيوعية. قال كنورين:

ـ إن وصول الفاشية إلى السلطة في ألمانيا عقّد الوضع في أوروبا ووتّر إلى حدّ بعيد الوضع الدولي عموماً. وسيكون بوسع الشيوعيين أن يحققوا النجاح إذا تعلّموا من دروس الماضي وتلافوا ارتكاب أخطاء جديدة.

وفيما هو يتحدث عن ألمانيا، حاول كنورين ألاّ يقدّم أي تشخيصات، مما استرعى انتباه جميع من كان حاضراً في الصالة. وبشكل عام اتسمت كلمته بالاتزان والطلاقة والبعد عن الاقتراحات غير المعلّلة حول مستقبل أوروبا والعالم عموماً. وكان بمقدور أي خطيب آخر أن

يعرّج في حديثه على خطط هتلر العسكرية، ولكن كنورين تكلّم وهو محجم عن ذلك، والأمر يمكن تفسيره في حدود معيّنة. فمخططات التحضير للعدوان التي كان يعدّها الفاشيون، والسلطة في أيديهم، لم تكن واضحة كلها. كانت الميول التوسّعية للفاشية واضحة في كتب وكراريس الفوهرر المجنون. ولكنها لم تكن قد تجسّدت بعد في الممارسة السياسية العملية لألمانيا الهتلرية. ولم يمض وقت طويل حتى شهد العالم كيف انقضّ الوحش الفاشي على البلدان المجاورة موقعاً أفظع عدوان.

كانت شخصية كنورين موحية وعميقة، وهو بوصفه خطيباً مجرّباً كان يصوغ أفكاره بوضوح. وكان مظهره يذكرني بنموذج أستاذ يلقي محاضرة. ولم يكن صعباً أن يكتشف فيه المرء مثقفاً كبيراً، وذا ذكاء حاد لا يعوزه التفتيش عن الكلمات للتعبير عن أفكاره. كان شخصاً أوتي موهبة محاججة مناقشيه الأمر الذي كان يملأ حديثه بالحيوية.

وبالنسبة إلينا، نحن أعضاء الحزب الذين لم يمضِ على انتسابهم إلاّ بضع سنوات، كانت تجذبنا اللقاءات مع الثوريين المحترفين كما المغناطيس. ففي أحد اجتماعات قدماء البلاشفة خطب يميليان ميخائيلوفيتش ياروسلافسكي المشارك النشيط في ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ وثورة أوكتوبر. فهل كان باستطاعة الشبان وقوف موقف اللامبالاة تجاه هذا الإنسان العظيم، وهو رئيس رابطة المنفيين السابقين، ورئيس رابطة قدماء البلاشفة لعموم الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٣١؟! كانت خطاباته مكرسة لتربية الشيوعيين الإيديولوجية.

وكان على المنصة أيضاً البلشفي القديم مارتين نيقولايفيتش ليادوف، عضو الحزب منذ عام ١٨٩٣، المشارك في معارك الحواجز التي جرت في

موسكو عام ١٩٠٥. وللوهلة الأولى يثير هذا الثائر في الناس الشعور بأنهم أمام عامل حقيقي ترك مكان عمله وراء ماكينته لتوه، وجاء ليحيّي المجتمعين. ففي شخصيته وحركاته يلوح شيء ما عُمّالي حقيقي.

وقد أجمع المتداخلين في الاجتماع على ضرورة أن يقضي الحزب على المعارضة التروتسكية. فطبيعة التروتسكية المعادية للحزب وللاشتراكية كانت قد بانت مفضوحة في تلك الفترة، فاعتبرت الدعوة للقضاء عليها أمراً واجباً.

أما من تأخر عن الاجتماع فلم يكن يعثر على مقعد يجلس فيه، فكنت ترى من فاتهم الموعد يقفون بإزاء جدران الصالة أو يجلسون على الأرض في الممرات بين المقاعد. كان العديد يأتون إلى هنا ليلتقوا بالتاريخ، وكان الخطباء يعرفون ذلك..

وفي عام ١٩٣٥ أوقفت رابطة قدماء البلاشفة نشاطها وأُغلق ناديها. حدث ذلك في ظلّ ظروف عبادة شخصية ستالين، الأمر الذي يفسّر لماذا اندثرت الرابطة، ولماذا توقفت أسماء بعض أعضاء الرابطة عن الظهور في الصحافة.

في أكاديمية العلوم

بعد إنهائي الدراسات العليا التي استمرت سنوات أربع وشملت كذلك كتابة أطروحة المرشح في العلوم والدفاع عنها عام ١٩٣٦، عُينت في المعهد الاقتصادي التابع لأكاديمية علوم الاتحاد السوڤياتي في منصب باحث علمي. كان المعهد آنذاك تحت إدارة الأكاديمي م. أ. ساڤيليوف، البلشفي القديم ورفيق ڤ. إ. لينين.

وقتذاك اعتبرت أن عملي كباحث علمي جدي وسيستمر لفترة طويلة. وأُتيحت لي الفرصة، إضافة إلى البحث، أن أعمل أستاذاً مُعاراً لمادة الاقتصاد السياسي في معهد موسكو لمهندسي بناء المجمَّعات السكنية. ومما يجدر ذكره أن عدداً من طلاب المجموعة التي درَّستها شغل فيما بعد مناصب عليا في إدارات الدولة، فمن تلاميذي مثلاً إيڤان ڤاسيليڤيتش كاپيتونوف. ولم يكن طلاب ذلك الزمان يختلفون كثيراً من حيث أعمارهم عن الأساتذة، الأمر الذي جعلهم محرجين أمام طلابهم بمعنى ما، وهذا ما حصل لي شخصياً، مما خلق لدي الرغبة في أن أبدو أكبر سناً!

وفضلاً عن عملي الأساسي والجانبي كنت مكلّفاً بتنفيذ بعض المهمات الحزبية، كالإشراف على التثقيف السياسي لبعض مجموعات الكادرات العلمية ـ التقنية في إحدى كبريات المؤسسات في موسكو. كان ذلك يشكل عملي الاجتماعي.

وكان النشاط الاجتماعي يُنفّذ في أوقات خارج الدوام، أما الاجتماعات فلم تكن تضم عادة أكثر من ثلاثين شخصاً، يتداولون في السياسة الداخلية والخارجية لبلادنا. وتبيّن لي فيما بعد أن اللجنة المنبثقة من اللجنة المركزية للحزب، والتي اختصت بترشيح ديبلوماسيي المستقبل، أخذت بعين الاعتبار النشاط الذي قمت به.

ومنذ عام ١٩٣٨ شغلت لبعض الوقت مسؤولية أمين السر العلمي لمعهد الاقتصاد. وفي إحدى المرات استدعاني رئيس أكاديمية العلوم آنذاك ڤلاديمير ليونتييڤيتش كوماروف، الأمر الذي أقلقني، فلبيت دعوة هذا العالم العظيم. قال لي:

ـ نريد تعيينك أميناً لسر فرع الأكاديمية في الشرق الأقصى.

أذكر أنني لم أتلقَّ الاقتراح بحماس، إذ اعتبرت أن منصباً كبيراً كهذا يجب أن يشغله عالم علاّمة. ولم أُخْفِ وجهة نظري:

– إنني ما زلت باحثاً علمياً شاباً، والمنصب الذي تقترحونه علي يحتاج عالماً يحمل على الأقل درجة دكتوراه في العلوم.

قلت ذلك ولكنني فكرت في نفسي: «لو كان رئيس الأكاديمية عالماً نفسانياً وليس عالم نبات، لتمكّن أغلب الظن من استيعابي، ولسافرت إلى ڤلاديڤوستوك». ولكن مبرّراتي بدت له مقنعة.

وكان أن تفهّم الرئيس وجهة نظري، فوافق على إبقائي في عملي، ولكنه قال لي:

– ومع ذلك فكّر بالأمر.

بيد أن عملي في البحث العلمي لم يستمر طويلاً، إلاّ أنني نشرت كتابي «تصدير رأس المال الأميركي» (تحت اسم مستعار هو: غ. أندرييف) عام ١٩٥٧ حين كنت سفيراً للاتحاد السوڤياتي في واشنطن ولندن. وقد عمد المجلس العلمي لجامعة موسكو إلى منحي درجة دكتور في العلوم الاقتصادية على هذا الكتاب. وبعد مضي وقت قصير، أصدرت في عام ١٩٦١ مؤلّفي «توسّعيّة الدولار» تحت الاسم المستعار نفسه.

وبقيت وفياً لهذه المسألة العلمية التي ألّفت فيها كتابين، فأصدرت عام ١٩٨٢ الكتاب الثالث: «التوسّع الخارجي للرأسمال، تاريخه وحاضره»(*). ولا بد من القول إن العمل في هذا الاتجاه البحثي في مجال العلم الاقتصادي ساعدني كثيراً في نشاطي العملي وممارستي السياسية.

(*) منح أ. أ. غروميكو على كتابه هذا جائزة الدولة لعام ١٩٨٤ (الناشر).

الفصل الثاني

قبيل اعصار الحرب

... فترة الثلاثينات كانت فترة توطّد بلاد السوڤيات التي انصرف شعبها إلى بناء الاشتراكية. ومع ذلك فقد كان يجري عمل سلمي هائل لبناء المجتمع الجديد في الاتحاد السوڤياتي، في ظل ظروف دولية متوترة، خصوصا إبّان النصف الثاني للعقد. كان الهواء يمتلىء برائحة البارود. والجميع يشعر أن البلاد تُظلّلها غيوم الحرب الرمادية الثقيلة، ولكنهم لم يريدوا تصديق الأمر! كان ذلك واقعاً وقد أدركه المواطنون السوڤيات.

تلبّد الغيوم

أخذت الشعوب، الواحد تلو الآخر، تسقط ضحايا عدوان ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية واليابان العسكرية. وقد نهجت إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة، أمام وضع كهذا، سياسة «تهدئة خواطر» هذه الدول، محاولة بذلك إبعاد خطر العدوان وتوجيهه نحو الاتحاد السوڤياتي. لقد أصبح ذلك الآن من الأمور المعروفة، بحيث لا يستطيع أحد نزع هذه الصفحات المؤلمة والمرعبة من كتاب التاريخ.

ولم تشكل هذه السياسة – التي كلّلها اتفاق ميونيخ بين الدوائر الحاكمة

في إنكلترا وفرنسا وبين الفاشية الألمانية عام ١٩٣٨ ـ تشجيعاً للمعتدين لارتكاب المزيد من المغامرات الجديدة فحسب، بل إنها انقلبت كذلك على من سعى إليها. ولم يمضِ عام على صفقة ميونيخ حتى طالت ألسنة نيران الحرب العالمية كلا البلدين. وهكذا، وجدت إنكلترا وفرنسا نفسيهما مشاركتين في الحرب. وانهار على مرأى العالم أجمع ذلك التصوّر الذي روّجت له بعض الدوائر في بلدان الغرب من أنها يمكن أن تكون بمنأى عن عدوان الفاشية، وأنه بدوره لن يطالها.

أما في ما يتعلق بالاتحاد السوڤياتي، فإنه ناضل على مدى الثلاثينات بإصرار من أجل بناء نظام أمن جماعي تضامني في أوروبا، ووضع ثقله وتأثيره لِلَجْم المعتدين والحؤول دون وقوع الكوارث؛ بيد أن جهوده المبذولة وحدها لم تكن كافية لبلوغ المرام. فقد رفضت إنكلترا وفرنسا المقترحات السوڤياتية، ولم تعربا عن رغبتهما في مشاركة بلادنا لتوجيه ضربة إلى المعتدين الفاشيين.

وبات من البديهي أكثر فأكثر أن الشعوب، وفي طليعتها الأوروبية، وجدت نفسها عند حدود مأساة عالمية محققة. وفي ظل هذا الوضع الدولي سعى الاتحاد السوڤياتي، بكل ما أوتي من وسائل، إلى تأجيل موعد نشوب الحرب في محاولة لكسب الوقت والاستعداد لجبه العدوان الهتلري.

هذا، وقد اقتضت ضرورة حل المهمات المعقدة، التي واجهت الدولة، متطلبات خاصة كان على الدبلوماسية السوڤياتية مراعاتها، إذ كان عليها أن تستخدم كل الإمكانيات والوسائل المتوفرة لديها. وهكذا، فإن النضال من أجل صون السلام، الذي انتهجه الاتحاد السوڤياتي على جبهة السياسة الخارجية، يبرز بوصفه حقيقة كرّسها التاريخ بالاعتراف

آنذاك لم يكن عمري واستعدادي ليسمحا لي إلاّ باستيعاب متعطّش للمعلومات الواردة عن الأحداث الدولية، وبالقدر الذي كانت تسمح به لفهمها. وجنباً إلى جنب مع أبناء جيلي التصقت بالعمل الذي وقع على كاهلي. وفي كل مرة تسنّى لي فيها الالتفات إلى وراء في مسيرة حياتي، كنت أرى أنني أسير في الطريق الصحيح. كانت تجري مباريات للحصول على لقب «سهم ڤوروشيلوف»(*)، فقرّرت أن ذلك يناسبني، وخضت الأمر وفزت باللقب. وحصلت كذلك على شارة «مستعد للعمل وللدفاع». واتخذت رحلاتي إلى المناطق لتنفيذ المهات الموكولة طابع الأمر العادي، فكنت أثناء ذلك أنفذها بدقة وعلى أكمل وجه.

وفي تلك الأيام، تحولت الاجتماعات واللقاءات التي كانت تعقد في المصانع والفبارك حول الوضع الدولي الخطر إلى ظاهرات متكرّرة. وبوضوح تام شعرت أن المعرفة التي حصلت عليها من قراءاتي لأعمال ماركس وإنجلس ولينين، تفتح عيني على كثير من الأمور التي تحدث في العالم. وأدركت آنذاك أن دراسة أعمال مؤسّسي الماركسية ـ اللينينية، وما اعتراها من فكٍّ لأسرار بعض الموضوعات التي كان يشكل عليّ فهمها في هذه الأعمال، جلبت لي فائدة جمّة.

وفي هذا المجال أرى من المفيد أن أسوق بعض الوقائع الإضافية من فترة الشباب. ذلك أنني استشعرت الانجذاب لقراءة أعمال لينين مذ كنت بعد فتى، فطالعت في البداية الكراريس الأسهل على الفهم، فأذهلني دائماً

(*) ڤورو شيلوف: أحد القادة العسكريين الروس ـ (المترجم).

عمق آراء قائد الثورة. بيد أنني كنت أصادف بعض الكلمات والمفاهيم الغامضة، فأدركت أن ما ينقصني هو العلم. كان ذلك قبل الدراسة في الثانوية المهنية والمعهد والدراسات العليا.

ووقتها قطعت على نفسي عهداً:

- إن بدا لك أمرٌ ما غامضاً فاقرأ وأعد القراءة مجدَّداً، وفكِّر في ما قرأت، وتَقَصَّ واستعلم واسأل أولئك الذين يعرفون. قم بذلك حتى يتوضح أمامك كل شيء.

وبقيت أميناً لهذا العهد طوال حياتي..

وغالباً ما كنّا نتبادل الرأي، نحن الشبان الكومسومولين، ونتناقش حول الطريقة الفضلى لدراسة مؤلّفات لينين ونغوص إلى عمق المسائل. وكان الحلّ يتولد في حمأة النقاش:

- ينبغي الحصول بطريقةٍ ما على مجموعة مؤلفاته الكاملة. فماذا يمكن أن نُساوي إن لم نستطع الحصول عليها؟

ولكننا رغم كل المحاولات المبذولة لم نتمكن من الحصول عليها فوراً. وبعد مضي وقت قصير توفرت المجموعة الكاملة في مكتبة المنطقة، وبدا استطعنا قراءتها مجلداً إثر آخر عن طريق الاستعارة.

وبرز السؤال التالي:

- ولكن، من أين يجب البدء بقراءة مؤلفات لينين؟

وهكذا اتبعنا مبدأ الاستنساب، فكان كل واحد يقرأ ما يحلو له وما يجد أنه محق في اعتباره أولوياً.

إلا أنني رأيت أن دراسة لينين ينبغي أن يكون بدايتها المجلدُ الأول، حيث بدا لي آنذاك مبدأ مبرراً، «يجب البدء حتماً بقراءة الأعمال الاولى».. هوذا ما فكرت به.

وهكذا عكفت على دراسة المؤلف اللينيني: **«من هم «أصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين؟»**. ومنه اتضح لي بما لا يقبل الشك كيف يستغلّ الرأسماليون العمّال ويفرضون عليهم مختلف أنواع الغرامات والابتزاز، دون أي رادع أخلاقي.

واستغرقت قراءتي للمجلد الأول من المجموعة الكاملة وقتاً طويلاً، وكذا كان الحال والمجلد الثاني. واسترعى ذلك انتباه أستاذٍ ذي خبرة، فسألني قائلاً:

- ماذا تقرأ يا أندريه؟

فأجبته:

- أريد معرفة لينين، وها أنذا أدرس أعماله.

- وكيف تدرسها؟

- إنني أقرأها تباعاً، مجلداً وراء مجلد. بدأت مطالعة المجلد الثاني.

وعندها اقترح عليّ الفكرة التالية:

- من الأفضل ألاّ يُدرس لينين بحسب تسلسل المجلّدات، بل الأفضل انتقاء الأعمال التي تتيح للدارس فهم أعماله الأخرى، وبالتالي فهم مجمل تراثه بشكل عام.

وكانت النصيحة قيمة فعلاً، إذ بات بإمكاني التعمّق في أفكار لينين على نحو أفضل. وبذلت ما بوسعي لأخصّص وقتاً ـ بعد القيام بواجباتي

المدرسية ـ لدراسة عَمَلَيهِ « الدولة والثورة » و « عن التعاون » وغيرهما.
وكنت أشعر إثر قراءة كل عمل لينيني وإعادة قراءته مجدَداً أنني لا أنمو على الصعيد الروحي فحسب، بل وكأنَ نمواً جسدياً يجتاحني كذلك. وبالإضافة إلى ذلك، ازداد وعي بأنني مع كوني أصبحت أرى إلى المسائل بأفق أوسع واتضلع فيها بشكل أعمق، إلاَ أن معرفتي هذه لم تكن أكثر من حبة في بيدر التعاليم اللينينية.

وأحسست بميل أكبر للاطلاع على العلوم الاجتماعية، فقطعت عهداً على الإخلاص للعلوم الإنسانية بعدما قرأت كتاب فريدريك إنجلس « ضد دوهرينغ »، وكنت أعلم قبل قراءته أن ثمة عملاً كهذا وضعه صديق ماركس، ولكنني اعتبرت أنه ينبغي للمرء أن ينضج كي يتمكن من فهمه. وعندما بلغت السادسة عشرة قررت الانكباب على قراءة « ضد دوهرينغ »، بل قررت دراسته دراسة معمقة مهما كلف الأمر! وصادف أنني كُلفت آنذاك بقيادة حلقات شبابية جدية تُطرح فيها المسائل السياسية، فضلا عن انتخابي سكرتيراً لمنظمة كومسومولية.

وما إن عكفت على قراءة « ضد دوهرينغ » حتى لم يعد بامكاني أن أتوقف، وأخذ العجب مني كل مأخذ لأنني لم أكن أتوقع لهذا المؤلَف أن يكون سهلا على الفهم كما تبيَن لي!

بهرني ذلك الوضوح في عرض الفلسفة الماركسية، الذي كُرِّس له القسم الأول من الكتاب؛ كما كان القسم الثاني أيضاً مفهوماً حيث يتصدى لشرح مسائل الاقتصاد السياسي. أما القسم الثالث الذي يعرض للتعاليم الماركسية حول الاشتراكية فقد بدا لي القسم الأكثر وضوحاً. وعندما أنجزت قراءة الكتاب بأكمله فكّرت في نفسي: « أيكون أنني

قدرت نفسي تقديراً رفيعاً في ما يتعلَق بسرعة فهمي للكتاب؟ ». وانكببت عندئذٍ على وضع ملخَص للفقرات الأهم من الكتاب، وبتُّ أغوص عميقاً في تفاصيلها.

ولعله، آنذاك بالتحديد، تكوَنت رغبتي بالتخصُص جدياً في ميدان الاقتصاد السياسي. فقد جذبني هذا العلم بصرامته الرياضية التي تتَسم بها أحكامه، وبعمق تحليله الذي يتناول به الوقائع والظاهرات في ظروف الرأسمالية. واستحوذ عليَ تماسك المفاهيم والحجج والأمثلة والاستنتاجات.

وفيما بعد، عندما تابعت الدراسة في المعهد وفي الدراسات العليا تصدّيت باهتمام بالغ لقراءة أعمال لينين وماركس وإنجلس التي حلّلوا فيها مسائل الاقتصاد السياسي. وبلغ الاهتمام ذروته في الدراسات العليا، حيث أعطي هذا العلم المكان الأول.

ولم أسمع بوجود كتاب اسمه « رأس المال » لكارل ماركس إلاَ بعد انخراطي في صفوف الكومسومول بفترة قصيرة. وعرفت من أحاديث الكبار ومما كتبته الصحف أن هذا المؤلف هو الرئيسي بين مؤلَفات ماركس، فقررت أنه لا بد من العثور عليه بأي ثمن، وانقضت بضعة أشهر قبل أن يتمَ لي ذلك.

كان ذلك حين وجدت الكتاب في مكتبة مدينة غوميل، غير أنني تمكنت فيما بعد من شرائه مع أحد مجلَدات مجموعة لينين. وأدركت أن « رأس المال » صعب ويحوي أموراً كثيرة يعسر عليَ فهمها، فبادرت إلى تحديد الفقرات المعقَدة، فقد كان يحدوني الأمل بفهمها مستقبلاً، « حين أصبح أذكى ».

وأقول من قبيل تقرير الواقع إنني وخلال قراءتي لـ «رأس المال» خطرت في بالي تأمّلات كثيرة.

لقد رافقني هذا الكتاب طوال ثلاثين عاماً كما لو كان أثراً عظيم القيمة، وأضعته مع أغراضنا العائلية أثناء الحريق الذي شبَّ على سفينة «پوبييدا» في البحر الأسود حين عدنا إلى الوطن من الولايات المتحدة.

ومن الكتب التي أثارت عندي انطباعاً قوياً في سني الشباب تلك التي وضعها غ. ف. پليخانوف، وخصوصاً كتابه «نحو مسألة تطوير النظرة الواحديَة إلى التاريخ». وأنا أعتبر أن هذا العمل لم يفقد أهميته حتى الآن، فعمق الأفكار الواردة فيه يتقاطع مع تلك الحيوية في التعبير وتبيان جوهر مذهب ماركس، مما يجعل من قراءته دون دهشة أمراً مستحيلاً.

وقد يكون من غير التواضع القول إن كل المعارف النظرية التي أكتسبتها كانت كافية وواضحة عندي بالمطلق. ليس هناك مستوى محدَّد حاسم، كما في أي عمل، يمكن التمييز عبره الكافي من غير الكافي. فقد كانت الحاجة إلى تطوير الذات حاجة مستمرة، وكنت أشعر بذلك دائماً. ولكنّ ما أستطيع قوله بثقة هو التالي: إن المعارف التي اكتسبتها فيما سبق كانت ضرورية، وقد شكّلت أساساً لأكون عنصراً مفيداً في المجتمع.

إن الماركسية ـ اللينينية هي العلم الذي ينبغي للمواطن السوڤياتي تبنّيه، وهذا شأن يتصل بالحياة الداخلية، مع تعدُّد جوانبها ووجوهها، واتصالها بالقضايا الخارجية. وقد يتفاوت عمق المعرفة، بيد أن جوهر هذا المذهب وروحه يجب أن يكونا مفهومين من الجميع.

تعييني في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية

في عام ١٩٣٩ استُدعيتُ للمثول أمام لجنة تابعة للجنة المركزية مع مجموعة من العاملين الجدد الشيوعيين، الذين بدا من الممكن توجيههم للعمل في ميدان السياسة الخارجية، في الميدان الديبلوماسي. وكانت اللجنة مجتمعة في مقر مفوضية الشعب للشؤون الخارجية الواقع عند جسر كوزنتسكي. ومثل معي أيضاً مرشَّحون آخرون، فكان الجميع متلهّفين لمعرفة المصير الذي سيقذفهم حظهم إليه. ثم لم نلبث أن استدعونا واحداً تلو الآخر.

دخلت وقدَّمت نفسي للجنة، التي سرعان ما تبيَّنت بين أعضائها ف. م. مولوتوف وغ. م. مالينكوف. قيل لي:

ـ ثمة حديث يتّصل بإمكان نقلك للعمل في منصب ذي طابع سياسي خارجي، وتحديداً ديبلوماسي.

من الصعب عليَّ تحديد الأمر بدقة: ما الذي جعل أعضاء اللجنة يوقعون اختيارهم عليَّ؟ غير أنني أعتقد أن السبب يعود إلى كوني مارست العمل العلمي ـ الدعائي منذ أياميَ الكومسومولية الأولى وأثناء نشاطي الحزبي فيما بعد. فقد كنت ألقي المحاضرات والتقارير وأرئس الحلقات والندوات في المؤسَّسات والمصانع، فكان المستمعون على الأغلب من الكادرات التقنية والمهنية.

ومما لا شك فيه أن رحلاتي المستمرة لتنفيذ مهمات حزبية، تتناول الشأن السياسي الداخلي والخارجي، كانت عاملاً ذا أهمية حاسمة في وقوع الاختيار عليَّ.

ومن العوامل الأخرى التي لعبت دوراً مهماً اكتسابي للغة الإنكليزية أثناء دراساتي العليا، بالرغم من عدم إتقاني الناجز لها. ثم سُئلت:

ـ ماذا قرأت بالإنكليزية؟

وأوردت عناوين بعض الكتب التي كنت قرأتها، ثم أضفت عنوان كتاب قرأته في سياق عملي البحثي المتخصص:

ـ مؤلّف الاقتصادي الأميركي ستيوارت تشيز: «أرض غنية، أرض فقيرة».

وشعرت بالقرار يسري بين أعضاء اللجنة، إلا أنهم لم يعلنوه لي.

وانتهت المقابلة عند هذا الحدّ.

وانقضت بضعة أيام قبل أن أستدعى هذه المرة إلى اللجنة المركزية للحزب، حيث أعلنوا لي:

ـ ستنتقل في حال موافقتك من أكاديمية العلوم إلى العمل في المجال الديبلوماسي.

وأعقب هذا الإعلان حوار قصير أعطيت على أثره موافقتي.

وهكذا عُيِّنت عام ١٩٣٩ رئيساً لقسم الولايات المتحدة في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية للاتحاد السوڤياتي. ولا أخفي أنني تسلّمت عملي الجديد وشعور غير محدَّد يعتريني.. حدث كل شيء فجأة وعلى غير ما توقَّع.

ولكنني رغبت أن أنغمس في العمل وأنسجم مع مقتضياته بسرعة كي أنجح في ما أوكل إليَّ من مسؤولية.

وابتدأ العمل الديبلوماسي فوراً، إذ عقدت لقاءاتي الأولى مع مسؤولي السفارة الأميركية. وحاولت اكتشاف ديبلوماسيي الولايات المتحدة.

كان سفير الولايات المتحدة في الاتحاد السوڤياتي آنذاك لورنس شتينغاردت، الذي لم يثمر نشاطه أي فائدة تذكر لتطوير العلاقات الأميركية ـ السوڤياتية. بل إنني أذكر أنه لطالما ساءلت نفسي فيما بعد: «لماذا وقع اختيار الرئيس روزفلت، مع كل ما يتَّسم به من سعة أفق وتقدير لأهمية العلاقات الأميركية ـ السوڤياتية، على هذا الشخص بالتحديد؟».

وأتت الأيام لتصحِّح الوضع بنفسها، فلم تطل إقامة شتينغاردت في موسكو، الأمر الذي أرضى الطرفين.

والجدير بالذكر أن شتينغاردت كان السفير الأميركي الثاني منذ أن تبودلت العلاقات الديبلوماسية بين البلدين عام ١٩٣٣.

أما السفير الأول وهو ويليام بولِّيت، فقد ظل في موسكو حتى عام ١٩٣٦.

وقد سبق لبولِّيت نفسه أن زار بلادنا عام ١٩١٩ مبعوثاً من قبل الرئيس الأميركي ويلسون ورئيس الوزراء البريطاني لويد ـ جورج، إذ كان مكلفاً آنذاك بالتفاوض لوقف العمليات العسكرية في روسيا عندما بلغ هجوم الجيش الأحمر ذروته.

ووافق ڤ. إ. لينين على التفاوض مع بولِّيت الذي انصبَّت كل مقترحاته عموماً حول إعادة بعث الرأسمالية ومؤسساتها في البلاد بعد إجراء ترميم لها.

ولكن الدول الغربية استنكفت عن إرسال نص المشروع (الذي اتُّفق عليه في موسكو) إلى الحكومة السوڤياتية، معتبرة أن الهجوم الذي بدأ كولْتشاك بشنّه كفيل بأن يبعث روسيا القديمة من طريق القوة العسكرية.

غير أن «الآنتانْتا»(*) والولايات المتحدة الأميركية أخطأت في تقديراتها، إذ هزم الجيش الأحمر حشود كولتشاك شرَّ هزيمة فيما نفَّذ بالأخير حكم الإعدام رمياً بالرصاص. ولُوحِقَتْ فلول القوات البيضاء في كل أنحاء البلاد، أما المعتدون الأجانب فقد رُدُّوا على أعقابهم إلى ما وراء حدود الدولة السوڤياتية، وتوطَّدت السلطة السوڤياتية في البلاد جميعاً.

ولعله لم يكن من باب الصدف أن روزڤلت أرسل بوليت أوَّل سفير للولايات المتحدة إلى بلادنا بعد إقامة العلاقات الديبلوماسية بين البلدين. فهذا الديبلوماسي كان يحظى بخبرة العلاقة والاتصال بالحكومة السوڤياتية، بحسب رأي الإدارة الأميركية عهدذاك.

وبالطبع فقد انتهج بوليت خلال عمله كسفير خطاً غير ودي البتة

(★) آنتانتا: من الفرنسية «entnente»، وتعني حرفياً الاتفاق. والمقصود بها هنا «الاتفاق الثلاثي» (١٩٠٤ - ١٩٠٧) الذي أُنشىء بموجبه حلف امبريالي جمع بين فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية، التي جابهت مجتمعة ألمانيا وكتلتها إبَّان الحرب العالمية الأولى. ثم ما لبثت الآنتانتا أن ضمَّت فيما بعد أكثر من عشرين دولة (وكان من بينها الولايات المتحدة الأميركية واليابان وإيطاليا). بيد أنّ فشل التدخُّل الأجنبي ضد روسيا السوڤياتية، الذي شنَّته الدوائر الامبريالية، وكذلك احتدام التناقضات بين الدول المعتدية أديَا في نهاية المطاف إلى انهيار «الآنتانتا» التام - (المترجم).

حيال الاتحاد السوڤياتي، إذ كان يبذل كل ما في وسعه لخلق انطباع في واشنطن حول ضعف الاتحاد السوڤياتي، فسعى إلى تصوير كل ما رآه وسمعه في موسكو على نحو متحيِّز. وظلَّ بوليت أميناً لقناعاته حتى بعد نقله من موسكو سفيراً لبلاده في باريس وبقية حياته. ومن تفاصيل الأمور أن بوليت التحق بالجيش الفرنسي في سنوات الحرب العالمية الثانية، وكان في الوقت نفسه يعمل مراسلاً رسمياً لمجلة «لايف» الأميركية، المعروفة بميولها المعادية للاتحاد السوڤياتي، وفيها كتب الصحفي الألمعي ويليام بوليت مقالاته عن الاتحاد السوڤياتي. وفي عام ١٩٤٤، عندما بدأت بالنمو غرسات المواقف الطيبة في التربة الأميركية، على عهد روزڤلت، حيال الحليف السوڤياتي، نشر بوليت في مجلة «لايف» مقالة عدائية تحت عنوان «السلام كما يتراءى من روما»، بعثت الامتعاض في صفوف القوى التقدمية في الولايات المتحدة الأميركية. وبقي بوليت فيما بعد مواظباً على اتخاذ المواقف المعادية للسوڤيات.

أما خلفه جوزيف دايڤيس فقد كان مختلفاً عنه، حيث سعى في إدارة روزڤلت إلى إقناعهم بأنه من الضروري تطوير العلاقات مع الاتحاد السوڤياتي، وفي ميدان التجارة على وجه الخصوص. خدم سفيراً لبلاده في موسكو من يناير (كانون الثاني) ١٩٣٧ وحتى حزيران (يونيه) ١٩٣٨، وامتازت شخصيته بالإيجابية والحيوية. كما اشتهرت كذلك قرينته مارجيري پوست. وبالطبع لم يقع اختيار الرئيس روزڤلت على دايڤيس بالصدفة، إذ كان شخصية تتمتع بالاحترام في الحزب الديمقراطي، وبالتالي فقد كان من المقدَّر له أن يلعب دوراً معيناً في تنمية العلاقات السوڤياتية - الأميركية وتطويرها.

وقد سرت في واشنطن طرائف لطيفة في ما يتعلَّق بتوجُّه دايڤيس إلى

العاصمة السوڤياتية. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه حتى في تلك الفترة كانت تسود دعاية معادية للاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة. فالصحافة البرجوازية، وعلى رأسها بعض رجال السياسة، لم تكتفِ بأن تحمل على النظام وأسلوب الحياة السوڤياتيين، بل عمدت إلى نشر الكثير من الأكاذيب والأساطير حول الجوع الذي يعاني منه الشعب السوڤياتي العائش في ظل الدمار. وكانوا يلقون اللوم في كل ذلك على الثورة، على السلطة السوڤياتية.

ولذا، فقد قرّر السفير الجديد أن يجلب معه تموينه الخاص، لمواجهة أي طارىء. وهكذا، لم تكن مخازن منزل السفير الأميركي، القائم في شارع سپاسوپيسكوڤسكي، تعرف الفراغ! وكانت تجلب إلى موسكو من الولايات المتحدة سلع كثيرة: فما أن السُكّر كما يقال قليل، إذاً فمن الأفضل إحضار نصف طن. وإذا قيل إن الدقيق والزبدة قليلة، فمن الأفضل والحال هذه استحضارها بكميات وفيرة من الوطن. وليعرف البلاشفة أن السفير الأميركي يشرب حتى الشاي بالسكر الأميركي، ويأكل العصيد محضراً بدقيق أميركي وبزبدة أميركية.

وقد يكون ممكناً أن هذه الإشاعات كان مبالغاً بها، إلاَّ أنها سرعان ما انتشرت وأصبحت معروفة في عاصمتي كلا البلدين.

وألاحظ هنا أن دايڤيس كان إنساناً مستقيماً، إضافة إلى أنه مبعوث روزڤلت، الذي تأكد فيما بعد بصورة كاملة أنه يعتمد نهج تطوير العلاقات مع الاتحاد السوڤياتي.

ولم يتوانَ دايڤيس عن إظهار مواقفه الودية باستمرار تجاه بلادنا، هذه

المواقف التي اختلفت جذرياً عن مواقف سلفه بوليت. فقد كان مقتنعاً أن حكومتي إنكلترا وفرنسا ترتكبان خطأً بالغاً في «تهدئة» خاطر هتلر ومحاولتها عزل الاتحاد السوڤياتي. وقد ارتفعت أصوات عديدة في أوساط الولايات المتحدة السياسية تدعم قناعات دايڤيس.

والجدير ذكره أن علاقة عمل طبيعية نشأت فوراً بين دايڤيس وبين ستالين، الأمر الذي غالباً ما كان السفير الأميركي يشير إليه باحترام وحرارة خلال لقاءاته بالشخصيات السوڤياتية، وأنا منهم. وبشكل عام، كان دايڤيس يعبر عن وجهة نظر صحيحة:

ـ يجب الانطلاق من أن الخلافات الإيديولوجية والاختلافات بين نظامي بلدينا السياسيين ينبغي أن تُطرح جانباً عندما يجري النظر في الشؤون العملية لتطوير العلاقات المتبادلة.

وكانت هذه الفكرة تروق لروزڤلت أيضاً. فالعدوانية المتزايدة للفاشية الألمانية عززت مثل هذه المقاربة للعلاقات مع الاتحاد السوڤياتي عند دوائر الولايات المتحدة الفاعلة.

وقد وجدت نشاطات دايڤيس البنّاءة، الساعية إلى تطوير العلاقات المتبادلة بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، متابعة فعّالة وخصوصاً في سنوات الحرب العالمية الثانية. وأودّ هنا أن أستفيض بعض الشيء في التصدي لهذا الموضوع.

جوزيف دايڤيس، السفير السابق

تعرفت على دايڤيس خلال فترة عملي في الولايات المتحدة، حيث كنّا نلتقي دائماً ونحلّ ضيوفاً عند بعضنا، وباختصار كنّا على علاقة طيبة جداً.

وكان لدايڤيس منزل جميل يقوم في ضواحي واشنطن، ويمكن القول إنه كان منزلاً نموذجياً لثري أميركي. ولقد قُدِّر لي مراراً أن أزور قصوراً ومنازل فخمة في العديد من البلدان، وهي قصور بُنِيَتْ في أوقات لم يكونوا يبخلون فيها بشيء على البناء، لا بالمال ولا بالمواد. كانت ملايين الناس تعيش في فقر مدقع، غير أن الملوك وأولياء الأمور كانوا يرون في امتلاكهم القصور الفخمة والمقارّ المترفة أمراً حتمياً، وإلا فكيف يمكن أن يكونوا ملوكاً ذوي شأن؟ وكانوا ينفِّذون ذلك حتى يفعل فعله عند العامة وليفغروا أفواههم مشدوهين أمام قصر صاحب أو صاحبة الجلالة.

ولقد نالت أميركا حريتها وأفلتت من تحت نير سلطة التاج البريطاني في سنة ١٧٧٦، غير أنها لم تكن تعترف بالملوك، ولكن رجال الأعمال راكموا من المال والثروات ما جعلهم يتجاوزونهم، وأصبحوا يقلّدون قصور العالم القديم بترفها وفخامتها. والحقيقة أنه ليس من الحتمي أن تبدو قصور الأميركيين من الخارج مثيرة بمظهرها الخارجي، بل إن الأمر كان أحياناً عكس ذلك، إذ أنهم أضفوا على عمارتها الخارجية مسحة «ديمقراطية» عن وعي تام. أما الداخل فلا تسل عنه! وعلى أي حال، يمكن للمرء ملاحظة ذلك في أيامنا الراهنة.

ولعل كمب دايڤيد، المقر الرئاسي الريفي، أسطع منشأة تتجسَّد فيها تلك النظرات. فالأكواخ المنتشرة في أرجائه صغيرة وذات طابق واحد. حتى ليخيَّل للمرء أحياناً أنها نبتت في الأرض. ولكن المظهر الخارجي خدّاع، إذ ما إن تدخلها حتى تكتشف فوراً الفخامة في تكوينها المعماري الداخلي، وسرعان ما تتعرَّف فيه على الحسِّ العملي الأميركي، الذي يجمع بين الرفاهية والفخامة والراحة.. أما الرئيسي في الأمر فحجب كل ذلك بإحكام عن العيون.

وقد ذكَّرني منزل دايڤيس في بعض جوانبه بكمب دايڤيد. إذ لم يكن فيه تماثيل أسُود ولا تنين ولا منحوتات العذراء، كما استنكف صاحبه عن إقامة النوافير. أما في ما يتعلّق بالداخل فقد كان كفيلاً بأن يخرج عيون الضيوف من محاجرها. وبالمناسبة فقد غلبت روائع الفن الأوروبية الأصل على الروائع الأميركية، وقد تبيَّن أن قسماً كبيراً منها جُلِبَ من الاتحاد السوڤياتي.

كانت هناك مفروشات فريدة ومخادع على الطراز القيصري الروسي وأواعٍ ذهبية وأشياء لا تُقدَّر بثمن. وأذكر أن ليديا دميتريڤنا قد أصابها بعض الضيق بعد أن لم تفلح في تحريك المملحة عن بُعْدٍ أثناء جلوسنا إلى المائدة، فسألتها:

ـ ماذا بكِ؟

ـ هذه المملحة لا تتحرَك! ألعلّها مثبتّة...؟

كانت المملحة ثقيلة بما فيه الكفاية، فهي مسبوكة من الذهب الخالص، وتبيَّن أنها كانت تخصُّ كاترين الثانية. وعندما افتضح سر وزن لمملحة انتهت محاولات زوجتي لتحريكها بالنصر الحاسم.

ودعانا أصحاب البيت لرؤية ما سمَّوه «عزبة روسية» تقع على مقربة من البيت الأساسي. هذه العزبة مُلئت بالتحف الفريدة، فكانت شيئاً ما وسطاً بين المتحف ومخزن للمقتنيات الثمينة. وكان آل دايڤيس، أثناء عرضهم «المعروضات»، يتذكّرون كيف ومتى وفي أي مدينة من مدن الاتحاد السوڤياتي تـمّ الحصول على هذه أو تلك من التحف. أما تاريخ تجميعها فقد تحدّد على الأغلب في الثلاثينات، أي في الفترة التي قضاها دايڤيس سفيراً للولايات المتحدة في موسكو. وقتذاك كانت تنتشر في

البلاد مخازن بيع تدعى « تورغسين » (واسمها بالكامل: « التجارة مع الأجانب ») تتعاطى الاتجار بالأشياء ذات القيمة الفنية والمادية لقاء العملات الصعبة. إذاً، فكل شيء قد ابتيع بصورة قانونية، وبالتالي فلم يكن آل دايڤيس يشعرون بأي حرج، بل إنهم أعربوا عن الفخر والاعتزاز بامتلاكهم تحفهم التي حصلوا عليها في الاتحاد السوڤياتي.

ولم نستطع أن نبعد الفكرة التالية عنّا أثناء مشاهدتنا للمقتنيات: « أين سيستقر كل ذلك في نهاية المطاف؟ ». ولا أخفي أسفي على تشتّت شمل هذه الروائع الفنية في بلاد ما وراء البحار، وبشكل أخص المجوهرات التي صاغتها أيدي مبدعي شعبنا.

وكنت وزوجتي نحلّ ضيفين على دايڤيس أيضاً في الأيام التي كان يقيم فيها حفلات استقبال كبيرة. وكان اسم السفير السابق في موسكو وثروة عائلته يجذبان ممثلي « المجتمع الراقي » من دوائر الإدارة والكونغرس وميدان الأعمال. والجدير بالذكر أن السيدات في هذا المجتمع كنّ يفهمن أكثر من الرجال في المسائل ذات الطابع المادي.

وغالباً ما كنّا نرى بين المدعوين السيناتور توماس كونّيلي وعضو الكونغرس سولْ بلوم، اللذين كانا عضوين في لجنة الخارجية التابعة لمجلس النواب الأميركي، وكثيراً ما عقدت معهما الجلسات والأحاديث

كان السيناتور كونّيلي شخصية مثيرة للاهتمام من نواحٍ عديدة، ذلك أنه كان من عداد أتباع روزڤلت المخلصين. فالرئيس نفسه رشّحه لتسنّم منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ. وقد لفتت انتباهي منذ لقاءاتنا الأولى صحة أحكامه في عدد من المسائل السياسية الكبيرة المتعلقة بالحرب مع ألمانيا الهتلرية. وفي إحدى المرات أثناء حفل عند

دايڤيس، صرّح كونّيلي بشجاعة عن ضرورة فتح الجبهة الثانية في أوروبا الغربية. وجاء حديثه في وقت فضّل فيه بعض المسؤولين في واشنطن عدم الخوض في هذه المسألة إلا همساً وبحذر، ذلك أن الإدارة لم تكن قد حسمت موقفها من المسألة بعد. وكان حتى دايڤيس نفسه من الحذرين في إطلاق رأيه، مع أنه اعتبر نفسه من مؤيدي إنزال الجيوش الإنكليزية ـ الأميركية في أوروبا الغربية.

قال كونّيلي في معرض دفاعه عن فكرته:

ـ إنه ليس بالأمر الجيد بالنسبة إلى الولايات المتحدة أن تقطف انتصاراً جاهزاً حُقّق على يد الجيش الأحمر. فمن وجهة نظر المصالح القومية يجب أن تظهر الولايات المتحدة بوصفها قوة عسكرية؛ والطريق إلى ذلك لا يمر عبر لاند ـ ليز فقط، بل كذلك عبر المناطق التي تُنَفَّذ فيها العمليات العسكرية. فقد بات واضحاً أن الجيش الأحمر بدا يحقّق الانتصارات وهتلر ينتظر الـ « كابوت » (الهزيمة)..

بيد أن كونّيلي تصرّف بحذر ومرونة أكثر في مؤتمر سان فرانسيسكو، فكان الأقرب إلى تقديرٍ واعٍ للوضع في ما يتعلّق بمسائل البرنامج ودور المنظمة الدولية الجديدة بين زملائه أعضاء الوفد الأميركي، ونذكر مثلاً موقفه من مبدأ إجماع الدول الخمس الكبرى.

وجرت مع كونّيلي حوادث مثيرة. ففي النصف الأول من دورة اجتماعات الجمعية العامة الأولى نوقشت مسألة إنشاء منظمة دولية تتعاون فيها الدول في ميادين العلم والثقافة والتعليم. ومن الطبيعي أن تكون الآراء اختلفت، وخصوصاً بين الاتحاد السوڤياتي وأصدقائه من جهة، وبين دول الغرب من جهة ثانية. وجاء دور كونّيلي ليلقي كلمته، فاستهلّها على

النحو التالي :

ـ تحدث الكثيرون عن بلدان مختلفة ، كبيرة وصغيرة . ورأيي أنه من الضروري القيام بكل ما من شأنه حماية مصالح الدول الصغيرة في هذا الميدان أيضاً . وعلى سبيل المثال فقد ذكر بعض الخطباء « **يونيسكو** » . لا يجوز إغضاب هذه الدولة الصغيرة ، بل يجب حمايتها !

قال ذلك بكل ما ملكه من حماس .

وبالطبع ، انفجرت القاعة بالضحك ، فكونّيلي لم يكن قد استوعب بعد ما هي اليونيسكو . ولما علم فيما بعد بهفوته قهقه بصوتٍ عالٍ كما يفعل سيناتور أميركي حقيقي .

هذا ، وقد دعم كونّيلي وبلوم بقوة نهج روزفلت حيال الاتحاد السوفياتي في سنوات قبل وبعد الحرب .

وفي منزل دايفيس التقيت بـ « ملوك » هوليود وخصوصاً هاري وورنر ، أحد أكبر صناعيي السينما الأميركية ، صاحب شركة « وورنر برودرز » . وقد قدّمني دايفيس إلى هاري وورنر كما يلي :

ـ اسمح لي أن أعرّفك على شخص أثبت صداقته للاتحاد السوفياتي غير مرّة .

ومع أننا كنّا نقف وحدنا نحن الثلاثة ، إلاّ أن دايفيس صمت قليلاً وأضاف مبتسماً كأنما يقول في السرّ :

ـ بعكس أخيه مائيرز .

وكان على ثري أميركي كدايفيس ، محسودٍ في الولايات المتحدة ، أن

يظهر في العلن بمظهر المترف . فكيف يمكن لرأسمالي أميركي ألاّ يملك يختاً على سبيل المثال ؟ فاليخت بطاقة من نوع خاص يدخل بها المرء « المجتمع الراقي » ويحظى فيه بالقبول . وهكذا ، فقد كان لدى آل دايفيس يخت فخم مترف ، يشعر فيه مستقلّوه براحة تامة إذا لم تتلاعب به العاصفة والأمواج . فقد حوى الكثير من وسائل الراحة ، حتى تلك الحبوب السحرية التي يبتلعها من أصيب بالدوار فتذهبه . وقد تسنّى لي ولزوجي أن نقوم برحلة على متنه بدعوة من دايفيس ، وكانت رحلة قصيرة في الحقيقة ، لم تبعد نيويورك عن أعيننا . فقد أبحرنا بالقرب من الساحل وتراءت لنا المدينة الكبيرة كما بدت أكوام النفايات والقاذورات وصناديق الكرتون تطفو على سطح الماء وفوق طبقة النفط المتسرّب . .

وكان دايفيس يبدو دائماً مستجمعاً نفسه وكأنه متأهب أو مزمع القيام بأمرٍ ما . وكان بعيداً عن الظهور بمظهر المستعرض ، الأمر الذي ميّز بعض أغنياء الولايات المتحدة ورجال الأعمال والموظفين الكبار من الطبقة المتوسطة ، كأن يضعوا مثلاً أرجلهم فوق الطاولات عارضين نعال أحذيتهم أمام الآخرين !

ولكن دايفيس لم يكن كالأميركيين الآخرين إذ كانت لديه عادات مغايرة تماماً . فقد كان معجباً بعادة الأنكلوساكسون العظماء في ركوب الخيل . ففي العاصمة الإنكليزية ينظرون إلى مثل هذا الشخص نظرة احترام دون أن يعرفوا من هو ، لأن الأشخاص المتمتّعين بمكانة اجتماعية رفيعة وحدهم يسمحون لأنفسهم القيام بنزهة من هذا النوع ، وأين . . في هايد پارك أوكينسينغتون پارك . . .

أما في المدن الأميركية فلا يمكنك العثور على رجل يمتطي صهوة

حصان ويقوم بنزهة. ولأنَّ بيت دايڤيس والحديقة الملحقة به يقع خارج المدينة، فقد كان بإمكانه ممارسة رياضته المفضَّلة. ومن المؤسف أنه وقع عن صهوة جواده في أواخر الخمسينات، وعاش بعد ذلك بعض الوقت، إلاّ أنه لم يبرأ كلياً من وقعته. أما عقيلته مارجري فقد عاشت بعده بضع سنوات.

لعله من الصعب العثور في الولايات المتحدة على كتاب مكرَّس لمسائل السياسة الخارجية، إبان سنوات الحرب العالمية الثانية وما تلاها، يخلو من ذكر اسم دايڤيس. ففي عام ١٩٤١ ترأس لجنة توحيد جهود كافَّة المنظمات التي تعاطت شؤون إغاثة الحلفاء وإسداء المساعدات لهم أثناء الحرب، وهي لجنة كانت تابعة للرئيس مباشرة.

فبعد مضيّ يومين على هجوم ألمانيا على الاتحاد السوڤياتي أعلن دايڤيس:

ـ سيدهش العالم بحجم المقاومة التي ستردُّ بها روسيا.

ما هذا؟ أهو قوة الحدس، أم أنه معرفة جذرية بماهية الاتحاد السوڤياتي؟ إنه الاثنان معاً، ولكن الثاني هو الأغلب.

وكان دايڤيس ينشر المقالات في الصحافة ويخطب في الإذاعة والمهرجانات داعياً الأميركيين إلى التخلّي عن أحكامهم المسبقة على الاتحاد السوڤياتي وشعبه إضافة إلى أنه كان يدعو بإصرار لفتح الجبهة الثانية. أما كتابه والفيلم اللذان حملا عنوان «مهمة في موسكو» (١٩٤٢) فقد لعبا دوراً كبيراً في تعزيز التعاطف عند الشعب الأميركي تجاه الاتحاد السوڤياتي. هذا، وكان دايڤيس أيضاً أحد منظمي المجلس الوطني للصداقة الأميركية ـ السوڤياتية ورئيسه الفخري.

وكان دايڤيس أحد مؤيدي خط روزڤلت النشطاء، الداعين إلى تقوية العلاقات التحالفية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي. وقد أعلن في أيار (مايو) ١٩٤٥:

ـ لا يمكن ضمان السلام إلاّ بالاعتراف الشامل بشعار روزڤلت الداعي إلى وحدة إنكلترا والولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي.

وتقديراً لنشاطه الناجح الذي أسهم في تعزيز علاقات الصداقة السوڤياتية ـ الأميركية وفي إنماء الفهم والثقة المتبادلين بين شعبي البلدين، قلّد دايڤيس سنة ١٩٤٥ أرفع وسام سوڤياتي: وسام لينين.

إنّ هذا الشخص ليستحقّ أن يبقى اسمه في الذاكرة طويلاً في كلا البلدين.

اللقاء الأوّل في الكرملين

ولنعد إلى سنة ١٩٣٩. لم ألبث في رئاسة القسم الأميركي في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية إلاّ حوالى نصف عام. ومرة استدعاني أحد المسؤولين في المفوضية وأنبأني قائلا:

ـ أنت مدعو من قبل ستالين إلى الكرملين.

كان الخبر مفاجئاً... فأنا لم ألتق إ. ف. ستالين من قبل إلاّ عن بُعد في الساحة الحمراء، حيث يقف محيياً المتظاهرين، وفي رئاسة اجتماع احتفالي في قصر الكرملين الكبير، دُعي إليه ممثّلو الإدارات والمؤسَّسات، بما فيها المؤسسات العلمية.

وخلال دقائق معدودات وصلت إلى الكرملين. وقبل الدخول إلى

مكتب ستالين عرجت على مكتب حيث قابلت رجلاً قصيراً ممتلئاً، فعرّفت عن نفسي فردَّ قائلاً:

- أدعى پوسكريبيشيف.

كان هذا مساعد ستالين وسكرتيره، فغاب في مكتبه لينبئه بوصولي.

وها أنذا في مكتب الأمين العام. كل شيء هادىء صارم، كأنما صنع خصيصاً لتهيئة أجواء عملية. مكتبه صغير، يجلس إليه حين يخلو إلى نفسه. وثمة طاولة كبيرة للاجتماعات سيقدَّر لي الجلوس إليها مرات كثيرة في المستقبل.

جلس ستالين على الكرسي الثانية وإلى جانبه جلس مولوتوف مفوض الشعب للشؤون الخارجية آنذاك، الذي تسنّى لي أن ألتقيه في المفوضية.

وصافحني ستالين وأعقبه مولوتوف. وبدأ ستالين الحديث:

- أيها الرفيق غروميكو، ثمة قرار لتعمل مستشاراً لسفارة الاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة الأميركية.

وبصراحة أقول إنني دهشت من هذا القرار، علماً أن الفكرة السائدة آنذاك لم تفرّق بين الديبلوماسي والعسكري، فكلاهما يجب أن يكون مستعداً لتنفيذ أي مناقلات مفاجئة. ولم يكن من العبث أن سارت في تلك الأيام مسرى الأمثال العبارة التالية: «الديبلوماسيون كالعسكر».

وأخذ ستالين يعدّد باختصار - وهذا ما كان يتقنه جيداً - المجالات التي يجب تركيز الاهتمام عليها في العلاقات السوڤياتية - الأميركية، فقال:

- إن الاتحاد السوڤياتي يمكنه إقامة علاقات طيبة مع دولة كبيرة

كالولايات المتحدة، وخصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار تعاظم الخطر الفاشي واستشراءه.

وأعطى ستالين بعض النصائح حول مسائل ملموسة، تقبّلتها عن طيب خاطر. أما مولوتوف فقد كان يؤيد أفكاره ويعقّب عليها. وأضاف الأمين العام مصوّباً نحوي نظرات مليئة بالاهتمام:

- إننا نزمع إرسالك إلى الولايات المتحدة لا لشهر، وقد لا يكون لفترة سنة.

ثم أردف سائلاً:

- ولكن قل لي كيف حالك واللغة الإنكليزية؟

أجبت قائلاً:

- أخوض معها صراعاً، وأعتقد أنني أتغلّب عليها بالتدريج، سيما وأن عملية الدراسة معقدة خصوصاً عندما تنعدم فرص ممارسة التكلّم بها، وهو أمر ضروري.

وهنا أسدى ستالين نصحاً أقلقني بعض الشيء، ولكنه أضفى بعض المرح من ناحية أخرى فأذهب عني الحرج في الكلام. قال:

- ولماذا لا تقوم من وقت لآخر بالدخول إلى الكنائس والكاتدرائيات الأميركية فتستمع إلى عظات الرهبان؟ إنهم يتكلّمون لغة إنكليزية خالصة، فضلاً عن خطابتهم الجيدة. ليس عبثاً مثلاً أن الثوريين الروس كانوا يلجأون إلى هذه الطريقة أثناء وجودهم في الخارج لتحسين لغاتهم الأجنبية.

داهمني شعور بالضيق، وفكّرت: كيف يمكن لستالين الملحد أن يشير

علي فجأة، أنا الملحد أيضاً، أن أزور الكنائس الأميركية؟ أيكون يخضعني لاختبار في التماسك والإخلاص؟ وكنت على وشك أن أسأله: «وأنت، أيها الرفيق ستالين، أكنتَ لجأت أيضاً إلى هذه الطريقة؟»، إلاّ أنني كبحت جماح سؤالي ولم أطلقه، ذلك أنني كنت أعرف أن ستالين لم يتقن لغة أجنبية، وإذن لكان سؤالي في غير محله. وهكذا، فقد «عضضت لساني» كما يقولون. وكان من الممكن أن يحوّل ستالين الجواب على سؤالي ـ ما إن يسمعه ـ إلى نكتة، إذ لم يكن من النادر أن يلجأ إليها في مثل هذه الحالات كما ثبت لي فيما بعد. بيد أنني لم أرد أن أضيّع مصيري منذ لقائنا الأول.

وبالطبع فإنني لم أدخل الكنائس أو الكاتدرائيات في الولايات المتحدة، ولعل ذلك كان المرة الوحيدة التي لم ينفّذ فيها ديبلوماسي سوڤياتي توجيهات ستالين. إذ يمكنني أن أتصوّر أيَّ ردّ فعل قد تثيره زيارات سفير سوڤياتي إلى الكنائس وغيرها من المعابد عند الصحافيين الأميركيين الملحاحين، إذ كان بإمكانهم طرح السؤال ـ اللغز:

ـ لماذا يقوم سفير كافر بزيارة الكاتدرائيات؟ ألعله ليس كافراً بالمرة؟

هكذا جرى لقائي الأول بستالين.

وبعد خروجي من الكرملين عمدت كعادتي إلى تحليل ما كان، ورحت أتأمل. وتذكرت أن سفير الاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة ك. أ. أومانسكي استدعي إلى موسكو منذ فترة وجيزة، وبدا أنه لم يُرضِ متطلّبات المركز. وخلصت إلى استنتاج: إنهم يضعون فيَّ الثقة ويكلفونني بمهمة خطيرة.

وعلمت فيما بعد أن ستالين كانت لديه اعتراضات على السفير كما عند مولوتوف. وعلى الرغم من أن أومانسكي عاد إلى الولايات المتحدة، بيد أنه كان ظاهراً بحسب كل المؤشرات، أن عمله اقترب من النهاية. وعقب عدوان ألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوڤياتي تكوّن رأي مفاده أن تكليف ديبلوماسي حاز شهرة دولية واسعة، من خلال عمله في عصبة الأمم وبسببه، بمهام سفير في الولايات المتحدة، قد يكون أمراً يروق لروزڤلت. ولذا، فقد عيّن م. م. ليتڤينوف سفيراً للاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة لفترة قصيرة. وتبين فيما بعد من سياق تتابع الأحداث، أن ستالين رأى إلى هذا التدبير لتحسين العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية بأنه مجرد تدبير مؤقت.

ولم يمضِ وقت طويل حتى أنيطت مهام سفارة الاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة بكاتب هذه السطور، خلفاً لـ «ليتڤينوف».

في الطريق إلى الولايات المتحدة

إثر اللقاء بستالين بدأت وعائلتي التحضير للسفر. ولم أكن سافرت قبل ذلك خارج البلاد، ولذلك فقد كانت رحلتنا بالقطار من موسكو إلى جنوى ـ حيث كان علينا الإبحار إلى الولايات المتحدة ـ مفعمة بالانطباعات المشرقة الوضاءة أيامذاك.

وعندما قطعنا حدود الاتحاد السوڤياتي عبرنا أراضي رومانيا (حيث توقفنا يوماً كاملاً) وبلغاريا ويوغوسلاڤيا.

كانت إيطاليا في الواقع أول بلد رأسمالي أتيحت لي فيه الفرصة للتعرف على نمط الحياة في الخارج عن كثب. فقد كانت المفارقات

والتناقضات الاجتماعية الحادة، وخصوصاً لباس الناس، تصدمنا كل لحظة.

ومما لفت نظري أيضاً أنه إذا اجتمع إيطاليان على الأقل تكوّن عندي انطباع أن أحدهما يلقي كلمة أمام الآخر، في حين أن الثاني يبدأ إلقاء كلمته قبل انتهاء الأول. وبدا الأمر كما لو أن اجتماعاتٍ ولقاءاتٍ لا نهايةَ لها تنعقد حواليك، بحيث لا يزيد عدد المشاركين في كل واحدة منها عن اثنين أو ثلاثة.

وانطبعت في ذاكرتي هذه اللوحة الإيطالية النموذجية: غسيل معلّق على حبال ممدودة بين شرفات المنازل عبر الأزقة والشوارع الضيقة على مرأى الناظرين. ويحفر فيك السؤال التالي: «كيف يميّز الإيطالي غسيله من غسيل الآخرين؟». والجواب أنه يمكنه تمييز غسيله! ولو كان الأمر أمرنا لما استطعنا.. ويبدو أن الخبرة ضرورية!

وأما في جنوى فقد منعنا ضيق الوقت من مشاهدة الكثير مما يمكن للسائح معاينته.

ومع ذلك فقد تذكّرت دائماً تلك المقبرة المشهورة بتماثيلها ومنحوتاتها، وقد زرناها مع ك. أ. أومانسكي الذي كان في طريق عودته إلى الولايات المتحدة. وأخذ المرشد السياحي يقودنا من تمثال إلى تمثال آخر ويتحدث بحرارة راوياً حكايات مختلفة تكاد لا تجانب كل حجر من أحجار المقبرة. وكان كلما كثرت كلماته ازددنا إنصاتاً لهذه الحكايات التي ازداد أيضاً جمالها، هذا إذا كان من الجائز الكلام على جمالٍ ما في مقبرة!.

وتماثيل هذه المقبرة ـ المتحف مميّزة وتعود إلى فنّ النحت الإيطالي

القديم. والجدير بالذكر أن كلّ من دخلها كان عليه في البدء أن يدنو من تلك «العجوز» التي عرفنا قصتها من الدليل. ذلك أن إحدى الجنويات البسيطات أخذت توفر المال منذ الصبا رغم شحّ مدخولها ليقام لها قبر. كانت الفتاة تبيع «البيريوش»، وهو نوع من المخبوزات، ولما بلغت من العمر أرذله وقضت بلغ المتراكم من المال ما يكفي لإقامة الضريح الذي جاء متواضعاً من حيث حجمه ولكنه مع ذلك بدا معبراً ومثيراً للانطباع. أما الجانب الديني من الحكاية فقد تراجع ليحتلّ مكانة ثانوية منذ زمن بعيد. بيد أن التمثال المقام كان يجتذب إليه على مرّ الزمن السواح على اختلاف أعمارهم.

وفي جنوى ركبنا متن الباخرة «رِكْسْ»(*) التي أبحرت في طريقها إلى الولايات المتحدة، ومنها شاهدنا جزيرة كابري حيث أمضى مكسيم غوركي وقتاً من حياته غير يسير، ثم سرعان ما وصلنا إلى نابولي.

وغالباً ما كنت أظنّ في السابق أن جميع من في هذه المدينة يغنّي، بيد أن أغنية واحدة لم تبلغ مسامعنا، وكأن سكان نابولي قصدوا ألاّ يغنّوا نكاية!

ولـمّا كنا في ضواحي نابولي فقد صعدنا بركان ڤيزوڤي. كنا ثلاثة: ك. أ. أومانسكي وابني أناتولي، ذو الأعوام السبعة، وأنا. وما إن لفظ المرشد اسم البركان حتى تذكّرت فوراً «ڤيزوڤي» طفولتي، مصنع أعواد الثقاب في غوميل الذي أشعل في وقتٍ ما مخيلتي. فلماذا يا ترى أطلق عليه أصحابه هذا الاسم؟ هذا ما ظلّ لغزاً بالنسبة إليّ. ألعلهم أرادوا التدليل

(*) أغرقها الإنكليز بالقرب من ميناء «باري» الإيطالي أثناء الحرب فيما بعد ـ (المؤلف).

على أن بضاعتهم تشتعل مثل البركان الإيطالي.

وها أنذا الآن عند سفح ڤيزوڤي الحقيقي. وزرنا آثار مدينة پومپاي التي طمرتها حمم البركان..

إذاً، هذه هي پومپاي! وباهتمام عظيم أنصتنا إلى كلام المرشد وحكاياته عن حياة أهل المدينة القديمة ومصيرهم المأساوي.

وأفاض المرشد في وصفه لحياة السكان الأقدمين وعاداتهم وتقاليدهم، ولعله عرف عنهم أكثر مما عرفوه عن أنفسهم. وسرنا في شوارع پومپاي وأزقتها يحدونا شعور مثير. فأماكن المدينة لم تكن قد نظفت بعد بالكامل من الأحجار والصخور المتبلّدة، ولكن علماء الآثار تمكّنوا من الكشف عن بعض الممرات الخاصة، باعثين بذلك خريطة المدينة المندثرة. أما أعمال الحفر والتنقيب فمتواصلة تمتدّ إلى مائتي سنة، وما من أحد يعلم إلى متى ستستمرّ. فالمؤرخون مهتمون بالغ الاهتمام بدراسة پومپاي لإماطة اللثام عن نمط الحياة الذي اعتمده قدماء الرومان وما كانوا عليه.

وبغض النظر عن الأعمدة والآثار الحجرية الملقاة على غير ما ترتيب في أماكن الحفريات، تظلّ الصورة العامة مثيرة بوجه خاص. فأنت تسير وسط الركام وترى إلى واجهة بيت أو قصر نبيل فتأسرك فكرة لا تستطيع منها فكاكاً: «هنا عاش الرومان الذين ارتبطت بهم صفحات مشرقة من التاريخ الأوروبي، بل التاريخ العالمي». ولا يستطيع المرء أن يصدق أن أهل الحاضرة قضوا جميعاً ضحية إرادة قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم.

وبادرنا المرشد بالقول وقد امتلأت لهجته بخبرة من يستثير لديك أجواء سرية:

ـ والآن ستشاهدون شيئاً مؤثراً.

وقادنا على مهل إلى مكان وسط الركام آملاً على ما بدا، بأنه سيحظى بتقدير خاص.

واقتربنا من هيكلين بشريين متحجّرين، فقال المرشد عبارة واحدة:

ـ أما الباقي فباستطاعتكم استنتاجه بأنفسكم.

وصمت هنيهات يمتّع نظره بما أحدثه المشهد من تأثيره لدينا ثم قال:

ـ «ها هما عبر القرون مدفونان تحت الرماد والصخور الصلدة يعطيان القدوة للأجيال.. إن الحب أقوى من الموت.

هذا قول ليس فيه ابتذال وهو إلى ذلك واضح تماماً.

وبقيت ساحة المدينة موجودة، وكذلك ظل المسرح واضح المعالم رغم الحمم التي ابتلعت أطرافه. وعندما ينظر المرء إليه سرعان ما يتذكّر أولئك العبيد والمحكومين الذين نالوا فيه عقابهم. وبكلمة فإن كل من زار أطلال پومپاي انفتحت أمامه صفحات مأساوية من مجلدات التاريخ البشري.

ومما لفت انتباهنا في شوارع جنوى وناپولي والطرق الرئيسية في البلاد وفرة العسكريين، فأينما وجّهنا نظرنا وقعنا على مواطن يرتدي بزّة عسكرية.

وقد تولّد لدينا انطباع أنهم لا يفتأون يسدلون أيديهم لكثرة ما يؤدّون لبعضهم التحيات، كما إنهم كانوا يمشون بخطوات عسكرية حتى في الحالات العادية، مع أن المعروف عن الإيطاليين أنهم يمتازون

بالانطلاق. وقلت لأومانسكي مبدياً هذه الملاحظة:

ـ ألا تعتقد أن العسكريين الإيطاليين يريدون بتصرفاتهم التشبُّه بالألمان؟

فأجاب قائلاً:

ـ أجل، هذا صحيح.

فقد خُيِّل إلينا أنه إذا أُعطي الأمر لهذه المجموعات العسكرية التي رأيناها فإنها سرعان ما ستنشد «Ave Maria» الشهير أو أي أغنية شاعرية كما يفعل أي كورس مدني، ضاربين بانضباطهم العسكري الذي صبَّه على رؤوسهم نظام موسوليني عرض الحائط.

بيد أن تلك الأيام كانت أيام حرب، ولم يبق سوى أقل من عامين على هجوم ألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوڤياتي.

... ثم ركبنا الأمواج مجدَّداً تاركين نابولي وراءنا. وحدث أمر على متن الباخرة ظلَّ محفوراً في ذاكرتي عندما كنا نعبر المحيط الأطلسي.

فقد دعانا قبطان الباخرة، ك. أ. أومانسكي وأنا، إلى مقصورته. ولعل دعوته كانت بدافع من مبادرة شخصية پروتوكولية، إذ جاءت في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) في الذكرى الثانية والعشرين لثورة أوكتوبر. وقدّم لنا نبيذاً إيطالياً معتّقاً ورفع كأسه وقال هامساً:

ـ لنشرب نخب ثورة أوكتوبر في روسيا، ولينين!

ولقد تأثّرنا بهذه اللّفتة من جانب القبطان وأيّدناه بحرارة. حدث ذلك في زمن هيمنة الفاشية على إيطاليا.

ولطالما تذكَّرنا ما حدث فيما بعد، فلو عرف الدوتشي الإيطالي بأمر القبطان لما وجد هذا الأخير ما يسرُّه. وهكذا، فبالرغم من الفاشية التي كتمت أنفاس إيطاليا كان هناك وطنيون مخلصون يحتقرون الفاشية وأنظمتها، وما قبطان «رِكْسْ» إلاَّ واحد من هؤلاء.

ولم يمضِ سوى أيام شهدنا خلالها أعنف عاصفة في حياتنا، حتى تراءت لنا السواحل الأميركية.. كانت معي قرينتي ليديا دميترييڤنا وأناتولي ذو السبعة أعوام وإميليا ذات السنتين.

في بابل المُعاصرة

تركنا الباخرة المحيطية ـ القلعة وما لبثت المدينة الكبيرة أن احتضنتنا.. ولفظة «الاحتضان» ليست اللفظة المناسبة التي يمكن بها وصف إحساسنا الأول. فقد كان يحيط بنا مختلف أنواع الضجيج والأصوات والحركة الدائمة.

وحاصرتنا من جميع الجهات الأبنية الحجرية والمعدنية العملاقة، ولم تكن شوارع أوروبا لتبدو أمام هذه الشوارع سوى أزقة ضيِّقة. واختلطت في رؤوسنا النسب بين عرض الشوارع وارتفاع الناطحات. ولم يكن من الغريب أن يتساءل أناتولي:

ـ وهل يعيش الأميركيون في المدينة دائماً أم نهاراً فقط؟

ووجب أن أفسِّر له الأمر:

ـ طبعاً يعيشون هنا دائماً، كما يعيش هنا آخرون أيضاً. ففي شارع ٦١ من نيويورك تقع القنصلية السوڤياتية العامة التي نستقل الآن سيارتها. وهكذا، كما ترى، يعيش هنا أيضاً سوڤيات.

ولا أقول إن انطباعي الأول عن بابل المعاصرة هذه اختلف كثيراً عن الانطباع الذي خلّفته مطالعتي لمؤلفات الكتاب الأميركيين أمثال ت. دايزر و د. لندن و إ. هيمنغواي وغيرهم.

ولعل اللوحات المحزنة التي رسمها ك. ماركس و ف. إنجلس، عندما وصفا حياة العمال في المدن الإنكليزية، لن تبدو محزنة بهذا القدر بالنسبة إلى المرء القادم للمرة الأولى إلى الولايات المتحدة من العالم القديم. ففي المدن، وخصوصاً في المناطق العمالية، يداهمه إحساس حاد بأن كرامة الإنسان تنحر بلا رحمة، والمسؤول عن ذلك رأس المال الذي لا يشبعه ربح مهما عظم. وازدادت قناعتي في الأشهر والسنوات اللاحقة - كغيري من المواطنين السوڤيات الموجودين في أميركا بحكم الواجب الوظيفي - أن نيويورك لا تختلف في شيء عن غيرها من المدن الأميركية الأخرى.

وأمضينا في القنصلية بضعة أيام، وتمتّعنا بضيافة أعضائها وعلى رأسهم قنصل الاتحاد السوڤياتي العام ڤيكتور ألكسندروڤيتش فيديوشين. بعد ذلك توجهنا إلى واشنطن بالقطار فاستغرقت رحلتنا خمسة أيام.

وهكذا، ها هي واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأميركية. وإذا ما قورنت العاصمة بنيويورك من حيث الضجيج فإن الأولى أكثر هدوءاً، وهو حالها اليوم أيضاً. ففي واشنطن لا توجد صناعات كبرى، بل هناك مؤسسات صغيرة أشبه بفبارك ومخازن تتعايش بالتكافل بعضها مع بعض. وكان الملونون قد بلغوا في تعدادهم نصف سكان المدينة في تلك الفترة.

كانت عاصمة الولايات المتحدة، وتبقى الآن، مدينة للموظفين

وقطاع الخدمات. فلكي تستطيع الطبقة الحاكمة ادارة هذه الدولة الكبيرة الواسعة، فهي تحتاج إلى ميكانيزم يتطلب جيشاً من الكادرات والموظفين الذين ينتظمهم سلم تراتبي تنظيمي.

وتشكّل الإدارة السياسية الخارجية والديبلوماسية جزءاً مهمّاً من هذا الميكانيزم. فمع هذه الإدارة ينبغي على السفارة السوڤياتية أن تخوض العمل. وسرعان ما بدأت زياراتي وأولاها كانت إلى وزارة الخارجية.

ولفت نظري أن تنظيم الزيارات بالنسبة إليَّ، بوصفي ديبلوماسياً جديداً يحتل الموقع الثاني في السفارة، جرى بسهولة بالغة.

وهنا أسمح لنفسي بالإشارة إلى أن الجهاز الرسمي في واشنطن كانت تربطه بأومانسكي علاقة حذرة بعض الشيء. وفي بداية الأمر اعتقدت أن أحداً ما في الجهاز كان ينفر من السفير السوڤياتي فقرَّر أن « يغيظه ». ولم يكن من الصدف أن الصحافة الأميركية لم تتوقّف عن نشر مختلف الإدعاءات التي تحمل طابعاً شخصياً. وباختصار لم تكن هناك لغة مشتركة بين السفير وبين ممثلي الإدارة، وخصوصاً أولئك الذين يتعاطون السياسة الخارجية. وكان علي أن آخذ في اعتباري كل تلك الأمور، وأنا الشخص الجديد الذي وجد نفسه في محيط الحياة السياسية العاصف. جرى كل ذلك في وقت تعاظم فيه خطر العدوان الفاشي على الاتحاد السوڤياتي وباتت معالمه تتوضح أكثر فأكثر.

وتسنّت لي رؤية الرئيس فرانكلين روزڤلت لأول مرة في واشنطن خلال افتتاح الصالة القومية للعروض الفنية. وبغضّ النظر عن عاهته الجسدية فقد ألقى كلمته وهو واقف مستندا إلى عكازين خصوصيين أخفيا بدقة وراء المنبر.

وألقيت عليه نظرة إعجاب مفكراً بشجاعته وإرادته، فعلى الرغم من مرضه وأوجاعه بدا على المنبر هادئاً واثقاً.

لا، آنذاك لم أكن لأتصوّر أن القدر سيهديني فرص لقاءات ثنائية عديدة معه.. حدث ذلك في فترة الحرب القاسية مع الفاشية الألمانية.

عشرة أيام على طرق أميركا

إن أي أجنبي وُجد في بلد غريب بحكم الواجب الوظيفي أو لأسباب أخرى يسعى إلى التعرّف على الأماكن المميزة وزيارة مدن أخرى غير العاصمة، وهذا أمر طبيعي. فكل عواصم العالم تشبه بعضها بعضاً بمعنى ما، فهي ليست سوى مراكز تتجمَّع فيها الهيئات والمؤسسات الرئيسية للسلطات الرسمية.

والتعرّف على بلد الإقامة والعمل ودراستها بالنسبة إلى الديبلوماسي يشكلان اتجاهان مُهمّان في مساعيه وواجباته. فهو ملزم بإحاطة حكومة بلاده بسياسة البلد الذي يعمل فيه ويضيء جوانب أخرى من حياته.

وما أن وصلت الولايات المتحدة حتى انتهزت أول فرصة سنحت لزيارة المدن الصناعية الكبرى. وكان السبب في ذلك ما ذكرت مضافاً إليه سبب آخر، ألاَ وهو التعرُّف عن كثب على ظروف عمل الأخصائيين السوڤيات الذين يمرون بدورات تأهيلية في المصانع الأميركية. وقد قمت بهذه الرحلات في منتصف عام ١٩٤٠ بمعية الموظف في السفارة ڤلاديمير إيڤانوڤيتش بازيكين، فزرنا شيكاغو وديترويت وكليڤلند وبوفَّالو وتسيسيناتي وميلووكي ووڤوستر وكامْدين. وفي كل مدينة توقفنا في مصنع على الأقل، فعقدنا الاجتماعات مع الأخصائيين السوڤيات حيث وُجدوا.

وأحسست أنهم كانوا سعداء أيضاً بهذه اللقاءات، إذ كانوا متعطشين لسماع أخبار الوطن البعيد وسياسته الخارجية والعلاقات السوڤياتية ـ الأميركية التي كانت متوترة آنذاك. ذلك أن الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة حلّلت النتائج التي أسفرت عنها الحرب السوڤياتية ـ الفنلندية الواضعة أوزارها منذ فترة قصيرة، فجاءت التحليلات مفعمة بالعداء نحو السوڤيات. كما لم يكن موقفها من مسألة إعادة انضمام جمهوريات البلطيق إلى الاتحاد السوڤياتي موقفاً ودياً البتة.

وتمخّضت الرحلات عن معطيات واقعية حول العمق الأميركي، إذ ليس بإمكان المرء معرفة كل شيء من قراءة الصحف والمجلات، بل يجب استقاء المعلومات الضرورية أيضاً من موظفي الإدارات الرسمية والشخصيات الحكومية، الذين يقدَّر لقاؤهم في واشنطن بصعوبة. ولكن الوضع تغير على نحو ملموس، في الحقيقة، في الفترة اللاحقة.

وأود هنا أن أشير إلى بعض الحقائق بمناسبة الحديث عن هذه الرحلة.

المكان: مصنع فورد الكبير في ديترويت للسيارات، اللقاء مع قيادة المصنع. نسأل:.

ـ هل باستطاعتنا زيارة مصنعكم والتجوّل فيه؟.

يجيبون:

ـ على الرحب.

وأرونا عدداً من عنابر المصنع، فيما عُرِّفنا بصورة ممتازة من وجهة النظر التقنية على العمليات الصناعية، وتوقفنا عند أحد الخطوط لنشاهد كيف يخرج محرك السيارة بعد سلسلة من عشرات العمليات التفصيلية.

ورأينا كذلك العُمّال وهم يقومون بعملٍ شاقٍّ حقيقي. فقد كانوا يرفعون بأيديهم هياكل المحركات الثقيلة ويديرونها ويثبتون فيها أشياء ما. ولم يكن من الصعب ملاحظة أن معظمهم كان من الزنوج الذين اختيروا للقيام بهذه الأعمال الشاقة. لقد كانوا متيني البنية ويتمتعون بقوة جسدية كبيرة، فعندما مررنا بجانبهم لاحظت أن عضلاتهم أصبحت متوتّرة، ربما من جراء التعوّد على أعمال كهذه. وكانت وجوههم تنضح بالعرق.

ما رأيناه كان تعليقاً بل تجسيداً حيّاً لمذهب ماركس في وصفه عملية الإنتاج الرأسمالي في كتابه الخالد «رأس المال». واليوم باتت طرق الاستغلال أدق مع الاحتفاظ بمضمونها القديم..

ضيوفاً على مؤتمر الحزب الديمقراطي

وفي أثناء الجولة المذكورة على المدن الأميركية تسنّى لنا حضور مؤتمر الحزب الديمقراطي الذي كان منعقداً في شيكاغو لترشيح ف. روزفلت للرئاسة لولاية ثالثة. وكُنّا قد دعينا لحضور المؤتمر كضيوف ونحن بعد في واشنطن.

وتمثّل مؤتمرات الحزبين الديمقراطي والجمهوري لوحة غير عادية على الإطلاق، بل لوحة فريدة بمعنى من المعاني.

ففي الصالة يتواجد بضعة ألوف من الحزبيين وثمة عدد لا يحصى من اليافطات والشعارات المثبتة على ألواح خشبية أو حوامل معدنية يُلوِّح بها حاملوها فتختلط أصواتها بصراخ المؤتمرين. وفي هذا المؤتمر وقف رئيسه السيناتور ألبين بيركلي يطرق بمطرقته بلا انقطاع محاولاً تأدية واجبه في تهدئة جموع المندوبين لإشاعة الصمت. ولولا مكبرات الصوت لما كان حتى صوت الرئيس نفسه مسموعاً.

وها هو سيناتور ولاية ألاباما يعتلي المنصة ويأخذ مكانه وراء المنبر. رجل بلغ من العمر أرذله، وصلع رأسه حتى آخر شعرة، يقف ملوحاً بيده إلى الأعلى. وينتظر دقيقة ثم أخرى ويبدأ بالكلام. طبعاً لا يستطيع المرء تبين ما يقول، فالصخب ملء الأسماع، ولكنك تفهم من حركات يديه أنه يتكلّم بحرارة متزايدة. ويتوقّف مرة أخرى رافعاً يده إلى الأعلى وهي تحمل نظارته. وينتظر لعل الجموع ستصمت قليلاً، ولكن هيهات أن يتغيّر الحال!

وأميل على جاري الجالس بجانبي ـ وهو مندوب، ذلك أننا كنا بوصفنا ضيوفاً نجلس على منصة هيئة رئاسة ـ وأسأله بصوت عال أقرب إلى الصراخ كي لا يضيع وسط الأصوات الهادرة.

ـ لماذا يتصرّف السيناتور على المنبر بغرابة؟ ما فائدة هذه الحركات الكاريكاتورية التي يقوم بها؟.

وأسمع الجواب:

ـ هذا معلوم. فالسيناتور قد درس فنّ خطابة اليونان القديمة، ولذا فهو يقوم بهذه الحركات. فالقدماء كانوا يخطبون على نحو مغاير لما نفعله اليوم.

وضحك محدّثي.

ولكن الغريب أن الجماهير في الصالة لم تلقِ بالاً إلى هذه الحركات الخطابية «الألمعية».

ولو اعتلى هذا الشخص الرافع يديه نحو السقف منبر مؤتمر حزبي يعقد في أي بلد أوروبي، لأحضر المكلّفون بالانضباط طبيباً ليفحصه وليعرف ما إذا كان شخصاً طبيعياً أم به مسٌّ. أما هنا فاعتلاء المنبر على هذا النحو من الأمور الطبيعية.

وبالرغم من الضجيج والصراخ كان ذكر اسم الرئيس روزڤلت يثير موجات إضافية بل انفجارات من التأييد الصراخي الذي يطلقه المندوبون. ولعل الصالة أرادت أن تعرب عن تأييدها ودعمها لترشيح الرئيس لولاية ثالثة، وهذا ما كان.

ولقد بقينا في أماكننا من البداية حتى النهاية، ثم خرجنا من القاعة وتبادلنا الانطباعات بحيوية بالغة. فأخذ كل واحد منا يروي مشهداً رآه وسط هذا العرض الهائل، وقال بازيكين:.

ـ إن المرء يحتاج إلى أعصاب من حديد حتى يتمكّن من مشاهدة مثل هذه الحملة الانتخابية.

ووافقناه جميعاً وأضفت قائلاً:.

ـ والأمر الرئيسي أننا شهدنا في المؤتمر أن نجاح روزڤلت في الانتخابات محسوم.

وهذا ما كانت تريده أغلبية شعب الولايات المتحدة ويتعاطف معه المواطنون السوڤيات.

وبعد المؤتمر تجولنا في شيكاغو وتعرَّفنا على معالمها ثم تابعنا الرحلة، وعدنا إلى واشنطن مروراً بديترويت وكليڤلند ونيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور.

وظلّت سفارتنا تتابع نبض الحياة السياسية في الولايات المتحدة، وخصوصاً مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية في سنة ١٩٤٦. وكما كان متوقعاً فقد فاز روزڤلت بالرئاسة واحتفظ بالمنصب لولاية جديدة..

* * *

هكذا بدأ عملي في السفارة السوڤياتية، وكنت عند وصولي واشنطن قد بلغت الثلاثين من عمري.

وفي ذلك الوقت كان الطالب جون كينيدي يتلقى علومه في جامعة هارڤارد بكلية الحقوق ويدرس ميكانيزم نشاط الدولة البرجوازية. وكان له من العمر آنذاك اثنتان وعشرون سنة.

أما في الطرف الآخر من أميركا، في هوليوود، فقد كان يصعد نجم الممثّل رونالد ريغان، حيث صوّر فيلم «المطبخ الجهنمي».

ولم يكن أحد من الثلاثة آنذاك يعلم أننا سنلتقي بعد سنوات كثيرة وقد تغيرت صفات تمثيلنا...

الفصل الثالث

سفيرا في ايام الحرب القاسية

واشنطن، الشارع رقم ١٦ ...

حين يطالعُ القارىءُ عنوانٌ أميركيٌ ما في كتاب سوڤياتي، يكون ذلك مرتبطاً عادة بلغزٍ أو بحبكة بوليسية معيَّنة؛ بيد أنه لا يوجد في العنوان الذي سقناه أي لغز على الإطلاق. فالشارع ١٦، هو، ببساطة، الشارع، حيث تقع السفارة السوڤياتية في عاصمة الولايات المتحدة الأميركية.

ففيه كان مركز نشاط السفير وجميع العاملين السوڤيات من الديبلوماسيين أثناء سنوات الحرب المتوتِّرة. وبكلمة أخرى، يمكن القول إن هذا المركز كان نموذجاً مصغَّراً عن دولتنا الجبارة، القادرة، إذا ما أُريد مقارنته باتحاد الجمهوريات السوڤياتية الاشتراكية.

فبحسب جميع أحكام القانون الدولي يتمتع العاملون على أرض أي سفارة بسيادة الدولة التي يمثلون. وكان من شأن ذلك وحده أن يرفع من معنويات السوڤيات ـ وهو يرفع من معنوياتهم الآن أيضا ـ ويزرع فيهم الفخر، ويجعلهم مؤتمنين على الدفاع عن مصالح وطنهم البعيد جغرافياً، القريب الملامس لشغاف القلب؛ وهم ليسوا مغتربين عنه إلاَّ لبذل الجهود والمعارف والنباهة بما يعود عليه بالخير.

ثمة سؤال لم يُعْطَ عنه جواب شافٍ ودقيق، ألحَّ دائماً، ويلحُّ راهناً في أوساط واشنطن الرسمية التي قادت وتقود السياسة الخارجية للولايات المتحدة عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية وأثناءها، وفي الفترة التي تلتها وصولاً حتى أيامنا الراهنة. وهذا السؤال هو: ما هي التدابير التي اتخذتها حكومات بلادهم لمنع نشوب هذه الحرب؟

وقد أعطى جواباً على السؤال المطروح العديد من المؤرخين والسياسيين الراحلين وكذلك العديد من محلّلي ومراقبي الأحداث الدولية في أيامنا الراهنة. وقد اختلفت الأجوبة على السؤال المشروع دون أدنى شك.

الولايات المتحدة على مفترق طرق

كثيراً ما جرى التأكيد في خطب السياسيين الغربيين ومذكراتهم، وكذلك في علم التاريخ البرجوازي - كما يجري التأكيد الآن أيضاً - أن الولايات المتحدة أدَّت - رغم كل شيء - واجبها لجهة شجب الميول التوسُّعية للفاشية الألمانية وحلفائها، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية. بيد أنه لم يُقم بمحاولات للتأمُّل في ما كان من الممكن حدوثه، أو في التحوُّل الذي كان من الممكن أن يطرأ على الوضع، لو أنّ الولايات المتحدة وقفت في صف الدول التي اتخذت مواقف سلمية، وعلى رأسها الاتحاد السوڤياتي، ولو أنها أعربت عن نية حازمة للمشاركة في قوة موحّدة جبارة تجبه المعتدين. فهذه المحاولات لم يقم بها في الغرب البرجوازي لا سياسيو الماضي والحاضر ولا المؤرخون.

فسياسيُّو الغرب ومؤرِّخوه لم يعوا هذا الأمر، وهم لا يعونه كذلك

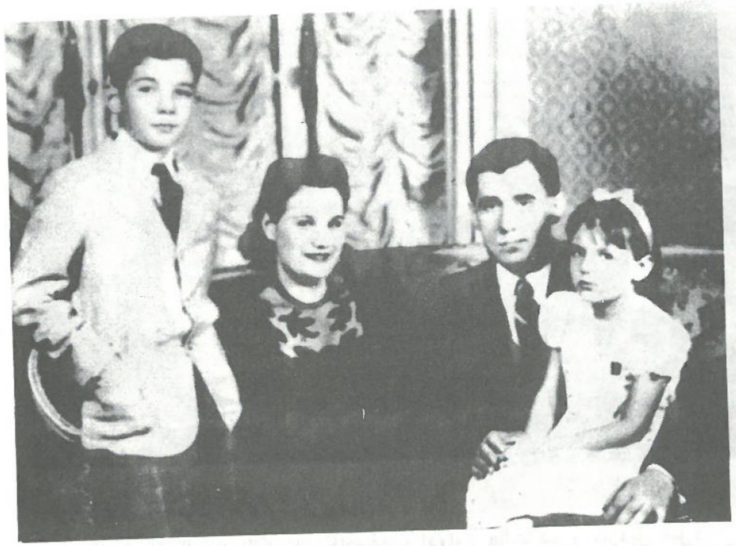

الزوجان غروميكو مع الإبن أناتولي والإبنة إميليا. حزيران ١٩٤٣

في هيئة رئاسة مؤتمر دومبارتون أوكس.
من اليسار إلى اليمين: الكسندر كادوغان؛ إدوارد هاليفاكس؛ كارديل هيل؛
أ.أ. غروميكو؛ إدوارد ستاتينيوس ١٩٤٤.

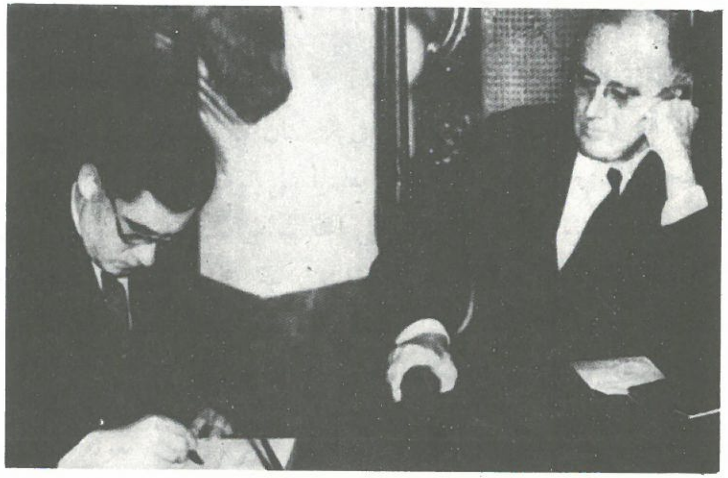

مع رئيس الولايات المتحدة الأميركية فرانكلين ديلانو روزفلت. واشنطن، ١٩٤٤.

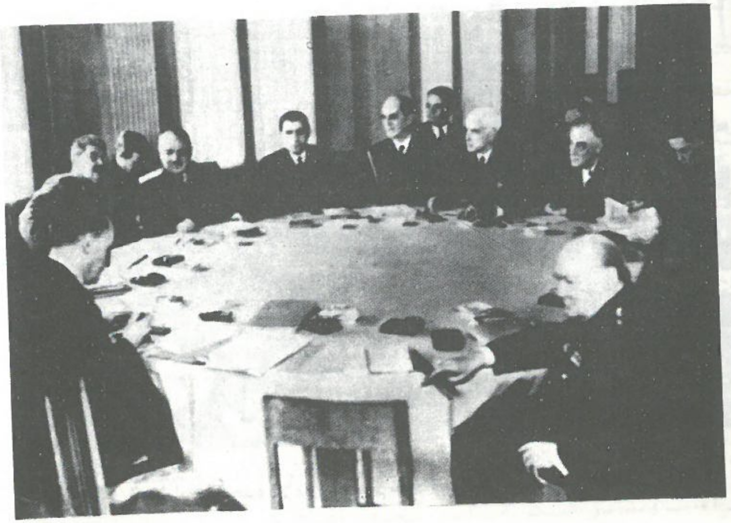

في إحدى جلسات مؤتمر يالطا بين قادة الدول الثلاث العظمى، شباط، ١٩٤٥.

مع رئيس جمهورية الولايات المتحدة
الأميركية هاري ترومان في
مؤتمر سان فرانسيسكو. ١٩٤٥.

لقاء وفود الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى وفرنسا والصين في مؤتمر سان فرانسيسكو.

رئيس وفد الاتحاد السوفياتي إلى المؤتمر يوقع ميثاق الأمم المتحدة. ٢٥ حزيران، ١٩٤٥.

الآن، لأن الولايات المتحدة الأميركية في سنوات ما قبل الحرب لم تخطّط لتوجيه ضربة إلى البلدان التي نهضت إلى العدوان، كما لم تتّخذ أي خطوات لمجابهتها. ذلك أن إدانة البلدان المعتدية تجلّت بصورة رئيسيّة في أشكال استعراضية وضحلة المضامين وفي مواقف خطابية لرجال الدولة الأميركية من على منبر الكونغرس وعلى صفحات الجرائد فحسب. وهذا أمر لا يمكن اعتباره، بالطبع، إلاّ مؤشراً على عدم وجود رغبة لدى واشنطن آنذاك لاتخاذ موقف فعّال بوجه مخطّطات هتلر العدوانية وأذنابه، ولمنع تحقيقها.

غير أن ألمانيا الفاشية كانت في واقع الأمر آنذاك تسعى بشكل محموم إلى شنّ الحرب والتحضير لها. والاستعدادات الألمانية شملت أيضاً إجراءات وتدابير عسكرية ـ استراتيجية، إضافةً إلى الاجراءات والتدابير الاقتصادية إلى حدّ بعيد. ولو أن الولايات المتحدة رغبت لأمكنها إجبار قادة الرايخ الهتلري على التفكير بما ينتظرهم في حال أشعلوا نار الحرب العالمية الثانية، نظراً لما كانت تملكه من كُمُونٍ اقتصادي وسياسي هائل.

فقد ظلت أميركا طويلاً تتردّد عند مفترق الطرق مترقّبة ومتذبذبة. وبدا أن دوائرها الحاكمة لم تدرك تمام الإدراك الأهداف والنوايا الحقيقية التي تسيّر المحتلين الفاشيين، ولم تع تمام الوعي أي كارثة ومأساة يحملها أولئك لأوروبا وللعالم أجمع. وفي واقع الأمر لم يكن موقف هذه الدوائر من القضايا الدولية، عشية الحرب، يختلف كثيراً عن مواقف وسياسات الدوائر الحاكمة في إنكلترا وفرنسا، اللتين لم تمانعا في أن تتّجه ألمانيا الفاشية بعدوانها نحو الشرق، لتنقضّ به على الاتحاد السوفياتي.

ولم يُصب التحوّلُ مواقف واشنطن إلا عندما بدأت نيران الحرب تبلغ

هشيم الولايات المتحدة نفسها. فعقب هجوم ألمانيا على الاتحاد السوڤياتي وُوجِهَ كل أميركي بسؤال طُرِح بأقسى ما يمكن من الأشكال والصِّيَغ: «أي الدول ستكون التالية على لائحة العدوان الهتلري؟».

ومع ذلك، ومهما بدا ذلك غريباً، فإن الضربة القوية التي وجَّهتها حليفة ألمانيا، اليابان العسكرية، إلى قاعدة «پيرل هاربور» العسكرية الأميركية (ديسمبر ـ كانون الأول ١٩٤١) منزلة كارثة عسكرية هائلة بالولايات المتحدة، قد فتحت عيون بعض الأميركيين، وليس جميعهم، على مدى الخطر الكبير الذي خلقته الفاشية الألمانية مع حلفائها الشرقيين على حياة الشعوب السلمية وحريَّاتها.

بل ثمة ما هو أكثر من ذلك، إذ كان في الولايات المتحدة بعض سياسيين أرادوا مشاهدة كيف أن الاتحاد السوڤياتي وألمانيا يستنزفان بعضهما بعضاً، مما يجعل بالتالي، وفق رأيهم، الفرصة متاحة أمام الولايات المتحدة لتقول الكلمة الفصل عند انتهاء الحرب.

فهل يمكن نسيان كل ذلك؟ بالطبع لا. فالاتحاد السوڤياتي وشعبنا يقدّران الإسهام الذي قدَّمته الولايات المتحدة في معركة الانتصار على ألمانيا الفاشية واليابان العسكرية، وهذا ما أعلنه القادة السوڤيات مراراً. ولكن الولايات المتحدة لم تقم بما كان في استطاعتها القيام به، بل بما وجب عليها القيام به، لدرء نشوب الحرب العالمية.

ثم إنَّ ذلك كله أنشأ تعقيداً كبيراً في الفترة التي سبقت نشوب الحرب في العلاقة بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، ممَّا انعكس على عمل الديبلوسيين السوڤيات، وهو أمر أستطيع الحكم عليه. فالتفكير القديم

الذي سيطر على الدوائر المسؤولة عن سياسة الولايات المتحدة الخارجية ظل مسيطراً عليها في كثير من الحالات، إبان الحرب وفي سياقها.

الحرب، إذن لنطرح البروتوكول جانباً

عرفت واشنطن صيف ١٩٤١ حياة هادئة رحبة الآفاق: فالكونغرس في عطلة، والوزارات والدوائر كأنما تغرق في خدر النوم، في حين كان الموظفون يغادرون المدينة الكبيرة جماعاتٍ طلباً لراحة «الويك إند» في يومي السبت والأحد. ولم يبق على دخول الولايات المتحدة الحرب إلا سنة ونصف السنة، أي حينما شن اليابانيون هجومهم على پيرل هاربور. ولكن الجو في السفارة السوڤياتية كان مختلفاً، حيث توتَّر وأصبح محموماً نتيجة للمعلومات المؤكَّدة الواردة من موسكو، وجزئياً من الإدارة الأميركية. وقد تطلَّبت غزارة المعلومات تحليلاً معمَّقاً، فأصبحنا نعمل حتى في يومي السبت والأحد.

وعندما تكون الساعة الرابعة صباحاً في موسكو، تكون في واشنطن الثامنة من مساء اليوم المبارح، لذا فعندما كانت قاذفات اللوفتڤافهْ الألمانية (القوات الجوية) تقصف مينسك وكييڤ وكاوناس وغيرها من المدن السوڤياتية، وفيما القذائف المدفعية تدك قلعة بريسْت، كان الوقت في واشنطن ما يزال مساء الواحد والعشرين من حزيران (يونيو).

وفي ساعة متأخِّرة من اليوم المذكور بثَّت محطات الإذاعات الأميركية ما يلي استناداً إلى مصادر أوروبية:

ـ عبرت الجيوش الألمانية حدود الاتحاد السوڤياتي...

وفي الباكر من صباح ٢٢ حزيران (يونيو) سمعنا في واشنطن الخبر

الذي بثته إذاعة موسكو، ومفاده أن ألمانيا نكثت اتفاق عدم الاعتداء المعقود، وبدأت هجومها على الاتحاد السوفياتي.

وهكذا بدأت الحرب...

ودفاعاً عن الاستقلال والحرية والمكتسبات الاشتراكية خاض الشعب السوفياتي إلى جانب القوات المسلحة البطلة معارك حتى الموت ضد الفاشية الألمانية وبمواجهة آلتها العسكرية الجبارة.

وفي عدد من البلدان الأوروبية التي دنَّسها الاحتلال الألماني الفاشي نشأت حركات مقاومة، لعبت دوراً عظيماً في النضال ضد الفاشية.

ومنذ الأيام الأولى للحرب الوطنية العظمى أصبحت المهمة الرئيسية لسياسة الاتحاد السوفياتي العمل على ضمان خلق الظروف المساعدة لتنظيم توجيه الضربات إلى العدو، ثم لاحقاً المساعدة على هزم المعتدين الفاشيين هزيمة كاملة وتحرير شعوب أوروبا من نيرهم. وهكذا فقد سعى الاتحاد السوفياتي وديبلوماسيته إلى رصّ صفوف الكتلة المعادية للهتلرية وفتح الجبهة الثانية، علماً أن بلوغ هذا الهدف لم يكن أمراً سهلاً.

وفي معركتنا مع الفاشية أصبحت الولايات المتحدة، بحسب المنطق التاريخي للأحداث، حليفتنا مثل إنكلترا. وقد كان إرساء العلاقات التحالفية وتنميتها بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في سنوات الحرب جزءاً استثنائيَّ الأهمية من النشاط السياسي الخارجي لبلدنا.

وفي ظروف التوتر الشديد، الناجم من الحرب الدائرة، نشأت علاقة منتظمة بين البلدين وتبادل ناشط للآراء عبر السفارة السوفياتية في واشنطن، الأمر الذي شكَّل ظاهرة جديدة تماماً. إذ يُستشفّ بوضوح من

الوثائق والمراسلات المتبادلة بين عاصمتي البلدين - وهي وثائق ومراسلات منشورة - كم كانت المسائل المطروحة آنذاك مهمة.

وكعادته لدى ورود رسالة من ستالين موجَّهة إلى روزفلت، كان مساعد الرئيس الأميركي الجنرال إدوين واطسون يأتي إلى السفارة في شارع ١٦ في واشنطن لتسلّمها من السفير شخصياً. كان ذلك ما جرى عليه الاتفاق مع روزفلت، وقد قُصد توخّي السرعة والسرية التامَّتين، ذلك أنه لم يكن ثمة من مسائل غير ذات أهمية آنذاك، فكان الجنرال يحمل رسائل ستالين إلى روزفلت مباشرة، ولم يكن الأمر يستغرق أكثر من خمس عشرة أو عشرين دقيقة، وأحياناً أقل.

وفي إحدى المرات مازحني روزفلت بقوله:

- لعلّ واطسون لا يعطيكم فرصة للتنفّس لكثرة زياراته...؟

فأجبت:

- سيدي الرئيس، إنما نحن سعداء بهذه الزيارات، فضلاً عن أن الشيء نفسه يحدث في موسكو عندما تُسلَّم رسائلكم إلى ستالين.

وكثيراً ما كنت أناقش في لقاءاتي مع الرئيس الأميركي جوهر المشكلات التي كانت سائدة وقتها، وفي طليعتها كيفية تسريع الوصول إلى الانتصار على ألمانيا الهتلرية.

وانطبعت لقاءاتي بروزفلت عميقاً في وعيي، وأنا ما زلت على رأيي بأنه كان واحداً من أعظم الشخصيات السياسية في الولايات المتحدة. فقد كان سياسياً ذكياً ورجلاً ذا أفقٍ واسع وصفات شخصية فريدة مفعمة باللباقة والحذق.

وإني لأذكر أنني قلت للرئيس خلال تقديمي أوراق الاعتماد :

ـ سأعمل ما بوسعي ، بوصفي سفيراً للاتحاد السوفياتي في الولايات المتحدة ، لما فيه خير بلدينا وتعاونهما ولتعزيز علاقات التحالف بينهما .

فردَّ روزفلت قائلاً :

ـ وأنا أعتبر تنمية علاقات الصداقة السوفياتية ـ الأميركية قضية ضرورية جداً وتلائم مصالح شعبي البلدين .

والجدير بالذكر أنه لم يكن هناك تبادل لكلمات أو خطب ، على عادة ما كان يقوم به السفراء الأجانب أثناء تقديمهم أوراق الاعتماد ، والكلمات التي أوردتها قيلت أثناء جلسة جمعتني والرئيس في سياق اللقاء . وأكمل الرئيس حديثه بكل تلك المباشرة التي ميَّزته :

ـ سعادة السفير ، أعطني كلمتك من فضلك ، وهاك كلمتي ، فهما ستنشران في صحف الغد ؛ ولنتكلم الآن على إمكانات تنظيم اجتماع قادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وإنكلترا .

وتناول الحديث مؤتمر طهران المزمع انعقاده بين الدول الثلاث . وهكذا خضنا في الموضوع .

ولا أخفي أنني تأثَّرت شديد التأثُّر بالروح العملية والمباشرة اللتين تميَّز بها الرئيس . لقد أثارا لدي انطباعاً قوياً وإعجاباً كبيراً .. لنطرح البروتوكول جانباً ، فالحرب قائمة ، هكذا كان روزفلت ينظر إلى الأمور . لكأنما استطاع قراءة أفكاري . وفكَّرت آنذاك أن سيِّد البيت الأبيض ليس ذلك الأرستقراطي الساعي إلى إدهاش جليسه بحلو الكلام ، بل هو إنسان ذو شخصية مميزة ، يمكن لأي جنرال أن يحسده عليها .

وبشكل عام ، تركت جلستي مع الرئيس الأميركي أثناء تقديم أوراق الاعتماد انطباعاً جيداً ؛ فالطرف الآخر شخص يمثل الولايات المتحدة الأميركية رسمياً ويتكلم باسمها ، وهو إلى ذلك يخوض حواراً حرّاً خالياً من أي ثقل أو تكلّف ظاهر . فقد كان إذا تحدث في موضوع ما لم يستعجل جليسه ليبدي ردَّ فعله بسرعة على أفكاره ومقترحاته ، كما يشعر المرء بأن الرئيس تحدوه الرغبة ليفسِّر وجهة نظره ، حتى ولو بدت واضحة بشكلٍ عام . فقد كان يعجبه العودة إليها مراراً ليقدمها بصيغ متغايرة ، وهذا ما تأكَّدت منه مراراً في لقاءات لاحقة .

كما لم أستطع إلاَّ أن ألاحظ كيف كان روزفلت يهرع إلى استعمال تعابير مبتكرة ، غالباً ما كانت تتأتَّى له بسهولة تامَّة . وكان شخصاً مُحباً للمزاح ، يعجبه أن يبادله محدِّثه المزاح أو النكات أو الملاحظات اللاذعة ، ترطيباً لجو الحديث .

وأثناء التحادث مع روزفلت ، يتبين للمرء في الوقت نفسه ما يلوح في عينيه وعلى وجهه من الحزن إذا أمعن النظر ، وهو ما لحظته في سياق معرفتي له التي امتدت خمسة أعوام . أما الابتسام والمرح في سلوك الرئيس فقد كانا ، أغلب الظن ، نتيجة لجهودٍ داخليةٍ يبذلها ، لتمويه أو إخفاء أو كبت التغريب الذي يعتري أعماق روحه . وكان مصابه الثقيل الوطأة سبباً لكل ذلك .

أصابت روزفلت الكارثة عام ١٩٢١ ، حين فتك به مرضٌ شَلَّ رجليه عن الحركة . حدث ذلك عندما كان بصحبة عائلته صيفاً للاستجمام في جزيرة كامبوبيلّو من أعمال ولاية « مين » ، إذ عاد مرة إلى المنزل بعد

سباحة في المحيط مستشعراً غثياناً شديداً ووهناً يدبُّ في اطرافه. وفي اليوم التالي ارتفعت حرارته، وتوقّفت رجله اليسرى عن الحركة، ثم تبعتها اليمنى.

وقال الپروفيسور الذي استُدعي من نيويورك أن روزڤلت أصيب بمرض الپوليوميليت (شلل الأطفال) المعدي، الذي ينـدر أن يصيب الكبار، وهو مرض شاع في الولايات المتحدة آنذاك. ولم يلبث أن مرَّ بعض وقت حتى أعلن الأطباء أنهم عاجزون عن تحسين وضعه، فأدرك روزڤلت أن قدره يحتم عليه التصبُّر على مصابه مدى الحياة.

بيد أن روزڤلت لم يفكر في الاستسلام. وبفضل إرادته الجبارة تمكَّن من إنماء صفات في شخصيته سمحت له بأن يبدو نشيطاً معافى أثناء إلقائه خطاباته أمام الجماهير.

وقد كان على روزڤلت أن يخاطب الجماهير كثيراً، وأن يطلَّ عليهم عبر التلفزة لأول مرة سنة ١٩٣٨، أي قبل أن يصبح البث التلفزيوني بثّاً دائماً سنة ١٩٤١. وأصبحت مخاطبته الإذاعية للشعب الأميركي، من المكتب البيضاوي في البيت الأبيض، أمراً تقليدياً ضمن برنامج «جلسة عند المدفأة»، الذي كان يستغرق نصف ساعة ويذاع بضع مرات خلال السنة. وكان روزڤلت يتقن تعبئة الاحتياطي الضروري من إرادته وقوّته لكي يبدو معافى في أعين الناس، فلم يكن النجاح يخونه في ما يقدم عليه.

وفي المهرجانات والاحتفالات، المنقولة عبر الأثير والشاشات الفضية، كان الرئيس يتكلّم ببطء ويلفظ الكلمات بوضوح ويعبّر عن أفكاره بدقة، غير أنه لم يكن يحبُّ اللجوء إلى الحركات المثيرة. وكانت قسمات وجهه تنبىء عن حماسه وإرادته وجديته. وبشكل عام كانت خطب روزڤلت

تولّد انطباعاً طيباً عند الأميركيين وتثير لديهم العاطفة والحب نحوه. ولم يكن من العبث أنهم أطلقوا عليه في حياته لقب «أعظم منبري بين كل خطباء أميركا المعاصرين»، كـان ذلك في أحد مؤتمرات الجمعية الوطنية الأميركية لمعلمّي فنّ الخطابة.

ولم أعرف في اللاحق من الفترات رئيساً أميركياً واحداً يمكن مقارنته في هذا الجانب مع الرئيس روزڤلت.

وأسوق في هذا المقام صفة أخرى من صفاته، لاحظتها أثناء لقاءاتي به، وحدثتني بها بعض الشخصيات الأميركية الذين عرفوه والتقوا به دائماً، ذلك أنه لم يكن يعرف توجيه كلمات حادة إلى محدّثيه حتى ولو كان من الخصوم السياسيين المباشرين، ولكن من الطبيعي ألاّ يكون هؤلاء من رجالات الدول التي تخوض ضدها الولايات المتحدة الحرب.

وفي الحالات التي اقتضت مثل هذه الضرورة كـان روزڤلت يجيب معارضه بما يشبه السخرية والمزاح، وهذا ما أتقنه برحابة وبسرعة بديهة. وكانت سهام روزڤلت الساخرة لاذعة، بل تصيب وتحدث جرحاً مؤلماً.

وممّا يجدر ذكره ههنا هو كيف كان روزڤلت يتصرَّف حين يجد نفسه وسط المفاوضات، وقبل كل شيء طبعاً في مؤتمري طهران والقرم، اللذين جمعا الدول الحليفة الثلاث: الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا. وبناء على ملاحظاتي الشخصية له خلال مؤتمر القرم، أجد لزاماً عليَّ أن أقول إن روزڤلت أظهر ثباتاً وتماسكاً عظيمين، وسعى في أشد اللحظات توتراً إلى إشاعة مسحات من روح التسوية والعملانية في جو المفاوضات.

وبهذا الجانب تحديداً امتاز الرئيس الأميركي إيجابياً عن رئيس

الوزراء البريطاني تشرتشل. لقد كانا، بوجه عام، شخصين مختلفين تماماً من حيث النفسية والمزاج. فمن المعروف أنّ تشرتشل وَطِئَتْهُ في مؤتمري طهران ويالطا، مرات عديدة، حالة من التوتُّر عند بحث هذه أو تلك من المسائل، على الرغم من محاولاته الظهور أمام مفاوضيه ضمن الحدود المعقولة، وقارىء مذكّراته يتكوّن عنده الانطباع نفسه بالتوتر والحدة.

أما روزڤلت فقد كان أقرب إلى ستالين من حيث أسلوبه في مقاربة المسائل المبحوثة، ذلك أن الكلمات عند ستالين لم تكن تسبق الفكرة البتة، وهو أمر لا تمكن ملاحظته عند تشرتشل، الذي لم يكن يستطيع السيطرة أحيانا على عواطفه فيطلق لها العنان. وفي مثل هذه الحالات كان الرئيس الأميركي يبذل المحاولات لإزالة التوتُّر بين المتجادلين مطلقاً بعض كلماتٍ أو عبارات مهدئة.

ومن المفهوم أن المقصود بالكلام ليس الروح التنازلية عند روزڤلت، بل إنه كان مدافعاً صلباً ومتماسكاً عن مصالح الولايات المتحدة، حيث سعى إلى الحصول على الممكن، ولكن بشفافية ومرونة تفوقان بكثير مما اتصف به تشرتشل.

وليس خروجا عن الموضوع أن أسجّل أن روزڤلت، بوصفه ممثلاً للطبقة البرجوازية، عبر بالطبع عن مصالحها. غير أنه كان ينتمي إلى تلك الدوائر من الطبقة الحاكمة في أميركا، التي قاربت وقيمّت، عن وعي، الوضع الدولي ومسائل تطوير العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية. وهذا ما لا يجوز اعتباره صدفة، ففي عهده، أي في سنة ١٩٣٣، أقيمت العلاقات الديبلوماسية بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة.
وتمكّن روزڤلت في فترة الحرب من تعزيز الثقة بين واشنطن

وموسكو، وكذلك وعيه وتقديره للإسهام الكبير الذي بذله الاتحاد السوڤياتي في مقاتلة الفاشية ـ بحسب كلماته هو، دون أن يخشى إعلان ذلك صراحة ـ إنما يؤكّدان واقعيته كرجل سياسة ودولة.

وفي سياق الكلام على لقاءات الرئيس الأميركي بممثّلي الاتحاد السوڤياتي تنبغي الإشارة إلى أن طابع اللقاءات وأجواءها شكّلت بحدٍّ ذاتها ظاهرة خاصة ومميزة. فبغضّ النظر عن الأطر المحدودة لعلاقات الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، المتعلقة بالاختلاف الجذري بين نظاميها الاجتماعي، بقي حقل واسع لتحقيق تفاهم متبادل بينهما، في صدد المشكلات التي مسّت المصالح المشتركة في مناهضة الفاشية، وفي صدد إرساء علاقات التعاون وتطويرها بين الدولتين العظميين.

وسياسيو واشنطن الذين يتناسون هذه الأمور، لابأس في أن يرجعوا إلى الخبرة التي تراكمت في العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية أيام كان الرئيس فرانكلين ديلانو روزڤلت يدير دفّة الحكم.

وقد كُتب عن روزڤلت في الولايات المتحدة الكثير من المقالات والكتب، وبشكل أساسي بعد وفاته. هذا، وقد كُرِّس القسم الأكبر منها لإلقاء الضوء على نشاطه السياسي إبّان فترة توليه منصب الرئاسة، وهو أمر مفهوم.

ويمكن تقسيم مؤلّفي وكتّاب هذه الأعمال وكذلك الرأي العام في الولايات المتحدة إلى مجموعتين، بحيث تضم أولاهما أولئك الذين يعرضون لنشاطه السياسي بوصفه نشاطاً لقائد عظيم، استحقّ الاحترام العميق من جانب أغلبية الأميركيين؛ فيما تضمّ المجموعة الثانية الخصوم الذين

لا يؤيدون أفكار الرئيس وآراءه، بل يعمدون إلى انتقادها. وبالطبع فأولئك هم المرتبطون بالحزب الجمهوري والمؤيدون له.

وفي الوقت الراهن، وبعد مضي أكثر من أربعين سنة على وفاة هذا الأميركي العظيم لم يبق من معاصريه الذين عرفوه معرفة شخصية حقة إلاَّ قلّة ولذا، فإن ما يُنشر الآن من كتب في هذا الموضوع لا يعدو أن يكون، بصورة أساسية، إعادة رواية ما نشر سابقاً منذ بضع سنوات أو منذ عقود خلت.

وما تزال التقييمات التي يدلي بها الكتّاب الآن في مؤلّفاتهم هي هي، كما كانت في السابق، متباينة مع بعض الاختلاف، وقد ازداد عدم الدقة في إيراد الحقائق والوقائع المتعلقة بنهج إدارة روزفلت على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ومما أوردته آنفاً بعض التقديرات والتقييمات لمسائل سياسته كان محطَّ اهتمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ومن الطبيعي أن يكون ما أوردته مقتضباً ومختصراً، بل ضحلاً، أخذاً بعين الاعتبار طبيعة هذا الكتاب الحاوي مجرد ذكريات. وهذه التقييمات ضرورية لأن الحديث يتناول أهم مشكلات الحرب والسلم، فستالين وروزفلت ناقشا، وقتذاك، مسائل البنية المستقبلية التي سيكون عليها العالم، وكيف ينبغي أن يبدو. كان الحوار يتناول الطريقة التي يمكن عبرها خلق منظمة دولية فعّالة وقادرة على حفظ السلام، دون التغافل عن عشرات الملايين من البشر الذين بذلوا أنفسهم ضحايا في النضال ضد الفاشية والقضاء عليها.

بيد أننا لا نعثر ـ تقريباً ـ في الكتب الموضوعة حديثاً على مواد موضوعية تعيد بعث صورة الرئيس روزفلت بوصفه إنساناً. فثمة نقص

في الصور الفوتوغرافية واللقطات السينمائية، الأمر الذي يجعلني أتصدّى لإضافة بعض الملامح إلى صورته دون أن أدّعي الكمال والتمام.

وقد تكون الملاحظة التالية صحيحة: ذلك أنه من الصعب على السياسيين، الذين يمسّ قرارهم، حول المشكلات الكبرى، حياة ملايين الناس، أن يلعبوا دور «الشخصية المزدوجة». فالإنسان الذي يحتل موقعاً معادياً للسلام لا يمكن أن يبدو بمظهر الحامل لمثل السلام العظيمة والصداقة والطيبة الإنسانية في سياق تعامله اليومي مع الناس، بمن فيهم رجالات الدول وقادتها. فهو لن يستطيع إلاّ الكشف عن وجهه الحقيقي.

والتاريخ لا يندر أن يضرب على ذلك الأمثال، ولعلّ أحد هؤلاء الفوهرر المجنون. فالعميان وحدهم ما كانوا ليستطيعوا رؤية الفلسفة العدوانية للنازي قبل زمن طويل من وقوف المستشار أمام الرئيس الألماني هيندينبورغ لأداء القسم.

وهكذا، من كان فرانكلين روزفلت؟ كان شخصاً رحب الأفق، ثاقب النظر، كريماً ومحترماً في علاقاته، غالباً ما يعثر على كلمة طيبة يقولها لمحاوره وعن بلده.

وإذا جرى اللقاء في مكتبه كان يتصرف دون تكلّف، جاذباً أطراف الحديث والانتباه إلى تلك اللوحات القليلة المعلقة على الجدران.

وكان بسبب مصابه يبقى جالساً طوال اللقاء، غير أنه يدير نفسه على نحو يجعل الآخرين ينسون قعوده وشلله وعجزه الجسدي.

وبالطبع، فقد كان يستدعي مساعديه، فيوقع ما لديهم من الأوراق ويشير عليهم ببعض النصح ويوجه إليهم التعليمات. وقد صودف أنني

التقيت أشخاصاً أكّدوا لي أنه يمكن التنبؤ من ملامح روزفلت وقسماته ما إذا كان ممكناً إثارة مسألة من المسائل أو خوض موضوع ما. فمزاجه كان يتبدّى في وجهه، وهذا ما أوافق عليه تمام الموافقة.

وما أثار انتباهي ذلك الاحترام الذي كان يكنّه الرئيس الأميركي لستالين. وكان يلفظ اسم «ستالين» مشدداً على حرف «الياء»، ولم أحاول ردّه في ذلك، لأنني علمت أنّ من سبقني بذل محاولات مماثلة ولكنه لم يلق بالاً إلى الأمر ولم يعره أي اهتمام.

ولا أستطيع الحكم ما إذا كان يعتري الرئيسَ ألمٌ أثناء الاجتماعات والمؤتمرات أو خلال اللقاءات الثنائية في البيت الأبيض. ولعلّه كان يتألم فعلاً رغم العقاقير التي يتناولها. أما من حيث مظهره فلا يسع المرء ملاحظة شيء، وذلك قد يكون عائداً إلى صبره وقوة إرادته وتحمّله.

ومع ذلك، فقد كانت تطلّ من عينيه نظرة تعب وإرهاق، وخصوصاً في الفترة الأخيرة من حياته.

وقبيل انعقاد مؤتمر القرم (يالطا) لفت اهتمامي أن روزفلت كان يبتسم نوعاً ما عندما لفظ اسم «تشرتشل». وسبب ذلك أن هذا الأخير رمى لروزفلت ببعض الأفكار المتعلقة بالمسألة البولونية ومسألة التعويضات الألمانية، وذلك في سياق المراسلات الناشطة بين الزعماء الثلاثة. وكان روزفلت يعرف بالطبع وجهة نظر ستالين في هاتين المسألتين، المختلفة جذرياً عن وجهة نظر تشرتشل.

وكان الرئيس يتعاطف مع زيارات عقيلته إلى سفارتنا واتصالها بعقيلة السفير.

كان بحاجة إلى أناس أذكياء

تحلّق حول رئيس الولايات المتحدة عدد ضئيل من المساعدين الذين كان يتناصحهم بشكل دوري ويتشاور معهم في شؤون البلاد الداخلية والخارجية. أما الاعتقاد الذي ساد، إبّان رئاسته وبعد وفاته، بأنه كان يتّخذ القرارات وحده وأنه لم يكن بحاجة إلى الآخرين ليناقشها معهم بعمق، حتى ولو كانوا من المقرّبين، فهو اعتقاد خاطىء وبدائي. ومن الصحيح أن روزفلت لم يكن يتردّد في اتخاذ القرارات التي لم يداخله شكّ في مصداقية أسسها وخلفياتها، ولكنه كان يجعل الآخرين يدلون بآرائهم وتقديراتهم، وخصوصاً أولئك الذين يثق بهم ويعتمد على كفاءاتهم، وذلك قبل بلوغ مرحلة الحسم.

وفي إحدى المرات أثناء لقاء جمعنا قال لي:

ـ أشعر بالدوار من كثرة المشكلات. ثمة حاجة كبيرة لأشخاص أذكياء كي ينكبّوا على حلها بالشكل الصحيح.

وهكذا، لم يكن روزفلت استثناءً من القاعدة التي ترسّخت عبر القرون بالخبرة والمراس. فقد كان الرئيس يتصرف في شؤون الدولة، كما تصرف رجال الدول الأخرى من قبل في التاريخ القديم أو في الحقب المتأخرة.

وكانت بعض علاقات روزفلت بهذه الشخصية أو تلك، بحكم موقعه وبحكم مميزاته وطبعه، معروفة وبادية للجميع، بحيث لم يكن يحاول إخفاءها. وعلى سبيل المثال، لم يندر أن أوصى روزفلت السفراء السوفيات، وأنا منهم، طوال فترة رئاسته، قائلاً:

ـ اتصلوا بهاري هوبكينز لمعالجة المسألة. وقد لا يكون قادراً على حلّ

كل المسائل، إلا أنه يقدم لي تقارير دقيقة في صددها.

ولا شك أن السفراء السوفيات كانوا يأخذون بنصائح الرئيس الأميركي، وقد حدثت في بعض الأحيان مغالطات نجم عنها سوء تفاهم. ومما يُذكر في هذا المجال أن السفير أومانسكي تحدَّث مرة خلال لقاء جمعه وهوبكينز حول مائدة إفطار في سفارتنا لمناقشة إحدى المسائل، فجاءت لهجته على نحو اعتبر الطرف الآخر أنها لهجة حازمة وصارمة، فانفجر الأميركي وبات من الصعب إكمال الحوار فانتهى عند حدِّه. فما كان من أومانسكي إلا أن أعلم موسكو بما حدث منتقداً نفسه. وبما أن المسألة كانت تتعلق بأشكال التعبير عن الموقف السوفياتي لا بمضمونه، فهي لم تخلّف أي عواقب جدية تذكر على الرغم من أنها تركت بعض الآثار.

وكان هوبكينز يُعتبر شخصا ذكياً، ولكنه في الوقت عينه كان شخصاً معقداً أيضاً. فمع أنه لم يشغل مناصب كبيرة في الإدارة ـ باستثناء فترة قصيرة بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٤٠، عندما تولّى حقيبة وزارة التجارة ـ إلا أنه كان قريباً جداً من روزفلت، حيث تطابقت آراؤه السياسية مع آراء الرئيس في كل المسائل المتعلقة بالحرب والسلم. ولعل ذلك كان السرّ الرئيسي للوزن الذي يتمتّع به في واشنطن وفي الإدارة.

برز هاري هوبكينز بوصفه ظاهرة غير عادية في الفلك السياسي للولايات المتحدة الأميركية. فقد وصل إلى البيت الأبيض وعمره لم يتجاوز ثلاثاً وأربعين سنة، وظلّ فيه إلى جانب روزفلت على مدى اثنتي عشرة سنة، فلم يماثله أحد في قربه من الرئيس أو في الفترة الطويلة التي أمضاها إلى جانبه.

وكان الجميع يعلم أنَّه أب لأربعة أطفال ويعيش عيشة متواضعة جداً بحسب المعايير الأميركية، ذلك أن مدخوله السنوي أثناء عمله في البيت الأبيض كان أدنى من مدخوله قبل سنة ١٩٣٧.

وقد أُطلق عليه، بشكل غير رسَمي، لقب «نائب الرئيس» و «رئيس أركان البيت الأبيض» و «المستشار الرئيسيّ لشؤون الأمن القومي»، وكان هذا وذلك وذاك. ولكن أكثر ما أدهش الأميركيين هو انعدام الرغبة عند هوبكينز للاستفادة من قربه إلى السلطات العليا، أو تحقيق مغانم شخصية مستفيداً من موقعه السامي.

وكان رؤساء الدول ورؤساء وزرائها يسعون إلى لقائه عندما يفدون إلى الولايات المتحدة لمعرفتهم بقوة تأثيره. هذا، وكان أساطين البيزنيس الأميركي تذهلهم برودة أعصابه في أحلك الفترات حينما تفشَّت أوضاع متأزِّمة، كما أدهشتهم قدرته على التفكير بوضوح وثقب نظر والتعبير عن أفكاره بدقة.

ولم يكن هوبكينز عيني الرئيس وأذنيه فحسب، بل كان أيضاً رجليه إذا صح التعبير. ففي المفاصل الزمنية الحاسمة في التاريخ الأميركي كان روزفلت يوفده إلى الخارج مكلفاً إياه بأعقد المهمات وأصعبها.

ففي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤١، عندما كان أوار الحرب العالمية الثانية يحاصر أوروبا، طار هوبكينز إلى لندن لمقابلة تشرتشل. وفي حزيران (يونيو) ١٩٤١ شنَّت ألمانيا الهتلرية عدوانها على الاتحاد السوفياتي، فلم يحل شهر تموز (يوليو) من العام نفسه حتى كان هوبكينز يجري محادثات في موسكو مع ستالين. وقد بلغت ثقة روزفلت بمبعوثه حداً جعلته لا يُملي عليه أي تعليمات، حتى التعليمات المكتوبة.

ومرض هوبكينز في السنوات الأخيرة من حياته. فعندما حطَّت به الطائرة في مطار لندن لم يقو حتى على فكِّ حزام الأمان لشدة ما أصابه من الوهن، ولم يعرف الأطباء سبب مرضه. أما الطعام فلم يكن يلائمه، فعاش على الحقن ونقل الدم.

وبعد وفاة روزڤلت سرعان ما قدَّم هوبكينز استقالته، وقد حدته رغبة وحيدة هي أن يؤلف كتاباً عن الرئيس الذي أمضى في العمل معه، جنباً إلى جنب، سنوات كثيرة. بيد أنه لم يستطع إنجاز ما رغب فيه، حيث قضى بعد مضي تسعة أشهر على وفاة روزڤلت.

كانت لي مع هوبكينز لقاءات عديدة تتسم بروح الثقة المتبادلة، وقد جرى معظمها في سفارتنا، حيث كان يأتي برفقة قرينته، وكنّا، زوجتي وأنا، نسعد دائماً بقضاء الوقت معها، إذ كان هوبكينز يحب اللقاءات المقتصرة على عدد قليل من الأشخاص. ولا أذكر من لقاءاتنا كلها أنه أدلى مرة واحدة برأي يتناقض وآراء الرئيس روزڤلت.

ومما استذكره، الآن بوجه خاص، لقاء جرى في سفارتنا. فقد أثارت اهتمامه آنذاك مسألة المستقبل، فبادر إلى فتح الحوار قائلاً:

– ومع ذلك فكيف ستكون العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي بعد انتهاء الحرب؟ ولعل الأوضح بين الواضح أن ألمانيا ستُجبَرُ على الركوع، والرئيس روزڤلت ليس عنده أدنى شك في ذلك.

وهذا الحديث جرى قبل انعقاد مؤتمر يالطا بوقت طويل، فيما كان الجيش الأحمر يتقدم إلى الأمام نحو الغرب، وقد أدرك كثير من الأميركيين أن أحداً لا يستطيع وقف تقدُّمه. وأعلن هوبكينز قائلاً:

– لقد تكلَّم روزڤلت على هذه المسألة مراتٍ عديدة، محاولاً استشراف المستقبل. وبالطبع فالرئيس لم يثر الموضوع صدفة، فممثِّلو مختلف الأوساط يطرحون عليه السؤال، وهؤلاء رجال سياسة أكثر منهم رجال أعمال.

وكان هوبكينز يُعتبر رجلاً واسع الاطلاع، ولذا اتسمت آراؤه بأهمية كبرى. ومما قاله أيضاً:

– إن روزڤلت لم يكوِّن حتى الآن آراء في هذا الموضوع، فالجواب عليه يقتضي الأخذ بعين الاعتبار ما ستتمخَّض عنه كثرة من العوامل، أهمها طبعاً سياسة الاتحاد السوڤياتي بوصفه بلداً عظيماً.

ولم يكن آنذاك قد استُعمل مصطلح «دولة عظمى» بعد، فكان هوبكينز يستخدم مصطلحات قديمة من وجهة نظر السياسيين المعاصرين. ثم تابع يقول:

– ولكنني استطعت الاستنتاج، من خلال كلام الرئيس القليل في هذا الصدد، أن على الولايات المتحدة القيام ما بوسعها لإرساء علاقات طيبة مع روسيا السوڤياتية في المستقبل.

وأجبته بقولي:

– مستر هوبكينز، إن كل رسائل ستالين التي بلَّغتُها للرئيس، بما فيها تلك التي بَلَغَتْهُ عبرك، مفعمة بالاحترام تجاه الرئيس وتجاه بلادكم بوجه عام. فإذا كان القائدان متفاهمين أفلا يعني ذلك شيئاً كبيراً. طبعاً لم يتسلم ستالين دائماً ردوداً طيبة حول الموضوعات المُثارة والتمنيات المُلِحَّة.

وهنا سقت واقعة حصلت، فأثار ذلك دهشة هوبكينز، على الرغم من

أنه كان يجب أن يكون على علم بها . قلت :

ـ بعد أيام من هجوم ألمانيا الهتلرية وردت إلى السفارة السوفياتية في واشنطن برقية موقّعة من قبل ستالين، يطلب فيها من حكومة الولايات المتحدة أن ترسل إلى الاتحاد السوفياتي صفائح وألواحاً مدرّعة لتجهيز الدبابات، ذلك أننا كنا في أمسّ الحاجة إليها . ولكن الاتحاد السوفياتي لم يتلقَّ جواباً إيجابياً على طلبه، والولايات المتحدة آنذاك لم تقدم شيئاً . وبالطبع فقد ترك ذلك في موسكو وفي السفارة شعوراً كبيراً بالمرارة .

قال هوبكينز :

ـ أجل، أعرف أنه ليس كل ما قامت به إدارة روزفلت قد أرضى موسكو . ومع ذلك فقد سارت الأمور فيما بعد على سكة صحيحة : فأرسلت الطائرات الحربية وسيارات الشحن والسفن وكمية كبيرة من المواد الغذائية .

ولم أرد الخوض معه في حديث لإثبات شيء ما، أو البرهان على شيء ما، فالمعروف جيداً، سواء في الولايات المتحدة أم في بلادنا، أن الأميركيين لم يقدموا المساعدة في الفترة الأصعب والأحرج من فترات الحرب الوطنية العظمى، مترقبين بذلك هل سيصمد الاتحاد السوفياتي أم لا ؟ وما أن اتضح لهم أننا صدَدْنا النازيين، وجهاً لوجه، حتى بدأوا يغيّرون مواقفهم بالتدريج .

وقال هوبكينز :

ـ لقد اعتُقد في واشنطن ضمن بعض الأوساط أن الرئيس كان يولي قبل الحرب جلّ اهتمامه للوضع الداخلي للبلاد . وفي سياق الحرب، خصوصاً بعد هجوم اليابان على « بيرل هاربور »، ودخول الولايات

المتحدة الحرب ضد ألمانيا، أصبح همُّ الرئيس الأول ان يفكر في وضع العالم المستقبلي وفي العلاقات التي ينبغي أن تسود بين الدول بعد انتهاء الحرب .

لقد عرف هذا السياسي، المقرَّب من روزفلت، الشيء الكثير ؛ وهو لم يخفِ حتى التفاصيل الصغيرة عن الرئيس، بل إنه كان يرويها وفخر كبير يخالجه لكونه مقرباً من السلطات العليا، وعلى سبيل المثال قال :

ـ في السابق، هزم روزفلت الجمهوريين، بوصفه مقاتلاً، بغضّ النظر عن مصابه الجسدي . فقد كانوا دائماً يعيقونه ويضعون عصيّهم في دولابه، لأنهم لم يكونوا يستطيعون مجاراته في تكتيكه الذي يخوض به الصراع السياسي . وكان هو يصدر أحياناً بعض الحركات الحادة، فمثلاً وصفهم مرة بأنهم « لصوص الخيل » في رد فعل حاد من جانبه . فأعلن قائلاً : « إنني لا أعتقد البتة أن جميع الجمهوريين لصوص خيل، بل أؤكد أن جميع لصوص الخيل هم من الجمهوريين » .

وفي سياق تحليله لشخصية روزفلت بوصفه أخصائياً طويل الباع في الصراع السياسي الداخلي، توصّل هوبكينز إلى تشخيص آراء رئيسه في مجال السياسة الخارجية :

ـ مع مرور الوقت، بات الرئيس يهتمّ أكثر بالشؤون الخارجية ويتعاطاها على نحو أنشط ممّا في السابق .

وقد تذكّرت بدوري بعض مراسلات ستالين، فأكّدت الفكرة التالية :

ـ كلمات ستالين المقتضبة في ما يتعلق بمستقبل علاقات بلدينا لا تترك

أدنى شك في أن القيادة السوفياتية تسعى إلى بناء علاقات طيبة مع الولايات المتحدة إذا كانت هذه الأخيرة تريد ذلك.

وقد أعرب هوبكينز عن أفكاره حيال مستقبل العلاقات السوفياتية ـ الأميركية، دون الاعتماد على تكليف مباشر من روزفلت. ولأنني عرفت هوبكينز جيداً فقد كنت واثقاً أن أفكاره هي أفكار الرئيس، الأمر الذي تأكّد لي سابقاً ثم في اللاحق من الأيام.

تلك كانت صورة عن لقاءاتنا وحواراتنا.

وبالطبع، كان هوبكينز مخلصاً بالجسد والروح للأنظمة الرأسمالية وللديمقراطية الأميركية، وفي المسائل الايديولوجية ظلّ يمثّل طبقته، فضلاً عن أنه لم يكن يحبُّ الخوض في النظرية.

بيد أن هذا الشخص الضعيف المظهر الواهن، حقّق منجزات عظيمة، باعتباره موثوقاً من روزفلت ولكونه وطنياً كبيراً، لما فيه مصلحة نمو العلاقات السوفياتية ـ الأميركية في سنوات الحرب، أي لما فيه بالتالي فضل في تحقيق الانتصار العظيم على الفاشية.

وكان هنري مورغنْتاو، وزير المالية، يؤيد هوبكينز في معظم آرائه السياسية، وقد قُدِّر لي أن أرسّخ علاقات طيبة مع هذا السياسي الروزفلتي الهوى والاتجاه، ذلك أنه بدا لي مرات كثيرة أن ما يصدر عنه من وجهات نظر، إنما تعكس أيضاً موقف الرئيس، تماماً كما كان شأن هوبكينز. ولم يكن مورغنتاو نفسه يخفي ذلك.

وقد تناول وزير المالية موضوع بناء العالم بعد الحرب بجرأة متميّزة، ومما قاله في هذا الصدد:

ـ يجب نزع كل إمكانية تساعد ألمانيا بعد الحرب على النهوض مجدَّداً والسير في طريق العدوان، كفى تلك الجرائم التي ارتكبتها في عهد هتلر. وعلى جماعتنا وجماعتكم ألاّ يسمحوا في المستقبل بذلك.

ولم يكن يعتبر أنّ مثل هذا النهج السياسي سيلقى في الولايات المتحدة مقاومة من قبل الأوساط المؤثّرة.

وقد أكّد قائلاً:

ـ إن العسكريين حسموا أمرهم، أما البيزنيس الأميركي فلا تسل، إذ ليس من مصلحته وجود منافس قوي له في السوق العالمية.

ويبقى لغز كبير: لماذا صرّح الوزير بهذه الموضوعات القاطعة الحازمة. ألم يكن من واجباته كوزير معرفة أمر الرساميل التي قدّمتها الاحتكارات الأميركية خلال الحرب إلى الصناعة الألمانية لإنتاج السلاح للجيش الهتلري؟

إذ سرعان ما نشرت الصحف، عقب الحرب مباشرة، الكثير من الحقائق والمعلومات التي تؤكّد وتشهد على تلك المساعدات الكبيرة، وأجدُ أنه من الصعب عليّ تصديق جهل مُحَاوري بأمرها أثناء الحرب. ولكن، ومن جهة أخرى، تبيّن أنه كانت ثمة أسرار عميقة جداً، بحيث لم تتمكن حتى المراجع السياسية العليا في الولايات المتحدة الأميركية من تصوّر حجم التعاون الذي كان قائماً بين الرأسماليين الأميركيين والألمان في سنوات الحرب. وليس بالغريب أن الكونغرس لم يفتح التحقيق في هذا الموضوع إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وبعدها فقط انكشفت للعموم فضائح ذلك التعاون. وقد يكون من الممكن جداً أن مورغنتاو لم

يكن على علم بها. أما في ما يتعلّق بمستقبل ألمانيا فقد حاكم مورغنتاو الأمر على النحو التالي:

- إن السبيل الآمن لمنع العدوان في أوروبا هو في تجزئة ألمانيا، بل وفي نقل بعض سكانها إلى مناطق أخرى في العالم، نقلهم مثلاً إلى شمال أفريقيا.

وكان في كل مرة يوضح ما يريد قوله حقاً:

- بيد أن الرئيس لم ينظر بعد في هذه الخطة، برغم معرفته أن أفكاراً كهذه موجودة فعلاً.

وبذا، كان مورغنتاو يحتل موقفاً راديكالياً متطرّفاً في ما يتعلق بمصير ألمانيا بعد الحرب. ولكن أحداً لم يكن يعرف بالتحديد كيف يمكن أن يكون عليه الحل، وبالتالي لم يكن أحدا قادراً على طرح حل دقيق قبل انعقاد مؤتمر پوتسدام، حتى روزڤلت نفسه لم يتسرّع في تحديد موقفه النهائي؛ فضلاً عن أن الحلفاء لم يكونوا متفقين على كل المسائل المتعلقة بمصير العدو المهزوم.

ومن أكثر المقرّبين إلى الرئيس روزڤلت كان هارولد إيكيس وزير الداخلية، الذي ظلّت علاقاتي به جيدة دائماً، فحملت طابع الصداقة المفيدة.

وهكذا، فقد كان هوبكينز ومورغنتاو وإيكيس رجال دولة ذوي سمعة طيبة. وقد شكّلوا مع الرئيس روزڤلت دعاة لمبدأ أن الاختلاف بين النظامين الاجتماعيين في الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة لا يجوز أن يشكل حاجزاً أو مانعاً دون تعاون البلدين في نضالها ضد العدو

المشترك وبعد الانتصار عليه، في سبيل بناء عالم مسالم وإرساء علاقات طيبة بين الحلفاء.

هذا، وقد أثبتت الأحداث المتعاقبة، وخصوصاً في السنوات التالية على الحرب، أن الآراء التي أطّرت سياسة روزڤلت وإدارته وحدّدت اتجاهها، هي الآراء التي تقتضيها بالفعل مصالح الشعب الأميركي.

بيد أن استراتيجية سياسية مختلفة تماماً ظهرت في سنوات «الحرب الباردة»، عندما أصبحت إدارة الولايات المتحدة الأميركية تعتمد مبدأ القوة الغاشمة وسباق التسلّح.

عقيدة والَسْ السياسية

كانت لي اتصالات منتظمة مع كثير من المسؤولين الكبار الآخرين في إدارة روزڤلت، بمن فيهم نائب الرئيس هنري والِسْ، الذي كان إحدى الشخصيات الأكثر إخلاصاً وتأييداً لسياسة روزڤلت، وهو شخص يستأهل التوقّف عنده.

يرقى أصل والس إلى عائلتي والديه اللتين كانتا من ملاك الأراضي في اسكوتلندة وإيرلندة، فهاجرتا إلى الولايات المتحدة في النصف الأول للقرن التاسع عشر. وقد جسّد والس، كأسلافه الأميركيين، مصالح الطبقة التي ركّزت في أيديها الفبارك، وعبّر عن مصالح ملاك الشركات «العائلية»، وتحديداً مصالح صفوة هذه الطبقة. ومن وجهة النظر الطبقية كان والس مؤمناً بآراء البرجوازية الصغيرة التي ينتابها الرعب من هيمنة الرأسمال الاحتكاري الضخم فتسعى إلى العثور على طريق «وسط» يسير فيه نمو المجتمع.

وبعد تلقيه علوماً مختلفة تضلّع والس في دراسة علمي الاقتصاد والإحصاء، وكذلك في البيولوجيا (علم الأحياء) بما في ذلك علم الوراثة، كما استثارت اهتمامه مشكلات الفلسفة. وكان يُعتبر خبيراً كبيراً في ميدان العلوم الزراعية، وصاحب عدد من الدراسات والأبحاث.

وكان والس قبل توليه منصب نائب الرئيس روزفلت في ولايته الثالثة (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) قد شغل منصب وزير الزراعة على مدى سبع سنوات، فأصبح مُنَظِّر السياسة الزراعية التي اعتمدها «نهج روزفلت الجديد».

قلائل هم الأشخاص الذين التقيتهم بين من يشغلون مناصب كبيرة ويرون ببعد نظر إلى المنافع التي يمكن أن تحققها السياسة الخارجية، كما كان حال والس. فبحكم وجوده في مركز دائرة الصراع السياسي في الولايات المتحدة، كان يقف دوماً في جانب التعاون النشيط والفعال مع الاتحاد السوفياتي في نضاله ضد الفاشية، ويرغب في أن يسود سلم راسخ بعد انتهاء الحرب.

فقد كان والس واحداً من أولئك الأميركيين المقتنعين أنه لا يمكن حل أي من المسائل الكبرى في السياسة الدولية باستبعاد الاتحاد السوفياتي، سواء في زمن الحرب أم في زمن السلم. وكانت لديه الشجاعة للإدلاء ببيانات وتصريحات يقرّر فيها إسهام الاتحاد السوفياتي الحاسم في دحر ألمانيا الفاشية. وقد أكد، على سبيل المثال، في سنوات الحرب:

ـ سيُنزل الروس الخسائر بالعدو، وسيطرحونه جانباً وسيهزمونه وسيأسرون منه ما سيتجاوز بعشرين مرة العدد الذي سيأسره الحلفاء مجتمعين.

وبوصفه مؤيداً للتعاون السوفياتي ـ الأميركي كتب والس في يومياته (يناير ـ كانون الثاني ١٩٤٣) أن المشكلة الأولى بعد الحرب هي في إقامة علاقات متبادلة جيدة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وكان آنذاك يحلم في زيارة بلادنا، فبدأ منذ العام ١٩٤٢ بتعلّم اللغة الروسية التي ما لبث أن ملكها بالقدر الذي يسمح له بالتفاهم والتعبير عمّا يريد قوله.

وقد أضاف إلى معلوماته عن روسيا وعن شعبنا معلومات جديدة وأساسية في إبان الرحلة التي قام بها إلى الاتحاد السوفياتي وزيارته سنة ١٩٤٤ مدن ماغادان وياكوتسك وكومسومولسك على الآمور وإركوتسك وكرسنويارسك ونوفوسيبيرسك وآلما ـ آتا وطشقند وغيرها. كما توقّف في قرية شوشينسكويه حيث يوجد متحف ف. إ. لينين(*).

وبعد عودته إلى الولايات المتحدة، صرّح والس قائلاً:

ـ لقد أثارت عندي زيارة الاتحاد السوفياتي هذه انطباعات هائلة.

وما فتىء والس بعد ذلك يعيد تأكيد هذا التصريح، ويمكن القول إنه اكتشف الاتحاد السوفياتي بعدما رأى بأمّ عينيه عظمة روح شعبنا وتضحياته وتماسكه.

وفي اللقاءات، كان والس يبادر عادة إلى إثارة موضوع وحدة مصالح الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في الشؤون الدولية. ومع أنه كان يعي تماماً أن هذين البلدين ينتميان إلى نظامين اجتماعيين مختلفين، إلاّ أنه طوّر الموضوعة التالية:

(*) القرية التي نفي إليها زعيم ثورة أكتوبر في عهد القيصر ـ (المحرّر).

- إن الشعبين الأميركي والسوڤياتي يملكان كل الإمكانيات لإقامة تعاون مثمر. فكلتا الدولتين تتمتَّعان بموارد وثروات طبيعية ضخمة وكُمون وطاقات صناعية هائلة. وأنا أؤمن بأن الاتحاد السوڤياتي سيبعث من جديد اقتصاده الذي دمَّرته الحرب وسيتمكن من تنميته. بيد أن التعاون السوڤياتي - الأميركي يجب أن يعني قبل كل شيء انتفاء الصدام العسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي.

أما في الخلفية النظرية لضرورة التعاون السلمي بين الدولتين ولمبدأ التعايش السلمي، فلم يَغُصْ والس كثيراً، بل إنه لم يكن يجب على نحوٍ ما الغوص في هذه «المادة الرفيعة»، فكان من ناحية أخرى يحاكم الأمر بحسم:

- لا يجوز، بالمطلق، أن يقتل الأميركيون والروس بعضهم بعضاً أو أن يسمحوا بنشوب حرب بينهم.

ومما كان يؤكد عليه باستمرار وحدة مصالح البلدين في عدم السماح لاحقاً بأن يتنامى العدوان الألماني. وقليلاً ما كانت أفكاره تتميَّز عن أفكار المسؤولين الآخرين في أوساط روزڤلت من المقرَّبين.

هذا، وقد أدان والس بحدة الفاشية ولم يتوان على مدى نشاطه السياسي عن أن يشغل موقعاً معادياً للفاشية حاسماً لا تردُّد فيه. وكان يقول بثقة:

- إن الترُّهات والخرافات النازية حول العرق النُّوردي ليست إلا نصباً واحتيالاً واضحين.

وقد أبدى في ظروف الحرب العالمية الثانية عن تأييده الكامل لإنزال

الضربة القاضية بألمانيا النازية وحلفائها حتى يتحقَّق الانتصار الناجز.

ولم يكن والس يعتبر السلام قيمة عابرة، وعارض الحرب، بوصفها ظاهرة اجتماعية، بفكرة التعاون الواسع والمثمر بين البلدان والشعوب. وهكذا، فإن موقفه من قضايا الحرب والسلم، بالتحديد، تُعتبر الأساس في تقويم عقيدة والس السياسية.

وكم هو بعيد كل ذلك عن الفلسفة السياسية لأولئك الذين يحدِّدون الآن نهج الولايات المتحدة في الساحة الدولية، كما أن أفكاره بعيدة أيضاً عما صار في أساس سياسة واشنطن الخارجية بعد مضي ثلاث أو أربع سنوات على انتهاء الحرب، عندما تكتَّلت بعض الدول تحت زعامة الولايات المتحدة في حلف عسكري - سياسي وضع نفسه بمواجهة الاتحاد السوڤياتي والبلدان الأخرى المحبة للسلام.

لقد كان سهلاً بالنسبة إلي، باعتباري سفيراً للاتحاد السوڤياتي في واشنطن، أن أتحدث مع والس، وذلك لأن كلامه كان محكوماً بمنطق الحياة. فبلادنا خاضت الصراع مع الفاشية، باذلةً قوى متوترة هائلة، آملة بذلك أن يسود السلام بعد أن تضع الحرب أوزارها. فقد بات السلام هدف الشعب السوڤياتي المرتجى. فيما بات التعاون مع بلدان الكتلة المعادية للهتلرية إحدى أهم مهمات السياسة الخارجية للاتحاد السوڤياتي. ولتحقيق ذلك وجب السعي إلى العمل على إبقاء تلك الدول أمينة لالتزاماتها التحالفية.

ولم يكن أولئك الذين امتلكوا تفكير والس في الولايات المتحدة يتصوَّرون أنَّ واشنطن وغيرها من عواصم الدول الحانثة لنا، ستبدأ بالإخلال بهذه الالتزامات. فعلى ضريح روزڤلت وقف حلفاؤنا الغربيُّون

يتخلّون عن نهجه السياسي في السياسة الدولية ويطرحون نهجاً مغايراً يتنكّر لكل أهداف ومبادىء بناء عالم ما بعد الحرب، التي نادى بها منذ وقت قريب وأعلنها زعماء تلك الدول في طهران ويالطا وبوتسدام.

وكان واضحاً أن آراء والس تبتعد شيئاً فشيئاً عن أمزجة الجزء الأكثر رجعية في دوائر الولايات المتحدة الحاكمة الذي بدأ يرسخ أقدامه في السلطة. وأصبح خصوم نائب الرئيس يحملون عليه ويتّهمونه بأنه واهم وحالم وشخص غير عملي. وهكذا اضطّر روزفلت في انتخابات عام ١٩٤٤ الرئاسية إلى الموافقة على ترشيح ترومان إلى منصب نائب الرئيس بدلاً من والس، كي يضمن لنفسه تأييد الجناح اليميني في الحزب الديمقراطي.

وقد تسنّى لي أن ألتقي والس بعد انتهاء ولايته كنائب للرئيس. ففي عام ١٩٤٥، وقبل وفاة روزفلت، عُيّن وزيراً للتجارة، ولكن ترومان حلّ مكانه في هذا المنصب عام ١٩٤٦، وليصبح بعد ذلك رئيساً. ولم يُقدر لوالس فيما بعد أن يشغل أي منصب رسمي.

وبالطبع كان والس يراقب كيف استدارت دفّة الحكم والسياسة إلى وجهة أخرى عندما وضع رجال سياسة معارضين لنهج التعاون بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي أيديهم عليها. وبدا ذلك واضحاً بما فيه الكفاية في أولى سنوات إدارة ترومان.

وباءت محاولات والس في خوض انتخابات عام ١٩٤٨ الرئاسية بالفشل، إذ رشّح نفسه عن الحزب التقدمي الذي أسّسه. فقد كان يميّز المناخ السياسي في الولايات المتحدة آنذاك التباري في إظهار المواقف العدائية حيال مفاهيم الاتحاد السوڤياتي وتصوّراته وتعميق الكراهية نحوه

ونحو الدول الاشتراكية. وصارت سياسة واشنطن تجنح أكثر فأكثر باتجاه يخدم مطامح الهيمنة، الأمر الذي تجلّى في إنشاء تكتلات وأحلاف عسكرية عدوانية وزرع قواعد عسكرية أميركية في آراض الغير والتوسّع الاقتصادي على الصعيد الخارجي. وفي مثل هذه الظروف الناشئة لم يكن ثمة أي أفق أمام تلك الشخصيات السياسية التي حملت أفكاراً مشابهة لأفكار والس.

غداءٌ في بُونْغَالو

وإضافة إلى كل ما قيل، أجدني راغباً في رسم صورة والس بوصفه إنساناً. وكان أول انطباع أثاره لدي بأنه يشبه روسياً، متوسط القامة، أصهب، ذا وجه جميل منفتح وابتسامة حيية. كان والس يبدو وكأنه يخجل من شيء ما ويبدو في حركاته بعض الخفر. ولكن ذلك لم يكن ليمنعه أن يكون حرّاً في التصرف عندما يكون مضيفاً لا ضيفاً.

وقد تميّز والس، بوجه خاص، بجذب مجالسه ونيل إعجابه، فإذا ما تناول في حديثه أمراً بغير ما دقة وأضاع جادة الصواب، انتابك شعور أن ضياعه حقيقي فعلاً.

وكان والس يتقن فنّ معرفة الآخرين، ومن ذلك أنه كان يولي اهتمامه الشديد لمن يشعر نحوه بعاطفة، إذ لم يكن يستطيع التصرف على نحو آخر، وإلاّ فإنه لن يكون هو، والس!

ولم يتوقّف والس البتة عن إبداء مواقفه الطيبة من ممثّلي الاتحاد السوڤياتي. وأنا لا أستطيع أن أنسى الحادثة التالية:

مرةً، رنّ الهاتف في منزلي حوالى السابعة صباحاً، فأخذت السماعة لأجيب. إنّ رنين جرس الهاتف في بيت سفير وفي مثل هذه الساعة المبكرة يعتبر أمراً غير عادي:

ـ هالو!

ـ أندريه أندرييڤيتش، قومندان السفارة المناوب يتحدث معكم. منذ لحظات دخل السفارة رجل اعتذر عن زيارته المبكرة، وقال إنه نائب الرئيس، والس.

ـ وماذا حصل بعد؟

ـ لقد طلب أن نوصل لعقيلتكم بعض الحبوب، ثم ما لبث أن انصرف، وهذه الحبوب الآن بين يدي.

وتبيّن أن زوجة والس وزوجتي تحدثتا مرة عن حبوب ما لتنحيف الجسم لا يستطيع تقدير أثرها سوى النساء. وكان الحصول عليها آنذاك أمراً صعباً، فلم ير والس حرجاً في أن يأخذه على عاتقه ويجلب الحبوب بنفسه شخصياً إلى السفارة. قد تكون الحادثة غير ملفتة أو غير ذات أهمية، إلا أنها تحمل معنى وتقول شيئاً.

وكانت لقاءاتنا مع نائب الرئيس تجري عادة في واشنطن نفسها، إلاّ أنه اقترح في إحدى المرّات:

ـ وماذا لو خرجنا مع زوجتينا من المدينة، حيث يمكن تناول الغداء ومناقشة بعض المسائل؟

وبالطبع لم أعارض الاقتراح، فأعرب والس عن رغبة أخرى:

ـ آمل أنك لن تعارض أن يرافقنا سفير سويسرا وعقيلته.

ولم أعارض هذه الرغبة أيضاً. وقال والس مضيفاً:

ـ إن ثمة قربى تجمعني والسفير من جهة زوجتينا.

وفي الموعد المضروب ـ وكان يوم أحد ـ توجّهنا، ليديا دمترييڤنا وأنا، إلى مكان يبعد عن المدينة حوالى الأربعين ميلاً. وكان لقاؤنا في بونغالو، ببيت لا يلفت النظر من الخارج، إلا أنه مريح جداً في داخله، وبعيد جداً عن البساطة التي تميّز خارجه.

وأثناء تناولنا الغداء أنبأني الدبلوماسي السويسري بهذا الخبر المهم:

ـ إن حكومتي تنظر بعين الاهتمام في مسألة إعادة العلاقات الدبلوماسية بين سويسرا والاتحاد السوڤياتي.

ومن الطبيعي أن يثير مثل هذا الخبر اهتمامي الواجب. فقد كانت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين مقطوعة منذ سنة ١٩٢٣، عندما اغتيل في لوزان المفوّض السوڤياتي ڤاتسلاف ڤوروفسكي. ووعدت السفير قائلاً:

ـ سأعلم موسكو على الفور بما حدّثتني به. وعلى الصعيد الشخصي أود أن ألاحظ أن هذه الفكرة يمكن تطويرها.

ثم ما لبثت العلاقات الدبلوماسية الطبيعية بين البلدين أن أعيد بناؤها إثر ذلك الحديث على الفور.

وغمزني والس في نهاية لقاء بونغالو قائلاً:

ـ أود أن أتكلم معك قليلاً على انفراد.

ونهضنا تاركين زوجتينا مع الزوجين السويسريين، وابتعدنا قليلاً عن الطاولة وجلسنا إلى طاولة غير بعيدة في زاوية المكان.

قال نائب الرئيس:

ـ الآن، حين بدأت بوجه عام علامات انتصار الحلفاء على ألمانيا الهتلرية تبرز للعيان، ينبغي على بلدينا الاستفادة من الوضع لتحسين العلاقات بين الحلفاء تحسيناً جذرياً. فالعلاقات التحالفية لا يجوز أن تضعف، وهذه المسألة تقلقني، ذلك أن المواقف منها في الولايات المتحدة متفاوتة ومختلفة. وعلى سبيل المثال فإن ثمة عداء يسود بعض أوساط رجال الأعمال الكبار ويتغلّب على العاطفة التي يكنها الشعب الأميركي للاتحاد السوڤياتي وتضحيات الجيش الأحمر ومآثره على جبهات الحرب.

فما كان مني إلا أن أجبته قائلاً:

ـ سيادتك محقّ في كل ما ذكرت. بالفعل، لا يجوز السماح بأن تصاب العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي بالضعف بعد انتهاء الحرب. فنحن لم نصبح حليفين إلا بما اقتضته المصالح الأساسية لبلدينا، وليس بموجب تصوُّرات واهمة وآمال بلا أساس. وهذا ما يمكن استخلاصه من تبادل الآراء بين ستالين وروزڤلت شخصياً.

وصمتُّ لحظة أتفحّص والس وردّ الفعل الذي أحدثه كلامي، فوجدته ينصت بانتباه شديد، فتابعت قائلاً:

ـ أما في ما يتعلق بالمسألة الثانية، مسألة الأمزجة السائدة في أوساط البيزنيس الأميركي، فسيادتك بوصفك نائباً للرئيس أدرى بها، مع موافقتي على أن ثمة تحوّلاً طرأ في هذه الأوساط. ولقد لاحظنا ذلك

أيضاً، نحن السوڤيات الموجودين في الولايات المتحدة. ولكننا نعتقد أنه بإمكان الإدارة استعمال نفوذها ووزنها لتغيير هذه الأمزجة الضارّة، فالبيزنيس ليس بنية منسجمة وهو ليس بصنم. وبرأينا فإنّ أوساط رجال الأعمال تستطيع أن تجني نفعاً جمّاً من التجارة مع الاتحاد السوڤياتي وتنمية العلاقات معه. وستُفتح الأبواب على مصراعيها أمام هذه الأهداف في زمن السلم، وستكون هناك إمكانيات هائلة؛ خصوصاً أن الاتحاد السوڤياتي، وهذه حقيقة، سيكون في حاجة ماسّة إلى استيراد المعدّات والأجهزة من الولايات المتحدة بهدف إعادة بعث صناعته التي دمّرها البرابرة الهتلريون.

وعند هذا الحدّ لاحظ والس لأول مرة خلال لقائنا قائلاً:

ـ إن الرئيس، كما هو معلوم، ليس في صحة جيدة، مع أنه يقوم بعمله بنشاط ويولي اهتماماً كبيراً مسألة العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية المستقبلية.

وتكوّن لديّ انطباع أن هذه الملاحظة التي رمى بها والس حول صحة الرئيس، بدت وكأنها هامشية، وأنها مفتعلة في واقع الأمر.

ومن الصعب القول ما إذا كان والس يعلم أم لا أن نجمه سيأفل في الانتخابات الرئاسية المقبلة، وأن السيناتور ترومان سيخلفه في منصب نيابة الرئاسة. والأرجح أنه لم يكن يرى ذلك، كما من المرجّح أن روزڤلت نفسه لم تكن خطة إبدال نائبه قد نضجت عنده بعد.

بعد ذلك تسنّى لنا أن نلتقي مرتين. فقد جاءني إلى نيويورك في بداية سنة ١٩٤٦ حاملاً في جعبته سؤالاً واحداً:

ـ كيف تنظر إلى احتمالات فوزي في انتخابات الرئاسة المزمع خوضها في سنة ١٩٤٨ ؟

وبالطبع فقد أجبته برأي أرضاه، ولكن ما أقلقني في الواقع، وبصراحة، الطريقة التي صيغ بها السؤال، وذلك لسببين.

فقد كان يعرف، **أولاً**، موقفنا منه باعتباره نصيراً ومؤيداً لروزفلت. وكان من الممكن أن يكون جوابنا على سؤاله بسيطاً جداً: «إننا ندعم العلاقات الطيبة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وبالتالي فنحن ندعم أي مرشح يدعو إلى تعزيز هذه العلاقات للفوز بالرئاسة».

ثانياً، لقد كان بمجرد طرحه السؤال لا يعرف بما فيه الكفاية وبالدقة اللازمة الوضع الفعلي للناخبين وأمزجتهم، هؤلاء الذين كانوا يخضعون لعملية تأثير جارفة ودعاية قوية لصالح سياسة «السنديانة الكبيرة»، التي دعا إليها الرئيس الأميركي تيودور روزفلت بقوة في أوائل القرن الراهن. فبمساعدة هذه «السنديانة» اجتمع أمر الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة وبواسطتها تؤثر الآن في مجال الشؤون الدولية.

وإثر هذا اللقاء، لا أخفي أنه شابني إحساس بأن والس، على ما بدا، بات يعاني من صعوبة في جس نبض الحياة السياسية للولايات المتحدة، وكان شكا من نقص كبير في تجميع مستشارين ذوي خبرة حوله.

وفي لقاء ثان في الفترة نفسها، دعاني والس وزوجتي لقضاء بضع ساعات في منزله الريفي الذي يبعد حوالي مائة ميل عن نيويورك، فلبّينا الدعوة. وكان المنزل يقع وسط مزرعة كبيرة ذات طابع إنتاجي متعدّد الاتجاهات، وحيث تربّى الأبقار وينتج البيض والفراريج. وأخذ سيّد المزرعة يشرح لنا:

ـ إن الفرّوج هو المنتوج الأساسي في مزرعتي. أنظرا، هذه هي تجارتي. الفراريج.

وشاهدنا ألوفاً مؤلّفة من الدجاج، كما راقبنا كيف تجري عملية تنظيف العنابر، وهي عملية مهمة جداً في هذا النوع من العمل. وكان واضحاً أن نائب الرئيس الأسبق نفسه لم يكن يتضايق من المشاركة في مثل هذا العمل.

وأثناء حديثنا استرعى انتباهي أمر فسألته عنه:

ـ وهل تجني تربية الدجاج ربحاً وفيراً؟

ولم يورد والس في إجابته أي رقم، بل تفوّه بكلمات معدودة سريعة، يمكن للمرء أن يفهم منها أن الأمر «لا يستأهل»!

وبقي لدينا انطباع أن والس لم يكن في عداد أصحاب الملايين، وأنه لم يسْعَ إلى ذلك بقوة، إذ لم يكن ينسجم مع ما يُسمّى «البيزنيس الكبير».

وإنني لأستذكر والس بحرارة وشعور طيب نحوه سواء على الصعيد السياسي أو على الصعيد الإنساني.

بطريرك العمل الديبلوماسي

كان كورديل هيل، وزير خارجية الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٤، دون شك، أحد أعمدة إدارة روزفلت قبل الحرب وبعدها. وإنني لأسترجع فيه صورة رجل السياسة والدولة المتمتع بالاحترام والسمعة الطيبة من قبل السوفيات الذين عملوا معه.

هذا، وقد أقيمت في عهده العلاقات الديبلوماسية بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، وهذه الحقيقة تحمل في حدّ ذاتها معنى كبيراً، كما تعني كذلك على سبيل الحصر أن القادة الأميركيين آنذاك، بمن فيهم هيل، استطاعوا القفز فوق حاجز المصالح الطبقية الضيّقة التي منعت واشنطن على مدى ست عشرة سنة من الاعتراف بأول دولة اشتراكية، كما قوّموا بشكل واقعي عبثية الوضع الذي تجاهل الاتحاد السوڤياتي عند التصدي لحل أيٍّ من مسائل السياسة الدولية. ففي ظروف قويت في ظلها أخطار الحرب، لا يجوز النظر إلى خطوة الاعتراف إلاّ من خلال كون الأميركيين فهموا دور الاتحاد السوڤياتي المتعاظم في الساحة الدولية.

كان هيل يطبّق في مسائل العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية نهج الرئيس روزڤلت وخطه. والحقيقة أن السفارة السوڤياتية تلقّت عدة مرات من مصادر موثوقة معلومات تفيد بأن وزير الخارجية لا يؤيد أفكار الرئيس في ما يتعلق بالعلاقات السوڤياتية ـ الأميركية، وأنه لا ينبغي التسرّع في مسألة تطويرها وتنميتها. وقد تأكّد ذلك في حدودٍ معينة، خصوصاً في النشاط العملي لوزارة خارجية الولايات المتحدة وبعض مواقفها. ولكن، وبما أن الجانب السياسي للعلاقات بين البلدين في خلال سنوات الحرب كان يُخْلي مكانه للعوامل الناجمة من الأحداث والتطوّرات العسكرية مباشرة، فإن مقاربة متوازنة من هذا السياسي أو ذاك من العاملين في إدارة روزڤلت ومن مواقفه حيال الاتحاد السوڤياتي كانت تطغى على كل المقاربات الأخرى، فضلاً عن أن القيادة الأميركية نفسها كانت تنظر إليه نظرة واعية وشاملة.

وقد تسنّى للسفراء السوڤيات في الولايات المتحدة أ. أ.

ترويانوفسكي، ك. أ. أومانسكي، م. م. ليتڤينوف، ومن بعدهم أنا، اللقاء بكورديل هيل مرات عديدة. وغالباً ما كان مساعدوه يستقبلوننا في حال كان مريضاً أو يعاني من مشكلات صحية. وبالنظر إلى عدد اللقاءات الإجمالي وإلى كثافة الاتصالات بين موسكو وواشنطن آنذاك، يمكن القول إن هيل أولى العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية بوجه عام اهتماماً كبيراً.

وإني لا أتذكر حادثة واحدة دار فيها اللقاء مع هيل بحدة لأي سبب من الأسباب، إذ كان مرناً على الدوام وقادراً على امتلاك زمام نفسه. وإذا نشأت أثناء المباحثات حول مسألة ما أي مصاعب أو اختلافات في وجهات النظر، فقد كان هيل يفضّل إرجاءها إلى أجل آخر دون حل على أن يستمر الخلاف. وإذا اتّخذ موقفاً سلبياً في أي من المسائل فإنه كان يعبّر عن ذلك بمرونة، مقطّعاً صوته بتؤدة بما يتلاءم وشخصيته أصلاً.

وبالطبع، لم يكن ليغيّر ذلك من جوهر الأمور كما لم يكن ليؤثر أو يهدّىء من جليس، ولكنه كان يخلق مناخاً خالياً من التوتر عند انتهاء اللقاء. وثمة حقيقة أخرى ملفتة هي أن هيل كان يحاول عادة إحالة المسائل ذات الفرص القليلة للتوافق إلى مساعديه كي يناقشوها مع الممثل السوڤياتي.

ومما تميز به هيل أيضاً معرفته الواسعة بفقه القانون وقدرته على الحركة في المسائل المبدئية للسياسة الخارجية. وكان لديه «حصانه» في هذا الميدان. ألا وهو العلاقات مع بلدان أميركا اللاتينية. فقد كان له اليد الطولى في اعلان إدارة روزڤلت في الثلاثينات سياسة «الجار الطيب»،

بوصفها أساس النهج السياسي الخارجي في نصف الكرة الغربي، ممّا عنى رفض الطرق الأبشع التي اعتمدتها الامبريالية للتدخل في شؤون البلدان المجاورة، الأمر الذي ساعد على بعض التلطيف لأجواء علاقات الولايات المتحدة وبلدان أميركا اللاتينية. ومن الطبيعي ألاّ يكون في أساس النهج المذكور أي نوايا عاطفية حيال الآخرين، إذ كان المقصود هو الشكل؛ أما مصالح رأس المال الأميركي، الذي وضع نصب عينيه توسيع سطوته السياسية والاقتصادية في أميركا اللاتينية، فقد بقيت هي هي كما في السابق.

ولم يكن هيلّ من بين أولئك السياسيين الذين يعملون، كما يقال اليوم، على المكشوف أو علناً أمام الناس، إذ كان نادراً ما يُرى في المناسبات الاجتماعية. كما لم يكن يحب إلقاء الخطب والكلمات أمام حضور كبير، بل كان يتهرّب من ذلك إن لم يحمل طابعاً رسمياً وإن لم تفرضه الضرورة. لقد كان يفضّل اللقاءات الضيقة التي لا يتجاوز عدد المشاركين فيها أكثر من شخصين أو ثلاثة من كل الطرفين المتحاورين.

وكان يتكلّم بصوتٍ خافتٍ بعيدٍ عن الفن الخطابي الذي جهله تماماً، مما جعل الآخرين في كثير من الأحيان يعتقدون أنّ به سوءاً ما، أو أنه على غير ما يرام؛ فضلاً عن بطء حركاته أثناء الحديث وتمهّله في السير، كأنه شخص غاص في تأمّل عميق.

وتابعنا لقاءاتنا واتصالاتنا على مدى خمس سنوات إلى أن استقال في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ من منصب وزير الخارجية بسبب اعتلال صحته، وكان قد بلغ آنذاك سنّ الثالثة والسبعين. وكان هيل أشيبَ، طويل القامة، ذا وجه تميّز بتعابير مركّزة. ومن حيث مظهره الخارجي،

فقد شابَهُ شيء من موسى التوراتي الذي صوّرته خيالات الفنانين وريشهم. هكذا انطبعت في ذاكرتي صورة هذا الرجل السياسي الكبير، الذي قاد الديبلوماسية الأميركية سنوات طويلة في عهد إدارة روزفلت.

أما سيمْنِرْ ويلز فقد شغل منصب النائب الأوّل لوزير خارجية الولايات المتحدة. ومع أنه لم يكن عضواً في الحكومة، وهو لذلك لم يكن يتمتع بحقوق الوزير أو وزنه السياسي، إلاّ أنه لعب دوراً مهماً في مجال قيادة الديبلوماسية الأميركية أوقات الحرب، باعتراف جميع من عرفه عن قرب. فقد كان ويلز في الواقع المنظِّم للنشاط العملي لميكانيزم ديبلوماسية الولايات المتحدة.

ولا شك أن جميع من عرف ويلز رأى فيه الذكاء واللباقة وسرعة الخاطر والقدرات الكبيرة.

وأما بالنسبة إلى شخصيته وتعليمه، فقد ذاع صيته، إذا جاز التعبير، بأنه شخص أنكلوساكسوني النزعة والهوى، وهو لم يكن يخفي ذلك، بل حاول ما تسنّى له إظهاره. فمن عاداته مثلاً أنه كان حينما يدخل عليه ديبلوماسي أجنبي، مهما كان مستواه أو رتبته، يقبل عليه بخطوات مُحْصاة، بحسب رأيه، وعلى مهل، مادّاً له يده للمصافحة وهو يقول:

- تفضلوا بالجلوس.

وكان في تصرّفاته إزاء جليسه اتزان محسوب ومفكّر به مسبقاً، ثم يبدأ الحديث بعبارتين نموذجيتين لطيفتين، كأنه يمهّد لنفسه الخوض في الموضوع الحقيقي:

- حسناً، إنني مصغٍ.

وإذا كان اللقاء يجري بطلب من ويلز، يبادر إلى التماس التالي من جليسه:

ـ اصغوا، من فضلكم، بادىء ذي بدء، إلى بياننا.

ومن الممكن أن تكون عبارته في هذه الحالة كما يلي:

ـ اصغوا من فضلكم إلى وجهة نظرنا.

بيد أن ويلز لم يكن سهل المراس، إذ كان يُعتبر من الدبلوماسيين القساة رغم لباقته ومرونته، بحيث ينطبق عليه المثل الشعبي: «فِراشٌ وثير ولكن النومة قاسية»!

وقد تميزت آراؤه بمقولة محدَّدة أبى إلاَّ أن يضمِّنها أيضاً في كتابه الصادر أيام الحرب، وتحديداً بعد شهودها نقطة التحوُّل. ففي هذا الكتاب تحدث ويلز عن كبار ممثِّلي الدوائر المالية والتجارية في بلدان الغرب، بما فيها الولايات المتحدة، الذين كانوا ـ من وجهة نظر المؤلِّف ـ «واثقين بأن الحرب بين الاتحاد السوڤياتي وألمانيا الهتلرية لن تكون إلا ذات منافع ستعود على مصالحهم الخاصة بالخير. وقد أكَّد هؤلاء أن روسيا ستُهزم لا محالة، مما سيعني تصفية الشيوعية»(*).

أما في ميدان العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية فقد كانت القيادة تكلِّف ويلز، عادةً، بمهمات لا يمكن وصفها بروح الصداقة والمحبة، ومن ذلك إبلاغ الجانب السوڤياتي وجهات النظر والبيانات وغيرها من أنواع الاتصالات. وكان معروفاً لدينا في السفارة أن مثل هذا الدور قد أسندته وزارة الخارجية إلى ويلز، ولذلك فقد كنّا حين تعيَّن علينا زيارة الوزارة

(*) Welles S. The Time for Decision. N.Y., 1944, p. 321

نفضِّل لقاء غيره من نواب الوزير، إذا كان ذلك ممكناً. ومن الطبيعي أننا كنا نراعي المشاعر ونتَّبع مرونة محدَّدة في هذه الانتقائية، ولكن برغم كل شيء فلا يجوز ألاَّ نأخذ بعين الاعتبار أن ويلز كان من زوّار البيت الأبيض الدائمين الذين يستمع سيده والمسؤول الأول عن الإدارة إلى آرائهم.

ومما كان يخفِّف عنا ما كان ممثِّلو السفارات والبعثات الأجنبية يروونه من أن ويلز لم يختلف في علاقاته معهم أيضاً، فحافظ على الروح نفسه.

ولا شك في أن ويلز لم يكن شخصاً اجتماعياً من حيث الطبيعة والتكوين النفسي. ولقد قضى، كما أشيع وأذيع فيما بعد، في منطقة ريفية، عندما كان يتنزه وحيداً، وعثروا على جثته ملقاة إلى جانب الطريق.

«بوكيه» مركَّب من رجال الدولة

ـ كان يوجد في «البوكيه» المعقد لرجال الولايات المتحدة الرسميين، العاملين في إدارة روزفلت، رجال من مثل وزير القوات البحرية جورج فورّيستول ووزير الحرب هنري ستيمسون. وكان على دبلوماسيِّي سفارتنا، كما كان عليَّ شخصياً وعلى أسلافي بوصفنا سفراء، أن نلتقي باستمرار معهما للتباحث في شؤون عسكرية الطابع وشؤون ذات طابع سياسي لجهة العلاقات بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة. ولم يكن الوزراء في إدارة روزفلت يتحاشون التباحث في المسائل السياسية العامة، بل على العكس تماماً، حيث كانوا يبادرون إلى ذلك.

بدا لي فوريستول شاباً نسبياً، واجتماعياً ذا شخصية حيوية ومنطلقة.

وكان في كل لقاءاتنا يصر على القول بجزم إنه يجب، بل من الضروري، الانتهاء بالحرب إلى خاتمتها بتحقيق النصر الكامل على ألمانيا الهتلرية؛ ولم يكن يخجل من كيل كلمات وألفاظ حادة وفاقعة للفوهرر.

وكان فوريستول يفضّل كذلك اللقاءات الضيقة، فقام بزيارة سفارتنا مرات عديدة، ودعاني مع زوجتي لزيارته في منزله. وكان يسود هذه اللقاءات جو من الصداقة بوجه عام، فيبدو فيها فوريستول على سجيته منطلقاً حراً في أحاديثه عن القيم السائدة في أوساط البيزنيس الأميركي الكبير. وممّا رواه أن علاقاته برجال الأعمال لا تعود إليه هو، بل إلى زوجته سليلة إحدى العائلات الغنية.

وفي إحدى المرات روى لنا فوريستول كيف تعرّضت زوجته للسلب، فانتهب اللصوص مجوهراتها الثمينة أثناء إحدى حفلات الاستقبال. والجدير بالذكر أن الصحافة الأميركية أتت على ذكر الحادث، الذي تميّز بإثارة تنافس ما نجده في روايات أغاتا كريستي البوليسية. أما التعليقات التي كان يرفقها فوريستول لحكايته فلم تكن أقل ظرفاً منها على أي حال، رغم ما بدا فيها من التكلّف والاصطناع، فالمجوهرات المسلوبة لم تكن «أشياء» غير ثمينة!

ولأن وزير القوات البحرية تميّز بطاقة وحيوية كبيرتين، فقد كان يظهر عليه التعب من الجلوس في مكان واحد أثناء اللقاءات، ممّا كان يدفعه إلى أن يذرع الغرفة ملوحاً بيديه، شاتماً هتلر وأذنابه، محاولاً بذلك ترييض نفسه. وإذا صودف على أحد الجدران وجود خريطة ما، فإنه حتماً سيقترب منها متخذاً مظاهر «استراتيجية» ليمرّر عليها قلمه الغرافيت، وذلك بما يتلاءم والأوضاع العسكرية الملموسة. وكانت

تعليقاته تدور كلها في الإطار البحري؛ بيد أن فوريستول لم يكن يعرف اختصاصه فحسب، بل إنه امتلك أيضاً فكراً يعتمد على مفاهيم السياسة ومقولاتها.

ولكن نهاية فوريستول كانت مأساوية وغير متوقّعة إلى أبعد الحدود، إذ رمى بنفسه من نافذة غرفته في المستشفى حيث كان يعالج، وقد حدث ذلك في الخمسينات. وقبل أن يقذف بنفسه من النافذة صرخ بأعلى صوته:

- الدبّابات الروسية!

كيف رسخ في وعيه أثناء نوباته النفسية أن الخطر آتٍ، بحسب ما أوحت إليه أفكاره، من الاتحاد السوڤياتي الذي كان يتغنّى به ويتكلم عليه بإعجاب شديد في أعوام الحرب ضد ألمانيا الهتلرية؟.

ها قد مرّ زمن طويل على كلمات فوريستول التي تفوّه بها قبل انتحاره، وخلال الفترة المنقضية حدثت في العلاقات السوڤياتية - الأميركية تطوّرات إيجابية كثيرة. ومن غير الجائز عدم الشك في أن وعيه قد تسمم بسياسة العداء نحو الاتحاد السوڤياتي، التي اعتمدتها واشنطن في أعقاب وفاة روزڤلت.

إلا أن تصوير فوريستول بأنه مجرد ضحية ليس أمراً صحيحاً. فهو بالإضافة إلى منصبه أثناء الحرب، أضحى واحداً من أولئك الذين لعبوا دوراً في تسيير ميكانيزم الولايات المتحدة الهائل، سواء على الصعيد السياسي أو على الصعيد العسكري، وذلك في فترة ما بعد الحرب. أما الاتجاه الذي تحرك فيه هذا الميكانيزم فقد كان معاكساً لذلك الاتجاه

الذي حدّدته الاتفاقات والالتزامات بين الحلفاء، والانصاف هنا يجعلنا ملزمين بالإشارة إلى أنه كان لفوريستول دور كبير ومباشر في عقدها.

أما وزير الحربية هنري ستيمسون فشخصية ليست أقل تعقيداً من فوريستول، وإن كان تعقيداً من نمط آخر. لقد كان وزيراً للخارجية في عهد إدارة الرئيس كالڤن كولدج (١٩٢٣ - ١٩٢٩)، ولذا فقد كان من الطبيعي أن يبرز السؤال التالي: لماذا كان على روزڤلت الحريص جداً على هيمنة الحزب الديمقراطي على السلطة، وهو الذي أوصله إلى الرئاسة، أن يضم إلى حكومته رجلاً كان سياسياً - ستراتيجياً وسياسياً - تكتيكياً في آن. ولقد اعتبر أن المجيء بجمهوري إلى حكومته يمكن أن يغلّب النقاط الإيجابية على النقاط السلبية.

أما إنتماء ستيمسون الحزبي فلم يَبْدُ في عيني روزڤلت مشكلة أو عائقاً، ذلك أنه لا توجد في الحزبين الجمهوري والديمقراطي حتى عضوية شكلية، كما لا يعتبر الانتقال من حزب إلى آخر كارثة كبرى في الولايات المتحدة. فالذين يغيّرون إنتماءهم الحزبي يعلّلون ذلك عادة بكون الحزبين يعبّران عن مصالح طبقة واحدة هي البرجوازية، أما الأمور الأخرى التي هي موضع خلاف بينهما فليست بذات أهمية جوهرية.

وإنني لأتذكر ستيمسون في سنّ الكهولة، حيث كان يكبر فوريستول بكثير. وكان يميّزه هدوء واتزان أنكلوساكسونيان، وإن بَدَيَا خارجيين. وكان حديثه وصوته غير معبرين يثيران السأم لدى السامع لأحاديثه طلقتهما. وفي القديم قيل عمّن شابهه: «هو أشبه بالقندلفت». ولكن كلماته كانت متراصة وتبدو كأنها قد أعمل فيها التفكير. وكان يقول [illegible] التعاون السوفياتي الأميركي حتى بعد انتهاء الحرب

بالتحديد المطلوب، وإن اقتصد بالاجمال في حديثه حول هذا الموضوع.

وإذا أضفنا إلى القول إن رئيس أركان جيش الولايات المتحدة الأميركية جورج مارشال كان يعرب دائماً عن اعتقاده بضرورة إرساء علاقات طيبة بين البلدين، يبرز واضحاً للعيان أن قيادة الجيش الأميركي العليا آنذاك، إبان الحرب، كانت تتخذ مواقف ليست بالسيئة حيالنا. أما التغيرات اللاحقة التي طرأت على موقف واشنطن من الاتحاد السوڤياتي فقد كانت نتيجة لقرارات اتُّخذت على مستوى سياسي عالٍ، وكان يقف وراءها الرأسمال الضخم، الهائل، الجبار، والاحتكارات والبيزنيس الحربي. وهكذا، فقد تغيَّرت السياسة الرسمية وتغيَّرت معها آراء القادة العسكريين الأميركيين.

كان جورج مارشال رجل سياسة وحرب كبيراً في فترة الحرب، وقد عُرف في سنوات الثلاثينات بأنه شخص ذو أفكار وآراء رجعية وثيقة الارتباط بالاحتكارات الكبيرة. وقد تولى لفترة في سنة ١٩٣٩ منصب رئيس هيئة الأركان بالوكالة، ثم شغل بين سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٥ منصب رئيس هيئة أركان القوات البرية في جيش الولايات المتحدة. وقد التقيته في واشنطن حين سنحت الفرص أثناء زياراته القصيرة إلى الوطن آتياً من أوروبا.

ومما يلفت الانتباه ذلك اللقاء الذي جمعنا يومَ مَنْح الضباط الأميركيين ذوي الرتب العالية أوسمة سوڤياتية. وقد مُنح مارشال نفسه وسام سوڤوروف من الدرجة الأولى بموجب مرسوم صادر عن الدولة السوڤياتية، وتحديداً عن هيئة رئاسة السوڤيات الأعلى، موقّع من م. إ. كالينين و أ. ف. غوركين. وقد جاء في المرسوم أن الوسام يمنح للجنرال

مارشال تقديراً لنشاطه العسكري وخدماته الجُلّى في قيادة القوات المسلحة الأميركية ضد العدو المشترك للولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوڤياتي.. ضد ألمانيا الهتلرية.

... وقد أقيم حفل التكريم في فندق « مايفلاوير » الفخم في واشنطن. وكالعادة، ففي مثل هذه المناسبات تترى جموع المصوِّرين والصحافيين ومصوِّري السينما، فضلاً عن حضور العديد من ممثّلي القوات والقطعات العسكرية في أزيائهم الرسمية. كان كل شيء، كما يقال، مشدوداً ومتأهباً.

وهاأنذا أقلّد الممنوحين أوسمتهم بمن فيهم الجنرال جورج مارشال. وبادلونا أيضاً التهاني بنجاحاتنا التي حقّقناها على الجبهات. ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد، ولكن الواضح للجميع أن النصر لم يكن محجوبا عن الأعين وراء الجبال.

وبعد تقليد الأوسمة والميداليات يدور بيني وبين مارشال حديث يعلن فيه القول:

ـ إنني باسمي الشخصي وباسم رفاقي العاملين في هيئة الأركان لا تذهلنا بطولة جنودكم فحسب، بل ذلك الفن الذي يظهره قادتكم العسكريون لانتزاع الانتصار وبشكل عام، لقد استحق الجيش الأحمر لقب الجيش الذي لا يقهر، ومن يقول هذا هو أنا، الشخص الكاره للمجاملات...

وقد حاول مارشال ما استطاع في هذا الحديث الابتعاد عن الكلام على المسائل السياسية المتعلقة بمستقبل أوروبا، وتحديداً ما يتعلق بمصير ألمانيا المهزومة.

ولعل إشراك الإدارة الأميركية جورج مارشال في عمل جميع المؤتمرات الدولية المهمّة واللقاءات الرفيعة المستوى خلال الحرب العالمية الثانية، بما فيها مؤتمرات طهران ويالطا وپوتسدام، يشهد على شخصيته المهمة وموقعه الحسّاس في أفق السياسة الأميركية.

وهكذا، فقد حظي الجنرال الركن فيما بعد باهتمام الإدارة، فولّي منصب وزير خارجية الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٩. وقد أطلق اسمه على الخطة التي كان مزمعاً تنفيذها في ألمانيا الغربية وبعض بلدان أوروبا الغربية الأخرى، وهي خطة تقوم على « مبدأ ترومان ». وكان هدف « خطة مارشال » يقوم في تعزيز مواقع الرأسمالية في أوروبا الغربية والتصدي لقيام أي تغييرات أو تحولات اجتماعية تقدمية هناك.

وهكذا، أصبح مارشال في نهاية المطاف أحد أساطين « الحرب الباردة » وحلف الأطلسي (الناتو)؛ أما نشاطه السياسي فقد أنهاه بتوليّه منصب وزير دفاع الولايات المتحدة. وهكذا، أيضاً، اختلطت عند جورج مارشال بزته الديبلوماسية ببزته العسكرية فبدتا بزة واحدة.

هكذا كان يفكّر روكفلر

في سنوات الحرب كان الاتجاه الأهم لعمل سفارة الاتحاد السوڤياتي في واشنطن يقود إلى وضع الرأي السياسي الأميركي الرسمي أمام الصورة الحقيقية لمسار نضال الشعب السوڤياتي ضد المحتلين الألمان الفاشيين، وكذلك تعزيز الثقة لدى الأميركيين بحتمية النصر على الفاشية. وكنا نعتبر هذه المهمة من المهمات ذات الأولوية المطلقة. فقد أصاب الأميركيين الرعب، خصوصاً بعد هجوم اليابان على پيرل هاربور، بألاّ

يصمد الاتحاد السوڤياتي أو ألاّ تقوى الكتلة المعادية للهتلرية على دحر المعتدين الفاشيين والقضاء عليهم.

وقد طرح الأسئلة نفسها ممثّلو البيزنيس الأميركي الكبير، إذ كان أصحاب الملايين والمليارات من الدولارات يبذلون أقصى الاهتمام بهذا الموضوع، فكانوا مخلصين في اهتمامهم على طريقتهم. ومن بين هؤلاء نيلسون روكفلر، الذي قُدّر لي أن ألتقيه باستمرار.

ومن المعلوم أن روزفلت كان يسعى إلى استخدام اسم روكفلر (وهو اسم كان ولا يزال يرمز إلى أميركا الغنية) لتجييره لحساب سياسته القائمة على إجراء التجارب الاقتصادية، وبالتالي مواجهة منتقديه به. ولذا، فقد أوكلت الإدارة منصب المنسّق لشؤون أميركا اللاتينية إلى نيلسون روكفلر، ممثّل العائلة الأشهر والمتميّز عن أشقائه الآخرين بمخزون لا بأس به من الذكاء السياسي.

وقد يكون من الصعب العثور في واشنطن على أحد يمكن أن يفسّر ماذا تعني كلمة «منسّق»، ولكن الجميع كانوا يدركون أن عائلة أصحاب الملايين لم تكن تلقي بالاً إلى الألقاب الرسمية. فبالنسبة إلى نيلسون روكفلر كان اللقب الرئيسي هو: «السيد دولار» مقروناً بكلمة «مليارات». ففي هاتين الكلمتين تكمن القوة السحرية الجبارة في ظروف أميركا، سواءٌ أكان ذلك في أوقات الحرب أم في أوقات السلم.

وبالطبع، كانت لقاءاتي بروكفلر تمسّ قليلاً شؤون أميركا اللاتينية، وتعرّج أكثر على مشكلات السياسة الدولية ومسائل العلاقات بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة. كان على اطلاع واسع في مجال السياسة ولديه معلومات وفيرة.

وكثيراً ما قال لي روكفلر:

- أنا أنتمي إلى مؤيدي إقامة علاقات طبيعية، بل وطيبة، بين بلدينا الجبارين.

والحقيقة أن انطباعاً تكوّن لدي بأنه ليست لديه رؤية دقيقة حول كيف ينبغي أن تكون عليه العلاقات وكيف يجب أن تتطور بعد الحرب في ميادين السياسة والاقتصاد والاتصالات الإنسانية. وفي تلك الفترة لم يكن أحد في الإدارة يعرف اتجاه العلاقات بعد الحرب أساساً، على رغم وجود بعض المقترحات آنذاك. فالجدير بالذكر هنا أن تجربة العلاقات الثنائية التي خاضتها البلدان في فترة ما قبل الحرب ظلّت تجربة متواضعة ولم تثمر جواباً متكاملاً.

ومع ذلك، فإن الأمر لم يكن ليمنع روكفلر من الإعراب عن أفكاره الجريئة، التي صاغها على نحو شخصي، لم يخالف به جملة آراء الحكومة الأميركية. وبشكل عام، كان روكفلر إذا تحدث في السياسة يأتي كلامه مستفيضاً وواسعاً، وكان يعلن:

- لن يزعجني البتة ما سيقوله السياسيون المحترفون في الإدارة عن تصريحاتي.

كان روكفلر ينظر إلى منصبه السياسي بوصفه درجة على سلم يفضي به، إذا ما ارتقاه، إلى البيت الأبيض، الأمر الذي لم يَخْفَ على روزفلت ومَن حوله من مساعديه المباشرين؛ بيد أنه لم يكن يرعبهم، فالرئيس لم ير آنذاك منافسين، ولم يكن لديه منافسون في ساحة الولايات المتحدة السياسية. وبالإجمال، فقد استطاع روزفلت الإفادة من اسم روكفلر كما توخّى.

كان روكفلر في لقاءاتنا يشير من طرف خفي بالقول:

- في ما يتعلّق بآرائي حول العلاقات بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، فإن الرئيس يصغي إلي.

وكان عليّ أن أعتبر هذه الإشارات حقيقية، فضلاً عن أنها تأكّدت بالوقائع.

ولو أن الظروف اختلفت لأمكن النظر إلى لقاءاتي وروكفلر على أنها لقاءات شخصية أؤتَمنُ عليها؛ ولكن أحداً لم ينظر إليها على هذا النحو آنذاك، بمن فيهم أنا نفسي. كانت لقاءات علنية حملت طابعاً صريحاً، ولم تكن اتجاهاتها لتبتعد عن جوهر العلاقات القائمة بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة باعتبارهما حليفين. ففي ذلك الوقت كان كثير من رجال السياسة والدولة في الولايات المتحدة الأميركية يعتبرون أن لهم الشرف في زيارة السفارة السوڤياتية والتباحث مع ممثّلي الاتحاد السوڤياتي المسؤولين.

والانصاف يقضي بالاعتراف أن موقف روكفلر حيال بلادنا كان صحيحاً حتى عندما تولّى منصب نائب الرئيس في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٧. لقد كان، بالطبع، شخصاً منتمياً إلى قطب اجتماعي مختلف، إلاّ أنه لم ينحدر مطلقاً إلى مستوى العداء الصريح للاتحاد السوڤياتي، كما لم يستغلّ «مشكلة حقوق الإنسان»، فانطلق دائماً من أنه على الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة أن يتعايشا في ظروف السلم.

وقابلت نيلسون روكفلر فيما بعد. وفي مختلف الظروف والأوضاع، سواء على الصعيد الرسمي - حين كان نائباً للرئيس - أو على الصعيد غير

الرسمي. وقبل انتخابه لمنصب نائب الرئيس كان يمضي معظم أوقاته في نيويورك في شقة لا يمكن وصفها إلا بأن صاحبها من أصحاب الملايين العديدة. ورسخت في ذاكرتي أمسية من الأماسي.

تسلّمنا، ليديا دميتريڤنا وأنا، دعوة من روكفلر وزوجته جاء فيها أنهما يقيمان على شرفنا حفل غداء. ولبّينا الدعوة إلى الحفل المقام في أحد المطاعم الفخمة، حيث تجمّع حشد كبير من كبار رجال الأعمال الأميركيين وزوجاتهم.

ودعا صاحبا الدعوة الجميع إلى المائدة التي رُتّبت على الطريقة الروكفلرية، وبحيث لا يلفت البذخ النظر بشكل مباشر، بل إنه يختفي وراء الكثير الكثير من الأزاهير والورود. وصرّحت صاحبة الدعوة أن شهية الأكل عندها لا تنفتح إلا إذا كانت المائدة مزينة بالورود. وسألتها:

- إذاً، فالزهور هي هوايتك؟

فأجابتني قائلة:

- كلا، ليست هوايتي، بل هناك شيء آخر.

ثم تمهّلت في الكلام مستجمعة قواها لتشرح ماهية الشيء الآخر. قالت:

- سأبوح لك بسرّ.

إن هوايتي هي إبدال الشقق والتجوال بحثاً عن أثاث جديد لشرائه والإشراف على توزيعه. إنني أعشق توزيع الأثاث الجديد وتنسيقه.

وكانت تلفظ هذه الكلمات بطريقة مميّزة جداً.

ولا أخفي أنني فكَّرت في نفسي: «ليس سيئاً يا سيدتي أن تنتقي لنفسك هواية كهذه. ولكن، كيف يعيش هؤلاء الأميركيون الذين شاهدناهم لأيام خلت في شوارع بروكلين؟ إنهم يدخلون ليلاً بيوتاً سُمرت نوافذها بألواح الخشب اتقاءً من البرد القاسي. وهذه البيوت هجرها مالكوها لأنه ليس من المُربح إصلاحها وتأجيرها. وكنا نشاهد صوراً مماثلة كثيرة.. فثمة مربَّعات سكنية كاملة، بل وشوارع طويلة، على هذه الحال».

بيد أن المرء لا يستطيع مواجهة صاحبة الدعوة بهذه الوقائع، وهو أمر تفرضه قواعد اللياقة. اما الأحاديث التي تدور عادة في مثل هذه التجمعات وحفلات الاستقبال فتتناول مواضيع متنوعة كالخوض مثلاً في قليل من السياسة وبعض البيزنيس وشيء من الهوايات والأدب والمسرح، وكذلك الحديث عن الأبناء والأقارب، وأين يعيشون وكيف يمضون أوقات فراغهم.

فإذا عرّج الحديث، مثلاً، على الأطفال، فإن ممثّلي هذا الوسط يعجبون عادة عندما يعلمون أنهم - أي الأطفال - يعيشون في المدينة مع الكبار. فهم لم يكونوا يحبون، ولا يحبون هذا النمط من الحياة، وكانوا يفعلون ما بوسعهم كي يعيش الأطفال منفصلين عن العائلة وفي الريف على الأرجح.

ومما لفت نظري دائماً في مثل هذه الحفلات كيف يحاول رجال الأعمال والمصرفيون الكبار في السن تجنُّب الخوض في غمار السياسة، مفضّلين الإصغاء إلى ما سيقوله ممثّل الاتحاد السوفياتي.

وكان روكفلر نفسه يساعده نائب رئيس «ناشونال سيتي بنك»

لانكاستر يحبان إثارة هذا الموضوع على وجه الخصوص. وبالمناسبة كان الأخير نصيراً كبيراً لعلاقات طيبة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

وعندما تجتمع نخبة عالم البيزنيس الأميركي، سواء في حلقات صغيرة أم في تجمّع كبير، تطالع المرء ميزة مهمة: لقد تعوَّد هؤلاء الناس الكلام بهدوء وبصوت منخفض ودون تعجُّل، وكأنما يريد كل واحد منهم القول إنه ليس مضطراً للكلام بصوت مرتفع حتى يسمع الآخرون، وأن على المستمع واجب التقاط كلماته / الماسات فقط، وأنه لا يحق للآخرين بعثرتها.

ولقد تكونت هذه العادة في مجتمع الأعمال منذ زمن بعيد، ويبدو أنها نتيجة لكون شؤون البيزنيس تُحلّ دائماً لصالح من يملك مالاً أكثر. أما الصراخ والضجيج هنا فلا ينفعان حتى ولو كانت الحقيقة نفسها وراءهما. فالحقيقة ليست موضع تقدير أو تقييم عندما تكون مجبوهة بالملايين وبأصحاب الملايين.

كان هذا هو الجو السائد بين المدعوين، الذين كان يبادر نيلسون روكفلر إلى جمعهم، ممَّا كان ينعكس حتى على المواضيع المثارة، البعيدة عن البيزنيس والاقتصاد.

وخصائص السلوك الأميركي الذي ينهجه أعضاء هذا الوسط تختلف جذرياً عن خصائص سلوك أقرانهم الإنكليز على سبيل المثال. ففي عالم الأعمال، كما بين كل أولئك المرتبطين بالحياة السياسية لبريطانيا، يعلو الصراخ والضجيج والتصارح، الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى ديمقراطياً. فالجدال والأسئلة والأجوبة عليها، وكذلك الملاحظات الموجَّهة إلى

الآخرين بقصد إثارة المرح والهزء، كلها تعتبر ظاهرات عادية. ولتحقيق ذلك فليس من الحتمي مراعاة الحضور رفيع المستوى. فيكفي أن يجتمع إنكليزيان أو ثلاثة ليحدثوا ضجيجاً، إلا أنهم يتبادلون المجاملات في نهاية المطاف مصحوبة بالتأكيدات القلبية على أنهم لا يستطيعون العيش دون بعض.

ولعله من الممكن تعليل هذه الظاهرة بالنظام المتَّبع في البرلمان الإنكليزي، حيث لا يجوز إلقاء الكلمات المكتوبة. فمناقشة المسائل تتم شفهياً، وشفهياً فقط، وكذا تدار الأحاديث والحوارات والمجادلات، وبتقاذف الكلمات ذات العيار الثقيل. وكل ذلك ينبغي أن يسمعه الجميع، فهذا من روح الديمقراطية.

وكأنما هذا النظام البرلماني الانكليزي يخترق الجدران وينبثّ في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، وأولها البيزنيس.

أما في اللقاءات مع روكفلر فقد كانت تغلب أجواء ذات نكهة أميركية خاصة، حتى عندما يتطرَّق الحديث إلى السياسة، ولم يكن صاحب الدعوة يبذل جهداً كبيراً لتأمينها، ذلك أن أصدقاءه كانوا يعرفون كيف يجب أن يتصرَّفوا بما يليق بكبار رجال أعمال الولايات المتحدة.

ومع أن السنة كانت ١٩٤٧، وكان قد مرَّ عام ونصف على خطاب تشرتشل في فولتون، بيد أن الأمل كان يحدوا أصحاب البيزنيس الجديين في استمرار الكثير الجديد الذي نشأ في العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية إبَّان سنوات الحرب. ولكن الزمن أثبت أن كل الآمال أصيبت بالخيبة.

فمنذ أن تقلّد الرئيس ترومان زمام السلطة بدأت تشوب البرودة

العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية، بل كانت أحياناً تبلغ ذروة التوتّر، كما حدث، على سبيل المثال، أثناء الأزمة الكوبية وخلال حادث طائرة «الپاوزر» وفشل القمة الرباعية في باريس. ففي تلك الفترات كان المجمع الصناعي ـ الحربي ينهج سياسة سباق التسلح وتعميقها، وكذلك مُراكمة الأسلحة النووية.

وعند نهاية الغداء لم يغيِّر روكفلر عادته في الإعراب عن رغبته بالتحدُّث معي قليلاً على انفراد. واتخذنا لنا مكاناً في زاوية الغرفة وكلانا يحمل فنجان قهوته، ثم بادر إلى القول بصراحة:

ـ لقد لاحظت حدوث تحوُّل في الرأي العام الاجتماعي الأميركي حيال الاتحاد السوڤياتي.

ثم نظر إليَّ وأكمل فكرته موضحاً:

ـ إنني شخصياً لم أكن أتوقَّع مثل هذه الظاهرة. كنت أفترض أن الميل نحو ترسيخ علاقات طيبة مع الاتحاد السوڤياتي سيكون أكثر تماسكاً وأثبت. ولكن روزڤلت مات ومات معه ذلك الإصرار الذي تميزت به إدارة الرئيس الراحل بقدر كافٍ حيال مسألة العلاقات مع بلدكم.

وتابع روكفلر يقول:

ـ أما الآن فقد بدأت تهب رياح أخرى لا نعرف إلى أين ستحملنا وإياكم.

أجبته قائلاً:

ـ إن السياسة السوڤياتية تجاه الولايات المتحدة باقية كما هي وكما

كانت في السابق، أي اننا نرمي إلى تعزيز العلاقات الطيبة معكم. وليست موسكو هي المخطئة في أن رياحاً أخرى بدأت تهبُّ عند حليفنا السابق في زمن الحرب.

ثم سألت روكفلر:

ـ وهل تعلمون أن الاتحاد السوفياتي قد صوَّت مع أصدقائه الأوروبيين حين نوقشت مسألة أين سيكون مقر الأمم المتحدة ـ أفي الولايات المتحدة أم في اوروبا ـ إلى جانب الولايات المتحدة، الأمر الذي بفضله أقيم المقر عندكم؟ وعندما كنت في مؤتمر سان فرانسيسكو على رأس الوفد السوفياتي تسلَّمت من موسكو برقية تفيد بأنه يجب التصويت للولايات المتحدة، في حال طرحت على بساط البحث مسألة مقر منظمة الأمم المتحدة.

وطرحت عليه السؤال التالي:

ـ هل تعرفون ما هو الدافع الذي جعل موسكو تتخذ مثل هذا القرار؟

أجاب روكفلر:

ـ لا أستطيع ان أقول شيئاً في هذا الصدد.

فقلت:

ـ المبرِّر الذي أعطته موسكو يقوم في أن التصويت إلى جانب الولايات المتحدة في مسألة مقر منظمة الأمم ستجعلها تصون اهتمامها في الشؤون الدولية. وبكلمات أخرى كانت لدى موسكو مخاوف من أن الولايات المتحدة ستتقوقع على نفسها وتصاب بالانعزالية، وفي مثل هذه الظروف

فمن غير المعروف في أي اتجاه ستدير بعض الدول الأوروبية سياساتها. هاكم أي إيمان عند الاتحاد السوفياتي بالنوايا الطيبة لتلك السياسة التي أرسى قواعدها الرئيس روزفلت.

قال روكفلر:

ـ دون شك، لقد كشف ستالين عن انسجام ونبل بمعنى ما في تبنيه لمثل تلك الآراء في ما يتعلق بالولايات المتحدة.

فيما بعد، وعندما أصبح روكفلر نائباً للرئيس، لم ينتمِ إلى أولئك الساسة المعادين علناً للاتحاد السوفياتي، بالرغم من أنه لم يعد متحمساً ومخلصاً كما في مواقفه السابقة من مسألة العلاقات بين البلدين أيام إدارة روزفلت. لقد برزت عنده ازدواجية معينة. فهو من جهة انتصر لضرورة ترسيخ علاقات مسالمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، ثم كان من جهة ثانية مع أميركا قوية، أميركا مسلَّحة، أميركا يتزعَّمها البيزنيس الضخم، ويحكمها أصحاب الملايين والمليارات ويحددون سياستها في الشؤون الداخلية والخارجية.

لقد بدا وجهه الاجتماعي معقداً جداً. هكذا عرفت هذا المصرفي ورجل الأعمال صاحب الملايين العديدة. أما حياته فيما بعد فقد شهدت تعقيدات جمة، إذ قضى ابنه نحبه صدفة في مياه الجزء الغربي من المحيط الهادىء، بالقرب من السواحل الأندونيسية. وانهارت عائلته، ولم يبق من ثروته إلا ما يندر أن يسمع عنه المرء. أما هو فقد توفي في ظروف غامضة، عام ١٩٧٩ عن عمر يناهز إحدى وسبعين سنة.

ومن اللقاءات التي أتذكَّرها ذاك الذي جمعني وتوماس لاَمُونْت، رئيس البيت المالي العائد لأصحاب المليارات من آل مورغان، بعد وفاة

جون پيرپونت مورغان نفسه، هذا «الكريز»(★) الأميركي. وقد طلب لامونت لقائي عشية الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة سنة ١٩٤٤. جرى اللقاء في قنصليتنا بنيويورك وأفضى إلي يومها برجاء بدا للوهلة الأولى غير متوقَّع:

ـ اطلب من موسكو بذل الجهد لتأييد توماس ديوي مرشحاً للرئاسة عن الحزب الجمهوري.

وكنا نعرف أن ديوي كان ينافس روزڤلت في هذه الانتخابات، ولكن مثل هذا الطلب حمل بحد ذاته معنى رمزياً، شكَّل شهادة على أن تعاطفاً معيناً نحو بلادنا كان ما يزال شائعاً في أوساط الرأي العام الاجتماعي للولايات المتحدة، وسبب هذا الشعور أن بلادنا تحمَّلت العبء الأكبر في النضال ضد ألمانيا الهتلرية. وقد اراد الجمهوريون بشدة استخدام هذا العامل لصالح حزبهم يوم توجُّه الناخب الأميركي إلى صندوق الاقتراع.

وتوجَّب توضيح الأمر للامونت:

ـ إنه ليس بوسع بلادنا أن تتدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.

وتقبَّل لامونت ما قلته ببعض خيبة أمل، إلاَّ أنه فهمه بقدر معلوم.

أجل، لم يتوجَّه أصحاب الملايين دائماً نحو الاتحاد السوڤياتي بطلب المساعدة! ولكن ذلك حصل يوماً ما.

(★) «كريز»: آخر ملوك ليديا القديمة (القرن السادس قبل الميلاد)، الذي ذهبت سعة ثروته مذهب المثل ـ **(ملاحظة من الناشر)**.

وكانت تربطني علاقات جيدة ـ كما كان الأمر أيام أسلافي وخلفائي ـ بابن هذا المصرفي كورليس لامونت، الذي يمكن اعتباره واحداً من أبناء أميركا الأذكياء والمنفتحين، إذ كان صاحب قناعات عميقة وآراء جريئة. فقد قطع علاقاته مع والده، والواقع أيضاً أنه قاطع عائلته بأكملها، وكانت أسباب القطيعة إيديولوجية بحتة. لقد قاطع نهائياً وبالكامل مجمل طبقته التي تحدَّر منها.

وظل ك. لامونت طيلة حياته صديقاً وفياً للاتحاد السوڤياتي، وقد فعل الكثير من أجل تعبئة الرأي العام الأميركي لصالح التعاون بين الشعبين السوڤياتي والأميركي، كما شغل منصب رئيس المجلس الوطني للصداقة الأميركية ـ السوڤياتية فترة طويلة.

لقاءات مؤثرة على الأرض الأميركية

قطار نيويورك ـ واشنطن. قعقعة الدواليب الحديدية المنتظمة تطرق المسامع، والمقطورات ذات مقاعد، حيث المسافة ليست بالطويلة. أسرح نظري عبر النافذة ثم فجأة:

ـ هالو مستر غروميكو.

ـ هالو.

ـ لقد عرفتك وقررت أن أقترب لأحدثك. أُدعى ألبيرت ريس ويليامس. إنني مشدوه ببطولة شعبكم وجيشكم. إنكم تنقذون أوروبا والعالم.

كثيراً ما كانت تصادفنا تجلّيات مشاعر صداقة الأميركيين حيال الاتحاد السوڤياتي أينما حللنا وأينما كُنَّا: في القطارات وشوارع المدن، وحتى

في المؤسسات والمنظمات الرسمية. وعادة يقترب الأميركي، يلقي السلام، ثم يعبر عن مشاعره الصادقة ويبتعد، وكان بعضهم يعرِّف عن نفسه وبعضهم لا يفعل. وإنني أعتقد أن مثل هذه اللقاءات مؤثر، بل مؤثر جداً.

وإذن، كان من هؤلاء الأميركيين الصحافي ألبيرت ريس ويليامس. واقترحت عليه الجلوس بجانبي وخضنا حديثاً ممتعاً. أخذ يستعيد ذكريات حارة عن لقاءاته بلينين وعن رحلته التي قام بها إلى بلادنا في سنوات السلطة السوفياتية الأولى. فبالإضافة إلى موسكو ولينينغراد ذكر أنه زار مدناً إقليمية أخرى وعلى رأسها مدينة پوڤولجييه. ومما قاله:

ـ بالطبع زرت بلادكم في وقت عصيب، إثر انتهاء الحرب الأهلية. وقتذاك رأيت الدمار وانهيار الاقتصاد، وخصوصاً في القطاع الزراعي الذي شهد أحيانا وفي بعض المناطق قحطاً وعقماً كبيرين.

وأثناء تجواله في بلادنا لم يُخفِ ويليامس هويته، علماً أنه كان من الممكن التعرّف عليه أجنبياً دون إعلانه عن ذلك، بسبب لغته الروسية المضعضعة. ولكنه لم يشعر بأي نفور من جانب المواطنين السوفيات، على الرغم من أن الولايات المتحدة كانت تتخذ مواقف عدائية من السلطة السوفياتية والحكومة التي ترأسها لينين.

وروى ويليامس:

ـ مرة سالني أحد الفلاحين، وقد وافق على أن يقلّني في عربته التي يجرها بغل: «ما هو أصلكم»؟ فأجبته بأنني من أغنى بلد في العالم، من أميركا. ولكن وجه الفلاح علته الحيرة فكرر السؤال: «إذن فأنت من

أغنى بلد»؟ ثم حدّجني بنظرة استوعبت ثيابي الرثّة من فوق إلى تحت. ولعل الفلاح ظنّ أن الذي يقلّه ليس سوى صعلوك محتال، ينتعل حذاء ويلبس ثياباً لا تختلف كثيراً عن حذائه وثيابه. ورغم كل ذلك فقد صدقني هذا السوفياتي البسيط، وافترقنا دون أن يعكر صفو صداقتنا القصيرة شيء.

كان ويليامس يتحدث عن كل ذلك بحرارة وحب.

وفيما بعد، كثيراً ما كنّا نلتقيه في سفارتنا خلال حفلات الاستقبال ونقبل على محادثته باهتمام.

ونعرف الآن أن ويليامس ألقى في الولايات المتحدة العديد من المحاضرات عن الاتحاد السوفياتي أمام مختلف أنواع الحضور، وحتى في الجامعات الأميركية، وكان يحظى بشعبية واسعة. ويمكن القول دون تحفّظ إن اسم ألبيرت ريس ويليامس يوازي في التاريخ اسم ممثّل الصحافة التقدمية العظيم جون ريد شاهد ثورة أوكتوبر التي وصف أحداثها في كتابه الشهير «عشرة أيام هزت العالم».

لقد عرف المواطنون السوفيات، العاملون في الولايات المتحدة فيضاً من مشاعر الحب والصداقة من جانب الشعب الأميركي موجهاً نحو شعبنا السوفياتي. ولا أستطيع أن أحصي البرقيات والرسائل التي وردت في تلك الفترة إلى السفارة والقنصليات السوفياتية، يعرب فيها الأميركيون من مختلف المنظمات والجمعيات والمؤسسات عن مشاعرهم الطيبة إزاء الاتحاد السوفياتي.

وتعليل ذلك مردّه، أولاً، إلى ذلك الموقع الذي احتلّه روزفلت

وإدارته حيال الاتحاد السوڤياتي بوصفه ضحية العدوان، ومردُّه ثانياً إلى وعي الأميركيين المتنامي بأن مصير الولايات المتحدة وأوروبا يتوقَّف عملياً على الصراع الرهيب بين بلادنا وبين المعتدين الفاشيين، وقد كان صراعاً في الحقيقة على الموت لا على الحياة.

كان ذلك شعوراً عفوياً يكتسح بسطاء الأميركيين نحو السوڤيات، فجاء ترومان ليخنقه بكل الوسائل، ثم فيما بعد بدأ انتهاك التاريخ وتبعه تهكّم على المشاعر المتبادلة بين الشعبين.

ولكن حتى بعد الخامس من آذار (مارس) ١٩٤٦، عندما ألقى تشرتشل خطابه في فولتون (ولاية ميسوري، الولايات المتحدة) - وكان ترومان موجوداً - هذا الخطاب الذي كان إشارة البدء بإشعال النار على جبهة العداء للسوڤيات بمشاركة الولايات المتحدة، لم يستطع تغيير مزاج الرأي العام الأميركي تغييراً جذرياً بقصد زرع العداء نحو الاشتراكية بالقدر الذي أرادته الدوائر الرجعية في الولايات المتحدة. فقد كانوا يحتاجون إلى خلق موجة عاتية من الدعاية حتى يتمكّنوا من لمس تغيُّرات حقيقية تطرأ على الرأي العام.

والجدير بالقول إنه حتى أثناء الحرب برزت في مواقف واشنطن الرسمية من الاتحاد السوڤياتي مظاهر لا تستجيب لروح التحالف القائم، ولعل في المثال التالي ما يوضّح هذه الحقيقة: فقد وصل إلى واشنطن ثلاثة من الطيارين الأبطال هم:

م.م. غروموف، غ.ف. بايدوكوف، أ.ب. يوماشيف. كانوا مكلَّفين بمهمة متواضعة، ألا وهي محاولة الحصول ولو على طائرة قاصفة أميركية

واحدة من شركة «سپيري». ولم تكن هذه المقاتلة تشكّل آنذاك سراً عسكرياً، ذلك أنها كانت موجودة عند الهتلريين.

وأمضى الطيارون الثلاثة في عاصمة الولايات المتحدة فترة لا بأس بها، إلا أنهم عادوا إلى الوطن خلو الأيدي. من ذا الذي أوقف القرار؟ فالسياسيون، الذين كان بإمكانهم اتخاذ القرار، لم يكن لهم يد في ذلك حتى لو أرادوا كما أعلنوا لنا. وكان واضحاً أنهم لم يستطيعوا اتخاذ القرار لأن الرأس لم يسمح لهم بذلك.

ويمكننا إيراد الكثير من وقائع مماثلة، ولنقتصر على تبيان كيفية معالجة مسائل ليند - ليز. ذلك أنه كي يكون من الممكن الحصول على الإمدادات من الولايات المتحدة إلى ليند - ليز، توجّب بذل جهود هائلة. فالعملانية الأميركية اختفت فجأة وحلّت محلها المماطلة المقصودة ونوايا الابتزاز والبيروقراطية الواضحة.

وقد ترأس إدارة تنفيذ قانون ليند - ليز، منذ خريف سنة ١٩٤١، إدوارد ستاتينيوس (وقد عُيِّن قبل أن يشغل منصب وزير الخارجية في تشرين الثاني - نوفمبر - من عام ١٩٤٤). وهكذا فقد أقمنا معه الاتصالات اللازمة. ولكن حتى ستاتينيوس كان عاجزاً عن إيصال الأمور إلى نهايات إيجابية في هذه المسألة أو تلك، حتى عندما رغب في ذلك كما تهيأ لنا. فغالباً ما كانت تثار جملة من الاستطرادات والإحالات على دوائر أخرى، ملكت بين يديها حق النقض والتصرف عندما كان يجري بحث مسائل ليند - ليز.

ورغم كل ذلك، فإن المميز أكثر لتلك الفترة والرأي العام السائد عند جزء كبير من دوائر الولايات المتحدة الحاكمة الداعمة لسياسة روزڤلت

هو تلك العاطفة الصادقة الرحبة حيال الاتحاد السوڤياتي. ومن مؤشّرات ذلك أن مئات الشخصيات من غير المدعوين إلى حفلات الاستقبال التي كانت تقيمها سفارة الاتحاد السوڤياتي، كانوا يسعون للحضور والمشاركة. فقد كانوا يرغبون في التعبير عن مواقفهم الطيبة حيال بلاد السوڤيات. ومن المؤسف أن الراغبين كانوا كثراً، بحيث لم نكن نستطيع ارضاءهم جميعاً بتوجيه الدعوات إليهم. وكانت حفلات الاستقبال هذه موضع اهتمام وتلبية من قبل ممثّلي الإدارة والقيادة العسكرية العليا والشيوخ وأعضاء مجلس النواب ورجال الأعمال ورجالات العلم والثقافة.

وأورد هنا حقيقة مثيرة: فليست هناك سفارة في واشنطن أقامت حفل استقبال لبّت دعوتها أرملة الرئيس السابق وودرو ويلسون، أحد الواضعين الرئيسيين لاتفاقية ڤرساي للسلام، والتي لم يصدّق عليها مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة كما هو معروف. وهكذا، فقد قامت المسز ويلسون بزيارة السفارة السوڤياتية. ولقد سُئلت عن ذلك، فأجابت هذه المرأة الفاضلة المثقفة:

- كي أنحني أمام الشعب السوڤياتي وصموده وتماسكه وبطولته في نضاله ضد العدو المشترك.

إليانورا روزڤلت وأبناؤها

أود هنا أن أبادل القارىء بعض ذكرياتي عن عائلة الرئيس روزڤلت. فزوجته إليانورا، كما هو معروف، لم تكن بعيدة عن السياسة، بل إنها اعتلت أحياناً منبر البيت الأبيض لتتحدّث إلى الصحافة عن بعض المسائل السياسية الخارجية، فكانت عادة تصيب هدفها تماماً، علماً بأنها حادت

أحياناً عن خط السياسة الرسمية. فهي لم تستطع دائماً متابعة العمليات المعقّدة الجارية على الساحة الدولية، ناهيك عن الحرب العالمية الدائرة.

وقد لبّيتُ مع ليديا دميترييڤنا دعوة إليانورا روزڤلت لزيارة ممتلكات فرانكلين روزڤلت العائلية، وقد حدث ذلك بعد وفاة الرئيس، فسألتها مهتماً:

- قولي لي من فضلك، هل كنتِ أنتِ من ينتقي المواضيع للتحدث إلى الصحافة أم أن زوجك المرحوم كان يشير عليك بها؟

وجاء الجواب سريعاً:

- لقد اخترت كل المواضيع بنفسي.

وأكملت وثمة ابتسامة تلوح:

- حتى أن الرئيس لم يكن يرحّب دائماً بالمواضيع المنتقاة، ولكنني لم أكن أتراجع. والحقيقة أنني كنت أتراجع عندما كان يجعلني أدرك أنه ليس ضرورياً الخوض في موضوع ما محدَّد.

والجواب كان، كما هو واضح، غير دقيق، وبات واضحاً عموماً أن زوجة الرئيس كانت تصغي إلى مشورته. وأمكن لي مراتٍ عديدة أن أسمع من رجال الدولة والصحافيين أن ما يرد في تصريحات إليانورا روزڤلت ومقالاتها يتطابق عادة وآراء الرئيس، وأما إذا لم يتطابق فقد كان ذلك يعتبر شذوذاً يؤكد القاعدة.

تسنّى لي رؤية إليانورا روزڤلت في حالات مختلفة، والالتقاء بها في أوقات مختلفة أيضاً، حيث كنا نناقش مشكلات سياسية حادة. وإثر وفاة الرئيس سرعان ما انتهت، فأصبحت إليانورا روزڤلت تسافر إلى كثير من البلدان وزارت كذلك الاتحاد السوڤياتي.

ففي خريف سنة ١٩٤٥ قامت بزيارة السفارة السوفياتية بعد عودتها مباشرة من لندن. قالت بابتسام وترحاب:

ـ لقد وصلت لتوي من بريطانيا العظمى، وقد رافقني في الرحلة جون فوستر دالاس. أتعرفون؟ لقد أصبحت مقتنعة أنه لا يثق بالروس مطلقاً.

فسألتها باهتمام:

ـ ولِمَ؟ من أين له عدم الثقة؟

قالت أرملة الرئيس:

ـ يبدو أنه واقع تحت تأثير تشرتشل القوي.

ولعلها لم تكن تعرف كل شيء عن عائلة دالاس، على ما بدا. ففي سنوات الحرب كان شقيق جون، المدعو آلن دالاس، يجري في سويسرا محادثات أو مفاوضات سرية مع ممثّلي القيادة النازية العليا لألمانيا حول إمكانية عقد صفقة منفصلة بمعزل عن الاتحاد السوفياتي. ففي أيام سنة ١٩٤٥ تلك، كان الشقيقان يملكان وجهة نظر واحدة من الناحية السياسية، فضلاً عن أن جون فوستر سرعان ما أصبح، فيما بعد، عرّاب نهج «من موقع القوة» الأميركي. أما في رحلته التي رافق أثناءها إليانورا إلى لندن فقد كان بإمكانه هو أن يؤثر في تشرتشل ليعادي السوفيات، وليس العكس. ففي السياسة لا وجود لشيء اسمه نعم ـ لا، وكانت رياح «الحرب الباردة» قد بدأت تهبّ، وأصبحت هي الرياح الطاغية على غير ما عداها.

وبالمناسبة لم يأت روزفلت نفسه على ذكر إليانورا في أي من لقاءاتنا، كأنّها لم تكن موجودة البتة. ولعل المؤرّخين والكتّاب، الذين أشاروا إلى

برودة سادت العلاقة بين الزوجين، كانوا محقّين في إشاراتهم التي لم تخلُ من أساس. أما في ما يتعلّق بي فقد فضّلت أن أقتصر في أحاديثي مع الرئيس على المواضيع السياسية وألاّ أتطرّق إلى مثل هذا الموضوع الشخصي.

وكان للزوجين، كما هو معلوم، أربعة أبناء هم: جيمس وفرانكلين وإليوت وجون. والملاحظ أيضاً أن أبناء روزفلت لم يتعاطوا، أثناء حياة أبيهم، السياسة من طرف نشيط، فالرئيس لم يرد لهم أن يختاروها قدراً لهم على غرار ما فعل. ولكن، وبما أن لاسم روزفلت قوةً جاذبةً هائلةً، لم يستطع بعض أبنائه أن يبقى بمنأى عن السياسة، بما فيها السياسة الخارجية.

هذا، وقد قام إليوت روزفلت، في الواحد والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦، بزيارة للاتحاد السوفياتي قابله خلالها ستالين وأجرى معه حديثاً. وكانت الأسئلة كلها تدور بشكل رئيسي حول العلاقات الثنائية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وحول الرقابة التي تقوم بها منظمة الأمم المتحدة على الوضع العالمي وإجراء البحوث النووية، وكذلك حول ضرورة اجتماع «الثلاثة الكبار» واحتمال نشوب حرب عالمية جديدة والاستنكاف الحاصل عن القيام بتطهير القطاعين الأميركي والبريطاني في برلين من النازيين. وقد حصل إليوت روزفلت على أجوبة واضحة وناجزة عن كل الأسئلة المطروحة. وقد نُشر نص المقابلة في جريدة «الإزفستيا» في عددها الصادر يوم ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦.

وإثر عودته من موسكو دعاني إليوت وزوجتي لمشاهدة حفلة عزف موسيقي في كارنيغي هول بنيويورك. وكانت برفقته زوجته الجميلة

الشابة، المتحدِّرة من عائلة ديوبون ذات الملايين العديدة.

ويبدو هذا الزواج مثيراً في جمعه بين أحد أبناء الرئيس فرانكلين روزفلت من جهة وبين إحدى فتيات عائلة ديوبون المصرفية. ولا بد أن الشابين وجدا لغة مشتركة تؤلف بين قلبيهما. والأشخاص الذين عرفوا الرئيس عن قرب والظروف التي تمَّ في ظلها الزواج، لم تداخلهم أدنى دهشة منه. وهذا يثبت مرة أخرى، وببساطة، أن أي اتهام أطلق بوجه الرئيس الأميركي، وكأنه لا يعدو أن يكون «أحمر»، في سياق ممارسته لسياسته الداخلية، وحتى الخارجية، باتجاه إرساء علاقات صداقة مع الاتحاد السوڤياتي، لم يكن يملك أساساً على وجه الإطلاق.

فالمسألة أن روزفلت ظلَّ وفياً لطبقته الاجتماعية ووقف على رأس كثير من ممثلي رأس المال في الولايات المتحدة، الذين كانوا يُكنّون الحقد على الاتحاد السوڤياتي في سياستهم الخارجية، ولا يعترفون إلاّ باستغلال الكادحين والتقتير عليهم في متطلّباتهم الاجتماعية على صعيد السياسة الداخلية. ولكن هذا الأميركي العظيم إذا ما قورنوا به، سابقاً والآن، ليسوا أمامه سوى أقزامٍ مثيرين للشفقة في السياسة.

وأقول بصراحة إن اللقاء مع إليوت أيقظ فيَّ ذكريات حية مرتبطة بالرئيس الراحل، ذلك أن الابن كان يشبه أباه كثيراً في بعض تكاوينه الخارجية.

وأثناء الاستراحة دار بيننا حديث شيّق، تطرّق في بعض مناحيه إلى انطباعاته عن رحلته إلى موسكو وعن مقابلته لستالين. ومما قاله ابن الرئيس في هذا الصدد:

ـ لقد أثار لدي هذا اللقاء انطباعاً كبيراً.

وكان إليوت يتدفّق في حديثه عن كل شيء والدهشة تملأه: عن عظمة موسكو عاصمة الاتحاد السوڤياتي، وعن الثقة بالمستقبل التي يتمتع بها المواطنون السوڤيات الذين تسنّى له الالتقاء بهم، وعن تضحيات شعبنا وجبروت الجيش الأحمر، الذي أذهل العالم بانتصاره في الحرب. وكان حديثه أيضاً، إلى ذلك، مخلصاً صادقاً، لا يدع أي شكٍّ في أن الراوي شخص محبٌّ لبلادنا ولشعبنا.

وممّا يؤكّد ذلك، الكتاب الذي أصدره إليوت فيما بعد تحت عنوان «من خلال عينيه»، والعينان هنا هما عينا «الأب». وفي الكتاب تهيمن فكرة رئيسية: إنه لمن مصلحة الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية أن نعيش في سلام.

ومن الطبيعي ألاّ يكون هذا الكتاب قد حظي بإعجاب أولئك الذين حاولوا جاهدين، أثناء الحرب وعشية انتهائها، أن يفصلوا البلدين بعضهما عن بعض.

ومن الطبيعي أيضاً ألاّ نتوقع التقريظ والمديح من جانب إليوت في ما يتعلق بالاشتراكية بما هي نظام اجتماعي، بيد أن الفكرة الرئيسية كانت وما تزال هي الأهم، ألا وهي التعايش السلمي لما فيه خير العالم. أما أبناء روزفلت الآخرون فنادراً ما كانوا يأتون إلى واشنطن. فوجود أحدهم في العاصمة بحكم الواجب، كالاحتفال بعيد ميلاد الوالد، كان يعتبر أمراً مثيراً. وهكذا، لم يكن لهم في السياسة الكبرى ضلع كبير.

ويجدر بالذكر هنا أن ابن ف. روزفلت البكر جيمس انتُخب عام ١٩٥٤ عضواً في مجلس النواب عن ولاية كاليفورنيا، وظلَّ يمثّلها حتى عام ١٩٦٦، غير أنه لم يُبدِ نشاطاً سياسياً مميزاً.

نجوم الثقافة الأميركية

في أثناء فترة الحرب يمكن القول إن الأوساط الثقافية الأميركية تفجرَّت اهتماماً وكَلَفاً بالاتحاد السوڤياتي وشعبه. وكانت هذه الأوساط أبعد ما تكون عن السياسة، غير أنه عندما ابتلعت الحرب القسم الأكبر من العالم، وعندما سالت دماء الناس في أوروبا والقارات الأخرى أنهاراً، وعندما هبَّ شعبنا يصدُّ العدوان بصدره دفاعاً عن الوطن والأرض جميعاً من «الطاعون البُنّي»، عندما حدث كل ذلك أدرك المثقفون الأميركيون أن الجندي السوڤياتي إنما يقاتل أيضاً دفاعاً عن الأميركيين وحياة عائلاتهم وبيوتهم.

وقد أقام كثير من رجال المسرح والسينما والأدب والموسيقى علاقات مع سفارة الاتحاد السوڤياتي ولبُّوا الدعوات وحلّوا فيها ضيوفاً.

ويمكن في هذا المجال ذكر قائد أوركسترا لوس أنجلوس السيمفونية المايسترو ليوپولد ستوكوڤسكي، الذي ارتبط اسمه كذلك بتأسيس أوركسترا نيويورك السيمفونية.

وأذكر أيضاً يوجين أورماندْ، قائد أوركسترا فيلادلفيا السيمفونية، وقد ظلَّ يقودها سنواتٍ طويلة منذ سنة ١٩٣٨. هذا، وكانت زوجته المغنية المعروفة ليلي پونْس، ذات الأصل الفرنسي، تتمتَّع بشهرة كبيرة، فأطلق عليها لقب «الزوج العظيم».

وفي الأربعينات والخمسينات كان أورماند في أوج عطائه الإبداعي، فكان إذا اعتلى منصة القيادة في حفلات أوركسترا فيلادلفيا ترى الجمهور مأخوذاً بعبقريته وحسن قيادته. وكانت تأدية معزوفات

رخمانينوف وتشايكوڤسكي الخالدة تحصد التصفيق العظيم... وتوفي بطريرك الموسيقى السيمفونية الأميركية عن عمر الخامسة والثمانين في فيلادلفيا، وقد وردنا نبأ وفاته في يومٍ آذاريٍّ من سنة ١٩٨٥.

وقد تقدم رجال الثقافة الأميركية بعرائض وبيانات يدعون فيها إلى الصداقة مع الاتحاد السوڤياتي. وإلى جانب ستوكوڤسكي وأورماند أتذكَّر المغنيين المشهورين پول روبسون وفرانك سيناترا، والأديبة ليليان هيلمان، ونجم السينما والأوپرا إدي نيلسون، والمغنية ونجمة السينما جانيتّا ماكدونالد وغيرهم.

واستذكار سيناترا وهيلمان يقتضي تعليقاً وتنويهاً خاصَّين. فسيناترا الذي ما زال حياً ويتمتَّع بصحة جيدة حتى يومنا الراهن، كان معشوق الشباب وقبلتهم في زمن الحرب ثم لمدة طويلة بعد انتهائها. فأسلوبه أو مذهبه في الفن سهل دون ابتذال.

أمّا هيلمان، الكاتبة المشهورة في الولايات المتحدة، فذات موقع مميَّز في الأدب الأميركي، حيث عرفت، بشكل أساسي، كمؤلفة مسرحية، حتى أنها اعتُبرت في وقت ما «سيدة المسرح الأولى» في البلاد.

وقد تحدَّدت آراء هيلمان التقدُّمية بوضوح أثناء إقامتها في إسبانيا الجمهورية، ومنذ ذلك الحين بات موضوع معاداة الفاشية واحداً من أهم المواضيع التي تناولتها في إبداعها. أضف إلى ذلك أنها وضعت سيناريو مفعماً بالعاطفة الصادقة تجاه المواطنين السوڤيات، حيث أخرج فيلماً بعنوان «نجمة الشمال»، حَظِيَ بإعجاب الأميركيين وأثار لديهم المشاعر الطيبة نحو الاتحاد السوڤياتي.

وفي سنوات الحرب قامت هيلمان بزيارة إلى الاتحاد السوڤياتي امتدت

أشهراً، بتوجيه من الرئيس روزفلت، حيث كلّفها بمهمة غير رسمية في مسعى منه لتعزيز الأواصر الثقافية بين الولايات المتحدة وبين الاتحاد السوفياتي. وفي أثناء وجودها في بلادنا قابلها ستالين. وقد قالت لي إثر عودتها:

ـ هذه الرحلة وما تخلّلها من لقاءات مع المواطنين السوفيات ستبقى منطبعة في ذاكرتي مدى الحياة. ولن أنسى بوجه خاص أبداً لقائي بالجنرال تشيرنوف على الجبهة. لقد اقترح عليَّ يومها مرافقة جيشكم حتى وصوله إلى وارسو، وكان يتوقّع تحريرها بعد ٩ أو ١٠ أيام من وصولي إلى الجبهة، ثم فيما بعد دعاني لانتظار دخول برلين أيضاً. وقد بعثت له برسالة، إلا أنني علمت باستشهاده بعد يومين على تحرير وارسو. لقد استشهد، استشهد، هل تعي ذلك؟

كانت تتكلّم بحزن.

كنا جالسين إلى مائدة عشاء نظّمتْها مع فرانك سيناترا على شرف السفير السوفياتي وعقيلته، وقد كنا عائدين جميعاً لتوّنا من حفلة موسيقية في كارنيغي هول حيث قدّم سيناترا عرضه. وفكّرت بموسكو، وكيف أنّ هذه المرأة الشجاعة كانت هناك من فترة قصيرة، ورأت بأمّ عينيها بطولة مواطنينا، وها هي ذي تجلس الآن في زاوية مطعم هادىء، تتكلم محبوسة الأنفاس على مواطن سوفياتي وتتذكّر كيف ساقها قدر الحرب إلى لقائه.

وقد أعربا، الاثنان، هي وسيناترا، عن شعور عميق بالصداقة نحو بلادنا التي قالا إنهما يحنيان هامتيهما أمامها.

قال سيناترا:

ـ هل تعرف، سيدي السفير؟ ثمة فئة في الولايات المتحدة لا ترغب في قيام علاقات طيبة مع الاتحاد السوفياتي.

ونظرت إلى سيناترا ورُحْتُ أفكّر: «ها هو ذا شاب صلب العود، قبلة أنظار جيله الفتي، ومع ذلك فهو يحاكم الأمور كأنه سياسي ذكي أو رجل دولة ناضج فأين من رأسه وآرائه بعض شيوخ كونغرس الولايات المتحدة، الذين لم يفهموا أو لم يريدوا أن يفهموا من ذا الذي يحمل على كاهله الآن أعباء الحرب الرهيبة الدائرة».

وكانت ليليان هيلمان تهزّ رأسها علامة الموافقة على ما يقوله سيناترا. كانت من حيث مظهرها الخارجي متواضعة جداً، تكاد تكون غير ملفتة للنظر. ولكن كم كان في أعماقها من إنسانية وشجاعة مدنية ووضوح رؤى.

امرأة متوسطة القامة ذات عينين كبيرتين حزينتين.. هكذا انحفرت ليليان هيلمان في ذاكرتي.

ولأنها لم تعرف المساومة على قناعاتها ومبادئها، فقد ظلّت أمينة لمثل الانسانية والواجب والحقيقة. كانت هيلمان تتمتّع باحترام وتقدير كبيرين في الأوساط الأميركية غير المؤيدة للوسائل السياسية التي فُرِضَتْ على قيادة الحياة الثقافية للبلاد أيام حقبة المكارثية.

ولسنوات عديدة ضربت الرجعية حول الكاتبة طوقاً من العداء والعزلة. وأمست ضحية من الضحايا التي أهينت أثناء التحقيقات والملاحقات في مختلف اللجان واللجان الفرعية المنبثقة عن الكونغرس. بيد أن تهديداً واحداً لم يستطع أن يفتّ في عضدها أو يخمد صوتها، على

الرغم من أنها كانت ـ بحسب ما صرحت به ـ تقع أحياناً في حالات تقرب من حدود الانهيار.

وبرغم كل شيء، فإن طبيعة المرأة ـ الفنانة، القابلة للكسر، لم تنكسر في ظل الظروف السائدة. لقد حملت هيلمان صليبها بكرامة، وهي تنظر باحتقار إلى من حاول تحطيمها معنوياً وسياسياً. وممّا كتبته في ١٩ أيار (مايو) ١٩٥٢، ضمن رسالة موجهة إلى رئيس اللجنة الفرعية المكلّفة بالتحقيق حول نشاط جوزف مكَارثي المعادي لأميركا، أورد ما يلي: «إنني لا استطيع، ولا أريد، أن أزيّف ضميري بما يتلاءم وموضة السنة». فقوة الروح التي أبدتها هيلمان في الفترة العصيبة، أيام كان مكتب التحقيقات الفيدرالي ينتهك مع لجان الكونغرس ضمير أميركا كلها، جعلت مواطني الولايات المتحدة الشرفاء والمهتمين خارجها يذهلون ويعربون عن إعجابهم بها.

وقد قامت هيلمان بعد الحرب أيضاً بزيارة الاتحاد السوڤياتي، وكان السوڤيات يقبلون عليها بحفاوة بالغة باعتبارها مدافعة لا تلين عن الديمقراطية والكرامة والمحبة الإنسانيتين. أما مسرحياتها عندنا فمعروفة جيداً ومنها ثلاث ذات طابع اجتماعي ـ نفساني: «ساعة الأطفال» و«سيأتي يوم» و«الفطر». وقد عرضت هذه المسرحيات الثلاث على خشبات أشهر وأفضل المسارح في الاتحاد السوڤياتي. وقد شاركت المؤلفة نفسها في التحضير لمسرحية «الفطر» والتدريبات عليها في أحد مسارح موسكو.

وقد تطرّقت هيلمان في مذكراتها إلى وصف رحلاتها وتجوالها في بلادنا. وتوفّيت في أواخر حزيران (يونيو) ١٩٨٤ عن سبعة وتسعين عاماً.

لقد استحقّت هذه المرأة مجداً عظيماً، فخلّدتها مسرحياتُها وكتُبها في جميع أنحاء العالم.

لقد فعَلَتِ الكثير على الأرض من أجل الحقيقة في الحياة وفي الأدب، أيتها المرأة المحترمة الفاضلة.. ليليان هيلمان، يا هذه التي لن تتكرّر!

صوت بول روبنسون الهادر

إسألوا أي شخص أميركي ناضج:

ـ هل تعرف بول روبسون؟

فينظر إليك بتعجب ويجيب:

ـ وهل هناك من لا يعرفه؟

من الصعب أن تجد أميركياً واحداً شريفاً يتلفظ بغير الكلمات الطيبة بحق هذا الانسان ذي الشهرة العالمية. وفيما عدا ذلك فلن تسمعه إلاّ من عنصريين «معتّقين». إن هذا المغني الزنجي البارز والممثل المسرحي اكتسب احتراماً هائلاً في البلاد خلال فترة الثلاثينات والأربعينات والخمسينات. وكان حتماً أكثر ما يلقى من التقدير والمحبة في أوساط الزنوج، إلاّ أنه اكتسب مجداً أيضاً لدى الشعب الأميركي بأسره.

كان صوته الهادر يجذب باستمرار أعداداً كبيرة من المستمعين، فقاعات الغناء والمسرح حيث كان روبسون يقدم برامجه كانت دائماً مكتظة بالجمهور. وطارت شهرته إلى خارج الولايات المتحدة الأميركية، فكانت العروض تنهال على المغنّي من العديد من الدول الأوروبية لزيارتها.

ولقد بقي كل من وُفّق بمشاهدة روبسون في دور عطيل في لندن

مأخوذاً بصوت الممثل وتأديته للدور وموهبته. كان المشاهد يرى مغربياً أفريقياً حقيقياً على خشبة المسرح، وكأن شكسبير كتب هذا الدور خصيصاً له. وممكن القول إنه لم يتسنَّ لكل من شاهد العرض أن يرى أو يسمع شيئاً مشابهاً من قبل.

بدا وكأنَّ جدران المسرح لن تحتمل عاصفة الغضب التي صبَّها الغيور الهائج على ديدمونة البريئة. ولا تقل قوة الأداء عند روبسون في تصوير الشعور الرفيع بالحب الذي يكنّه عطيل لديدمونة. وقد أبرز هذا الشعور بوضوح، خصوصاً في الدقائق الأخيرة للفصل، قبيل نهايته المأساوية.

ولم يكن روبسون ليفوّت أي فرصة سانحة للقاء مواطنين سوڤيات. لقد كان حريصاً في علاقته ويتصرَّف معنا كما مع الأصدقاء. وأذكر أن اللقاء الذي جرى مع الوفد السوڤياتي في سان فرانسيسكو في مؤتمر تأسيس منظمة الأمم المتحدة، كان في هذه الروحية. لقد زار روبسون الاتحاد السوڤياتي مرات عدّة بوصفه صديقاً، ممثلاً لكل ما يكنّه الشعب الأميركي لنا من مشاعر الصداقة والمحبة في أيام الحرب، والتي بقيت محفوظة بعد انتهائها.

لقد بقي روبسون واحداً من أولئك الذين تصدُّوا لحملات الكذب والافتراء على الاتحاد السوڤياتي. وتعلق بشغف ببلاد السوڤيات وبثقافتها، وخصوصاً المسرح والموسيقى، وكان يلقى دائماً الاستقبال الدافىء والحميم في الاتحاد السوڤياتي. وتعلم إبنه، ويدعى أيضاً پول اللغة الروسية (كنا ندعوه في السفارة «پاڤليك»(*)).

(*) «پاڤليك» ـ تصغير لإسم پاڤل الروسي المرادف لاسم «پول» الإنكليزي ـ **(المحرِّر)**.

أحياناً كان پول روبسون يأتينا إلى السفارة زائراً، ويقوم بهذه الزيارات عادة بصحبة زوجته وپافليك زوجته خلاسية تدعى إسلاندا وتتمتع بثقافة عالية، وقد عاشوا عائلة متحابّة. وكان روبسون يكنّ احتراماً عميقاً لزوجته وتعلقاً كبيراً وشغفاً بها. وليس من باب الصدفة أن يهديها كتابه «هذا هو موقفي».

كان يتخلَّل لقاءاتنا أحاديث من القلب يشترك فيها العاملون في السفارة أيضاً، الذين كانت تحدوهم الرغبة لرؤية روبسون والتحدث إليه. لم يسعَ پول أبداً للتهرب من المواضيع السياسية. لقد كان مؤيداً لنهج روزڤلت فيما يتعلق بالاتحاد السوڤياتي ويدعو للصداقة بين شعبي البلدين. لا يمكنني أن أنسى كيف أن روبسون صدح بكل ما في صوته من قوة بالأغنية الروسية «موطني بلاد واسعة» أثناء إحدى الجلسات التي جمعتنا.

وقد غناها بالروسية. وبدا لي أن زجاج النوافذ يرتعد في مبنى السفارة. جمال صوته الطبيعي وقوته يأخذان بألباب المستمع...

وأكثر ما كان يؤثر في روبسون هو أنه ليس في المجتمع السوڤياتي مكان للترسُّبات القومية والعرقية.

كان يقول:

ـ أما هنا، فانظروا ماذا عندنا في الولايات المتحدة: إما نشاطات الفاشيين أو حركات كو ـ كلوكس ـ كلان.

ولم يكن يخجل من العبارات لوصف ذلك. ويفضح السلطات الأميركية التي لا تتخذ الإجراءات الرادعة لجرائم العنصريين.

كان روبسون يزور السفارة حين تتملّك منه الكآبة.

وأسأله:

ماذا جرى؟

فيحدثني عن المصاعب المختلفة والمشاكل التي تحصل لأصدقائه فقط لأنهم ليسوا بيضاً.

لقد ضربت العنصرية، بكل دناءتها، جذورها عميقاً في الولايات المتحدة الأميركية. وقد أحسّ المغني بهذا من خلال تجربته الخاصة، عندما يبرز احتقار الإنسان بسبب انتمائه العرقي. كان هذا الانسان الرائع يتمتع بشعور فائق، هو المقدرة على مشاركة القريب بمأساته.

وأخذ يتعلم اللغة الروسية بنفسه رويداً رويداً، وقرأت له ذات مرة قصيدة من شعر پوشكين، فطلب مني أن أسجلها على ورقة. وبعد عدة أيام تلاها عليَّ بالروسية ومازحني بقوله:

ـ لم يولد في أميركا بعد من يقدر على ترجمة پوشكين. فپوشكين العظيم يجب أن يُقرأ بالروسية.

لم تسامح الرجعية الأميركية روبسون على أفكاره التقدمية، وقبل كل شيء بسبب موقفه من الاتحاد السوڤياتي. حتى أن السلطات الرسمية كانت تنتقم من روبسون لأنه عارض العداء العنصري الحاقد على السكان الزنوج في الولايات المتحدة، تنتقم منه لأنه مغنٍّ موهوب وممثل كبير يتمتع بشعبية كبيرة حتى خارج البلاد، تنتقم منه لأنه ببساطة پول روبسون.

وسمّموا روبسون بطرائق مختلفة: بتجاهل نجاحاته حيناً والسعي لجرحه في كرامته حيناً آخراً. وكان من جهته يتفهم هذا كله. لكنه

كإنسان قوي العزيمة سار حتى النهاية في الطريق التي اصطفاها منذ صباه.

حُرم روبسون في السنوات الأخيرة من حياته من مغادرة الولايات المتحدة الأميركية إلى أي جهة كانت، إذ لم تكن السلطات تعطيه إذناً بالسفر. وهذه المعاملة العدائية لم تقتصر عليه وحده، بل تعدته إلى أفراد أسرته.

ستبقى ذكرى پول روبسون حية وليس في ذاكرة الشعب الأميركي وحده.

ابتسامة تشارلي شابلن الجذّابة

تركت اللقاءات مع تشارلي شابلن انطباعاً عميقاً في نفسي. حتى ذاك الوقت الذي وصلنا فيه إلى واشنطن كان شابلن قد أضحى ممثلاً سينمائياً خالداً وفريداً. فأفلامه تجذب المتفرجين كالمغناطيس، فما أن يظهر، كل مرة في الإعلانات الرسمية، تشارلي المعروف لدى كل مواطن أميركي بشاربيه الصغيرين والقبّعة الأميركية، حتى يبدأ ازدحام شديد عند شباك التذاكر في دور السينما.

كان لقاؤنا الأول في إحدى المناسبات الخيرية الرسمية أثناء الحرب، وقد رمى الحفل إلى هدف محدّد: فما يجمع خلاله من تبرعات يذهب إلى صندوق مساعدة العسكريين الجرحى من بلدان الحلفاء.

كنت واقفاً أتحدث إلى أحد الديبلوماسيين. وفي هذه الأثناء تقدّم مني شخص أعرفه جيداً عبر إعلانات الأفلام الكبيرة، وعرّف عن نفسه ببساطة، مُظهراً ابتسامة أخّاذة:

ـ هالّو، سعادة السفير. أنا تشارلي شابلن.

كانت البسمة تليق به، وهي بالمناسبة قليلاً ما كانت تفارقه، ويبدو أنه كان من المفروض ألاّ يبرهن بها بأنه تشارلي شابلن. كان يظهر شارلي «المرح» فقط في تلك الأثناء، وأصبح «حزيناً» على الشاشة في أفلامه التالية.

قلت له بدوري، بعد أن قدّمت نفسي:

ـ أتعلم مستر شابلن أنني لست وحدي الذي أعرفك جيداً، بل هناك أيضاً جميع من يقصد السينما في بلادي ويفهم قيمتها. وقد عُرض عندنا في الاتحاد السوڤياتي فيلما «أضواء المدينة» و«الأزمنة الحديثة»... وهكذا فإن المواطنين السوڤيات، خصوصاً سكان المدن، يعرفون أفلامك الكوميدية ويُمكن أن تسمع منهم أجمل عبارات التقدير والإطراء.

أجاب شابلن:

ـ شكراً على الكلمات الطيبة. كثيراً ما سمعت أن المشاهدين في بلدكم يكنّون الودّ لأفلامي ولي شخصياً.

أضفت:

ـ لقد كبرت مشاعر العطف نحوك كإنسان أيضاً، عندما علم المواطنون السوڤيات بمواقفك وتصريحاتك المناهضة للفاشية والمؤيدة للاتحاد السوڤياتي.

تطرقنا أثناء الحديث إلى موضوع السينما السوڤياتية، فقال شابلن:

ـ أعترف لك سيد غروميكو بحقيقة معرفتي القليلة بالأفلام السوڤياتية، غير أن ما رأيته، يسمح لي بالقول إن الاتجاه العام في السينما

السوڤياتية إيجابي. وليس في أفلامكم أي شيء عفن أو سافل، وهذا بحد ذاته يعني الكثير.

لقد سرّني طبعا سماع كلمات شابلن هذه، وكان يقف إلى جانبي الديبلوماسي السوڤياتي ف. إ. بازيكين الذي تولد عنده الانطباع نفسه.

وافترقنا مصافحين الممثل الشهير بحرارة وهو يقول مودعاً:

ـ أتمنى لكم النصر.

ثم أتيحت لي فرصة التحدث إلى شابلن مرة ثانية. كان ذلك في لندن اثناء حفل استقبال ديبلوماسي. التقينا هناك كصديقين قديمين. حصل اللقاء بعد أن ترك شابلن الولايات المتحدة نهائياً، لكنه لم يكن قد استقر بعد في سويسرا نهائياً.

لقد سبقت رحيله من الولايات المتحدة حملة واسعة من المطاردة والافتراءات ضده كإنسان وكممثل، ولم تبقَ تهمة إلاّ وألصقوها به! وتعجّب الكثيرون في البلدان الغربية: ما هذا؟ ممثل عظيم، ثم فجأة يصبح غير مقبول من جانب السلطات الأميركية؟ لماذا يفترون عليه في الولايات المتحدة تحديداً؟ وتوجهت إليه بسؤال «خبيث».

ـ من أنت الآن؟ أميركي أم بريطاني؟

أجابني شابلن بما عرف عنه من حب الدعابة:

ـ ربّما الأصحّ أنني لست أميركياً.

ثم قال بجدية صارمة:

ـ لقد بلغت حدّ القرف الآن، كون أخصامي يرمون بأوساخهم على رأسي منذ عدة أعوام، ولا أستطيع ايجاد تفسير لذلك.

تنحّينا جانباً عن المجموعة الأساسية من الحضور في الحفل. وتابع شابلن قائلاً:

- احكموا بأنفسكم. يغمزون من قناتي ويشتمونني لأني تزوجت أكثر من مرة. إذا كان هذا يُعدّ جريمة فيجب ساعتئذ إدراج ملايين الأميركيين في خانة المجرمين. لم أوفق في هذا المجال، لكن هل يجرؤ أي شخص على اتهامي بأني تصرفت تصرفاً غير إنساني بحق زوجتيّ الأولى والثانية اللتين طلّقتهما؟ كلا، لم يحصل هذا. لقد عاقبتني الحياة ذاتها، وهنا طمع الحاقدون في عقابي أيضاً. هل تعي ما أقول، سعادة السفير؟

بدا في حديثه معي وكأنه يطلب المؤاساة.

وروى لي بقلق:

- يلاحقونني لأني أحمل قناعات معينة في فنّي لا يشاطرونني الرأي فيها. لهذا السبب بالذات قررت مغادرة الولايات المتحدة الأميركية. وهنا ادّعوا عليّ بتهمة أخرى. وإذا كانت التهمة الأولى تحمل طابعاً أخلاقياً بحتا، فالثانية حملت طابعا مدنياً مادياً. لقد اتهموني بالتهرب من دفع الضرائب المتوجبة عليّ كاملة من المداخيل التي حصلت عليها في الولايات المتحدة. عندها أدركت أن إمكانيات ردّ هذه الحملة المغرضة أخذت تضعف يوماً بعد يوم، فأنا بالطبع لم أخالف أيّة قوانين، لكن القوانين في الولايات المتحدة مركبة بشكل يسمح للسلطات «بإغراق» أي شخص بريء. من أجل هذه الأسباب وجدتني مضطراً أن أقول للولايات المتحدة: «وداعا!».

نظر إليّ شابلن مليا. ثم سأل نفسه فجأة:

- لماذا أحدثك بكل هذه الأمور؟

وأجاب بنفسه على سؤاله دون تمهّل:

- أولاً، لأني احترم نزاهة بلدكم وصراحته، مع أني لست شيوعياً ثانياً، لأني مؤمن أنكم لن تسمحوا لنفسكم باستغلال ما سمعتموه لإلحاق الضرر بي.

كنت على علم طبعاً أن بعض الأوساط الأميركية تعتبر شابلن يسارياً راديكالياً منذ مدة طويلة بل حتى شيوعياً، لذا فقد أجبته بصدق:

- لا أخفي عليكم أني متأثر بثقتكم بي، ثقة فنان عظيم، وأريد تأكيد صواب كلماتكم. فنحن، المواطنون السوفيات، ننطلق من مُثلنا الأخلاقية التي تمتاز عن تلك التي يؤمن بها حائكو الدسائس لتشارلي شابلن في الجانب الآخر من المحيط.

قام أحد الصحافيين الإنكليز بالتقاط صورة لنا حين كنا نتحادث في الحفل. بقيت هذه الصورة لتذكرني بالممثل السينمائي الرائع والرجل الذكي والجذّاب.

كلمات إدوارد روبنسون الدامغة

طارت شهرة المخرجين السينمائيين الكبار السابقين منهم والذين ما زالوا يعملون في آفاق الولايات المتحدة وفي مختلف أرجاء العالم. فقد مثّل هؤلاء، وما زالوا، شريحة من الإنتليجنسيا احتلت مكاناً معلوماً في المجتمع.

فالممثلون، حتى الأكثر موهبة منهم، طبعاً لا يحددون التوجه الاجتماعي لصناعة السينما الأميركية، فـ«المستر دولار» هو الذي يوجهها في نهاية الأمر.

وثمة ممثلون وممثلون آخرون! صحيح القول، للأسف، إن الغالبية العظمى منهم والتي تُعد بالآلاف، تنقسم إلى قسمين: ممثلون يخدمون طوعاً وعن وعي أولئك الذين يؤكدون توجهاً فنياً وفكرياً محدداً في السينما الأميركية، وقسم آخر غارق في الجانب المادي ويدعو إلى اللافكرية.

غير أن السينما عرفت ممثلين لهم طابعهم ووجههم الخاص في الفن السينمائي، كما كانت لهم قناعاتهم الخاصة. ويدخل في عداد هؤلاء أناس أدركوا أن واجبهم الوطني الإنساني يتلخص في التأثير على عقول الناس، وأحاسيسهم ويربي في الإنسان الشهامة والعدالة واحترام الآخرين. ولم يتغيّر هذا الوضع حتى في الأيام الراهنة

لقد ترك الحديث، مع فنان كبير من عالم ممثلي السينما، في نفسي أثراً عميقاً. عنيت إدوارد روبنسون، الذي ذاع صيته في أرجاء كثيرة خارج الولايات المتحدة الأميركية.

كنا جالسين في مطعم بقرب السفارة السوڤياتية في واشنطن حيث دعوت أنا ومستشار السفارة ف.إ. بازيكين، الممثل السينمائي الشهير إلى الغداء. أما هو فقد أتى ليلتقي السفير السوڤياتي..

كانت جلسة صريحة نابعة من القلب، لذا سأحاول إعادة رسم صورتها بقدر ما تسمح لي الذاكرة. وتكمن أهميتها أيضاً في أن روبنسون أعطى بحسب رأيي، وصفاً دقيقاً لمجريات الأمور في السينما الأميركية.

وروى:

ـ لقد استولت عصابة من أصحاب الملايين مجردة من الضمير على

مقدّرات صناعة السينما الأميركية. فالمحرّك الأساسي لهذه الصناعة بأسرها يبقى الربح، طبعاً. وعلى الملايين أن تدرَّ ملايين أخرى، أما كيفية التحصيل فهذا أمر ثانوي. وتصلح كافة الوسائل والسبل شرط أن يبقى قانون جدول الضرب فاعلاً، أي بمعنى آخر إذا تضاعف رأس ا لمال المصروف على الفيلم عدة مرات بعد عرضه، يكون قد حقّق الهدف الذي أنتج لأجله. إن أهل هذه الصناعة بعيدون كل البعد عن مفاهيم الأخلاق الإنسانية والعدالة الإنسانية.

وتابع روبنسون:

ـ أنا لست ضليعاً حقاً في أوالية الاقتصاد والمال المعقّدة ويصعب عليّ إعطاء تقدير صحيح لمعظم ما يجري، لكني ألاحظ على امتداد سنوات عديدة هبوط الأخلاق السريع، التي تنشرها الشاشة بشكل منظم. وهذا ما يحدث خلال حياتي الإبداعية كلها.

بدا في حديثه مضطرباً بعض الشيء فكل ما يرويه بدا ناضجاً في داخله مما سبّب له الألم:

أعلن الفنان قائلاً:

ـ واجهتني أكثر من مرّة مشكلة قبول الدور المقترح عليّ أم رفضه. لا أجزم أني نجحت في كل الحالات في الإفلات من الشباك المنصوبة، فأحياناً كنت أقع فيها، وبالنتيجة لم أكن دائماً راضياً عن أدائي للدور. طبعاً ليس المقصود هنا المغزى الفنّي الضيّق، بل بمعنى التوجه الذي تدعو إليه الحياة التي أعيشها من خلال دوري على الشاشة، بمعنى المثال الذي أصنعه في الفيلم المعيّن. إلاّ أني لم أرضخ بسهولة في معظم الحالات للشروط التي حاول أرباب هوليوود إرغامي على قبولها.

ثم قال لنا بصدق وثقة :

ـ أنتم السوڤيات ، بل أسمح لنفسي بالقول الأصدقاء السوڤيات تذكرون ربّما بعض اللقطات من فيلم « الذئب البحري » المأخوذ عن رواية جاك لندن . أنا راضٍ عن كيفية أدائي لدور البطولة في هذا الفيلم ، لكن ذلك كلّفني صراعاً ليس سهلاً مع بعضهم من أجل التخفيف قدر الإمكان من إبراز حدّة أو درجة الطبيعية والسعي إلى إدخال الألوان الإنسانية إلى الدور .

وقوّمنا بدورنا ، بازيكين وأنا ، عالياً أداء روبنسون .

ثم توجه إلينا بسؤال :

ـ كيف ترون كتاب جاك لندن ؟ وهل هو معروف بشكل واسع لدى القرّاء السوڤيات ؟

أجبته قائلاً :

ـ قبل الحرب وأثناءها يقرأ المواطنون السوڤيات جاك لندن ، بما في ذلك مؤلفه هذا . وبشكل عام ، ربّما كان جاك لندن الأشهر بين الكتاب الأميركيين في الاتحاد السوڤياتي ، هذا بالإضافة إلى مارك توين وفينيمور كوبر وجون ريد .

وشكا روبنسون :

ـ تغزو الشاشة الأميركية أكثر فأكثر موجات من محاولات ابتذال الطبيعة والصفاقة وعبادة الدعارة ، ولكن المحزن فعلاً أن المشاهد يُربّى على هذه الروح التي بدأت تستهويه شيئاً فشيئاً . أما المنتجون السينمائيون فيستغلّون هذا الواقع ويوسّعون إنتاج مثل هذه البضاعة . ومن الصعب

جداً النضال ضد هذا الواقع . ومَن سيخوض هذا الصراع ؟ فالقوى بعيدة جداً عن التكافؤ . النتيجة تصبح سبباً ، والسبب يولّد من جديد نتائج غير مرغوبة تؤثّر بدورها سلباً على أخلاق الناس .

سألت روبنسون :

ـ هل يوجد هناك تجمع أو مجموعة من الممثلين الموهوبين الكبار ، وربّما المخرجين أيضاً ، الذين يسعون إلى التأثير في تطوّر السينما بالاتجاه الإيجابي ؟

أجاب محدثنا :

ـ كلاّ ، ليس هناك تجمعات أو جمعيات بهذا المعنى ، ذلك أنهم محرومون من فرصة العيش في الولايات المتحدة . فالممثلون الذين يحاولون سلوك هذه الطريق سيجدون أنفسهم في اليوم التالي دون قوت أو مأوى . احكموا بأنفسكم ماذا ستكون عليه النتيجة من هذا التحرّك .

بدا واضحاً أن كراهية شديدة قد احتقنت داخل محدثنا ضد أولئك الذين يقبضون في أيديهم على مصائر الممثلين السينمائيين .

وأنهى الممثل الشهير حديثه بالقول :

ـ ترون أي جوٍّ يعمل فيه هذا الجيش الكبير من الممثلين السينمائيين . إنهم يحملون في نشاطهم الإبداعي إلى المواطن الأميركي يومياً قواعد السلوك البعيدة جداً عن كل ما هو طيّب وإنساني وملازم لكل فرد ، إذا لم يكن هذا الفرد فاسد الأخلاق ، وذلك بحكم الظروف التي يعيشها فيها .

لقد انجلى لدينا بعد هذا اللقاء السبب الذي دفع روبنسون للاشتراك في نشاط المجلس الوطني للصداقة الأميركية . السوڤياتية ، الذي كان

يرأسه في ذاك الحين كورليس لامونت، الشخصية الاجتماعية الأميركية البارزة.

إن موقف هذا الممثل السينمائي الأميركي البارز يتجانس مع تلك الأفكار التي صرّح بها تشارلي شابلن في الحديث الذي دار بيننا.

الاستقطاب في صفوف المهاجرين الروس

جعلني عملي في السفارة ألتقي أصنافاً من البشر مختلفة، سواء من حيث المنشأ الاجتماعي أو القناعات أو المهنة. وانحفرت في ذاكرتي اللقاءات مع الأميركيين ذوي الأصول الروسية، وحملتهم الأقدار في حينه إلى أميركا. أضف إلى ذلك أن نبأ هجوم ألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوڤياتي انتشر كشحنة كهربائية في مختلف أنحاء العالم، وأحدث استقطاباً حاداً في أوساط المهاجرين الروس.

ومن أولئك من رفض منذ البداية الاعترافَ بالسلطة السوڤياتية، لا بل سلكوا طريق مقارعتها، وقد ظلّت أغلبيتهم على مواقفها السابقة أو كانت، في أحسن الأحوال تنتظر ما ستسفر عنه هذه الحرب؟ أما ذلك الجزء من المهاجرين الذين غادروا بلادنا دون أن يعوا كُنْه الموضوع تحت تأثير قوة الاستمرار والبقاء أكثر من منطق القناعات، أو أنهم سافروا لاعتبارات مادية (الإثراء)، فقد انقسم على نفسه. وانتقل الكثيرون من ممثليهم إلى مواقع وطنية حقّة وأخذوا يدعمون سياسة الاتحاد السوڤياتي، بينما رغب كثرٌ بالعودة إلى الوطن بعد نهاية الحرب. وعادوا فعلاً عندما أتيحت لهم هذه الفرصة.

لم يفوّت دافيد بورليوك أي حفل استقبال في السفارة أثناء الحرب. وأذكر ظهوره في السفارة لأول مرّة: لقد اقترب مني رجل مربوع القامة،

يجلل رأسه المشيب، ماداً يده للمصافحة. كان في حركته من القوّة ما يجعلك تعتقد أنك أمام رافع أثقال. لقد صافحني بحرارة ومن كل قلبه.

كان بورليوك من عداد أصدقاء سرغي يسينين(*) المقرّبين وشركائه في الرأي، كما كنت مطّلعاً على الصداقة الإبداعية التي ربطت بورليوك بفلاديمير ماياكوڤسكي. فقد نمت جذور هذه الصداقة في الأرض الروسية. كان بورليوك يتمتع بسمعة كبيرة في أوساط الشعراء، حتى أن ماياكوڤسكي قال عنه إنه أستاذه.

ولم تنقطع العلاقة الإبداعية والانسانية البحتة بين هذين الشاعرين حتى بعد ثورة أكتوبر. وقد حلّ ماياكوڤسكي ضيفاً على عائلة بورليوك في نيويورك، عندما قام برحلته الشهيرة إلى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٢٧.

وأدرك بورليوك، كونه وطنياً صادقاً في علاقته بوطنه الأم ـ روسيا، القيمة الكبيرة لمراسلاته مع ماياكوڤسكي وللمواد الأخرى التي يحفظها عن حياة الشاعر العظيم. لذا فقد قدم كمية هائلة من الرسائل والوثائق الأخرى لمكتبة لينين الوطنية الحكومية بعد الحرب، وذلك هديةً للشعب السوڤياتي.

لقد قذفت إحدى موجات الهجرة بورليوك إلى الشاطىء الأميركي، ولم يقدر الشاعر على تفسير سبب ذلك. لكن هل لاقى بورليوك الرضى في الولايات المتحدة؟

اليوم. وفي الثمانينات من هذا القرن يملك المواطن الأميركي المتوسط

(*) شاعر روسي معاصر اشتهر في شعره بنوع الغزل ـ (المحرّر).

تصوراً مشوّشاً عن الثقافة الروسية وتاريخها. ويشذّ عن هذه القاعدة جزء من المثقفين، متحمّسٌ ومنقّبٌ يعرف المؤلّفات الخالدة لـ: ل. ن. تولستوي، إ. س. تورغينييف، ف. م. دوستويفسكي، أ. ب. تشيخوف. وتحظى المؤلفات الخالدة لكل من: أ. س. پوشكين و م. يو. ليرمونتوف و ن. ق. غوغول بشهرة أقل في الولايات المتحدة. أمّا من عداد الكتّاب والشعراء السوڤيات فيعرف الجمهور الأميركي الأسماء المشهورة التالية: أ. م. غوركي، ڤ. ڤ. ماياكوڤسكي، م. أ. شولوخوف، أ. ن. تولستوي، ك. أ. فيدين، ل. م. ليونوف، وغيرهم. وممّا يجدر ذكره أن كتب الأدباء السوڤيات قليلاً ما تُنشر في الولايات المتحدة الأميركية.

كما يملك الأميركيون العاديون تصوّراً ضعيفاً جداً عن التصويريين والمستقبليين وممثلي الإتجاهات الأدبية المختلفة الأخرى، التي برزت في بلادنا في الفترة الأولى التي تلت الثورة. هذا في الوقت الذي لم تذوِ فيه شهرة بعضهم، بل على العكس من ذلك، فقد نمت الآن عندنا وفي الخارج.

ويدخل في عداد هؤلاء سرغي يسينين. وصداقة داڤيد بورليوك معه ساهمت بقسط كبير في اتساع شُهرة الأخير الذي أصبح الآن معروفاً لدى القارىء السوڤياتي.

لم يشتهر بورليوك في الولايات المتحدة الأميركية كشاعر، حتى أنه لم يُعح للأميركيين أن يتعرفوا عليه من هذه الزاوية. وبالمقابل، لاقى اتجاه آخر في إبداعه اعترافاً معيناً. فقد كشف عن موهبة لا تُضاهى في مجال الرسم، بصفته هاوياً في البداية، وتتوج نجاحه في فن الپورتريه بشكل خاص.

عندما تعرفت إلى هذا الإنسان الرائع كان على أبواب الاحتفال بعام ميلاده الستّين. لم يتبقّ لديه شيء من تلك الأيام حين كان وبعض أصدقاء يسينين يتبادلون المزاح والمداعبات. لقد تكوّنت عند بورليوك مواقف سلبية واضحة من نمط الحياة والنظام الاجتماعي الأميركي.

وتكوّن لدى الرفاق السوڤيات الذين التقوا به في الولايات المتحدة انطباع ثابت حوله. وهو أن العاصفة الاجتماعية رمت بهذا الإنسان فوق أرض غريبة بالنسبة إليه. يتضح لي من هنا، لماذا اغرورقت عينا بورليوك حين فاتحني بالحديث عن موسكو.

واعترف بصراحة:

- ليس من السهل عليّ أن أتذكّرها.

انخرط بورليوك بهمّة في النشاط التعبئة الرأي العام الأميركي بهدف مدّ يد العون للشعب السوڤياتي فى نضاله ضد المعتدين الفاشيين. وأصبح أحد المشاركين الأساسيين الفاعلين في «لجنة مساعدة الروس في الحرب»، المنظمة التي كان أعضاؤها يجمعون الأموال والألبسة والأحذية والأدوية ويرسلونها إلى الاتحاد السوڤياتي. وأفضل ما قدّمه بورليوك لوطنه الأم البعيد هو كتاباته في الصحافة التقدمية، خصوصاً في صحيفة «الصوت الروسي» («روسكي غولوس»)، هذه الكتابات المفعمة بالحب والتعاطف مع الاتحاد السوڤياتي.

تحقق حلم بورليوك بزيارته الاتحاد السوڤياتي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد حلّ ضيفاً على وزارة الثقافة السوڤياتية لعدّة أشهر عام ١٩٥٥. وقام بجولة سياحية في القرم، حيث رسَم في أثنائها پورتريه للمثل السوڤياتي الشهير ن. تشيركاسوف، وأهدى اللوحة إلى متحف

ڤولغوغراد للرسم، وما زالت اللوحة تحتل مكانها في إحدى صالاته حتى يومنا هذا.

وأتت رحلته الثانية إلى الاتحاد السوڤياتي بعد انقضاء عشر سنوات على الأولى. في العام ١٩٦٥. وصل مع زوجته ونزل حوالى الأسبوعين في فندق «موسكڤا». وطلب بورليوك أن يطلّ جناحه على الساحة الحمراء والكرملين ليتمكّن من رسمها. وقد تحققت رغبته.

كلاّ. لا يجوز للأجيال اللاحقة أن تنسى بورليوك واضع أسس المدرسة المستقبلية الروسية في الأدب، الشاعر الموهوب، الفنان المميَّز، الوطني المتحمّس لبلادنا.

مفخرة الثقافة الروسية الموسيقية

من من المواطنين السوڤيات لا يطمح إلى مصافحة إنسانٍ مثل الموسيقار سرغي ڤاسيليڤيتش رخمانينوف؟ إبداع رخمانينوف حاضرٌ كصفحة مجيدة مشرقة في الثقافة الموسيقية العالمية. حمل القدر هذا الإنسان أيضا إلى أميركا البعيدة. لقد التقيت به مرّة واحدةً لا غير، فقد تقدّم رخمانينوف أثناء الحرب، إلى القنصلية العامة السوڤياتية في نيويورك بطلب السماح له بالعودة إلى الوطن. أتى إلينا ليبحث مع ممثلي الاتحاد السوڤياتي التفاصيل المتعلّقة بهذا القرار. وصادفت زيارته إلى القنصلية في نيويورك مع وصولي إلى هذه المدينة لأمور من السفارة في واشنطن.

عندما دخلت مبنى القنصلية كان رخمانينوف يهمّ بمغادرتها. التقينا في إحدى الغرف فعرفته فوراً لأن رسمه (پورتريه) كان مشهوراً جداً في حياته.

قلت له:

- إنّي مسرور لقرارك بالعودة إلى الوطن، فأنت موسيقار رائد، وسيؤيد شعبنا بحرارة هذا القرار.

وتوجه إليّ بطلب:

- سعادة السفير حاول من فضلك الإسراع بالمعاملات.

فوعدته:

- سرغي ڤاسيليفيتش، سأفعل كلّ ما يتعلق بي في هذا المجال.

وقال رخمانينوف ملاحظاً:

- إني أتتبّع بإعجاب بالغ المأثرة البليغة للجيش الأحمر والشعب السوڤياتي في نضالها ضد ألمانيا الهتلرية.

ثم أضاف:

- ينحني الأميركيون أمام قوة المواطنين السوڤيات وإيمانهم. وقد لاحظت ذلك بنفسي أكثر من مرّة.

شكرته على الكلمات الدافئة الموجّهة للاتحاد السوڤياتي، وطننا المشترك. كما شكرته على الأموال التي تردُ من الحفلات التي يحييها وتذهب لشراء الأدوية لعلاج الجرحى من مقاتلي الجيش الأحمر.

وقلت له:

- روت لي زوجتي كيف تتمّ الحفلات التي تحيونها، فقد حضرتها ورأت الحماس الذي يستقبلكم به الجمهور كعازف وكموسيقار. وعبّرت سفارتنا في واشنطن والقنصلية العامة في نيويورك عن شكرها لكم أكثر من مرة على هذه الحفلات.

تراءى لي أن شكل الموسيقار الخارجي لا يوحي بالعافية، وجهه باهت وجسمه تميّز بنحول مَرَضي. لم تكن لديّ رغبة بالسؤال عن صحته والتطرق إلى هذا الموضوع أبداً، خصوصاً أنه من الممكن توقع اجابته، وهو بدوره لم يقل شيئاً عن هذا الموضوع.

وقد روى سكرتير القنصلية پاڤل إيڤانوڤيتش فيدوسيموف الذي رافقه إلى شقته، فيما بعد، أن الموسيقار بدأ بنفسه الحديث عن صحته عندما أصبحا في السيّارة.

وقال باسطاً يديه:

ـ بإمكانها الضرب جيداً على مفاتيح البيانو، لكن الحياة ستغادرها قريباً.

نطق سرغي ڤاسيليڤيتش بهذه الكلمات بينما شفتاه ترتجف. وحاول فيدوسيموف أن يهدّئ من اضطرابه.

لم تتكشف موهبة رخمانينوف بصفته موسيقاراً، في كامل ذخرها في المهجر، وخصوصاً في الولايات المتحدة الأميركية.

وضع رخمانينوف أفضل مؤلفات الأوپرا في سنيّ شبابه، فقد كتب أوپرا «أليكو» حين كان في التاسعة عشرة من عمره. وألّف مقطوعات رائعة ضربت شهرتها الآفاق في بلادنا والعالم أجمع. وتؤثّر في محبّي الموسيقى اليوم كما كان تأثيرها في بداية القرن وأواسطه.

غير أن الجمهور في أميركا والدول الغربية الأخرى كان يقدر في رخانينوف العازف، بينما احتلت موهبته كمؤلف المرتبة الثانية. وهذا ما كان يحزّ في نفسه كثيراً.

يمكن وصف رخمانينوف كالتالي: تفجرت موهبته فوق أرض الأجداد بكل ما فيها من غنى في الألوان، وبقي روسياً حقاً في تاريخ ثقافتنا الموسيقية.

لم نفلح في حل مسألة عودة الموسيقار العظيم من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوڤياتي بالسرعة المطلوبة، للأسف. كان ذلك في العام ١٩٤٣، وبلادنا تخوض ملحمة طاحنة مع الأعداء. وفي ذلك العام بالذات وافت المنيّة سرغي ڤاسيليڤيتش. لقد كانت وفاته خسارة كبيرة للثقافة الروسية. وسيبقى الموسيقار والعازف العظيم فخراً لنا. لقد كان وطنياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ذلك أن سرغي ڤاسيليڤيتش رخمانينوف قرَّر العودة إلى وطنه الذي هاجر منه في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧، غير عابىء بالمرض أو بصعوبات الحرب.

من المعروف جيداً أنه في السنوات الأولى لقيام الجمهورية السوڤياتية وفي سنوات الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي والخراب الاقتصادي، لم يكن من السهل تأمين متطلبات حياة رجال الثقافة: كان هناك نقص في النواحي المادية كالأبنية والشقق والفحم والحطب والمواد التموينية وغيرها الكثير. في ضوء ذلك، وانطلاقاً من اعتبارات إنسانية بحتة وافقت أجهزة السلطة السوڤياتية على طلبات بعض الموسيقيين والممثلين والكتّاب والرسامين بالسفر المؤقت إلى الخارج. وكان أ.ف. لوناتشارسكي يعالج هذه الأمور بتكليف من ف.إ. لينين.

وكان سرغي كوسيڤيتسكي المايسترو الشهير في ذلك الحين واحداً من رجالات الثقافة الذين أعربوا عن رغبتهم بالسفر إلى الولايات المتحدة. وقد برز أثناء إقامته في الولايات المتحدة بصفته موسيقياً موهوباً،

وأصبح المايسترو الأول لواحدة من أشهر فرق الأوركسترا في الولايات المتحدة، أوركسترا بوسطن السيمفونية. تقف هذه الأوركسترا عن جدارة وحق في مصاف أكثر الفرق شهرة، مثل: أوركسترا نيويورك الفيلهارمونية وفرق الأوركسترا السيمفونية في فيلادلفيا ولوس أنجلوس وشيكاغو. وتتميز الأوركسترا بتقديم البرامج (ريبرتوار) الكلاسيكية، وكثيراً ما كانت تقدم مؤلفات الموسيقيين الروس.

لقد حضرت وزوجتي إحدى حفلات هذه الأوركسترا السيمفونية الذائعة الصيت في بوسطن، التي عزفت للمرّة الأولى في الولايات المتحدة الأميركية السيمفونية السابعة لديمتري تشوستاكوفيتش. وكان ذلك بدعوة من سرج كوسيڤيتسكي (أطلقوا إسم سرج على سرغي في الولايات المتحدة). وقد وقف كوسيڤيتسكي بنفسه وراء منصة المايسترو لا بوصفه موسيقياً فحسب، وهذا ما أبرز الحدث أكثر. بالإمكان القول إن كوسيڤيتسكي في بوسطن قد التحم مع الأوركسترا في قيادته لها. وأصبحت الصورة على الشكل التالي: المايسترو مواطننا من حيث أصله، الموسيقيون أميركيون، ريبرتوار الأوركسترا مفعم بالموسيقى الروسية والسوڤياتية.

«التحوّل من سافل إلى عبقري»

تردّد إسم البروفيسور سرغي ألكسندروڤيتش ڤورونوف أكثر من مرّة في الصحافة السوڤياتية في الثلاثينات من هذا القرن. لقد حملت موجة الهجرة هذا العالم البيولوجي الكبير إلى الخارج وهو طفل، مع والديه. عمل كبيراً للجراحين في مستشفى بباريس، وذلك بعد حصوله على شهادة الطب في فرنسا.

انشغل ڤورونوف في فترة لاحقة بعلم الشيخوخة (هرم الجسم)، وبشكل خاص بمسألة ديمومة الشباب. وأخذ هذا الحقل العلمي المثير يجذب إليه انتباه الأوساط العلمية، ويعود الفضل في بعض ذلك إلى تأثير أبحاثه. لقد نجح ڤورونوف في الإفلات إبان الحرب من الفاشيين في فرنسا ووصل إلى الولايات المتحدة، حيث تابع هناك أعمال العلمية.

أقام ڤورونوف علاقات صداقة جيدة مع السفارة السوڤياتية، وبدا أنّ حياته في أميركا ليست يسيرة ونشاطه العلمي لم يلقَ هناك الانتشار المرجو. فقد كانت أبحاثه العلمية تتقدم ببطء ملحوظ على ما يبدو. ومن أجل هذا كان متحفظاً في الحديث عن أعماله.

وقد التقيت به وتحادثت معه مرّات عدة. كان يحكي بشكل ممتع عن الوضع في أوساط المهاجرين ويشاطرني انطباعاته حول مستوى الطب في الولايات المتحدة الأميركية. وينتعش خصوصاً في الأحاديث عن فكرة إطالة عمر الإنسان.

كان يقول إنه من الصعب إيجاد موضوع أكثر متعة للحديث. ويبدأ الكلام من جديد على نظرياته لإعادة الشباب إلى الجسم.

وأسأله:

ألا يمكنكم أن تأتوا بالأمثلة على نتائج أبحاثكم.

ويورد الأمثلة، لكن أقولها بصراحة إنها لم تكن مقنعة ويعود السبب في ذلك إلى أنها أولاً لم تكن كثيرة أغلب الظن، ولأن الحديث ثانياً كان يدور عن ظاهرات غير ملحوظة في الحياة. فمصائر الناس الذين خضعوا لعمليات البروفسور ونتائج التدخل الطبي من قبله لم تحظَ بشهرة في أوساط الجمهور العريض.

سألته ذات مرة:

ـ كيف بدأتم دراسة مسألة علم الشيخوخة؟

فابتسم بدهاء:

ـ عن طريق الصدفة البحتة.

وروى قصة ممتعة جداً، بدأها قائلاً:

ـ كنت ذات مرة في مصر قبل سنوات من بدء هذه الحرب وزرت منطقة الأهرامات قرب القاهرة. كان هناك مطعم قريب من هرم أبي الهول الشهير، زبائنه بشكل أساسي من السوّاح. وحين دخلته لفت انتباهي فوراً شكل أحد الخدم الغريب. إذا ما حكمنا على هذا النادل من خلال مشيته وحركاته السريعة والدقيقة، فيمكن القول إنه في سن الشباب دون أدنى شك في ذلك. لكن شكله الخارجي، خصوصاً الجلد المترهّل على الوجه واليدين يوقع المرء في الحيرة: فقد طالعني وجه رجل كهل. قصدت المكان مرة أخرى، وكم كانت دهشتي كبيرة حين انتبهت إلى ثلاثة نادلين آخرين يشبهون في شكلهم الخارجي ذاك الذي رأيته في المرة الأولى. هل القصة مثيرة؟

قالها محدثي ونظر إلي منتظراً ردّ فعلي، فقلت دون أن أخفي دهشتي:

ـ إنها مثيرة حقاً.

منحه هذا قوة، كما بدا لي فتابع حديثه:

ـ وأخذت أجمع المعلومات عن هؤلاء الأشخاص. تبين أنه أجريت لهم عمليات وهم في سن الصغر أو المراهقة. وقد شوّهت هذه العمليات الجراحية رجولتهم. وتوصلت في بحثي إلى أن هذا التقليد موروث عن الفراعنة في مصر القديمة. والقصر الملكي يتابع هذا «التقليد» ـ مع

الاعتذار عن استعمال هذه الكلمة ـ في مصر الحديثة. وتوقفت هنا في تفكيري عند مسألة إزالة هذا التشوه. أليس من الأفضل مساعدة هؤلاء الأشخاص، فبدل تسريع عملية هرم البشرة والإنسان بذاته يصار إلى تأخير هذه العملية البيولوجية، بل حتى إيقافها؟ وقطعت على نفسي عهداً بعد الذي رأيته أن أنذر حياتي لحلّ هذه المسألة. وكل ما قمت به فيما بعد في المجال العلمي سواء في أوروبا، في فرنسا بالتحديد، ومن ثمّ في الولايات المتحدة الأميركية، محكوم بحل هذه المسألة تحديداً.

ثم أرسل لي س.أ. ڤورونوف. على عنوان السفارة كتابه للذكرى. وقد طبع الكتاب في الولايات المتحدة باللغة الإنكليزية. وهو ما يزال موجودا في مكتبتي الخاصة حتى اليوم ويحمل عنواناً ملفتاً للنظر: «التحوّل من سافل إلى عبقري».

لا أجرؤ على الحكم على فضائل الكتاب العلمية، لكنه يُقرأ كرواية تحبس الأنفاس. والأفكار التي يحملها غير محسومة من وجهة النظر العلمية، إلا أنها تشغل القارىء وتجذبه إليها من الناحية الإنسانية.

كان سرغي ألكسندروڤيتش يُدعى إلى حفلات الاستقبال في السفارة. ويأتي دائما بصحبة زوجته الفرنسية. كان طويل القامة يترك انطباعاً وكأنه رافع أثقال. يبدو للوهلة الأولى أنه فتيّ، لكن رأسه المكلّل بالبياض يكشف عمره الحقيقي. أما زوجته فكانت شقراء تُجاريه في الطول، أما في السن فهي أصغر منه، ربما بحوالى الضعف.

كان ڤورونوف متأدباً في سلوكه وتصرفاته، يعتبر نفسه بعيداً عن السياسة. غير أنه يمارس في أوساط المغتربين عملاً سياسياً حقاً. فقد كان

يروي الحقيقة عن نجاحات بلادنا في فترة ما قبل الحرب وعلى الجبهات، ويجمع الأموال لمساعدة الشعب السوڤياتي ولجرحى الجيش الأحمر.

كان سلوكه يدل على أنه وطني مخلص للأرض الروسية التي أنجبته. لقد عاش في اعوام الحرب بعيداً عن وطنه حاملاً همومه ومساهماً في عونه على المحنة. وكنا في السفارة من الشاكرين له على خدماته.

إنّ ڤورونوف من صفوف أولئك المغتربين الذين يحملون في صدورهم قلوباً تخفق بحب الوطن، أولئك الذين انسلخوا عن وطنهم لأسباب عديدة، غالباً غير متصلة بالسياسة، وبقيت أفكار شعبهم ومشاعره تخالجهم في حياتهم. وأكثر ما تبرز هذه الأحاسيس في المؤلفات الأدبية والرسائل التي كان يرسلها من الأغتراب أ. ن. تولستوي، أ. إي. كوپرين، إ. أ. بونين وغيرهم من مشاهير الكتّاب.

الأكاديمي الأسبق والجنرال الوطني

ربما يذكر الجيل الأسبق حملة الشجب التي برزت على صفحات الصحف في أعوام الثلاثينات ضد فعلة الأكاديمي ڤ. إيپاتييڤ، الذي كان أخصائياً كبيراً في حقل الكيمياء. لقد سافر إيپاتييڤ إلى الولايات المتحدة الأميركية في رحلة عمل ولم يعُد منها، ويكون بفعلته هذه قد تصرّف طبعاً، بطريقة بعيدة عن الوطنية، مما أتاح لأعدائنا في الخارج استخدام هذه الحادثة للدعاية ضد الاتحاد السوڤياتي.

وأعربت أكاديمية العلوم السوڤياتية والأوساط العلمية في بلادنا عن استنكارها المشروع لتصرفات هذا العالم الذي أتيحت له في الوطن كافة الإمكانيات من أجل البحث العلمي المثمر. لقد أصبح واضحاً أنه ركض

«وراء الدولار». وأعلن العلماء السوڤيات عن حق أنه باع نفسه كأخصائي مقابل المال.

لم نكن في السفارة السوڤياتية لسنوات طويلة نسمع شيئاً عن نشاط إيپاتييف في الولايات المتحدة. وفجأة أتانا عام ١٩٤٤ وطلب مقابلة السفير السوڤياتي. وفكَّرنا هل نستقبله أم لا، خصوصاً أنه قد اتصل قبل ذلك مرات عديدة، فكان في كل مرّة يلح في طلبه هذا. وكان الموظف المناوب يعلمنا بادئاً بالجملة التالية:

- إيپاتييف مجدداً....

ووافقتُ هذه المرة على استقباله.

.. دخل مكتبي رجل مربوع القامة قليلاً، ممتلىء الجسم نشيط بالنسبة لعمره الذي يبلغ حوالى خمسٍ وسبعين سنة أو أكثر.

بدأ حديثه من المدخل ودون مقدّمات:

- لقد سمعتم عني. كنيتي إيپاتييف، أتيت إليكم لأعترف بذنبي.

رغم أن خبرتي في العمل بالسفارة تُعدّ جيدة وطويلة ورغم سماعي قصصاً مختلفة، إلا أنّ هذا الزائر - والحق يقال - أدهشني. عليه، بحسب المنطق، أن يقبض المال الذي قصده هارباً من وطنه. أما هو فقال، وكأنه يقرأ ما في خاطري:

- لقد ارتكبت خطأً جسيماً في حياتي بتركي الاتحاد السوڤياتي. لقد غرّر الشيطان بي! ولا يلزمني شيء من هذا الأموال التي اتقاضاها هنا...

قلت مجيباً:

ـ إذا كان بوسع الشيطان أن يغرّر بالعلماء فهذا سيء جداً للعلماء طبعاً وليس للشيطان. على فكرة إن المقارنة مع الشيطان التي أوردتموها، أتت في محلها تماماً. تذكَّروا ماذا فعل الشيطان مع فاوست في مسرحية غوته.

طبعاً، لم يكن في وارد إيپاتييف تقبُّل هذه الصورة الأدبية، فقد أتى إلى هنا لهدف واحد ولا يرغب في إضاعة الوقت قبل أن يقول كل ما عنده في المسألة الأساسية التي حملها إلينا، وذلك لخوفه ربّما من ألاّ يفهمه أحد أو يسمعه حتى النهاية. كان يتحدث باقتناع:

ـ أرجو أن تفهموني: لم آتِ لأشكو من وضعي المادي، فليس هناك ما يدعو للشكوى من ظروف عملي في الولايات المتحدة. لقد أعطوني مختَبراً في شيكاغو وأقود أعماله بنجاح، وكل ما يحققه يلقى تقديراً عالياً في الأوساط العلمية وفي الإدارة. إننا نعمل لاستنباط بنزين رفيع الأوكتان يذهب لحاجات الطيران الحربي بشكل خاص. وبكلمة أدقّ، يدور الحديث عن نشاط في البحث العلمي مُتّصل بإنتاج هذا النوع من المحروقات. لكن تأنيب الضمير لا يتركني مرتاحاً: ما هذا؟ أنا عالم من بلادٍ أعطتني كل شيء. العلم والدرجة العلمية والمكانة في الوسط العلمي. أنا من الاتحاد السوڤياتي ونتائج جهودي العلمية تذهب إلى بلد آخر غريب ليس بلدي، رغم أنه حليف للاتحاد السوڤياتي الآن في الحرب.

ورماني بنظرة فاحصة كأني به يتأكد ممّا إذا كنت أصدقه في ما يقوله. صمت ثم أضاف:

ـ أطلب أن تأذنوا لي بالعودة إلى الوطن. أعتقد أن السلطات السوڤياتية ستفهمني... وكذلك الوسط العلمي...

وسألته باهتمام:

ـ متى وعن أي طريق تتصورون العودة إلى الاتحاد السوڤياتي؟ فالحرب دائرة من جهة، ومن جهة أخرى هل العودة ممكنة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار موقف السلطات الأميركية من هذا الموضوع؟

شرع إيپاتييف يقنعني بحرارة:

ـ لا تقدر السلطات الأميركية وضع العراقيل أمام عودتي إلى الوطن. وبإمكاني السفر ساعة أشاء وعن أي طريق أشاء، المهم أن أصل إلى وطني.

وبدا أنه لا يتصور بشكل كافٍ وضعه والصعوبة في الوصول إلى الاتحاد السوڤياتي من الولايات المتحدة في زمن الحرب.

وقال مضيفاً:

ـ أريد أن يُسمح لي بشحن بعض تجهيزات مخبري، فقد اشتريتها من حسابي الخاص. وأنا واثق أنْ لا أحد سيعترضني من الجانب الأميركي. كما أطلب، إضافة إلى ذلك، السماح لمساعدي في المخبر أن يسافر معي للإقامة الدائمة في الاتحاد السوڤياتي. إنه مواطن أميركي وأنا محتاج إليه بصفته مساعداً علمياً. هذا هو شرطي الوحيد.

بمقدور طلب كهذا أن يطرح جملة أسئلة دفعة واحدة: من هو هذا الشخص، وهل انّه موافق مع إيپاتييف في ما يطرحه الآن باسمه، وهل هو مستعد فعلاً للسفر إلى الاتحاد السوڤياتي بهدف الإقامة الدائمة؟ كان العالِمُ يتحدث بهدوء ورصانة، مما خلّف انطباعاً وكأنه قد تـمَّ الاتفاق بينهما على هذا الموضوع في تفاصيله كافة وحلاَّه لنفسيها منذ زمن. أما إيپاتييف فتابع:

ـ أريد العمل في وطني ولا أرغب بالبقاء في الولايات المتحدة بعد الآن.

وبكى فجأة وهو يردّد ما قاله دون خجل من دموعه. بدا جلياً أن شعوراً عميقاً بالقلق يعتريه. وأعاد على مسامعي وهو يمسح دموعه:

ـ لا تعرفون ما معنى أن يكون الإنسان منقطعاً عن أرضه الأم... عن أرضه الأم... فأنا لا أرى إلا المأزق أمامي ولا شيء سواه... لو تصورتم كما أنا نادم... على الخطيئة التي ارتكبتها...

قلت له بصراحة متناهية:

ـ ليس هناك ضرورة للحديث عمّا فعلتم في الماضي. أما فيما يختص بطلب العودة فستحصلون على الجواب في وقت أعتقد أنه لن يكون طويلاً.

نهض إيپاتييف هامّاً بالخروج، ثم توقف عند الباب وقال بصوت عالٍ:

ـ سأنتظر هذا الجواب بأمل كبير...

لا أخفيكم القول إن اللقاء مع إيپاتييف ترك تأثيره في نفسي. كنت أنظر إليه وأفكر بأي قوة خفية يغرّر «الشيطان» بالناس أحياناً، لتبقى الآثار تحفر فيهم على مدى الحياة... وتتحول في بعض الحالات إلى مصير محتوم...

أعلمتُ موسكو بالموضوع في اليوم ذاته الذي زارنا إيپاتييف فيه. والجواب لم يتأخر أيضاً. كانت فحواه تحمل التالي: من الصعب قبول الشروط التي وضعها إيپاتييف. كانت الحرب في أشدّ رحاها، لذلك لم يكن من السهل بدء المراسلات الطويلة مع موسكو حول هذا الموضوع.

أبلغ القنصل العام السوڤياتي في نيويورك إيپاتييف بمحتوى الجواب الذي ورد من موسكو. لم يَبْدُ عليه أي ردّ فعل، ولم يظهر بعد ذلك في الممثليات السوڤياتية في الولايات المتحدة أبداً.

رجل آخر: ڤيكتور ألكسندروڤيتش ياخونتوف، كان شخصية بارزة في أوساط المغتربين الروس في الولايات المتحدة. كان برتبة لواء عام ١٩١٧ وهو في سن ستة وثلاثين سنة، شغل منصب نائب وزير الحربية في الحكومة المؤقتة. وزار إنكلترا وفرنسا قبل ثورة أكتوبر في زيارات عمل، كما عمل ملحقاً عسكرياً لدى اليابان لبعض الوقت.

لقد كانت حياة الجنرال صعبة ومعقّدة، فهو لم يدرك فوراً جوهر التحولات الثورية في بلادنا. وفي نهاية المطاف ترك إلى الولايات المتحدة الأميركية وبنى كيانه فيها من جديد. ولكن لا بد من إنصافه، فياخونتوف لم يَمِلْ يوماً إلى المنظمات التي تناصب بلادنا العداء، بل كان محسوباً على جناح المغتربين الروس الذين يعملون من أجل تطبيع العلاقات بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوڤياتي وتطويرها. وسعى ياخونتوف من خلال نشاطه في أعوام الحرب إلى إبراز المصلحة في الصداقة السوڤياتية ـ الأميركية وفتح الجبهة الثانية من الغرب بأسرع وقت وزيادة المساعدة الأميركية المقدمة للاتحاد السوڤياتي.

ودرّت الخطابات الشفهية العديدة على ياخونتوف شهرة واسعة في الولايات المتحدة الأميركية، فقد برهن أنه خطيب بارع، يتحدث في المهرجانات والمحاضرات عن نضال الشعب السوڤياتي والجيش الأحمر ضد الغزو الفاشي وعن المعنى الكبير لهذا النضال بالنسبة لمصير البشرية بأجمعها، يتحدث ببراعة وإقناع.

لقد التقيتُ بڤيكتور ألكسندروڤيتش أكثر من مرة. وكانت اللقاءات تتم بشكل عام خلال حفلات الاستقبال في السفارة السوڤياتية. ممشوق القامة كالرمح يبدو أصغر بكثير من سنه الحقيقي وكان بصفته جنرالاً سابقاً يرصد بأهتمام كافة الأنباء الواردة من الجبهة السوڤياتية - الألمانية ويجمع الأخبار المتضاربة، بل والمتناقضة في بعض الأحيان، ويحلّلها بانتباه بالغ ليخرج باستنتاجاته وانطباعاته الخاصة. للحديث معه نكهة خاصة، فكان يزيل كل الشكوك عندما يناقش الحياة في الاتحاد السوڤياتي والوضع على الجبهات: أمامك وطني حريص على التعلق بوطنه.

وكنت أقول له:

- إننا نقدر نشاطكم في وسط المغتربين الروس وفي المجتمع الأميركي بشكل أعمّ.

وكان يجيب:

- إني أحترم وطني.

عاد ياخونتوف إلى الاتحاد السوڤياتي عام ١٩٧٥. وقُلّد في العام التالي وسام الصداقة بين الشعوب بمناسبة ذكرى ميلاده التسعين. توفّي عام ١٩٧٨ وتمّ دفنه في مقبرة ألكسندرو - نيڤسكي لاڤرا بلينينغراد.

الماستودون(*) السياسيون، كيرينسكي وسوروكين

التقيت أثناء عملي في الولايات المتحدة وحتى بعد ذلك بأشخاص لا يسعني إلاّ أن أسمّيهم «ماستودون سياسيين». هؤلاء الأشخاص وخصوصاً بعضهم، حاولوا اعتلاء أمواج السياسة الكبيرة. لقد ابتعدوا

(*) حيوان منقرض يشبه الفيل - **(المترجم)**.

عن البلاد التي وُلدوا فيها وحصّلوا العلم والتربية، إلى حدّ فقدوا معه كلّ رابطٍ بشعبهم.

ويوجد في صفوفهم ألدّ أعداء الدولة السوڤياتية. لقد رمت بهم الحياة بعيداً عن الوطن، ذلك لأنهم أظهروا عداءهم العلني لأكتوبر العظيم ولكلّ القضايا التي يحياها الموطنون السوڤيات.

لم يمضي سوى بضعة أيام على هجوم ألمانيا الفاشية على الاتحاد السوڤياتي، حتى رنّ جرس الهاتف في السفارة ذات صباح، اتصلوا من وزارة الخارجية الأميركية طالبين التحدّث إليّ، فأخذت السمّاعة.

انطلق صوت في الطرف الآخر أعرفه جيداً:

- هالو مستر غروميكو، يتحدّث بيرلي نائب وزير الخارجية. هل تسمعني؟

- أسمعك جيداً، صباح الخير. ماذا يتوجّب عليّ لقاء اتصالكم المبكر هذا؟

كنا أدولف بيرلي، وأنا، قد التقينا أكثر من مرّة من قبل ونعرف بعضنا جيداً.

- مستر غروميكو، لقد تكلمت مع مستر كيرينسكي. وأعرب عن رغبته بلقاء القائم بالأعمال السوڤياتي وطلب مني المساعدة في تنظيم هذا اللقاء. كيرينسكي كان رئيساً للحكومة المؤقتة في روسيا عشية ثورة أكتوبر في بلادكم.

لو قالوا لي إن طلباً قد وصل من العالم الآخر لكانت دهشتي بالدرجة ذاتها مما أنا فيه الآن. كنت أسمع طبعاً، أن كيرينسكي يقطن مكاناً ما في الولايات المتحدة ولا يغادره أبداً، كما أنه متزوج من أرملة

أوسترالية غنيّة. ومنذ حدوث الثورة لم يُجرِ أي محاولة للاتصال بالممثلين الرسميين السوڤيات، ثم فجأة...

ماذا يبغي هذا الرجل؟ لقد نشبت الحرب والفاشية زجّت ضد بلادنا بقوة كل أوروبا التي اخضعتها لسيطرتها. وكانت الأخبار الصادرة عن برلين وحتّى تلك التي تذيعها موسكو، واحدها أشدّ إقلاقاً من الآخر. إلامَ ستؤدي الأمور؟ سؤال يطرحه الجميع.

لقد أعلن كيرينسكي عن نفسه في هذه الظروف ودون سابق إنذار. إنه ألكسندر ڤيودوروڤيتش بعينه، ذلك الذي كان الحاكم المؤقت على روسيا عام ١٩١٧. ماذا يريد؟ الشماتة؟ سيطرده الرفاق فوراً إلى خارج السفارة وستكون حادثة مزعجة. أوَ ربّما يريد مؤاساتنا؟ أمر مضحك. منَ المؤاسي ومن يؤاسى؟ إنه إفلاس سياسي تفوح منه رائحة النَّفتّالين. كيفما نظرتُ إلى المسألة من جوانبها كافة فإني لم أتوصّل إلى القناعة بضرورة استقبال كيرينسكي. راجعت كل ذلك في فكري، ثم قلت بصوت هادىء في سماعة التلفون:

ـ سيد بيرلي! إني لست عازماً على استقبال كيرينسكي. أعتقد أنكم ستفهمونني بشكل صحيح.

بدا واضحاً أن ردَّ فعلي لم يأتِ على عكس ما توقّع بيرلي.

قلتُ ذلك وعلقت السمّاعة. والآن أعتبر أني تصرّفت بشكل سليم.

لقد انطلقت في قراري من اعتبار أن كيرينسكي كان ولم يزلْ عدواً للدولة السوڤياتية، فاسمه مرتبط بأكثر القوى عداءً داخل المغتربين الروس. ولا يجوز أن يكون في وارد أحدٍ من المسؤولين السوڤيات استقباله.

أعلمتُ موسكو بجوابي إلى كيرينسكي. وقد اعتبروا قراري من الأمور البديهيّة ولم يعقبه أي ردّ فعل من موسكو. احكموا بأنفسكم، هل كان يسمح الوقت لموسكو بمعالجة مسألة كيرينسكي في حزيران ١٩٤١؟

أما هو فكان يتصور نفسه شخصية سياسية ويوزّع تصريحاته على الصحافة. وكانت صحافة الرصيف تنشر له أقواله في بعض الأحيان. وقد أكدَّ في أحد تصريحاته أنّه ما زال معادياً للسلطة السوڤياتية ولكن في مسألة الحرب مع ألمانيا فإنه يتمنّى النصر... للسلاح الروسي. الصورة مطابقة تماماً للعام ١٩١٧ حين أعلن المهرّج موقفه...

لقد تأخر عشرات السنوات وراء طاولة الحياة رئيس الحكومة المؤقتة الأسبق الذي فرّ من پتروغراد في أيام أكتوبر العظيم متستراً في ثوب نسائي. وعاش كل هذه السنوات في حالٍ من النسيان الكامل. وحين كانت تبدأ في الولايات المتحدة حملة أخرى معادية للسوڤيات كانوا يسمحون له بالظهور على شاشة التلفزيون أو على منبرٍ في جمع من الدرجة الثانية. ويحاول في خطاباته المعادية للشيوعية كل مرّة دفع التهمة التي تقول إنه هرب من القصر الشتوي في ثوب نسائي، مؤكداً أنه غادر المكان في ثيابه العادية.

كان طوال حياته منهمكاً في تلفيق الكذب على التاريخ والافتئات عليه من خلال تزوير الحقائق. كلاّ، لم «يغادر» بل فرَّ تاركاً وراءه بلاده وشعبه وشرفه وضميره... وحتى زوجته. نشرت صحيفة «إزفستيا» نبأ صغيراً عام ١٩٢٥ مفاده أنه وصلت شهادة طلاق إلى أحد مراكز الكُتّاب العدل في لينينغراد لتصديق نسخة عنها. وجاء فيها:

أعطيت هذه الشهادة... إلى أولغا لڤوڤنا كيرينسكايا.. بأن زواجها من ألكسندر فيودوروفيتش كيرينسكي.. قد فسخته المحكمة بسب هجر الزوج لها...»

بقي كيرينسكي حتى في الشيخوخة يحب أن يتخذ مظاهر استعراضية، فظلّ محافظاً على تسريحة شعره «القنفذ» وعلى سترته «الفرنتش»(★) التي وقف فيها ذات مرّة أمام عدسة المصوّر أيام شبابه، وبقي رسّامو الكاريكاتور يرسمونه في هذه السترة طوال حياته. وتسنّى لي شخصياً رؤية صورته في إحدى الصحف الأميركية أمام الميكروفون. لقد فرض عليه القدَرُ الوحدة عقاباً له، فلم يطقه أبداً رجالات الحكم الملكي معتبرين أنه لم يكن «أحمر» بل هو «زهري داكن». أما مؤيدّوه ورفاقه السابقون الذين كانوا ينظرون إليه بصفته مثالاً لهم، فقد أداروا له ظهورهم. وجموع المهاجرين قاطبة لم تصدّق خطاباته وتأكيداته عبر التلفزيون الأميركي حول أنّه لم يتخفّ في ثياب امرأة، وكانوا يدعونه باحتقار «ألكسندرا فيودورڤنا». أما الزعماء السياسيون في الغرب فلم يأخذوا كيرينسكي مرّة على محمل الجدّ.

وهكذا فقد أمضى حياته العصيبة كقطعة دخيلة من بقايا السياسة، يعيش على الفتات الذي يقع بالصدفة من كعكة العداء للشيوعية، التي كانت الدعاية الغربية تعدّها باستمرار. حتى أن ولديه كانا يتحاشيانه. وعندما مرض كيرنيسكي عام ١٩٧٠ لم يرغبا في إضاعة أموالهما عليه فأرسلاه إلى مأوى للعجزة تابع للبلدية. بعد خروجه من هناك قضى كيرنيسكي منتحراً لأنه أدرك أيّ إذلال ينتظره في حال ساءت صحته...

(★) فرنتش: القسم العلوي من البذلة العسكرية (بدون قبة) كان زيّاً شائعاً في ذلك الوقت ـ (المترجم).

عرفت حفلات السفارة السوڤياتية أناساً لم ندْعُهم مطلقاً، بل كانوا يتدبرون أمر دخولهم بكافة الوسائل غير الشرعية. ويستخدمون لهذا الغرض بطاقات الدعوة التي يوزّعها موظفو السفارة على معارفهم. وكان هؤلاء الأشخاص يظهرون في حفلات السفارة في واشنطن عن طريق استجداء الدعوات الرسمية. يبدو أن پيتيريم سوروكين، المهاجر المعروف دخل السفارة بهذه الطريقة.

لقد تكوّن مصير عالم الاجتماع والفيلسوف المعروف بشكل مأساوي. ركب الأمواج العاتية للأحداث السياسية بصفته عالماً، واكتسب شهرة واسعة قبل الثورة، خصوصاً في أوساط الانتليجنسيا الروسية. وقد نشر كتاباته العلمية المختلفة، خصوصاً حول إبداع ليف تولستوي وتاريخه ومستقبله، مشبعةً بالمثالية البرجوازية. وقد أوصلته مثاليته التي انتقدها لينين بشدّة إلى حزب الاشتراكيين الثوريين حيث أصبح زعيم الجناح اليميني فيه. وقد لفت سوروكين انتباه كيرينسكي الذي عيّنه سكرتيراً له.

أتى سقوط سوروكين نتيجة منطقية لمجمل حياته السابقة. فقد استغلّ وضعه، كونه بروفسوراً في جامعة پتروغراد للقيام بنشاط معادٍ للسلطة السوڤياتية بعد نجاح ثورة أوكتوبر. وهكذا، فقد وجد نفسه في معسكر المتآمرين على الثورة وبالتالي جلس على كرسي الاتهام وحُكم عليه بالإعدام بتهمة التآمر. غير أنّ الحكم تحوّل من الإعدام إلى الإبعاد من الاتحاد السوڤياتي عام ١٩٢٢ وذلك باقتراح من لينين.

حصل سوروكين على الجنسية الأميركية عام ١٩٢٣ وعاش في الولايات المتحدة حتى آخر أيامه، وعمل مدرّساً في جامعة هارڤرد. وكان يلقى معاملة حسنة انطلاقاً من تاريخه البارز في العداء للاشتراكية. لقد

كوّن لنفسه احتراماً معيناً في أوساط العلماء البرجوازيين من خلال مؤلفه «التطور الاجتماعي والثقافي» الذي صدر في أربعة أجزاء.

كانت دهشتي كبيرة حين قدّموا لي سوروكين في حفل السفارة. من أين هبط هذا الشخص إلينا؟ من أيّ عالم فرائد؟ لم يكن اسمه يتردّد أبداً في الصحافة ولا يتمتع باحترامٍ في أوساط المهاجرين الروس، إذ لم يكن مرغوباً فيه بينهم، إلاّ إذا استثنينا طبعاً الأعداء الألدّاء للسلطة السوفياتية.

لم أسأل سوروكين عن الطريقة التي تسلّل بها إلى الحفل، فلم نكن بحاجة ـ نحن الرفاق العاملين في السفارة، لإيضاحات حتى نعثر على جواب. لكني توجهت إليه بسؤال آخر:

ـ ألاَ تحنّ إلى الوطن؟

ردّ سوروكين:

ـ من الصعب الإجابة آخذاً في الحسبان ماضيّ. لكني أشكر من الأعماق لينين على كل ما فعله من أجل أن يحفظ لي حياتي.

ثم طرحت عليه سؤالين أو ثلاثة عن أموره وفهمت من خلال تهرّبه من الإجابة أنه لا يريد الخوض في أموره الحياتية. أو ربّما اعتبر المناسبة غير مؤاتية لحديث كهذا.

تبيّن من خلال المعلومات التي جمعناها فيما بعد أن سوروكين لم يبدّل في آرائه السياسية. لكنه كغيره الكثيرين من الروس، فخور ببطولات الجيش الأحمر والشعب السوفياتي اللذين حطّما العمود الفقري للوحش النازي. غير أنّ هذا لم يعْنِ تأييد سوروكين للسلطة السوفياتية.

يتقاطع مصيرا الأكاديمي إيباتييف والفيلسوف سوروكين في شيء مشترك بينهما، لكن يبقى الفارق بين الرجلين في أن الأول أتى معترفاً بإفلاس مشاريعه وأحلامه حول «الحياة المالية في العالم الحرّ»، في حين بقي الثاني مشهراً سلاحه النظري والعملي على السواء طوال حياته وحتى لحظة مماته، فكان دائماً عدوّاً للسلطة السوفياتية. وقد وافته المنية عام ١٩٦٨.

لقاء بينيش في «بلايرهاوس»

التقيت في حياتي بممثلي الماضي الغابر ليس من روسيا وحدها، إنما من بلدان أخرى أيضاً. عندما كانت تتم هذه اللقاءات لم يكن الماضي آنذاك قد حلّ بالنسبة لبعضهم. مثلاً، لقد انحفر في الذاكرة جيداً اللقاء مع إدوارد بينيش رئيس تشكيوسلوفاكيا البرجوازية.

واشنطن. أيار (مايو) ١٩٤٣. وصل بينيش إلى الولايات المتحدة الأميركية قادماً من لندن. إنه رئيس في المنفى، وحكومته كانت هي أيضاً في المنفى. لقد وضع بينيش نصب عينيه اللقاء مع روزفلت وتحسّس الجو السياسي في العاصمة الأميركية بشكل عام، والاطّلاع على ما يفكرون به في واشنطن بالنسبة لمستقبل أوروبا، وتشيكوسلوفاكيا في الدرجة الأولى.

وقد حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه الشعب التشيكوسلوفاكي يصغي إلى ما تحمله الأنباء من الشرق ويتتبع بانتباه الضربات التي يكيلها الجيش الأحمر للهتلريين أثناء تقدّمه نحو الغرب. وبرزت ثقة الشعوب الأوروبية أن تحريرها من نير الفاشية لا بدّ آتٍ من الشرق.

خاض الشعب التشيكوسلوڤاكي نضالاً مريراً ضد الفاشية في الوقت الذي كان فيه الرئيس والحكومة قابعين بعيداً خارج البلاد . فقد اتسعت الحرب الأنصارية على أراضي الانتداب في تشيكيا ومورابيا ، كذلك ضد النظام في سلوڤاكيا المستقل شكلاً والفاشي في الجوهر .

اتصل بي موظف في السفارة :

ـ أندريه أندرييڤيتش ، يطلبونك على الهاتف .

أخذت السماعة :

ـ مستر غروميكو ، هلاّ سمحت باستقبال رئيس تشيكوسلوڤاكيا بينيش . إنه يريد التحادث معكم .

عرفت المتحدث من صوته ، إنه موظف في « الدائرة الروسية » في وزارة الخارجية .

وافقت على اللقاء . وفي الموعد المحدد وصلت إلى بلايرهاوس ، قصر الضيافة الرسمي للضيوف الأجانب الكبار . يقع هذا القصر قرب البيت الأبيض وهو مبني على الطريقة الأميركية القديمة ومؤلف من ثلاث طبقات . وتنزل فيه أيضاً الشخصيات السوڤياتية الرسمية من قيادة الدولة كل مرة أثناء زيارتهم إلى واشنطن .

استقبلني شخص مربوع القامة يوحي منظره أنه لا يناهز الستين من عمره . وقال :

ـ يسرّني أن أتابع تعارفنا الذي بدأناه لبضعة أيام خلت على طاولة سفير تشيكوسلوڤاكيا في الولايات المتحدة ، فلم يكن لدينا ، للأسف ، الظروف والوقت للتحدث بشكل تفصيلي .

جلسنا في صالون فسيح . بدأ بينيش اللقاء باحترام مميز فهو يدرك أنه يتحدث إلى ممثل الدولة السوڤياتية .

وقال :

ـ إن أنظار البشرية بأسرها تقريباً متجهة الآن نحو الاتحاد السوڤياتي والجميع يتوقعون أن القوات السوڤياتية الشجاعة ستخلّص الشعب من نير الاستعباد الفاشي .

وقد أخبرت بينيش بآخر أنباء الجبهة بطلب منه .

وأعلن بينيش :

ـ باسم حكومة تشيكوسلوڤاكيا وباسمي الشخصي اسمحوا لي أن أعبر عن مشاعر الصداقة نحو الاتحاد السوڤياتي ، وإني بذلك أعبّر عن يقيني بأن شعب تشيكوسلوڤاكيا يشاطرني هذه المشاعر . ستربط الصداقة الوثيقة تشيكوسلوڤاكيا والاتحاد السوڤياتي بأوثق العرى ، هذه الصداقة المفعمة بمشاعر الودّ المتبادل والطبيعي التي لدى شعبينا .

ثم أخذ بينيش يستعرض سياسة الولايات المتحدة وانكلترا خلال الحرب وفي الفترة التي ستليها .

وأكد أنه من المرغوب فيه أن تعمل هاتان الدولتان على تعبئة قواهما كافة في سبيل تحقيق النصر على الفاشية .

وتطرق بينيش إلى موضوع فتح الجبهة الغربية لكنه مرّ عليه بسرعة . ولم يبدُ واضحاً من كلامه ما إذا كان يؤمن حقاً بأن هذه الجبهة ستبدأ فعلها سريعاً أم لا . لكني تلمست اقتناعه بأنه لا يجوز أن تعطى المانيا

الفرصة لتنهض من جديد، بصفتها قوة عدوانية تهدد وجود جيرانها والسلم والطمأنينة في أوروبا.

وأكّد لي قائلاً:

ـ أثناء محادثاتي في واشنطن أوضحت بشكل قاطع أن المساهمة في إعادة الأمور في أوروبا إلى ما كانت عليه قبل الحرب، هو الشكل الأفضل والأكثر عقلانية بالنسبة للولايات المتحدة وإنكلترا على السواء، مع شطب تأثير ألمانيا التي يجب أن تكون منزوعة السلاح.

من المميز أن الحكومتين الأميركية والبريطانية كانتا تعملان انطلاقاً من موقف يحمل في طياته إمكانية تقسيم ألمانيا، حتى أنهما كانتا في وضع عدم السماح حتى بمجرد التفكير بدولة ألمانية ديمقراطية موحدة. وهذا ما رشح مما قاله بينيش. وقد برز هذا النهج بوضوح أكثر في سياسة الدول الغربية بعد الحرب التي لم توصل إلى تقسيم ألمانيا فقط، بل إلى جذب ألمانيا الاتحادية إلى حلف شمال الأطلسي أيضاً.

ذكّرتني مناقشات بينيش بأخبار ما قبل الحرب عن «المعارك» في عصبة الأمم.

لقد كان بينيش بالتعاضد مع ممثلي إنكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الرأسمالية في أوروبا يُخبتون يقظة الشعب بخطاباتهم ساعين بكافة الطرق للتخفيف من هول الخطر القادم من المعتدي المحتمل.

واشتهر بينيش في عصبة الأمم بحنكته ومكره، فقد كان اسمه حاضراً على صفحات الصحف، هو وسياسي آخر: اليوناني پوليتيس. لقد فضحت الصحافة السوڤياتية في أواخر الثلاثينات نشاطات كل من أبدى

عدم فهم كامل للموضوع وخوف أمام الفاشية وقصر نظر في رؤيته للمستقبل.

يتحمل بينيش، بوصفه رئيسَ تشيكوسلوڤاكيا، مسؤولية كبيرة أمام محكمة التاريخ لأنه على مرّ السنوات التي سبقت الحرب كان يهدر الوقت بمغازلة الفاشية. وفي أيلول عام ١٩٣٨ أذعن لشروط اتفاق ميونيخ الذي وقعته كل من إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، هذا الاتفاق الذي قضى بتقسيم تشيكوسلوڤاكيا، وقد دفع بينيش بذلك بحكومة بلده على طريق الاستسلام.

وها هو أحد السياسيين الذين تغاضوا عن إشعال نيران العدوان الفاشي في أوروبا، يجلس أمامي الآن ويقسم بأغلظ الايمان أنه يحمل في صدره مشاعر الصداقة نحو الاتحاد السوڤياتي.

لا أدري إذا كان بينيش قد انتبه إلى أنني لم أتطرق إلى ماضيه أبداً. فاللوم ربما لم يكن لائقاً بالمناسبة، كذلك عبارات الإطراء لأنه ليس أهلاً لها. وهكذا، فقد تباحثنا في أمور تسمح عند نقاشها بالابتعاد عن المزايا الشخصية.

قلت له:

ـ نحن نؤيد الفكرة القائلة بضرورة أن تزيد أميركا وإنكلترا من مساهمتها في النضال العام ضد المعتدي، وهذا ليس رأيي الشخصي فقط وإنما هو رأي الحكومة السوڤياتية أيضاً. تفرض هذه المساهمة بدورها على حلفاء الاتحاد السوڤياتي في التحالف المعادي للهتلرية أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية المشاركة بجدية والمباشرة في استخدام قواتهم المسلحة للنضال ضد الفاشية، أي بمعنى آخر فتح الجبهة الغربية.

هل حقق بينيش مبتغاه من زيارته إلى واشنطن؟ أجل، في ما يتعلق بالمعارف والصلات مع الإدارة الأميركية. أما في موضوع التأثير على سياسة واشنطن، فهذه مسألة مشكوك بأمرها.

لقد لفتَ انتباهي أثناء اللقاء أن بينيش يبدو نشطاً وفي حالٍ جيدة. فصحته ممتازة من خلال الحكم على شكله، ولا يعاني من الإجهاد المعنوي أو الجسدي. وتبادر إلى ذهني سؤال: «أين آثار الليالي المؤرقة أثناء الغارات الجوية الألمانية على لندن؟». أخبار تلك الليالي كنا نقرأها دائماً في الصحف الأميركية.

وجذب انتباهي أمر آخر: كان بينيش طوال اليوم يرسم بيده خطوطاً غير مرئية وسهام ترمز بحسب رأيه، إلى حركة الجيوش المتحاربة أو اتجاه سياسة الدول. حتماً كان المكان ضيقاً لا تكفي مساحته لحركاته.

يصلح الشكل الخارجي لهذه الشخصية ومسلكها، لأن يكون بينيش بروفيسوراً في العلوم الإنسانية، وأكثر ما يشبه أستاذاً في القانون. فمن خصاله: الحديث الموزون والتركيز على الأماكن الرئيسية لنبرة الصوت، ثم المحطات الكلامية ذات المعنى في سياق الجملة. كل ذلك من أجل إسباغ قوة التعبير على كلامه، علماً أن مستمعيه لم يكونوا إلاّ شخصاً واحداً: أنا. كأني ببينيش يستعرض كفاءاته في فن الخطابة.

بقي بينيش حتى آخر أيامه شخصية برجوازية ولم يدرك أماني الشعب العامل الحقيقية وأفكاره. فقد طمح إلى عرقلة المتغيرات الثورية التي تشهدها البلاد في السنوات الأولى ما بعد الحرب، معتمداً في ذلك على القوى الرجعية في تشيكوسلوفاكيا ومسانداً إياهم في الوقت عينه.

وفي شباط (فبراير) ١٩٤٨ شدّ مجرى الأحداث بينيش إلى دوّامته وجرفه بعيداً عن شعبه، ذلك أنه شارك في المؤامرة التي دبّرتها الرجعية في الداخل ولاقت الدعم من قبل الإمبريالية. وضع المتآمرون نصب أعينهم هدف الإطاحة بالسلطة الشعبية. وترميم الرأسمالية بهدف ضم تشيكوسلوفاكيا إلى حلف الناتو الإمبريالي.

قدّم بينيش استقالته بعد فشل المؤامرة في حزيران ١٩٤٨. وكانت تلك نهاية الحياة السياسية بالنسبة للرئيس، إذ أن نهجه لم يتوافق والظروف الجديدة في تشيكوسلوفاكيا المحرَّرة بواسطة مقاتلي بلد السوفيات. وليس بمستغرب لهذا أن شعب تشيكوسلوفاكيا طرحه جانباً وخطأ بثقة في طريق الديمقراطية والاشتراكية بقيادة الشيوعيين.

يان ماساريك أسير الماضي

شخصية تشيكوسلوفاكية أخرى أخذ مصيرها منحى مميزاً، هي يان ماساريك: إبن توماش ماساريك رئيس تشيكوسلوفاكيا الأسبق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٣٥، وقد نشأ وتربّى في ظل ظروف الجمهورية البرجوازية وكان توجهه السياسي نحو الغرب بشكل أساسي. ولقد التقيته عدة مرات.

وكان في زمن الحرب يقيم في إنكلترا، حيث كان وزيراً لخارجية حكومة تشيكوسلوفاكيا المقيمة في المهجر، عام ١٩٤٠. ومنذ العام ١٩٤١ شغل منصب نائب رئيس الحكومة.

سنحت الفرص لماساريك أن يقدم خدمات طيّبة لشعبه بعد تحرير الجيش الأحمر لبلاده. وبعد أن نظّفت البلاد من براثن الوحش الفاشي

وبدأت مسيرة بناء السلطة الشعبية وجد ماساريك نفسه أمام خيارين: السير مع شعبه أو الوقوف في صفوف أعدائه. وقد اصطفى الخيار الصحيح في البداية وتسلم منصب وزير الخارجية عام ١٩٤٥.

غالباً ما التقينا على امتداد السنوات الثلاث التي أعقبت الحرب. وكان اللقاء الأول في سان فرنسيسكو في مؤتمر إنشاء منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. ولا تغيب من مخيلتي تلك الحفاوة التي أبداها وفد تشيكوسلوفاكيا لأعضاء الوفد السوفياتي. وقد كان الترحاب متبادلاً.

كان التعاون على قدم وساق بين وفدي بلدينا خلال أعمال المؤتمر. اللقاءات بين رئيس الوفد السوفياتي (في البداية ف.م. مولوتوف، ثم أنا) وماساريك كانت تتم كل يوم تقريبا، حيث كانت تجري محادثاتنا في جوّ من الودّ والصداقة. وكانت وجهة نظر الوفد السوفياتي في مختلف المسائل، خصوصاً في موضوع ما يسمى بحق النقض «الفيتو»، تلقى تفهماً كاملاً وتأييداً من قبل الوفد التشيكوسلوفاكي.

وقد ترأس يان ماساريك وفود بلاده إلى دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة اللاحقة بصفته وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا. وكان يزورنا مع سواه من الأصدقاء التشيكوسلوفاكيين في القصر الريفي لممثليتنا لدى الأمم المتحدة. وقمنا بدورنا بالزيارة مرات عدة.

امتاز ماساريك بأنه محدّث لبق وممتع، إلاّ أنه كان يلاقي صعوبات في مواجهة خصومنا المشتركين، ولا يعني ذلك بالضرورة أنه لم يكن يرغب في المواجهة، بل كان السبب طبعه. ولذا، لم تكن خطاباته حاسمة، وهذه صفة أثرت عنه.

أذكر حديثي معه بتاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ حول مسألة مهمة: انتخاب تشيكوسلوفاكيا في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة. لقد اضطررت أن ألفت انتباهه إلى التالي:

- من المفيد لكم في وفد تشيكوسلوفاكيا أن تنشطوا مع الوفود الأخرى بهدف الدفاع عن مصالح بلدكم. وهذا يتوافق بدوره مع مصالح الاتحاد السوفياتي وبقية بلدان الديمقراطية الشعبية.

وتحرّك ماساريك في هذا الاتجاه ولكن دون حماس يذكر. وإذ قام المرء بمراقبة جيدة لم يكن من الصعب الانتباه إلى أن ماساريك كان يفكّر دائما في شيء ما. وهذا الاستنتاج لم يأتِ مما يقوله، بل من الأشياء التي لم يقلها، وبشكل خاص حين كان الحديث يطال المسائل الحرجة في السياسة وعلاقة الدول الغربية بالاتحاد السوفياتي وبلدان الديمقراطية الشعبية.

أنهى ماساريك حياته السياسية خارج معسكر الشعب. وتبع الموت الجسدي موته السياسي، فقد قضى منتحراً عام ١٩٤٨ وبشكل مفاجيء.
من الواضح أن ماساريك لم يقوَ على التخلّص من ماضيه، وهذا الأمر منعه أن يوظف مواهبه الفائقة وقواه في خدمة تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية.

خط موسكو - واشنطن الصعب

كان من الصعب في سنوات الحرب الوصول من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة الأميركية.

ويسألونني غالباً: كيف كنتم تقطعون الطريق بين موسكو وواشنطن؟

بالطبع لم يكن هناك خطوط مواصلات مباشرة عبر الأطلسي، وذلك لأسباب واضحة.

وهكذا، فإن الطريق الوحيدة الأمينة بين واشنطن وموسكو كانت تلك التي تمرّ عبر بلادنا بأسرها: عبر سيبيريا والشرق الأقصى فألاسكا، من هناك نحو الجنوب إلى كندا فغرب الولايات المتحدة، وبعدها إلى العاصمة الأميركية.

لقد طرت من واشنطن إلى موسكو وبالعكس ثلاث مرات فقط خلال الحرب. أما بلغة اليوم، الراهنة فقد قمت بثلاث رحلات سياحية. جزءان من هذه الرحلات قطعتها عبر أجواء أفريقيا الشمالية، وكان ذلك في نهاية الحرب، في حين أربعة أجزاء مرّت عبر سيبيريا وآلاسكا.

كان الطريق من الاتحاد السوڤياتي إلى الولايات المتحدة يمرّ عبر المدن السوڤياتية التالية: قازان، سفردلوڤسك، أومسك، نوڤوسيبيرسك، كراسنويارسك، مطارات صغيرة في سيبيريا، أوليكمينسك، ياكوتسك، ماركوڤو في منطقة تشوكوتكا. آخر نقطة مأهولة على الأراضي السوڤياتية هي أويلكال الواقعة في منطقة تشوكوتكا أيضاً، لتبدأ بعدها مدن وبلدات آلاسكا: نوم، فيربانكس تليها مطارات أخرى في الولايات المتحدة. كانت الطريق صعبة طبعاً ومرهقة، لكن عبرها كانت تنقل المساعدات الأميركية بواسطة ليند - ليز، كذلك الإتصال بين عاصمتي البلدين عندما تضطر شخصيات رسمية أو وفود للطيران.

وقد أطلق طيّارونا على الطريق من كراسنويارسك حتى تشوكوتكا تسمية «خط مازوروك» نسبة إلى الطيّار الخالد إيليا پاڤلوڤيتش مازوروك، بطل الاتحاد السوڤياتي اللواء في سلاح الطيران، الذي اكتسب

شهرة واسعة في بلادنا، وخصوصاً في الشمال، لقد فعل الكثير لتخليد الأسطول الجوي الوطني. طار إلى القطبين المتجمدين الشمالي والجنوبي واشترك آنذاك في الهبوط في منطقة القطب المتجمد الشمالي في عداد طاقم پاپانين الرباعي، وكان مسؤول الطيران القطبي في الإدارة العامة لطيران الشمال.

كانت أشياء كثيرة تحدث على هذا الخط. ففي أحد أيام كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤ هبطت الطائرة الأميركية «ليبرايتر» في ياكوتسك قادمة من موسكو وعلى متنها ويندل ويلكي المرشح للرئاسة الأميركية ومرافقوه. وقد تجمدت الطائرة إلى درجة أن ملاّحيها من سلاح الطيران الأميركي لم يتمكنوا من تشغيل محركاتها، فأقلّت السيد ويلكي طائرة سوڤياتية إلى آلاسكا.

تستغرق الرحلة من واشنطن إلى موسكو خمسة أيام، آنذاك فقط رأيت بأمّ العين أراضي الوطن الشاسعة وغابات التايغا السيبيريّة. وفي إحدى المرات شاهدنا من الكوّة الزجاجية حريقاً هائلاً يمتد لهيبه على مسافة عشرات الكيلومترات. ومثل هذا المنظر لا يشكّل أي متعة للناظرين. وخطر في بالي «المسألة كما على الجبهة تماماً هناك أيضاً كأنّ كل شيء يحترق إضافة إلى أنّ أهلنا يموتون».

بدا أن لا نهاية لتشوكوتكا وياكوتيا وسيبيريا. تمر الساعات في الجو والتايغا لا تنتهي أو يبدو لها آخر.

قطعت هذه الطريق للمرة الأخيرة عام ١٩٤٤ عندما كنت متوجهاً من موسكو إلى واشنطن. وقد تسنّى لي آنذاك اختبار مفاجآت الطقس على هذه الطريق.

تمّ تعييني رئيساً لوفدنا إلى مؤتمر إعداد النظام الداخلي لمنظمة الأمم المتحدة الذي انعقد في دومبارتون ـ أوكس (في ضاحية واشنطن). وقد ضمّ الوفد أخصائيين كباراً في حقل القانون الدولي هما البروفسوران س.أ. غولونسكي وس.ب. كريلوف والديبلوماسيين السوڤياتيين ذائعي الصيت أ.أ. سوبوليف وس ك. تساراپكين، والأميرال ك.ك. روديونوف، واللواء ن.ڤ. سلاڤين، غ.غ. دولبين، م.م. يونين (سكرتير الوفد)، ڤ.م. بيريجكوف (سكرتير ـ مترجم).

طرنا حتى تشوكوتكا دون حوادث تذكر. أما في قرية أويلكال الصغيرة الواقعة على ضفة خليج الصليب فقد احتُجزنا أكثر من ٢٤ ساعة، فلم تتلق طائرتنا الإذن بالإقلاع بسبب سوء الأحوال الجوية فقد هبّت ريح هائلة علماً أن ذلك كان في شهر آب (اغسطس)، فالشمال البارد كشف عن وجهه.

أويلكال، قرية صغيرة في تلك الأثناء مؤلفة عن بضعة منازل. قادونا إلى أحدها وقالو لنا:

ـ إذا ما رغبتم بتقصير المساء فبإمكانكم الذهاب إلى السينما. إنها موجودة في المنزل المجاور يُعرض اليوم فيلم وثائقي عن الحرب.

قرّرنا الذهاب، وما أن خرجنا إلى الشارع حتى وجدتنا متمسكين واحدنا بالآخر. تبين أن المسافة التي تفصلنا عن البيت «المجاور» تبلغ مئتي متر، التي نجحنا في قطعها بفضل تشابك أيدينا.

وصلنا بعد جهدٍ كبير إلى المكان المعدّ لعرض الفيلم وفوجئنا بأنه مليء، فقد اجتمع كل سكان القرية تقريباً. جلست النساء والأطفال

والشيوخ على المقاعد الخشبية والكراسي. أمّا الرجال فهم على الجبهات إسوة بغيرهم من كافة مدن البلاد وقراها. لقد وصلت آثار الحرب إلى هذه القرية النائية في تشوكوتكا، الواقعة على آخر الحدود الشرقية للأراضي السوڤياتية.

بدأ عرض الأحداث الوثائقية. كان التحول في مجرى الحرب قد حدث منذ زمن. والجيش الأحمر يتقدم في المعارك على كل الاتجاهات، فكان كل مشهد من الجبهة يعرض على الشاشة، يعكس الانتصار، وهذه هي الحقيقة بعينها. ويشخص المشاهدون وهم محبوسو الأنفاس إلى الأخبار المصوَّرة. وعُرضت بعدها مجموعة من الأفلام السينمائية القصيرة التي كانت تُنتج في ستوديوهات ألما ـ آتا. تضم المجموعة عادة ثلاثة أو أربعة أفلام قصيرة عن حوادث من حياة الجبهة ساذجة عادةً لكنها مضحكة. يظهر العدو في صورة كاريكاتورية في هذه الأفلام، التي لم تكن تمثل قيمة فنّية مميزة، لأسباب معروفة، وخصوصا بمقاييس اليوم. ومع ذلك فقد لقيت إقبالاً عليها من قبل الجمهور المشتاق للسينما وبشكل خاص للسينما التي تحدّثه عن الأحداث في الجبهة. ولا أنكر هنا أن هذا الوضع لم يكن سائداً في البلاد وحدها بل وفي السفارات السوڤياتية في الخارج. فما عسانا أن نقول عن الشمال الأقصى حيث أي خبر نادر من موسكو وخصوصاً إذا كان في هيئة شريط سينمائي يتلقفونه باهتمام وانتباه بالغين. خيّم الهواء الثقيل الذي يحبس الأنفاس في الصالة الصغيرة (يصعب تسمية ذاك المكان بالصالة)، غير أنّ أحداً من المشاهدين لم يغادر المكان حتى انتهاء العرض.

طريق العودة إلى المنزل الذي سنبيت فيه ليلنا كانت أصعب بكثير من طريق السينما. فقد هاجت الريح وكانت على وشك اقتلاعنا عن الأرض.

سرنا ملتصقين واحدنا بالآخر. وبالكاد قطعنا الطريقة القصيرة بحسب كل المقاييس.

هدأت العاصفة مع الصباح، ومع ذلك لم نحصل على إذن بالإقلاع فقد تابعت العاصفة مسيرها فوق أماكن أخرى على طريقنا وفي ألاسكا أيضاً. واحتجزنا لعدة ساعات أخرى في أويلكال، وهذا ما أتاح لنا إمكانية التعرّف إلى حياة شعب تشوكتشي، وهم قومية صغيرة أخذت تتطور في ظل السلطة السوفياتية فقط.

لقد أدهشتنا أمور كثيرة، نحن القادمين من موسكو حيث الصعوبات في تأمين المواد الغذائية وغيرها من هموم زمن الحرب، وخصوصاً أن النساء يعملن في أماكن الرجال الموجودين على الجبهات. وتجلّى ذلك في مهن للرجال فقط في ظروف الشمال الأقصى.

فالمرأة تصعد إلى قوارب صيد السمك وتذهب لتصطاد الطيور والحيوانات وتعمل في مجموعات تربية الإيل في غابات التوندرة. وأدهشنا أمر آخر، وهو أننا لم نلمس نقصاً في المواد الغذائية في الوقت الذي كانت فيه البلاد بأسرها تحصل على عيشها عن طريق البطاقات التموينية، أو، بكلام آخر تقضي أيامها جائعة على حصصٍ زهيدة.

وزرنا إدارة الكولخوز المحلي. وكان رئيسه من قومية تشوكتشا، أنهى معهد شعوب الشمال في لينينغراد. وقد وجد الأطباء هناك أنه مصاب بمرض السلّ ونصحوه بالعودة سريعاً إلى تشوكوتكا لأن الهواء هناك والتغذية المنتظمة يساعدان في إبلاله من مرضه. وها هو يقود أعمال الكولخوز منذ عدة سنوات.

واعترف قائلاً:

ـ في الحقيقة لم يأخذوني إلى الجبهة بسبب مرضي. وإني أشعر بتحسّن في صحتي هنا.

وحدثنا عن ظروف عمل الكولخوز في ذلك الوقت الحرج وكيف يُعنى بأبناء المحاربين الغائبين عن منازلهم وعائلاتهم، عدا عن تأمينه تعهدّه الأساسي بتسليم لحم الإيل للدولة الذي تشحنه السفن بانتظام إلى الأرض الكبيرة. لقد نفذت تشوكوتكا بنجاح وظيفتها فأمست «مصنع اللحم» في الشرق الأقصى. وقد أحسسنا في هذه القرية الصغيرة أن تشوكوتكا البعيدة تشارك البلاد كلها مصيرها وتنتظر الأنباء عن سير المعارك على الجبهات يحدوها الإيمان بالنصر الأكيد على ألمانيا الفاشية.

طلبتني موسكو عام ١٩٤٥ للإعداد ثم الاشتراك في أعمال مؤتمر يالطا لقادة الدول الثلاث.

لقد طرت فوق المحيط الأطلسي عدة مرات، لكن تلك الرحلة بقيت محفورة في ذاكرتي أكثر من غيرها. لم يكن الطيران المدني يعرف بعد الطائرات النفاثة المريحة، التي لا تؤثر فيها تقلبات الطقس. فقد كانت الطائرات مروحيّة، والطيران على متنها لا يعني أبداً أن المسافر سيصل بأمان تام إلى المكان المقصود. وليس من الضروري أن تعترض قوات معادية حتى تنتهي الرحلة في الجو، مع أن ذلك كان محتمل الحدوث. ففي منطقة جبل طارق، مثلاً، انفجرت عام ١٩٤٣ طائرة في الجو بنتيجة عمل تخريبي وقضى فيها معظم أعضاء الحكومة البولندية في المنفى برئاسة الجنرال فلاديسلاف سيكورسكي.

وجدير بالاعتبار أن التقنية لم تكن أمينة بما فيه الكفاية، فغالباً ما كانت الطائرات تتحطم وتتعطل المحركات ويقضي الناس نحبهم وقد

حدثت أعطال مختلفة في الطائرات التي كنت أستقلها. أقلعنا ذات مرة فوق نيو فاوندلاند وما أن حلّقنا حوالى الثلاثين دقيقة حتى غيّرت الطائرة وجهتها في الاتجاه المعاكس وهبطنا بسلام في المطار ذاته الذي أقلعنا منه قبل قليل تبين أن أحد المحركات قد تعطّل وهذا ما أوجب إبداله بآخر.

سارت الأمور بعد ذلك بشكل طبيعي وهبطنا فوق جزيرة برمودا. أقلعنا بعد الاستراحة وطرنا طويلاً وبعد أن هبطت بنا الطائرة على جزر الأزور جرى حوار شيّق بيني وبين قائد الطائرة.

قال:

ـ هل تعلمون أننا طرنا بثلاثة محركّات فقط؟

ـ كيف هذا، ثلاثة محركّات؟ ولماذا؟

ـ توقف أحد المحركّات عن العمل فوراً بعد إقلاعنا من جزر برمودا. وقد اضطررنا إلى «شدّ» الطائرة حتى جزر الأزور.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ ممكن، فثلاثة محركات تحمل الطائرة. حتى لو تعطّل محرّك آخر لكانت أكملت الطيران، ولكنها كانت ستنخفض رويداً إلى أن تبلغ مستوى الماء.

وسألته مندهشاً:

ـ هل تحدث مثل هذه الأمور؟

أجابني قائد الطائرة بهدوء.

ـ طبعاً تحدث. وفي هذه الطائرة بالذات إذا تعطّلت عن العمل ثلاثة

محركات دفعة واحدة فإن الطائرة ستهوي إلى الأسفل كحجر ترميه من علٍ.

تمّ إصلاح العطل في جزر الأزور وتابعنا طريقنا دون مفاجآت هذه المرة.

الحرب ما زالت مستمرة في أوروبا رغم أن الوحش الفاشي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. كانت محطّات كثيرة في طريقنا الذي مرّ عبر الدار البيضاء، تونس، طرابلس الغرب، بنغازي، القاهرة، حبانية (العراق)، طهران، باكو (هنا قدّم لنا الرفاق الأذربيجانيون الكافيار الأسود المكبوس الذي لم أكن قد ذقته منذ زمن. فالكافيار يستخرج في منطقه بحر قزوين أما تصديره إلى الولايات المتحدة فكان متوقفاً في ذلك الوقت بالطبع).

والقسم الأخير في الطريق امتد من باكو إلى موسكو. لزم بعض الوقت للعمل بجدٍ لامتناهٍ في مفوضية الشؤون الخارجية من أجل إعداد الوثائق المختلفة والشهادات الضرورية لعمل الوفد السوڤياتي الذي يستعد للاشتراك في المؤتمر.

توجّه الوفد السوڤياتي في قطار خاص من موسكو إلى سيمفروپل، الذي سار بسرعة بفعل إعطائه «الخط الأخضر».

اجتمع الوفد السوڤياتي بأكمله في مدينة سيمفروپل، باستثناء ستالين. كان مولوتوف رئيس الوفد بحكم وضعه بيننا.

بدأت الطائرات التي تقلّ الوفدين الأميركي والإنكليزي تصل إلى سيمفروپل. وقد نُظّم حفل استقبال للوفود هناك. سبق وصول روزڤلت وتشرتشل وفدي بلديهما اللذين يضمان موظفي المساعدة والخدمات لوفدي

الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى وأخصائيين مختلفين ومستشارين ومجموعات كبيرة من العسكريين. وقد بلغ تعداد الأميركيين والبريطانيين حوالي السبعمائة شخص، بمن فيهم رجال الخدمات التقنية.

تشرتشل كان أول القادمين بين الزعماء الثلاثة، وبعده روزفلت الذي أقلته طائرة إسمها «البقرة المقدّسة». حُملَ روزفلت على الأيدي وأُجلس في السيارة، وكان هذا دليلاً على وهنه.

اصطف حرس الشرف من الجنود السوفيات تحية للضيوف الكبار وعزفت الموسيقى. استعرض روزفلت حرس الشرف في سيارة بينما سار إلى جانبه على الأقدام تشرتشل ومولوتوف.

نُصبت على أرض المطار مباشرة خيمة كبيرة دُعي الضيوف إليها حيث طالعتهم الطاولات العامرة بالمأكولات الشهية.

وصعد الضيوف بعد ذلك إلى السيارات. كان الضباب الكثيف يلفّ المكان وهذا ليس أمراً غريباً بالنسبة للقرم في شهر شباط، غير أن الطقس السيء في ذاك اليوم «مازح» ضيوفنا بشكل سيء جداً. فقد كانوا موعودين برؤية جمال شاطىء القرم الجنوبي: الجبال والبحر والمناظر الخلاّبة. وبدلاً عن ذلك كله وجدوا أنفسهم وسط سديم أبيض كالحليب، والرؤية محجوبة حتى على بعد بضعة أمتار، السيارات تتحرك ببطء شديد وهي مضيئة المصابيح.

وسار رَتْلُ السيارات عدة ساعات إلى الهدف. وقاد السائقون السيّارات بحذر متناهي، فهم يعرفون أيّ ركّاب ينقلون. ولم يرَ أحدٌ شيئاً من حوله، فقط غيوم بيضاء متراصة من الدخان يُمكن لمسها باليد.

بدأ المنحدر باتجاه الشاطىء الجنوبي وهنا انحسر الضباب عصا سحرية فرقته، وأشرقت الشمس ودبّ الدفء. لقد استقبل القرم ضيوفه بحنو رغم كل شيء.

انتشر الجنود مزودين بالبنادق الرشاشة على طول الطريق، عند التعرّجات والجسور والمنحدرات والصخور، على طرقات القرى الجبلية وشواطىء الأنهر. لقد اتخذت كافة الإحتياطات الأمنية الضرورية. كيف لا وقد اجتمع «الثلاثة الكبار» كما أسموهم لأول مرة في طهران. متّع روزفلت ناظريه عبر نافذة السيّارة. وتوقف الرتل عند قصر ليڤاديا (*) أخيراً...

وصل كل وفد إلى مكان إقامته المحدّد له من قبل.

* * *

لقد تكونت لديّ انطباعات كثيرة من خلال عملي في الحقل الدبلوماسي، وأشدّها قوةً تلك المتعلقة بفترة عملي في الولايات المتحدة الأميركية. ويرتبط هذا بكون الفترة التي أمضيتها هناك كانت في زمن حرج ومتوتر جداً: زمن الحرب والعام الذي تلاها. وقد عمل دبلوماسيون كُثُرٌ في الولايات المتحدة وما زالت أذكر من سبقني في العمل هناك ومن خَلفني. كانوا أناساً مختلفين، بل أقول: مختلفين كلياً، غير أنهم جميعاً أسهموا في قضية تطوير العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية. وهاكم أسماؤهم: أ.أ. ترويانوفسكي، ك.أ. أومانسكي، م.م. ليتڤينوف، ن.ف. نوڤيكوف، أ.س. يانيوشكين، غ.ن. زاروبين، م.أ.

(*) ليڤاديا: منطقة في القرم فيها قصر تاريخي يحمل اسمها ـ (المترجم).

منشيكوف، أ.ف. دوبرينين. طبعاً، من بينهم جميعاً فإن ألسكندر فيودورونيتش دوبرينين قد خلّف أثراً عميقاً جداً، ذلك أنه بقي في عمله هناك بصفته سفيراً ما يقارب الخمس وعشرين سنة. إنه يتمتع بمعرفة فذّة للولايات المتحدة الأميركية. شخص آخر يُعتبر واحد. من الدبلوماسيين البارزين الأفذاذ، إنه يو.ف. دوبينين الموجود في واشنطن في الوقت الحاضر بصفته سفير الاتحاد السوڤياتي لدى الولايات المتحدة الأميركية.

طهران، يالطا، پوتسدام

الحرب العالمية الثانية ما زالت مستمرة، غير أن تحوّلاً تاريخياً قد حصل في مسارها في أواخر ١٩٤٢ وبداية ١٩٤٣. وغدا الهجوم الظافر للجيش الأحمر على كل شفة ولسان في أرجاء العالم.

وخلق تطوُّر الأحداث جملة من المشكلات التي تطلّبت حلاً سريعاً، إذ أملى التاريخ ضرورة إجتماع الحلفاء لمناقشة المشكلات الملحّة واضطلعت مؤتمرات قادة دول الحلفاء: الاتحاد السوڤياتي وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأميركية بدور الحلقة الرئيسية في أوالية (mechanism) تبادل الآراء وتنسيق الأعمال. وكانت هذه المؤتمرات تُعقد لتقرير المسائل حول كيفية إدارة الحرب وتحقيق النصر، وكانت تُصاغ، كذلك، أسس تنظيم العالم لفترة ما بعد الحرب.

وعُقدت ثلاثة مؤتمرات في الفترة ما بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٥، حيث عقد الأول في طهران (٢٨ تشرين الثاني / أوكتوبر - ١كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٣)، والثاني في يالطا (٤- ١١ شباط / فبراير ١٩٤٥)، والثالث في پوتسدام (١٧ تموز / يوليو - ٢ آب / أغسطس ١٩٤٥)؛ هذا وقد شاركتُ في المؤتمرين الأخيرين فقط.

وقد ترأست الوفود السوڤياتية، أو دخلت في عدادها، إلى عدة مؤتمرات للحلفاء ذات مستوى تمثيل آخر: وزراء وسفراء، وخصوصاً المؤتمرات حول إنشاء يونيرّا (Unerra / إدارة مساعدة وإعادة إحياء الأمم المتحدة)، وكذلك إلى المؤتمرات التي عقدت في دومبارتون ـ أوكس (التي خُصِّصت لمسألة إنشاء منظمة الأمم المتحدة). وشاركت في المؤتمرات التي بحثت في وضع الأسس النهائية، ومنها مؤتمر الإعداد لميثاق الأمم المتحدة الذي عقد في سان فرنسيسكو، واستسلمت ألمانيا الفاشية أثناء أعماله.

وقد نُشرت مقرَّرات مؤتمرات طهران والقرم وپوتسدام، فباتت في متناول كل من يرغب بالتعرُّف إليها، كما أن الإهتمام بها لم يَخْبُ حتى أيامنا هذه، ذلك أن الناس يسعون إلى إمتلاك تصوُّر موضوعي وواقعي عن سير الأحداث في سنوات الحرب وفي الفترة التي أعقبتها.

وجدير بالذكر أن هذه المقررات غدت موضوعاً للتزييف الواعي من قبل بعضهم في الغرب، في محاولة لتحريفها والسعي إلى التشكيك بمصداقية إتفاقيات الحلفاء وتشويه جوهرها الحقيقي، فضلاً عن أن ثمة دعواتٍ تُطلق مستهدفة رفضها. وإنَّ محاولاتٍ من هذا القبيل تعكس نهج قوى الرجعية الرامي إلى تخريب الواقع السياسي ـ الجغرافي القائم في أوروبا ونسف أسس نظام ما بعد الحرب الذي تواضع المؤتمرون على قبوله.

أعتقد أن القارىء سيهتمّ بالاطِّلاع على بعض الذكريات المتعلِّقة بمؤتمرات دول الحلفاء الثلاثة والوضع الذي انعقدت فيه.

ماذا جرى في طهران؟

أخذ قادة دول الحلفاء الثلاث يطرحون فكرة اللقاء فيما بينهم بقَدر تطوّر الأحداث على جبهات الحرب بالتحديد.

حملت الإقتراح حول لقاء «الثلاثة الكبار» في طهران إلى روزفلت مُضَمَّنا في رسالة من ستالين مؤرخة في ٥ تشرين الثاني / نوڤمبر ١٩٤٣؛ وقد كتب الرئيس الأميركي في رسالته الجوابية ما يلي: «إن العالم كلّه ينتظر لقاءنا نحن الثلاثة. وسيحمل حدث تعارفنا فيما بيننا شخصياً، أنت وتشرشل وأنا، نتائج بعيدة المدى... كما سيُسهم في الانهيار اللاحق لحالة النازية المعنوية...»

وفي الأوساط الرسمية الأميركية اليوم يتذكرون دونما رغبة بعض الظروف التي أحاطت بمؤتمر طهران، كما يفعلون ذلك في لندن برغبة أقلّ. لكنّ هذا المؤتمر أصبح معبّراً في أوجهٍ كثيرة منه، هذا إذا ما غضضنا النظر عن مغزاه بحدّ ذاته. فقد مثَّل مرحلة مهمة في تطوّر علاقات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية.

ولقد سنحت لي الفرصة بحكم عملي أن أكون في أجواء ذاك الجهد المضني الذي دار بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا لتنظيم هذا المؤتمر، وكذلك الاشتراك فيه، ومن ثم في تنفيذ مقررات «الثلاثة الكبار» في الواقع. وأريد هنا أن أشير إلى جملة مسائل اتَّسم نقاشها في طهران بأهمية كبرى.

تأكدَت مخاوف ستالين التي كانت موجودة قبل انعقاد مؤتمر طهران حول أن الحلفاء الغربيين يرمون إمَّا إلى إفراغ فكرة فتح الجبهة الثانية ضد

ألمانيا الهتلرية من محتواها، أو إلى إلغائها من أساسها. وتولّد إحساس بعدم الثقة في موسكو حيال سياسة شركائنا في التحالف المعادي للهتلرية بسبب المناورات التي خاضوها حول هذه الفكرة، وخصوصاً تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، وكذلك تأخير تاريخ بدء العمليات العسكرية في غرب أوروبا من قبل قيادتي الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا.

وتلخّص الموقف البريطاني في الزعم القائل بإمكان إنزال الهزيمة بالخصم عن طريق سلسلة من الضربات في الاتجاه الجنوبي لاستنزاف عملياته العسكرية، على أن تكون هذه الضربات في الأجزاء الشمالية من إيطاليا والبلقان ورومانيا وغيرها من البلدان التابعة لألمانيا. فالمغزى الحقيقي لهذا الموقف الذي دافع عنه تشرشل بشراسة لم يعد سراً، وهو يتلخّص في عرقلة تقدّم القوات السوڤياتية نحو الغرب إلى عرين الوحش الفاشي، إلى برلين من جهة، وتأمين وصول جيوش الحلفاء إلى الحدود الغربية للاتحاد السوڤياتي عن طريق احتلالهم جنوب شرق أوروبا.

وقد عمل ستالين بحزم في مؤتمر طهران لدفع الحلفاء إلى فتح الجبهة في غرب أوروبا في فترة زمنية لا تتعدّى شهر أيّار / مايو من عام ١٩٤٤، وهذه الحقيقة يجب أن يعرفها العالم بأسره، فهي صفحة في التاريخ مكتوبة إلى الأبد.

ولعل السفراء أناس واسعو الاطّلاع بحكم طبيعة عملهم، فهم لا يجمعون المعلومات في الدولة التي يعملون فيها فقط، بل إنهم يتلقّون المعلومات السرّية من عواصم بلدانهم أيضاً.

وأتذكر أنّ برقيّة بهذا الطابع وردتني إلى واشنطن أثناء أعمال مؤتمر طهران، أُعلَم فيها عن سير أعمال المؤتمر.

حاول ستالين أكثر من مرّة أثناء المؤتمر الحصول على جواب من تشرشل عن موعد إنزال جيوش الحلفاء في أوروبا، أي متى ستُفتح الجبهة الثانية، لكنه لم يحصل على هذا الجواب. وفي إحدى المرّات ضبط ستالين أعصابه بصعوبة، ونهض من كرسيه قائلاً لڤوروشيلوف ومولوتوف:

ـ أعمالنا كثيرة في الوطن، وهذا لا يسمح لنا بإضاعة الوقت هنا. يبدو لي أن لا نتائج مفيدة من بقائنا هنا...

إرتبك تشرشل، لخوفه من إنفراط عقد المؤتمر فأعلن قائلاً:

ـ لم يفهمني الماريشال بصورة دقيقة. يمكن تحديد شهر أيار عام ١٩٤٤ موعداً...

وساد الجو بعض انفراج.

وتابع المشاركون في المؤتمر أعمالهم، واتّخذ الحلفاء الغربيون موقفاً بنّاءً أكثر من السابق. ومع أن التاريخ الذي اتُفق عليه للبدء بعملية «أوڤرلورد» (إسم عملية فتح الجبهة الثانية) لم يُراعَ، فإن نزول القوات الإنكليزية ـ الأميركية على الشاطىء الفرنسي قد تمّ في ٦ حزيران ١٩٤٤.

شكل مؤتمر طهران علامة رئيسية من ناحية أخرى، فمع موعد انعقاده لم يبقَ أدنى شكّ في تحقّق النصر النهائي على ألمانيا الفاشية وحلفائها، وبدا أنها مسألة وقت فقط. أما ماذا ستكون عليه الأمور بعد النصر، فقد كان سؤالاً يقرع أبواب المشاركين في المؤتمر.

اعتبر الاتحاد السوڤياتي أنه من الضروري درء أيّ إمكانية لعدوان

جديد قد تشنّه ألمانيا التي أشعلت حربين عالميتين في القرن العشرين؛ كما ويجب بذل كل الطاقات في هذا المجال لتأمين سلم وطيد.

لم تعلن حكومتا أميركا وإنكلترا رسمياً قبل مؤتمر طهران عن خططهما في ما يتعلق بألمانيا بعد إلحاق الهزيمة بها. ولكن كانت تصدر في الحقيقة إشاعات من عاصمتَي البلدين عن أن خططاً تتمخَّض لتجزئة ألمانيا إلى عدة دويلات صغيرة.

أيَدت الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا فكرة تفتيت ألمانيا أثناء تبادل الآراء في المؤتمر حول مشكلات ما بعد الحرب، ولكن بدا أن روزفلت وتشرشل على السواء لا يملكان مشروعاً مدروساً في هذا الصدد. ومع ذلك فقد التقى الاثنان في قناعتهما حول ضرورة إعادة پروسيا إهتماماً خاصاً وتقليص مساحتها وتقطيع أوصالها، بوصفها الجزء الأكثر عدوانية في الرايخ الألماني.

وأدلى ستالين بملاحظة صائبة، بعد سماعه تصريح الرئيس الأميركي ورئيس الوزراء البريطاني:

ـ في ساحة الحرب يقاتل الپروسيون وجنود الأجزاء الأخرى من ألمانيا، الباڤاريون والسكسونيون وغيرهم، بعنف متشابه. لا يجوز البحث عن حلّ المشكلة الألمانية، كما أرى، عن طريق تحطيم الدولة الألمانية، لأنه من المستحيل تحطيم ألمانيا، كما إنه من المستحيل تحطيم روسيا. علينا إيجاد الحلّ عن طريق تجريدها من السلاح وتنظيمها على أسس ديمقراطية، مع ضرورة القضاء على الفاشية والآلة العسكرية وتقديم قادة «الرايخ الثالث» المجرمين أمام قضاء الشعوب.

وتابع ستالين حديثه مقترحاً أمراً بسيطاً:

ـ بما أن الموضوع يحتاج إلى تفكير أعمق وإعداد أوسع لذلك أقترح أن يدرسه مختصون من الدول الثلاث.

وافق المشاركون في المؤتمر على هذا الاقتراح. وقد كان ذلك نجاحاً يُسجَّل للقائد السوڤياتي.

المسألة البولندية

تبادل قادة الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الآراء في طهران حول المسألة البولندية. وفي تعاطي حلفائنا مع هذا الموضوع برزت لديهم مخاوف بصدد اقتراب خط الجبهة السوڤياتية ـ الألمانية من أراضي بولندة، وبالتالي اقتراب ساعة تحريرها. وقد خشي حلفاؤنا بشكل خاص من أنه سيكون بمستطاع الديمقراطية في بولندة، التي كانت تخوض نضالاً مريراً ضد الفاشية في إطار حركة تحريريّة، إنشاء أجهزة لدولة تكون مخلصة لشعبها وصديقة للاتحاد السوڤياتي.

لذلك فقد سعت الأوساط الحاكمة الأميركية والبريطانية في ظل الظروف الناشئة، إلى وضع بولندة ما بعد الحرب على الطريق البرجوازي ـ الإقطاعي القديم. كما حاولت هذه الأوساط تحقيق عودة الحكومة الرجعية الموجودة في المنفى إلى البلاد. وكانت تجري المحاولات من هذا المنطلق لدفع الاتحاد السوڤياتي إلى إعادة العلاقات الديبلوماسية مع هذه الحكومة، والتي كانت قد انقطعت في ٢٥ نيسان ١٩٤٣ بسبب سياستها المفضوحة المعادية للسوڤيات.

وتجلّت سياسة واشنطن ولندن هذه في أن الحكومة النازحة خرقت الاتفاق الذي تَمّ التوصّل إليه بين بلدينا، وسحبت وحداتها القتالية التي

شكلتها على الأراضي السوڤياتية، وطرحت مطالب سخيفة في موضوع الحدود بين بولندة والاتحاد السوڤياتي، ملتقية بذلك عملياً مع تلفيقات الدعاية الهتلرية الكاذبة ضد الاتحاد السوفياتي.

وكان روزفلت أوّل من افتتح النقاش حول المسألة البولندية في جلسات المؤتمر الرسمية. قال:

ـ آملُ أن الحكومة السوڤياتية ستبدأ المباحثات لإعادة العلاقات مع الحكومة البولندية النازحة.

كان ذلك إيذاناً بدخول واضح على الموضوع.

وقد أيّده تشرتشل بحرارة. فالحكومة البولندية النازحة قد تحصنت في لندن، التي راحت تغطيّها وتؤمّن لها الحماية.

وقد بنى روزڤلت موقفه من المسائل البولندية آخذاً بعين الاعتبار الانتخابات الرئاسية المقبلة في الولايات المتحدة عام ١٩٤٤، وذلك انطلاقاً من اهتمامه بكسب سبعة ملايين أميركي من أصل بولندي إلى جانبه، والقسم الأكبر منهم كان متأثراً بالحملة الدعائية المشبعة بالعداء للسوڤيات في الولايات المتحدة الأميركية.

ومع ذلك فقد أبدى روزڤلت بعض الحذر من محاولات تشرشل الرامية إلى فرض حكومة على بولندة تجهر بمشاعر العداء للاتحاد السوڤياتي. وقد افترض، على أساس واقعي، أن هذه المحاولات ربما ستؤدي إلى انشقاق في صفوف الحلفاء لا ترغب الولايات المتحدة الأميركية في حدوثه. ومن العلامات البارزة في هذا الصدد المقابلة التي أجرتها صحيفة «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٩ كانون الثاني / يناير ١٩٤٤

مع آڤريل هاريمان السفير الأميركي في موسكو، الذي تنكّر لنهج الحكومة البولندية النازية، وقال بشكل واضح:

ـ إن هذه الحكومة تخطط لمستقبل بولندة على أساس صراع بريطانيا العظمى والولايات المتحدة مع الاتحاد السوڤياتي. وأنا لا أرى أن لنا مصلحة في وضع كهذا بأي شكل من الأشكال.

كان تصريحاً مشرفاً لهذا الديبلوماسي.

هل كانت هناك أيّ مؤشرات تسمح للاتحاد السوڤياتي بإعادة العلاقات مع الحكومة البولندية النازحة؟ طبعاً لا. فقد تابعت هذه الحكومة مؤامراتها ضد بلادنا، واستمرت بالابتعاد في سياستها عن مصالح الشعب البولندي، وقد فقدت بالتالي ثقته بها رويداً.

ولم يكن معقولاً أن تشرشل وروزڤلت لم يريا رعونة هذه السياسة، حتى أنهما حاولا إقناع الحكومة النازحة بالعدول عن تهوّرها إلا أن مساعيهما ذهبت سُدىً. وسرعان ما انحدرت الحكومة البولندية النازحة إلى كومة النفايات.

وعرض المشاركون في مؤتمر طهران وجهات نظرهم في موضوع حدود بولندة المستقبلية أيضاً. ففي اقتراحه للحدود التي يجب أن تقوم بين الاتحاد السوڤياتي وبولندة وألمانيا، طرح تشرشل ثلاثة أعواد ثقاب على الطاولة، مثل كل عود فيها إحدى الدول الثلاث، وقال:

ـ يجب إزاحة هذه الأعواد باتجاه الغرب من أجل حلّ واحدة من المسائل الأساسية القائمة أمام الحلفاء. ألا وهي ضمانة حدود الاتحاد السوڤياتي الغربية.

تجدر الاشارة إلى أن إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية اعترفتا بحق بلادنا المشروع في هذا الموضوع، ولكن كان إقرارهما هذا دون حماس يُذكر.

واستوضح ستالين من تشرشل قصده في مثال أعواد الثقاب بالنسبة إلى المسائل المحددة، فقال:

ـ المقصود في الأمر حدود عام ١٩٣٩ بين الاتحاد السوڤياتي وبولندة. إن الاتحاد السوڤياتي متمسك بها ويعتبر موقفه سليماً.

كان الحديث يدور عن الحدود التي تحدّدت نتيجة توحيد غرب بيلوروسيا وغرب أوكرانيا مع جمهوريتي بيلوروسيا وأوكرانيا السوڤياتيتين.

أما موقف بلادنا الثابت فقد كان إلى جانب ضمان حدود عادلة لبولندة مثبّتة تاريخياً، ومن أجل أن تتحوّل حدودها إلى عامل للأمن والسلام الدائمين في أوروبا، هذه الحدود التي شكلت في الماضي ذريعة لتأجيج الصراعات والحروب في القارة.

وقد أقرّ مؤتمر طهران في نهاية المطاف الصيغة التالية: «... إن موطن الشعب البولندي وحدود دولته يجب أن تمتد بين ما يسمّى بخط كيرزون وخط نهر أودر...» وتضمَّنت هذه الصيغة وجهة النظر السوڤياتية، فقد تمّ الاتفاق من حيث المبدأ على أن تُضَمَّ مدينة كنيغسبرغ والأراضي التابعة لها إلى الاتحاد السوڤياتي.

وهكذا، فإن حلّ مسألة بولندة وحدودها قد وُضع في طهران بمبادرة من الوفد السوڤياتي على الخط الذي يستجيب لمصالح الشعب البولندي

في قاعة جلسات مؤتمر بوتسدام. تموز، ١٩٤٥.

في الإستراحة بين جلسات المؤتمر.
لقاء الوفد السوفياتي برئاسة ي. ب. ستالين.

مع المغني والممثل الأميركي
بول روبسون.
واشنطن، ١٩٤٥.

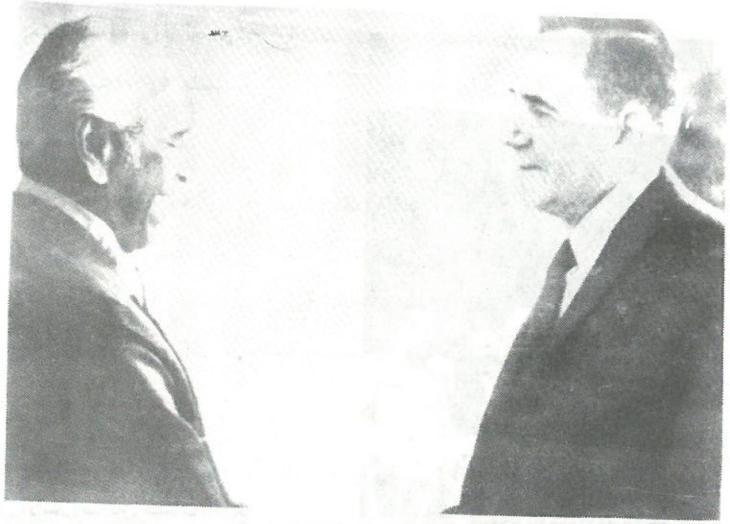

لقاء مع شارلي شابلن في لندن. نيسان، ١٩٥٦.

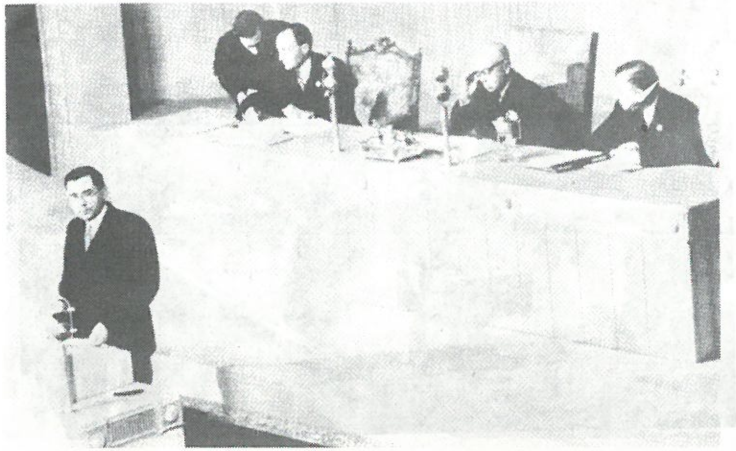

خطاب في دورة الإجتماعات الأولى للجمعية العامة للأمم المتحدة. لندن، كانون الثاني، ١٩٤٦.

خطاب أ.أ. غروميكو في جلسة مجلس الأمن. الممثل السوفياتي يعلن أن حكومته تؤيد السحب العاجل لكافة القوات البريطانية من الأراضي المصرية.
لايك ساكيس. نيويورك، ٢٠ آب، ١٩٤٧.

لقاء وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى مع الرئيس أيزنهاور.
من اليمين أ.أ. غروميكو، سيلفين لويد، أيزنهاور، موريس كوف دي مورفيل، كريستيان هرتر، واشنطن، ١٩٥٧.

لقاء مع وزير الخارجية الأميركي جون فوستردالاس.
في الوسط: سفير الإتحاد السوفياتي في الولايات المتحدة الأميركية غ.ن. زاروبين - ١٩٥٧.

لقاء ك.ي. مورشيلوف وأ.أ. غروميكو مع هوشي منه. ١٥ تموز ١٩٥٧.

مع شو إن لاي أثناء زيارة رسمية إلى الصين، للإحتفال بالذكرى العاشرة لقيام جمهورية الصين الشعبية. بكين، ١٩٥٩.

أثناء زيارة إلى الهند . مع جواهرلال نهرو .
١١ - ١٦ شباط ١٩٦٠ .

مع أمين عام الأمم المتحدة دوغ هامر شولد في الممثلية السوفياتية لدى الأمم المتحدة . نيويورك، ٥ تشرين الأول . ١٩٦٠ .

توقيع البيان السوفياتي، الأندونيسي المشترك خلال الزيارة الرسمية للرئيس الأندونيسي إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٦ .

في الصورة، وزير خارجية أندونيسيا رسلان عبد الغني و أ.أ. غروميكو يوقعان البيان .

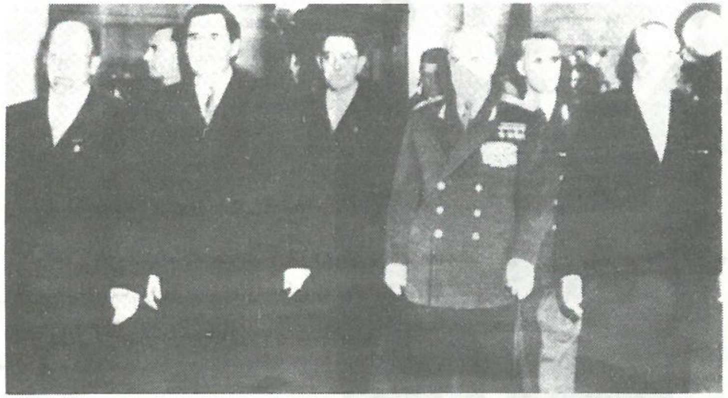

برلين، ١٢ آذار ١٩٥٧ . بعد توقيع إحدى الإتفاقيات بين الاتحاد السوفياتي وجمهورية ألمانيا الديمقراطية . أ.أ. غروميكو ومارشال الإتحاد السوفياتي غ.ك. جوكوف مع قادة ألمانيا الديمقراطية .

لقاء مع جون كينيدي في واشنطن ـ ١٠ أيلول سنة ١٩٦٣، قبل شهرين من إغتياله.

مع وزير الخارجية البريطاني الكسندر دوغلاس هيوم (رئيس الوزراء لاحقاً). في الوسط: المستشار ف. ف. بتروفسكي (نائب وزير الخارجية السوفياتي حالياً). نيويورك، ١٩٦٢.

ولمهام ضمان الأمن الأوروبي والدولي على السَّواء. إذ لم يكن بمقدور بلادنا السماح ببقاء بولندة ألعوبة سياسية في أيدي الأوساط الإمبريالية في الغرب، أو بتحويلها إلى رأس حربة في مغامرات معادية للسوڤيات. أوضح ستالين هذا الموقف تلميحاً إلى كلٍّ من روزڤلت وتشرشل، وقد تفهم قائدا الدولتين الحليفتين المنطق الذي يحمله الموقف السوڤياتي.

بقيت الحلول المحدَّدة للمسائل البولندية قيد الإقرار في المستقبل، إلاّ أن عرض مواقف الأطراف المتعلِّقة بهذه المسألة، المعقَّدة والمعقَّدة للعلاقات بين دول الحلفاء، تحوَّل إلى عامل إيجابي أسهم في المعالجة اللاحقة لـ « الموضوع البولندي ».

وشكَّلت مناقشة المسألة الألمانية في طهران، على غرار المسألة البولندية، نقطة دفع في عددٍ من الحالات من أجل إعداد الاتفاقات السياسية التي تحقَّقت فيما بعد في يالطا وپوتسدام.

حمل إعلان رئيس الحكومة السوڤياتية عن استعداد الاتحاد السوڤياتي للاشتراك في الحرب ضد المعتدين اليابانيين، معنىً كبيراً من أجل تعزيز تحالف الدول الثلاث العسكري ولإنهاء الحرب بشكل سريع أيضاً. وقال ستالين في عبارات متقنة:

ـ إنَّ الاتحاد السوڤياتي مستعدٌ لتقديم المساعدة المتوجِّبة عليه لحلفائه في الحرب ضد اليابان العسكرية، وذلك بعد أن يتمَّ تحطيم ألمانيا الهتلرية. كان

كان الحديث في طهران حول تعاون الحلفاء بعد الحرب من أجل إقامة سلام دائم حديثاً مهماً على قصره. وقد عرض المشاركون وجهات نظرهم باقتضاب في ما يخصّ إنشاء منظمة أمن دولية.

غير أن قراراً لم يُتخذ في هذا الصدد، وبقي الأمر موضوع بحث

لاحق. ورغم ذلك، فإنّ فكرة تعاون الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى في سبيل السلم الدولي، لقيت انعكاسها في إعلان الدول الثلاث الصادر عن مؤتمر طهران، والذي جاء فيه: «... إنّنا واثقون من أن الوفاق القائم بيننا سيؤمن سلماً دائماً وإنّنا نُقِرُّ ونقدِّرُ المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقنا وعلى عاتق كافة الأمم المتحدة في تأمين سلم كهذا، يحظى باستحسان الغالبية العظمى من شعوب الكرة الأرضية ويدفع عنها مآسي الحرب وأهوالها لأجيال عديدة».

هذا، وقد اعتبر المشاركون في مؤتمر طهران اللقاء ضرورياً ومفيداً. وتلخص إنجازه الأكبر والأهم في النجاح بتحديد موعد فتح الجبهة الثانية من قبل الحلفاء في فرنسا. وبهذا تكون قد رُفضت «الاستراتيجية البلقانية» الإنكليزية التي هدفت إلى إطالة أمد الحرب وزيادة عدد ضحاياها. وجاء في الإعلان الذي وقّعه روزڤلت وستالين وتشرشل: «إنّ التفاهم المتبادل الذي حقّقناه هنا يضمن لنا النصر».

قام تشرشل بعمل رمزي مؤثّر أثناء أعمال مؤتمر طهران، فبتكليف من جورج السادس ملك بريطانيا قدّم لستالين سيفاً لتسليمه إلى سُكّان مدينة ستالينغراد عربوناً للاحترام الذي يكنّه لهم العاهل البريطاني.

بعد طهران

رحّبت الأوساط السياسية والاجتماعية الأميركية بنتائج مؤتمر طهران. وقد تسنّى لي في أحد أيام كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩٤٣ التحدث إلى فرانك ڤولكير وزير البريد الذي يُعدّ من المقرّبين إلى روزڤلت. قال ڤولكير:

- إن الحكومة الأميركية تثمّن عالياً هذه النتائج وثمة وحدة في الرأي تسود الأوساط الرسمية حول أنّ لقاء طهران يدشّن مرحلة جديدة لتعزيز علاقات الصداقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي في المستقبل.

كانت كلمات مهمّة وقيّمة فعلاً. وأعلن ڤولكير:

لقد أثبت المؤتمر أن هناك إمكانيات واقعية بين البلدين لا في فترة الحرب فحسب، بل وفيما بعد أيضاً.

وبعد عودته من طهران جمع روزڤلت أعضاء إدارته وعرض لهم بحرارة بالغة أجواء التعاون الذي تميّز به مؤتمر طهران بشكل عام، ومدح المساهمة التي قدّمها الوفد السوڤياتي لإنجاحه.

وثمن معظم أعضاء الكونغرس الأميركي بالإجماع الدلالة الكبيرة للمؤتمر. أما في ما يتعلّق بالصحف الأميركية الكبرى فقد كانت تزيّن صفحاتها الأولى بالعناوين التالية: «الحلفاء يقسمون على بدء الهجوم الثلاثي»، أو: «الثلاثة الكبار» توصّلوا إلى الاتفاق التام في طهران».

أما أصوات نشاز أولئك المستائين من التقارب بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوڤياتي، التي برزت آنذاك، فقد غرقت في لُجّة أصوات الأميركيين الراضين والمؤيّدين لنتائج لقاء طهران.

وقد تسنّى لي في هذا الجو (كانون أوّل / ديسمبر ١٩٤٣) زيارة كوبا، وذلك للمرّة الأولى، ذلك أنني عُيّنتُ فيها سفيراً للاتحاد السوڤياتي، إضافة إلى عملي في الولايات المتحدة، بعد إقامة العلاقات الديبلوماسية بين بلدينا. وكان عليّ أن أتوجّه إلى هذه الجزيرة لأقدّم أوراق اعتمادي.

والمسافة بين واشنطن وكوبا قصيرة، ومع ذلك لم يكن هناك آنذاك خط طيران مباشر مع الجزيرة، بـل كـان على الطـائـرة أن تتـوقّـف في جاكسون ڤيل كبرى مدن ولاية فلوريدا.

طرتُ إلى هاڤانا بصحبة زوجتي ومساعدي، فمكثت هناك يومين قمت خلالها بواجبي الدبلوماسي. واستحدثت في هاڤانا سفارة سوڤياتية بقي فيها الدبلوماسي السوڤياتي د. إي. زائيكين بصفة قائم بالأعمال.

واضطررنا في طريق العودة إلى المبيت في جاكسون ڤيل بسبب رداءة الطقس. وقد علقت تلك الحادثة في ذاكرتي لأنها أتت موافقة لليلة رأس السنة. وجلّ ما في الأمر أنّ صاحب الفندق ما إن علم بهوية ضيوفه لهذه الليلة، حتى انبرى يعرب على طريقته عـن تقـديـره لانتصـارات الجيش السوڤياتي على الجبهة، وقرّر استرضاء الضيوف:

ـ لقد هيّأتُ لكم مفاجأة، عشاء من الأطباق الروسية.

لعلَّ ما قُدّم لنا لم يكن فيه شيء روسي سوى الاسم. ومع ذلك فقد حل هذا العمل في طيّاته انعكاساً لعلاقة الصداقة التي يكنُّها الأميركيون للشعب السوڤياتي. وترك هذا الاهتمام أثراً طيباً في نفوسنا.

توعَّكَ روزڤلت بعض الوقت بعد طهران، مما جعل لقائي به حول نتائج اجتماع «الثلاثة الكبار» يتأخر حتى بداية شهر شباط (فبراير). بدأ الرئيس الحديث:

ـ لقد أقمتُ علاقات جيدة مع ستالين.

وروى لي بعد ذلك الخطوط العامة لعمل المؤتمر. وقد كنت بدوري على علمٍ بأشياء كثيرة مما قاله لي، لأن موسكو كانت قد أخطـرتني عـن

أعمال مؤتمر طهران. إلاّ أن هميّ كان أن أعرف رأي الرئيس الشخصي بالمؤتمر. قال:

لقد تطلّب الأمر لتحقيق الوفاق في المؤتمر بعض الضغط على تشرشل الذي كان يتحوّل ببطء، لكنه استدار في نهاية الأمر إلى جانب البحث عن اتفاقات، وقد توصّلنا إلى هذه الاتفاقات.

منحني الرئيس ابتسامة «روزڤلت» الوديعـة لـدى ذكـر تشرشـل، موضحاً بذلك أن رئيس الوزراء البريطاني شريك صعب، يسبِّب الكثير من المتاعب حتى لروزڤلت نفسه.

كانت السفارة السوڤياتية ترقب بانتباه ردّة الفعل في الولايات المتحدة الأميركية حول نتائـج مـؤتمر طهـران، كما قـامـت بجهـد كبير لشرح مقرراتها. ولقد سررت كغيري من المواطنين السوڤيـات الموجـوديـن في الولايات المتحدة الأميركية بنجاح أعمال المؤتمر، فالنهاية الإيجابية للقاء قادة الدول الثلاث في طهران عجَّلت بمجيء يوم النصر على ألمانيا الفاشية.

في قصر ليڤاديْا

انعقد اللقاء التالي لقادة الدول الحليفة الثلاث في القرم، بعد انقضاء عام ونيِّف على مؤتمر طهران.

شباط (فبراير) من عام النصر، عام ١٩٤٥... يالطا. قصر ليڤاديا، كان يرتاح هنا بالذات آخر قيصر روسي من سلالة رومانوف.

كان كل شيء موشّحاً بحلّة الاحتفال والعظمة. دخل ستالين قاعة المؤتمر يتبعه الوفد السوڤياتي، حيث خيّم صمت مطبق. حيّاهُ كلٌّ من

روزفلت وتشرشل باحترام، بانحناءة رأس. وتجدر الإشارة إلى أن الزعيمين كانا في هذه الأثناء ـ يحتلاّن مكانهما على طاولة المؤتمر. كان الزعماء الثلاثة قد التقوا قبيل المؤتمر لبضع دقائق. اقترب ستالين من الطاولة وصافح تشرشل الذي نهض لملاقاته، ثم روزفلت الذي بقي في مكانه، إذ لم يكن بمقدور الرئيس الأميركي النهوض من كرسيه بسرعة دون عون من مساعديه، وذلك بسبب حالته الصحيّة.

كان على جدول أعمال الجلسة الأولى بحث المسائل العسكرية، وهذا بحدّ ذاته أمر منطقي.

وقد ضمّ وفدنا نائب رئيس الأركان العامة للجيش الأحمر الجنرال ألكسي إينوكنتيفيتش أنطونوف الذي ترأس مجموعة الخبراء العسكريين السوفيات إلى المؤتمر. ووفقاً لتمنيّات رؤساء الوفود كان أنطونوف يلتقي يومياً ممثلي الأركان العامة لقوات الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا العظمى المسلّحة، بهدف تبادل المعلومات الحربية وتنسيق الضربات المشتركة الموجّهة للعدو.

وقدّم أنطونوف في الجلسة الأولى عرضاً للوضع على الجبهة السوفياتية ـ الألمانية.

وكان الحلفاء قد فتحوا أخيراً الجبهة الثانية بعد عملية إنزال جيوشهم في النورماندي، وأصبحت هذه الجبهة تُسمّى بالجبهة الغربية. وتعقّد الوضع في جبال الآردين بعد عملية الاختراق التي قامت بها القوات الفاشية الألمانية على هذه الجبهة. وطلب تشرشل العون من ستالين، فقرّرت القيادة العسكرية العليا السوفياتية تسريع سير الأحداث استجابة لهذا الطلب. وبدأت القوات السوفياتية العملية في ١٢ كانون الثاني / يناير، على الرغم

من أنها لم تكن مستعدّة بما فيه الكفاية للانتقال إلى الهجوم (فالخطة تبقى خطة).

وقال أنطونوف في تقريره:

ـ وصلت القوات السوفياتية المقاتلة على جبهة برلين الستراتيجية الرئيسية إلى مشارف نهر أودِر في منطقة كيوسترين واحتلت منطقة سيليزيا الصناعية وذلك قبل ثلاثة أيام من افتتاح المؤتمر. لقد قطعت قواتنا أكثر من خمسمئة كيلومتر في قتال عنيف على امتداد ثمانية عشر يوماً. وتم القضاء على خمس وأربعين فرقة وقُطعت الطرق التي تصل تجمعات العدو في بروسيا الشرقية مع المناطق الوسطى في ألمانيا.

كانت معلومات مؤثّرة. فقد قدّمت القوات السوفياتية معونة كبيرة للحلفاء. وكان روزفلت وتشرشل يصغيان بانتباه فائق. وتابع الجنرال السوفياتي قائلاً إن الهتلريين بدأوا بنقل فرقهم من الجبهة الغربية إلى الشرقية. واقترح الجانب السوفياتي في هذا الصدد، تسريع هجوم الجيوش الحليفة على الجبهة الغربية على أن يقصف الطيران تلك الأرتال والقوافل المتجهة من الجبهة الغربية إلى الشرقية وعدم تمكين العدو من سحب قواته من إيطاليا.

أصغى روزفلت إلى المعلومات بانتباه متزايد، أمّا تشرشل فكان ينفخ دخان سيجاره وهو مثبّت نظره على المتحدث. كانت الترجمة تتمّ بشكل متتابع: إذ كان الخطيب في البداية يليه المترجم، فمن ذلك الحين لم تكن غرف الترجمة الفورية والسمّاعات قد اكتُشفت بعد. ورغم ذلك فقد كان تشرشل ينظر طيلة الوقت إلى الجنرال السوفياتي دون المترجم.

عندما أخذ ستالين الكلام خلال الجلسة توجّهت أنظار الحضور كافّة

إليه ، وأخذوا يلتقطون كل كلمة يتفوّه بها . وكانت خطاباته عادة مؤلّفة من جمل قصيرة ، لكنه غالباً ما تحدث بأسلوب يجعل من كلماته تخدش آذان الزعيمين الغربيين ، مع أن أقواله لم تكن حادّة أو غليظة من حيث الشكل ، فقد كان ملتزماً الحصافة في كلامه .

وبرز للعيان أن ردود فعل روزڤلت وتشرشل لم تكن متطابقة في ما يتعلق بكلام ستالين . روزڤلت يصغي بهدوء وتفهّم في حين أن تشرشل كانت ترتسم على وجهه علائم الصرامة ، بل عدم الرضى الذي لا يقوى على إخفائه . كان رئيس الوزراء البريطاني يسعى جاهداً إلى عدم البوح بمشاعره لكن سيجاره كان يفضحه ، فقد كان يشعله في لحظات التوتر والقلق أكثر بكثير من الأوقات العادية . وأعقاب السيجار أكبر شاهد على الأجواء التي كانت سائدة في هذه الجلسة أو تلك . وقد لاحظ الجميع هذا الأمر حتى أن تشرشل تحوّل إلى موضوع للمزاح في غيابه طبعاً .

للحقيقة أقول إن ستالين لم يخفِ ميله إلى روزڤلت ، الأمر الذي لا يمكن قوله عن علاقته برئيس الوزراء البريطاني ، ولعل تفسير ذلك العطف على روزڤلت بسبب مرضه . غير أنّني كنت والرفاق الآخرون معي مقتنعين بأنّ العامل الأهمّ والأكبر في نشوء علاقة كهذه يعود إلى التمايز بين روزڤلت وتشرشل في مواقفهما السياسية .

لا أذكر مرّة واحدة فات فيها مسامع ستالين رأي وجيه لشركائه في المؤتمر أو أنه لم يستمع حتى النهاية إلى هذا الرأي . كان يلتقط كنه أقوالهم بسرعة يُحسد عليها ، ويمكن تشبيه ذاكرته وانتباهه بالكومبيوتر ، بحسب لغة اليوم ، لمقدرته على عدم تفويت أي شيء يقال في حضوره . لقد فهمت أثناء أعمال الجلسات في قصر ليڤاديا ربّما أكثر من أي وقت مضى ،

الصفات الإستثنائية التي كان يتمتع بها هذا الرجل .

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن ستالين أولَى إنتباهه إلى مسألة أن يكون جميع الأعضاء الرئيسيين في الوفد السوفياتي مدركين للمهام الأساسية المطروحة أمام المؤتمر والمهمة من وجهة نظره . كان ستالين على علمٍ بالطبع بالعمل الضخم الذي شهدته معظم المؤسسات الحكومية ، بما في ذلك مفوضية الشعب للشؤون الخارجية ، والمتعلّق بإعداد المواد اللازمة للمؤتمر . ويدخل في عداد ذلك مشاريع القرارات والبيانات المشتركة والمذكرات والبلاغات إلخ . غير أن فكرة واحدة كانت شغله الشاغل في هذا الخضمّ الواسع ، ألا وهي جوهر المسائل المطروحة على بساط البحث وضرورة عدم تغييبها من مجال الرؤية .

لقد قاد ستالين نشاط الوفد السوڤياتي بثقة كبيرة ، كانت تنتقل إلينا جميعاً ، نحن المشاركين في أعمال المؤتمر ، وخصوصاً من كان بقربه على طاولة المفاوضات .

بالرغم من ضيق الوقت كان ستالين يجد الفرصة للعمل داخل الوفد وللتحدّث على الأقلّ إلى الأشخاص الذين يسمح لهم موقعهم بالإدلاء بآرائهم في المسائل المطروحة للبحث وإلى أولئك المكلفين بمتابعة الاتصالات مع أعضاء الوفدين الأميركي والبريطاني .

وكانت هذه اللقاءات « الداخلية » تتغيّر بحسب عدد المشاركين فيها والظروف التي كانت تُعقَد فيها . أقام ستالين ذات مرّة لقاءً يشبه إلى حدٍّ ما « كوكتيل ـ پارتي » (هكذا تُسمَّى اللقاءات في الولايات المتحدة الأميركية التي تُقام في قاعات بعد إخلائها من الكراسي مع إبقاء الطاولات المحمّلة بالمشروبات والمأكولات) ويمكن بهذه الطريقة الانتقال

من شخص إلى آخر وإدارة نقاش لا تَكَلُّفَ فيه .

وكان خلال هذا اللقاء يقترب من بعض الحضور لتبادل بعض الكلمات في موضوعٍ ما . كان ينتقل في القاعة ببطء وهو مستغرق في التفكير وأحياناً تبدو الحيوية عليه ويبدأ بالمزاج . وثمة ميزة أخرى كان يتحلّى بها ألا وهي معرفة الحضور فرداً فرداً بالوجه ، فقد كان يذكر كثيراً من الناس ويسمّي كنيتهم وفي أحيان عديدة يقول أين التقاهم وفي أي ظروف ومناسبات . وغالباً ما كانت هذه الصفة تروق لمحدثيه .

اقترب ستالين مني وسألني باهتمام :

ـ ما هي الشرائح الاجتماعية التي يعتمد عليها روزڤلت بشكل أساسي داخل البلاد ؟

قلت :

ـ إن الرئيس الأميركي يدافع عن مصالح الطبقة البرجوازية بالدرجة الأولى . ويقذفه المتطرّفون اليمينيون بتهمة ساذجة وكأنه يتعاطف مع الاشتراكية في بعض الأحيان ، وهذا ليس سوى أسلوب دعائي يلجأ إليه من لا يتمنَّى الخير لعلاقات طيّبة بين الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية ، من لا يرضى عن بعض الإجراءات الداخلية لإدارة روزڤلت ، ذلك أن هذه التدابير تضرّ إلى حدٍّ معين بمصالح الاحتكارات الكبرى .

بعدها توقفت قليلاً عن الكلام ثم قلت :

ـ ليس هناك منافس لروزڤلت الآن على منصب الرئيس ، فهو يشعر بوضعه ثابتاً ومتيناً .

لقد انتبه ستالين إلى هذه الكلمات بالتحديد ، بحسب ما بدا لي .

كنا واقفين في هذه اللحظة بالقرب من مولوتوف الذي يعرف جيداً الأمور الأميركية ولهذا فقد كان يشاركنا الحديث أحياناً .

تركنا ستالين وانتقل إلى غيرنا من أعضاء الوفد ليطرح عليهم الأسئلة . من الملفت للنظر أن ستالين كان قليل الكلام ، يستمع إلى محدِّثيه باهتمام ويتنقَّل من واحدٍ إلى آخر ، ليتعرَّف بهذه الطريقة إلى مختلف الآراء . وتراءى لي أنه يتابع عمله بهذا الشكل ويستعد للقاء المقبل الذي سيجمع « الثلاثة الكبار » .

ذات مساء أَوْلَمَ ستالين لعدد محدود من الرفاق السوڤيات المقرَّبين . واقترح عليّ أن أجلس إلى يمينه لأسباب غير واضحة بالنسبة إليَّ على الأقلّ . فالبروتوكول يقضي بأن يجلس ضيف الشرف إلى يمين صاحب الدعوة ، وستالين صاحب خبرة واسعة وغنيَّة في علاقاته بالشخصيات الأجنبية ، وكان يعرف هذه القاعدة . وقلت في نفسي : « سيبدأ الآن سيل الأسئلة التي تستوجب الإجابة عليها بدقَّة » . وتهيأتُ لتلقي الأسئلة .

غير أن الحديث تطرَّق إلى الأوضاع على جبهة القتال وبعض الأمور الاقتصادية في بلادنا . كان ستالين يتوجَّه في كلامه إلى الجميع . وفي حال طرح المواضيع الحربية كان أ . إي . أنطونوف ، أو ن . ك . كوزنيتسوف مفوض الأسطول البحري الحربي ، يبديان ملاحظاتهما .

تناول الحضور موضوع اشتراك الاتحاد السوڤياتي المرتقب في الحرب ضد اليابان . وارتباطاً بهذا الموضوع وأخذاً بالحسبان الأحداث المقبلة في الشرق الأقصى تطرّق البحث إلى مسألة الصعوبات في نقل القوّات والعتاد بواسطة السكك الحديدية عبر سيبيريا . وهنا طرح ستالين الفكرة التالية :

- من الضروري مدُّ خطٍ حديدي جديدٍ من جبال الأورال حتى شواطىء المحيط الهادىء. يجب أن يمرّ هذا الخط إلى الشمال كثيراً من الخط الحالي في سيبيريا الذي أُنشىء في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن.

بدا من كلام ستالين أنّه درس هذا الاقتراح ملياً.

لم يُقدَّر، كما هو معلوم، لفكرة بناء خط حديدي يعبر سيبيريا أن ترى الحياة أيام ستالين، علماً أن محاولة في هذا المجال كانت قد بذلت قبل بداية الحرب. وما طريق المواصلات الرئيسية بَايْكالْ - آمور، التي بدأت العمل منذ مدَّة، إلاّ تحقيق لذاك المشروع مع بعض التنقيح والتصحيح.

أثناء حفل العشاء انتقل الحديث إلى المعارك التحريرية الجارية في البلقان، كذلك إلى الأوضاع السياسية في البلدان المحرَّرة، خصوص رومانيا حيث القوات الألمانية الفاشية قد دُحرت كلياً تقريباً وتم طردها من هذا البلد.

نمّتْ كلمات ستالين عن ثقة تامّة بالنصر. وقال:

- من المهمّ جداً تنظيف الأراضي المحرَّرة من أتباع الفاشية المحليين.

وسألتُه:

- هل الأمور على ما يرام في رومانيا بالنسبة لهذه الناحية؟ وهل يمكن الوثوق بأن القادة الذين يتزعمون اليوم القوى الوطنية في هذا البلد قادرون على حلّ هذه المسألة دون وجَل؟.

قال ستالين مجيباً:

- إن أولئك الذين خرجوا من العمل السرّي والسجون وترأسوا القوى الوطنية أناس جيّدون دون شك ويمكننا الوثوق بهم والاعتماد عليهم.

أقام ستالين في أثناء عمل المؤتمر حفل استقبال رسمي على شرف روزفلت وتشرشل. وقد دُعي إليه الأعضاء الرئيسيون في الوفود الثلاثة.

والتقى حول الطاولة جمعٌ قليل، بحيث أن ما يقوله أحدهم يسمعه الباقون. من الطبيعي أن يصغي الحضور بالدرجة الأولى إلى أحاديث القادة الثلاثة. بدا ستالين نشيطاً مع شيء من الدعابة شابَ كلامه وتصرُّفاته، ونكات المائدة عادة ما تكون صائبة ودقيقة، تثير الضحك الجماعي، وإنّ جو كهذا يخلق انفراجاً بين الحضور.

لم يطُل البحث المسائل الكبيرة بعمق خلال الحفل، غير أن القادة الثلاثة كانوا يُلقون الملاحظات العريضة والموجزة، يتحدثون بتأنٍّ وهدوء. ودلّ جوهر الأحاديث على ضرورة تأمين النهاية السريعة لتحطيم الجيش الهتلري والحؤول دون أن تعود ألمانيا فتسير في طريق العدوان مستقبلاً.

الأدوار محدَّدة وموزَّعة

كان واضحاً لجميع المشاركين في مؤتمر القرم أن القرارات التي تُتَّخذ في قصر ليفَادْيا تحمل معنى كبيراً بالنسبة إلى مستقبل أوروبا والعالم. ولم يفارق المشاركين الشعور بأنهم موجودون في بؤرة أحداث التاريخ. والتاريخ يقف هنا على مقربة حاملاً في يده ميزان العدالة ويصدر أحكامه كما فيميدا، آلهة العدل عند الإغريق.

ثلاث شخصيات تاريخية - ستالين وروزفلت وتشرشل - تتمتّع بسلطة

هائلة وتأثير ضخم. كم من المسائل كان بالإمكان حلّها أيضاً لو أنهم نجحوا في الوصول إلى المستوى الضروري اللازم من التفاهم في ما بينهم في كافة الأمور، ولو أن العدل انتصر كلياً؟ هما الوفاق والعدل اللذان انتظرتهما الشعوب، وخصوصاً أوروبا.

لم يساور الشك أحداً في أن المعتدي الفاشي سيلقى الهزيمة بعد بضعة أشهر أو حتى أسابيع، وسترفرف فوق أوروبا راية النصر المضرّجة بالدماء المراقة في سبيل مستقبل سلمي لكافة الشعوب. كانت هذه الأفكار تحديداً تهيمن علينا كلّما دخلنا قاعة المؤتمر التاريخي ذاك للمشاركة في مفاوضات قادة الدول الثلاث. وكنا نعي أن كل كلمة يتفوّه بها القادة يجب أن تصبح مُلكاً للعصر. وسيكون بُعد نظر القادة والاتفاقات التي سيتوصّلون إليها موضع حكم على اللقاء ليس من جانب المعاصرين فحسب، بل من الأجيال القادمة أيضاً.

لم يتمّ التوصّل إلى اتفاق حول كل المواضيع آنذاك. موضوع تعويضات الحرب التي على ألمانيا أن تدفعها للاتحاد السوڤياتي بقي دون تسوية، بل إنّ مواقف المشاركين اختلفت حوله جذرياً.

وكان ستالين ومعه نحن جميعاً، ممثّلي الجانب السوڤياتي، نتساءل عمّا يجول في خاطر الرئيس الأميركي والوزير البريطاني الأول أثناء نقاش هذا الموضوع. هل كانا يعلمان أنه حتى لو تمّ الاتفاق على دفع ٢٠ أو ٣٠ مليار دولار للاتحاد السوڤياتي، فإن هذا المبلغ يعني في ذاك الوقت تعويضاً عن جزء يسير جداً من الخسارة المباشرة التي ألحقتها ألمانيا الفاشية ببلادنا؟ وقد قُدّرت قيمة الخسارة المباشرة فيما بعد بألفين وستمئة مليار روبل. أجل، كان الإثنان يعرفان ذلك حق المعرفة ويدركان تبعة موقفهما.

وكُنه الأمر أنّ حلفاءنا حَدّدوا نهجاً مغايراً في هذه المسألة وعملوا وفقاً له. ويتلخّص جوهر هذا النهج في عدم السماح للاقتصاد السوڤياتي الذي فعلت الحرب فعلها فيه، بالنهوض السريع.

طبعاً تعاطى روزڤلت بلباقة مع هذا الموضوع. فقد كان على استعداد لبحث إمكانية دفع تعويض صغير، على أن يكون، بحسب رأيه، ذا طابع رمزي ليس أكثر.

تكلّم كل واحد من رؤساء الوفود الثلاثة عدة مرات خلال مناقشة موضوع التعويضات الحربية في المؤتمر، لكنّ الرئيس روزڤلت كان أقلّ الثلاثة كلاما. فبالرغم من بيانه الذي اعتُبِرَ عملاً في صالح الاتحاد السوڤياتي لم يتقدّم بأرقام محدّدة لتشكل أساساً للتباحث كما تحاشى روزڤلت النقاش المباشر مع تشرشل. أما الأخير فلم يلوّح حتّى بإمكانية دفع تعويضات حربية للاتحاد السوڤياتي.

عندما أخذت مواقف المشاركين في نقاش هذه المسألة تتوضح انحنى نحوي ستالين وسألني همساً:

- كيف لنا أن نفهم روزڤلت، هل إنّه فعلاً لا يشاطر تشرشل رأيه، أم أنّ الأمر مجرّد تكتيك؟

سؤال صعب. أتت إجابتي على الشكل التالي:

- طبعاً هناك فارق بينهما لكن ما يدعو لليقظة أنّ الرئيس لبقٌ جداً بالمقارنة مع رئيس الوزراء البريطاني، علماً أنه بمقدوره الضغط بعض الشيء على تشرشل مع الحفاظ على لباقته، غير أنه لم يفعل ذلك، وهذا الأمر يكاد ألاّ يكون بالصدفة.

يبدو أن اجتهادي لم يكن متطابقاً مع رأي ستالين. فعندما غادر المشاركون في الجلسة القاعة قال ستالين همساً وهو ينهض، كمن يتحدّث إلى نفسه:

ـ من غير المستبعد أن تكون الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا قد وزّعتا الأدوار في ما بينهما.

وتأكّدت صوابية هذه الفرضية فيما بعد في مؤتمر پوتسدام. إذ أنّ الرغبة لم تقتصر هناك على الإنكليز في عدم نقاش مسألة التعويضات بجديّة، بل تعدّتهم إلى الأميركيين. فقد لقي الاتحاد السوڤياتي مقاومة من كلتا الدولتين، وانعكس مسلك تشرشل الصلب، والذي برز في القرم، في الموقف المشترك مع الأميركيين.

والحقيقة أنّ ترومان هو الذي كان في مؤتمر پوتسدام وليس روزڤلت. ولكن كادت آراء الرئيس الأميركي غير الجازمة بما فيه الكفاية في يالطا أن تسبب حرجاً لخلفه في پوتسدام.

كذلك تسلّحت الحكومة العمّالية التي وصلت إلى السلطة في بريطانيا خلال أعمال مؤتمر پوتسدام بدورها بموقف تشرشل. ويجدر الانتباه هنا إلى أنّ إيتلي وبيڤين قائدي حزب العمّال كانا يُغدقان الكلام المعسول على الاتحاد السوڤياتي، ويتحدّثان عن استشهاد أبنائه والخسائر المادّية التي مُني بها في الحرب. إلاّ أنّ رئيس وزراء إنكلترا الجديد ووزيرها خارجيتها وصلا إلى أبعد من البُخل في الكلمات، إنّ اللهجة قد تغيّرت إذ هبّت الرياح الباردة وبلغت پوتسدام.

الاتحاد السوڤياتي يبرّ بوعده

أقام ستالين أثناء المؤتمر في بناءٍ يُطلق عليه قصر يوسوپوڤ، بالقرب من قصر ليڤاديا، في قرية كوريز بالقرم. كان مكتبه الذي يعمل فيه هناك أيضاً. كما كان يعقد فيه اجتماعات الوفد السوڤياتي أو يستقبل أعضاءه. ونزلنا، أنا وف.ت. غوسيڤ سفير الاتحاد السوڤياتي في بريطانيا العظمى، في جناح متصل بقصر يوسوپوڤ، وذلك للتواجد في هذا المكتب حين الضرورة.

كان أنطونوڤ يأتي إلى هنا مساء كل يوم بعد انتهاء الجلسات وأحياناً في الصباح. فقد كان كثيراً ما يلتقي ستالين في موسكو ويناقش معه الوضع على الجبهات، واستمر هذا التقليد هنا أيضاً. وتسنّى لي أن أكون حاضراً أثناء نقاش أحد التقارير، بصفتي عضواً في الوفد.

راقبتُ للمرّة الأولى كيف يتابع ستالين الأخبار عن أوضاع الجبهات. ومن خلال هدوئه كنت قادراً على الحكم أن ما يجري لا يحمل أيّ مفاجآت بالنسبة إليه. فقد كان يطرح الأسئلة على أنطونوڤ الذي اضطلع آنذاك بمسؤولية رئيس الأركان العامة بالوكالة. كان ستالين مهتمّاً بتشكيلات قتالية محدّدة، وبدا من خلال الأسئلة أن خطة هجوم جيوشنا قد تمّ إعدادها والموافقة عليها مسبقاً. واهتم القائد ببعض الوحدات العسكرية مستفهماً عن مستوى تسليحها. أحسست من ردّ فعله على أجوبة أنطونوڤ أن القائد العام مرتاح لسير الأمور.

لم يتطرق الخطيب أو ستالين إلى خسائرنا، ولكن فُهمَ ممّا قيل أنّ العدّو مندفع في تراجعه، والقوات السوڤياتية تحرّر كل يوم أراضي جديدة. وتنتظر قواتنا معارك طاحنة لتحرير بولونيا نهائياً من العدو.

وسأل ستالين:

ـ إلى أيّ درجة أُمّنت قواتنا بكل ما يلزمها لخوض العمليات الهجومية المرتقبة بهدف إتمام تحرير بولندة؟

وبدا أن أنطونوف كان يتوقّع هذا السؤال فأجاب بهدوء:

ـ إن جيوشنا مؤمّنة بما يلزمها. ونحن نعرف أنّ الخصم سيبدي مقاومة ضارية، فهو يدرك أن خسارة بولندة ستتسبّب للقيادة الهتلرية بعواقب مأساوية.

تقبّل ستالين وبقية الحضور كلّ هذا بثقة، فأيّام انهيار ألمانيا الهتلرية التام تقترب لا محالة.

ومن الملفت للنظر أن ستالين، أو أي شخص آخر من الحضور تقريباً، لم يطرحوا أسئلة البتة، وذلك بفعل قوة الانطباع الذي تركته نجاحات الجيوش السوڤياتية التي تشبه السيل الجارف في زحفها نحو الغرب. وعلى غير عادته لم يمشِ ستالين في القاعة ذهاباً وإياباً، بل جلس على الكرسي وأصغى بهدوء إلى تقرير الجنرال.

واجتاحت شحنة من التفاؤل كلّ من كان حاضراً أثناء ذاك العرض للوضع العسكري، الذي جاء في محلّه في أيّام مؤتمر القرم. لقد بدأت معارك سياسية جدّية أثناء اللقاءات في قصر ليڤاديا. خرجت وغوسيف بعد أحد هذه اللقاءات إلى الهواء الطلق وكان الوقت مساءً. وتبادلنا الحديث حول أنّ التاريخ يكتب بأحرف كبيرة هنا في يالطا، في هذا القصر القيصري السابق بالتحديد.

وأذكر حادثة بارزة في هذا المجال. كان الأمر في الصباح قبل التوجّه إلى الجلسة التالية من كوريز إلى قصر ليڤاديا، مكان إقامة الوفد

الأميركي ومكان انعقاد جلسات المؤتمر العامة. بعث روزڤلت عبر رسول خاص برسالة عاجلة إلى ستالين الذي أُنبىء بوُرود مغلّف مستعجل من الرئيس.

كنتُ في هذه اللحظة في جناحي، وتبلّغت طلباً بوجوب الحضور سريعاً إلى ستالين.

عندما دخلت مكتبه كان ستالين وحيداً، فبادرته بالسؤال:

ـ ما هو شعورك أيها الرفيق ستالين بعد هذه البداية المتوتّرة للمؤتمر؟

أجاب ستالين:

ـ شعور اعتيادي كلياً.

لكنّي لاحظت أن هموماً أخرى كلياً تشغله وليس موضوع الحالة الشخصية.

بسط ستالين ورقة ما أمامي وقال:

ـ إنها رسالة من روزڤلت. لقد تسلّمتها لتوّي.

وأضاف بعد هنيهة:

ـ أردتُ أن تترجم لي هذه الرسالة شفهياً. أودّ الاطّلاع على محتواها على الأقلّ سماعاً قبل الجلسة.

قمت بالترجمة مباشرة. وبقدَر ما كنت أتكلّم كان ستالين يستوقفني ويطلب إليّ إعادة فحوى هذه الجملة أو تلك. لقد كُرّست الرسالة لموضوع ساخالين وجزر كوريل. وبلّغ روزڤلت في رسالته عن إقرار حكومة الولايات المتحدة الأميركية بحق الاتحاد السوڤياتي في نصف جزيرة ساخالين وجزر كوريل، الواقعة كلها تحت الاحتلال الياباني.

بدا السرور جلياً على ستالين من هذه الرسالة وأخذ يتمشَّى في المكتب ويردِّد بصوت مسموع:

- جيِّد، جيِّد جدّاً!

وقلت ملاحظاً:

- لعلَّ الولايات المتحدة الأميركية تريد من خلال موقفها هذا أن تعيد الاعتبار إلى نفسها في أعيننا بعدما وقفت إلى جانب اليابان عام ١٩٠٥. وقد جرت مباحثات السلام آنذاك في «بورتسموث» التي أعقبت الحرب الروسية - اليابانية، التي ترأس الجانب الروسي فيها الغراف(*) ڤيته رئيس الحكومة. وساعدت الولايات المتحدة عملياً حينذاك اليابان على انتزاع أراضي روسيا من الأخيرة.

دلَّت حركات ستالين على أنه يقاسمني الرأي حول محاولة الولايات المتحدة الأميركية «إعادة الاعتبار لنفسها».

صمَتَ هنيهة ليزن في عقله محتوى الرسالة، ثمَّ أخذ يفصح عن آرائه بصوت مسموع فقال:

- إنها رسالة مهمَّة. لقد اعترفت أميركا بشرعية موقفنا في موضوع ساخالين وجزر كوريل. وسيحاول الأميركيون على الأرجح التركيز على موقفهم حول إمكانية اشتراك الاتحاد السوڤياتي في الحرب ضد اليابان. لكن هذه مسألة أخرى سيتناولها البحث دون شك.

كان ستالين مرتاحاً جداً للرسالة وقد أفصح عن ذلك بقوله:

(*) لقب إقطاعي من ألقاب النبلاء كالكونت مثلاً - (المترجم).

- إنه لأمر جيد أنّ يكون روزڤلت وصل إلى خلاصة كهذه.

وأنهى الحديث عن الموضوع بالكلمات التالية:

- لقد اتخذت أميركا موقفاً جيداً. وهذا أمر مهمٌّ من زاوية العلاقات المستقبلية معها.

لاحظتُ أن ستالين مشغول بأمر رغم أنه لم يخفِ الارتياح البادي عليه.

وهنا سألته:

- لعلّني أستطيع الانصراف الآن، رفيق ستالين؟

لكن ستالين فاجأني بالسؤال التالي:

- قل لي من فضلك، هل إنَّ روزڤلت برأيك شخص عاقل؟

لم أرَ أي شيء غريب في هذا السؤال، ذلك أنَّ ستالين قد طرحه على كثيرين قبلي. كان ظاهراً من خلال الرسائل التي نقلتها أكثر من مرَّة إلى الرئيس في واشنطن أنَّ ستالين يعامله باحترام. حتى في الأوقات التي كانت آراء ستالين تتضارب مع مواقف الرئيس الأميركي، كان يصوغ رأيه بشكل يشعر معه روزڤلت أن موسكو تلاحظ أدقّ التغييرات في وجهة نظر سيِّد البيت الأبيض. أجبتُ على السؤال المطروح بقولي:

- رفيق ستالين، إنني أرى أنَّ روزڤلت شخص ذو عقل منفتح وإمكانيات كبيرة. ويكفي التطلّع إلى مغزى حدث واحدٍ وهو مقدرته على اعتلاء سدَّة الرئاسة للمرَّة الثالثة ومن ثمّ للمرة الرابعة. يمكن القول إنه تكرّس تاريخياً في الولايات المتحدة الأميركية تقليد معيّن يقضي بعدم انتخاب الرئيس ذاته أكثر من مرّتين. وقد بدا هذا التقليد ثابتاً وأبدياً، وقد حافظ

عليه الحزبان: الديمقراطي والجمهوري. وفجأة كسر روزفلت هذا التقليد بشكلٍ مؤثّر. طبعاً، ساعد الوضع الدولي في إحراز هذا النجاح. وبما أن الحديث يدور حول عام ١٩٤٤ فلا بدّ من النظر إلى تأثير الأحداث تحديداً على الجبهة السوفياتية ـ الألمانية من حيث أن الجميع رأوا، بما في ذلك في الولايات المتحدة الأميركية، أنَّ انهيار ألمانيا الهتلرية أمر محتوم. يُضاف إلى هذا العام الدور الذي لعبه الديمقراطيون وعملهم الحاذق في ما يخص نشر اسم روزفلت بين الجماهير. كما تركت خطاباته التي تبثُّها الإذاعة تحت عنوان «أحاديث قرب المدفأة» انطباعاً مؤثّراً في نفوس ملايين الأميركيين.

وعلّق ستالين بإيجاز:

ـ كم هو حاذق في مسعاه. أجل، لقد تمّ كل شيء على أكمل وجه.

وبرزتْ أثناء ذلك ابتسامة متحفّظة وأنيسة، ولو كان بمستطاعي لأسميتها «ابتسامة تضامن» ولاحظتُ غير مرّة أن وجهه يلبس هذا التعبير حين تبرز عنده انفعالات إيجابية، حين يدور الحديث عن شخص يميل إليه.

أما ملاحظة ستالين «لقد تمّ كل شيء على أكمل وجه»، فبدّدت الشكوك حول نظرة الرضا إلى نجاح روزفلت. على أيّ حال أبدى ستالين رأيه في هذا الموضوع غير مرّة.

لدى خروجي من مكتبه فكرّتُ أنَّ مزاج ستالين وارتياحه لموقف الحكومة الأميركية الذي حملته رسالة روزفلت، سيحملان تأثيراً كبيراً في لقاء الثلاثة الكبار في القرم، وخصوصاً في الجلسة التي ستُفتتح بعد ساعة تقريباً.

وعلمتُ فيما بعد أن مولوتوف اطّلع يومذاك على محتوى رسالة روزفلت.

لقد استَبقتْ أحداثٌ محدَّدة رسالة روزفلت الأخيرة.

ففي طهران طرح روزفلت أمام ستالين مسألة تقديم الاتحاد السوفياتي العون للولايات المتحدة الأميركية في الحرب مع اليابان. وأصبح واضحاً أن واشنطن تربط موضوع فتح الجبهة الثانية في الغرب من قبل الحلفاء ضد ألمانيا الفاشية، باستعداد الاتحاد السوفياتي لمساعدة الولايات المتحدة في الشرق. وقد تمّ التوصل إلى تفاهم مشترك مبدئي بين الدولتين، لكن الأمر لم يُبحث من حيث كونه اتفاقاً، حتى أن الطرفين لم يجريا تدويناً بروتوكوليا في طهران حول الموضوع.

وقال الجانبان في يالطا الكلمة الفصل بعدما أعلم روزفلت ستالين بشكل رسمي عبر هذه الرسالة أن ساخالين وجزر كوريل المحتلة من قبل اليابان يجب أن تُعاد إلى الاتحاد السوفياتي. وهذا هو بالضبط السبب الذي جعل ستالين يمسك برسالة روزفلت، بعد اطّلاعه على محتواها، وثمة شعور مميّز بالرضى يخالجه. وأخذ يذرع المكتب جيئةً وذهاباً والرسالة في يده، وكأنّي به لا يريد إفلات ما حصل عليه. وظلَّ ممسكاً بالرسالة حتى عندما غادرته.

تأمّلت في ذلك اليوم ستالين وروزفلت باهتمام أكبر. ربّما فكّر الاثنان، على ما أعتقد، أن حدّاً مهماً قد قطعاه في علاقاتهما.

والحقيقة أن روزفلت احتفظ ببعض الشك حول ما إذا كان ستالين سيفي بتعهّده بشأن تقديم العون للولايات المتحدة في الشرق الأقصى، ولكن المعروف أن الاتحاد السوفياتي برَّ بوعده.

ويمكن القول إنَّ موقف الرئيس الأميركي وإدارته حول موضوع ساخالين وجزر كوريل كذلك حول الجبهة الثانية يُوضح إلى درجة كبيرة موقف ستالين من روزفلت كشخص أيضاً.

تمّ الاتفاق في الجلسة من حيث المبدأ على شروط دخول الاتحاد السوڤياتي الحرب ضد اليابان. وأعلنت الحكومة السوڤياتية أن بلادنا ستبدأ الأعمال العسكرية في الشرق الأقصى بعد انقضاء شهرين أو ثلاثة على نهاية الحرب في أوروبا.

وقبل أن يحدَّد ستالين هذا الموعد كانت الأركان العامة السوڤياتية بقيادة أنطونوف قد أنجزت عملاً ضخماً في دراسة المعطيات التي يمكن وفقها تقرير ما يلزم من القوات لتحطيم الجيش الكوانتوني ومن أين وعن أيّ طريق ومتى ستُنقل القوات السوڤياتية. وقد أنجز ذلك كله بالسرعة العسكرية المطلوبة.

المسألة البولندية مجدداً

شغل بحث المسألة البولندية حَيّزاً كبيراً من وقت المؤتمر واهتمامه. وأصبحت الحدود المقبلة لدولة بولندة وتركيب الحكومة البولندية بالدرجة الأولى مادة النقاش الأساسية.

تقرّر أن تمرّ الحدود السوڤياتية ـ البولندية عبر ما يسمى «خط كيرزون» بشكل أساسي مع تراجعٍ صغير عنه في بعض المناطق لمصلحة بولندة. ولم تُثر اختلافات حادَّة في الرأي بين أعضاء المؤتمر مسألة الاعتراف أيضاً بضرورة زيادة أراضٍ إلى بولندة في الشمال والغرب. أمّا التنافر فقد برز مع تحديد مساحات هذه الزيادة.

اقترح الوفد السوڤياتي رسم الحدود الغربية لبولندة عبر نهري أودِر ونيسي. عارض الوفدان الأميركي والبريطاني اقتراحنا، وتسلّحا أثناء ذلك بحجة واهية زاعمين أن الشعب البولندي ليس قادراً على استيعاب موارد الأراضي الجديدة. وبدا جلياً أنه موقف غير عادل ينطوي على رياءٍ مكشوف.

لم يتمَّ التوصّل في مؤتمر القرم إلى تحديد حدود بولندة الغربية، ولكن الموضوع حُلَّ بشكل نهائي وواضح بفضل موقف الاتحاد السوڤياتي الثابت في المؤتمر التالي الذي انعقد في پوتسدام.

وشهد المؤتمر صراعاً حاداً أثناء نقاش مسألة الحكومة البولندية. وهذا أمر واضح، فالحديث يطال الاتجاه السياسي للدولة البولندية المولودة حديثاً والواقعة في منطقة مهمة استراتيجياً في أوروبا.

واسترشد الاتحاد السوڤياتي بوجهة النظر القائلة إن المسؤولية عن مستقبل بولندة يجب ألاّ يُعهد بها إلى القوى التي اوصلتها إلى الكارثة، بل إلى القوى الوطنية السليمة، إلى الوطنيين الذين قاوموا بعناد ونكران ذات المعتدين الهتلريين، وناضلوا من أجل تحرير وطنهم واستقلاله وإحياء الدولة البولندية. من الطبيعي جداً أن يكون الاتحاد السوڤياتي اعترف بالحكومة المؤقّتة القائمة على أرض بولندة، والتي تمثّل مصالح القوى الديموقراطية والشعب البولندي بأسره. وقد عقدت بلادنا في ٢١ نيسان / أبريل ١٩٤٥ مع هذه الحكومة اتفاقية صداقة ومساعدة متبادلة والتعاون بعد الحرب.

ورغم تجاهلها الحكومة المؤقّتة، فهمت الدول الغربية عدم واقعية طرح مسألة عودة الحكومة النازحة والمقيمة في لندن إلى بولندة. لهذا السبب

اقترح روزفلت وتشرشل في يالطا حلَّ الحكومتين البولنديتين البرجوازية والشعبية في وقت متزامن وتشكيل حكومة مؤقتة بولندية مع تطعيمها بالرموز البارزة من الشخصيات الرجعية في المهجر. وقد دافع القائدان الغربيّان عن هذا الموقف بعناد من خلال حساباتهما بأن هذا الموقف سيمثّل بالنسبة للغرب معركة حامية وحادّة، رغم إدراكهما الكامل أنها معركة في المؤخّرة.

أقدم الاتحاد السوفياتي على مساومة محدّدة رغبةً منه في الوصول إلى اتفاق حول هذا الأمر، إلاّ أنّه أصرّ على ان تُشكّل الحكومة موضوع البحث على أساس الحكومة المؤقّتة القائمة. فهذه مسألة أساسية بالنسبة إلى بلادنا، فوافقْنا ـ ومعنا القوى الديمقراطية في بولندة ـ على توسيع الحكومة المؤقتة البولندية بضمّ شخصيات سياسية غير مشبوهة من الداخل ومن أوساط المهاجرين البولنديين.

ودخل هذا الموقف بالذات في أساس القرار الذي اتخذه مؤتمر القرم حول تأليف حكومة الوحدة الوطنية المؤقّتة. واعترفت الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا بالحكومة الجديدة وفقاً للقرار المشار إليه آنفاً وقطعت علاقاتها مع الحكومة المقيمة في المهجر، مما حدا بالأخيرة إلى وقف نشاطها. وهكذا، فقد تحقق مكسب كبير لصالح الحق بنتيجة المساومة التي تمّ التوصل إليها.

وقد صرّح ستالين في مؤتمر يالطا مع فهم بلادنا لمسألة الجارة بولندة:

ـ لا يقتصر الأمر على كون بولندة جارتنا فقط، مع ما لذلك من أهمية، غير أنّ جوهر المشكلة أعمق بكثير. فعلى مرّ التاريخ كانت بولندة ممراً يعبره المعتدون القاصدون روسيا... لماذا يمرّ الأعداء بسهولة

عبر بولندة؟ لأنها كانت ضعيفة بالدرجة الأولى. لا يمكن أن يبقى هذا الممرُّ مقفلاً بالقوات الروسية من الخارج، إنّ إقفاله يتطلب أن تنهض بولندة قويّة. وهذا يفسِّر اهتمام الاتحاد السوفياتي بقيام بولندة قوية، حرّة، مستقلّة.

إنّ نهج الاتحاد السوفياتي هذا الذي عُبّر عنه في يالطا يبقى على ما هو عليه في يومنا هذا. وضمانات الدولة البولندية تقوم في: بولندا قويّة، مستقلّة، صديقة للاتحاد السوفياتي، اشتراكية.

كما انفجرت معارك جديدة في المؤتمر حول موضوع جديد، قيام منظمة الأمم المتحدة. لقد حلّ مؤتمر دمبارتون ـ أوكس الكثير من المسائل وليس جميعها، بقيت مسألة حق النقض «الفيتو» والحقوق الخاصة للأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

تمّ التوصّل بين الزعماء الثلاثة بنتيجة النقاشات إلى اتفاق يقضي بالدعوة إلى مؤتمر الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو في ٢٥ نيسان / إبريل ١٩٤٥، ليكون على جدول أعماله صياغة النص النهائي لميثاق المنظمة.

نتائج يالطا

اطّلع العالم، فوراً بعد انتهاء المؤتمر، على المشكلات التي كانت موضوع نقاش. وعرف أنّ المسألة المركزية على جدول أعمال المؤتمر كانت مشكلة مستقبل ألمانيا الذي أولاه قادة الدول الثلاث الحيّز الأكبر من اهتمامهم، فقد اتفقوا على طريقة التنفيذ الإلزامي لشروط استسلام ألمانيا الهتلرية بلا قيد أو شرط. لقد وضع الحلفاء في أساس مستقبل هذا البلد إنجاز تنظيمها على أسس ديمقراطية وتجريدها من السلاح.

وأعلن المشاركون في المؤتمر بصورة احتفالية مهيبة، بناءً على إلحاح الاتحاد السوفياتي، أن القضاء على الشعب الألماني ليس من ضمن أهدافهم. لكنَّهم أكَّدوا أنّ الأمل بوجود كريم لشعب هذا البلد وباحتلاله مكاناً مرموقاً في المجتمع الدولي يصبح مبرَّراً فقط حين يتم استئصال النزعة العسكرية والنازية من ألمانيا.

وكانت الوثيقة النهائية لمؤتمر القرم، بيان بعنون: «الوحدة في تنظيم السلاح مثلما في إدارة الحرب». ووافق زعماء الدول الثلاث الكبرى على صون التعاون في الفترة السلمية العتيدة وتقويته وتدعيمه، ذاك القائم في زمن الحرب بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا.

لقد شكَّل المؤتمر مرحلة مهمَّة على طريق الإنهاء السريع للحرب، ذلك أنَّ نهايتها تعني السقوط النهائي لحسابات ألمانيا الهتلرية في شقّ معسكر الحلفاء. وكانت النتيجة أن شُقَّ «الرايخ الثالث» ذاته، وهو الذي احترق في أتون الحرب، ولم يُشَقَّ معسكر الحلفاء.

نلاحظ بعض محاولات تصوير مقررات مؤتمر يالطا بصفتها أحد مرادفات تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ بين الدول الكبرى. وهذه المحاولات ما هي إلا نتاج الخيال.

كأنَّ الرئيس روزفلت استقرأ إمكانية بروز الوشايات والتلفيقات حول مؤتمر القرم في المستقبل، فأعلن بوضوح في الكونغرس الأميركي مقيِّماً نتائج المؤتمر:

ـ يعني هذا المؤتمر نهاية نظام الأعمال من جانب واحد والتحالفات السرّية ومناطق النفوذ وكافة المؤامرات السياسية الأخرى التي كان يتم اللجوء إليها عبر مئات السنين...

إنه تشخيص جيّد ودقيق

ليس بإمكان السياسيين المعاصرين ألاّ يروا المغزى التاريخي للمؤتمر بالنسبة لأوروبا وبالتالي للعالم بأسره، هذا إذا ما أرادوا أن يلتزموا جانب الموضوعية في تقويم نتائجه. فقد بدأت في أيّام يالطا شمس الرايخ العدواني الألماني تميل إلى الأفول الحتمي، حيث أَجْمَلَ الحلفاء النتائج العسكرية وما فعلته جيوشهم وشعوبهم في النضال من أجل تحرير أوروبا من الفاشية، كما رتَّبت الدول الثلاث الكبرى العلاقات الرئيسية كذلك على طريق المستقبل كان ذلك في أسبوع تاريخي من شباط / فبراير ١٩٤٥ بالتحديد.

واتفقت الدول المشاركة في المؤتمر على:

ـ البلوغ بالهزيمة العسكرية لألمانيا الفاشية حتى النهاية؛

ـ العمل على عقد مؤتمر الأمم المتحدة بهدف إنشاء منظمة دولية لحفظ السلام؛

ـ تكريس مبدأ إجماع الدول الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن في حلّ مسائل حفظ السلام الجذرية؛

ـ وضع ميثاق حول أوروبا المحرَّرة يتمّ التأكيد فيه على السعي إلى تنسيق أعمال الدول الثلاث في حلّ المشكلات الأوروبية؛

ـ التعاطي مع ألمانيا بعد استسلامها دون قيد أو شرط، بما في ذلك المعاقبة السريعة والمحقّة لمجرمي الحرب؛

ـ إنشاء مناطق خاصة للدول الثلاث المشاركة في مؤتمر يالطا، إضافة إلى فرنسا؛

- مسائل الشرق الأقصى.

وهكذا أعلنت الدول الثلاث في يالطا بشكلٍ إحتفالي عن موافقتها على العمل بروح التعاون في الوصول بالحرب إلى النصر وكذلك في بناء عالم ما بعد الحرب.

معلوم أنه لم يكن قد تمّ الاتفاق النهائي حول جملة من المسائل (حول تعويضات الحرب من ألمانيا لصالح الاتحاد السوڤياتي وحول المسألة البولندية وحدود بولندة) ومع ذلك فالنقاش في يالطا أعطى ثماره، خصوصاً في موضوع بولندة الذي وُجد حلٌّ له في پوتسدام.

تثير الغضب تلك الشخصيات في البلدان الغربية التي تنشر البيانات والتصاريح الزاعمة أن الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا قدمتا تنازلات غير مبرّرة إلى الاتحاد السوڤياتي. فليقرأوا ما قاله أو كتبه آباؤهم وأجدادهم في سنوات الحرب الذين انحنوا أمام بطولة الشعب السوڤياتي وتضحياته لتحقيق الانتصار على العدوّ المشترك.

لقد وفَت بلادنا بتعهّداتها أمام الحلفاء بصدق وشرف في ساحات القتال ووراء طاولة المفاوضات على السواء.

عن ستالين في المؤتمرات

تسنّى لي أن أعمل مع ستالين وأكون بقربه في مؤتمر القرم ومن ثمّ في پوتسدام. ربما الحديث المقتضب عنه يستأهل الإهتمام، عن بعض مزايا طبعه وسلوكه وبعض أساليب تعاطيه مع الناس في ضوء المؤتمرات بالدرجة الأولى.

توعّك روزڤلت أثناء مؤتمر يالطا. وأراد ستالين أن يعود المريض

ودعا لهذا الغرض ف.م. مولوتوف مفوّض الشؤون الخارجية كما دعاني لمرافقته في الزيارة.

تأجلت جلسة المؤتمر يومذاك، بينما توجّهنا نحن إلى جناح الرئيس الذي كانت القيصرة تقطنه فيما مضى. يقع الجناح في الدور الثاني من قصر ليڤاديا، حيث يطلّ على البحر في مشهد رائع يخلب الألباب.

كان الرئيس طريح الفراش وسُرّ جداً ما إنْ رأى الضيوف. تبادلنا التحية وبدا روزڤلت تعباً وشاحب اللون. كان المرض الثقيل يستنزف قوى هذا الرجل ويضنيه، إلاّ أنّ روزڤلت حاول جهده إخفاء ما به.

جلسنا إلى جانبه بعض الوقت، ربما حوالي العشرين دقيقة تقريباً. جاذبه ستالين أطراف الحديث عن صحته والطقس وجمال القرْم. رمقتُ الرئيس وفكرت في نفسي أنه ينظر نظرة معزولة، فكأنه يرانا جميعاً وفي الوقت عينه نظره مشدود إلى شيءٍ ما بعيد.

خرجنا من غرفته وهبطنا السلّم الضيق. توقف ستالين فجأة، أخرج الغليون من جيبه وأخذ يحشوه بالتبغ بتأنٍّ، ثمّ قال وكأنه يحادث نفسه ولكن بصوت سمعتُه ومولوتوف:

- في أيّ شيء هذا الإنسان أسوأ من غيره حتى تعاقبه الطبيعة على هذا النحو؟

بعد أن هبطنا إلى الدور الأرضي توجّه إليّ ستالين بسؤال:

- هل حقيقةً ما يقولون إنّ أصل الرئيس ليس إنكليزياً؟

وأردف كأنه يفكرّ جهاراً:

ـ غير أنّه في سلوكه وأسلوب التعبير عن آرائه أكثر شبهاً بالإنكليز من تشرشل، فالأخير لا يُحسن دائماً السيطرة على انفعالاته، بينما روزفلت على العكس منه، الحصافة والاقتضاب في الكلام بعينهما.

فهمت أن ستالين لا يمانع في سماع ما لديّ من معلومات عن نَسَب روزفلت. قلت:

ـ إنّ أجداد الرئيس الأميركي من أصل هولندي وهذا أمر مؤكَّد. غير أنّ الأميركي العادي لا يعير هذا الموضوع اهتماماً خاصاً والأدب شحيح في هذا الصدد.

تعافى روزفلت في اليوم التالي واستؤنفت جلسات المؤتمر، إلاّ أن الإرهاق الذي بدا بوضوح على وجه الرئيس لم يفارقه حتى نهاية المؤتمر.

بقي لروزفلت أن يحيا شهرين تقريباً فقط في ذلك الحين.

أقول بصراحة، لابأس إذا ما كرَرت فكرتي حول أنّ ستالين كان يميل بعواطفه إلى روزفلت كشخص وأفهمنا ذلك من خلال حديثه عن مرض الرئيس. نادراً ما كان ستالين يمنح عطفه لقادة من المعسكر الآخر والأكثر نُدرة أن يفصح عن ذلك.

وهناك حوادث أخرى عبّر فيها ستالين عن مشاعره بالنسبة إلى أناسٍ آخرين، وعلى سبيل المثال أقدم في فترة مؤتمر بوتسدام على تقبيل عازفة الكمان بارينوفا وعازف البيانو غيليلس اللذين عزفا بشكل رائع عقب حفل استقبال رسمي، وذلك أمام المشاركين في المؤتمر.

وبصرف النظر عن الخشونة والقساوة في طبعه، كان ستالين يسمح

للانفعالات الإنسانية الإيجابية بالظهور، علماً ان ذلك كان يحدث في حالات نادرة جداً.

لعلّ من الملائم الكلام بشيء من التفصيل على ستالين بوصفه قائداً وشخصاً، على أساس ما علق في ذاكرتي. وكل ما يرد عنه هنا هو محصلة عامّة لملاحظات تجمّعت لديّ وتحوّلت إلى صورة معيّنة لهذا الشخص كما كنت أتقبّله آنذاك. وملاحظاتي مبنيّة على الانطباعات التي تولَّدت خلال اللقاءات، وتعميم الملاحظات الشخصية أثناء الجلسات حين كنت ألقي التقارير حول بعض المسائل، ثم على الحوادث المتبقّية في الذاكرة سواء تلك التي وقعت في أثناء المؤتمرات أو في أوقات لقاءات الشخصيات الحكومية الأجنبية فترة وجودها في الاتحاد السوڤياتي.

وأشير هنا إلى أنني لم أضع نصب عيني بالطبع مهمة دراسة شخصية ستالين. لقد راقبته وأنا منهمك بعمل محدّد لتنفيذ واجباتي الوظيفية، وما الانطباعات المتوفرة إلاّ نتيجة عَرضية ولا أرغب إطلاقاً في عرضها على أنها حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش أو الردّ.

يعرف العسكريون من خلال تجاربهم، وهذا ما كان يحدث في المعارك، مثلاً يتم إنزال قوّتين إلى البرّ: واحدة أساسية والأخرى إحتياطية، ثانوية، لإلهاء العدو. تتطور الأعمال الحربية وفجأة تتحول القوّة الثانوية إلى قوة ذات شأن وفي بعض الأحيان قوة مهمّة ثم أساسية. ولا يحصل هذا في الحرب فقط، بل في الأيام العادية للحياة السلمية أيضاً: تقوم بعملين في آن معاً، العمل اليومي العادي إضافة إلى آخر عابر. وتنظر فترى أنّ ما حسبْتَه شخصياً وخاصاً قد أصبح مع الزمن مميزاً ومهماً وضرورياً بالنسبة للناس أيضاً. من أجل ذلك يبدو لي الآن الحديث عن شخصية ستالين غير العاديّة ينطوي على أهميّة معيّنة، خصوصاً إذا صدر عن اناس

عايشوه، وسيعود المؤرّخون إلى هذه الشخصية أكثر من مرّة.

من الجائز تماماً أنّ بعض انطباعاتي لن يتوافق مع ما قيل أو كُتب وما سوف يَكتبه الآخرون عن هذا الشخص، ولكن تبقى حقيقة أنّ مزاياه الخاصة به كانت تظهر بأشكال مختلفة في المناسبات واللقاءات المختلفة، بل يمكن الجزم أن الأمر كان كذلك. وفي نهاية المطاف فإن أيّ أصل يبقى أغنى بكثير من الصورة المنسوخة، خصوصاً عندما يطال الحديث شخصية بهذا الحجم وبهذا المصير الدرامي كشخصية ستالين.

إن جميع من أحاط بستالين أو عمل بقربه وإن كان ذلك لأوقات قصيرة، وخصوصاً نحن الشبّان نسبياً، كان طبعاً يرصده باهتمام. في الحقيقة كان كل واحدٍ من الحضور يتلقّف منه كل كلمة أو حركة. ولم يرَ أي واحدٍ منا عجباً في ذلك، فكلّما كانت السحابة راعدة نظر إليها الإنسان بخوف أكبر.

إن الوجود إلى جانب ستالين وخصوصاً التحدث إليه أو حتى الحضور أثناء الحديث وإمكانية الاستماع إلى أقواله وآرائه في جمعٍ ضيق كان يُعدّ بالنسبة إلى معاصريه أمراً مميزاً ومهماً. فالإنسان الشاهد على ما يقوله ستالين ويفعله يدرك أنّ أمامه شخص يرتبط بإرادته الكثير من مصائر البلاد والشعب بل والعالم.

ولا يتعارض البتّة هذا مع النظرة الماركسية العلمية إلى دور الشخص في التاريخ، فالشخصيات البارزة في التاريخ هي نتاج ظروف زمن محدّد ومعيّن. ولكن بإمكان هؤلاء الأشخاص من جهة أخرى، أن يؤثّروا في تطوّر الأحداث والمجتمع. وقد برهن كلٌّ من ماركس وإنجلس، ثم لينين فيما بعد، هذه الحقيقة، وعلّلوها في أبحاثهم الفلسفية.

ما الذي يسترعي الانتباه في ستالين من النظرة الأولى؟ أينما تراه كان يلفت الانتباه في شخصيته كونه رجل فكر. لم ألاحظ مرّةً أنّ ما يقوله لا يعكس بالضبط علاقته المحدّدة بالمسألة المطروحة للبحث، فقد كان لا يحبّ الكلمات الاعتراضية والتمهيدية والجمل الطويلة أو البيانات والتصريحات التي لا تحمل أي معنى. وكم يشعر بالضيق إذا ما كان المتحدث كثير الكلام وغير قادر على التعبير عن رأيه بإيجاز أو يصعب فهم ماذا يريد أن يقول. وكان ستالين يتمتع في الوقت نفسه بمقدرة على التعاطي بصبر وتسامح مع الأشخاص الذين يعانون من الصعوبات في صياغة آرائهم بدقّة بسبب مستواهم الفكري.

من خلال النظر إلى ستالين عندما يطرح أفكاره لاحظتُ دائماً أنَّ حتى وجهه ينطق، وخصوصاً عيناه اللتان كانتا معبّرتين إذ كان يضيّقها أحياناً، الأمر الذي يجعل نظراته ثاقبة وحادّة. كان وجهه يحمل في قسماته ألف لغزٍ.

كان وجه ستالين مليئاً بعض الشيء. لقد سمعتُ وقرأت أكثر من مرّة بعد وفاته مزاعم عن أنّ آثار الجدري كانت ظاهرة على وجهه. لا أذكر أي شيء من هذا، علماً أنني نظرت إليه مرات كثيرة من مسافة قريبة. وإذا ما كانت هنالك فعلاً آثار فهي على الأرجح صغيرة إلى درجة أنني لم ألاحظها.

تمتّع ستالين بعادة التبحّر والتمعّن في وجه هذه الشخصية الأجنبية أو تلك حين يتوجه إليها بالعتاب أو يدخل في جدال معها. حتى أنه لم يكن يحول عن وجه الشخصية نظره ولو للحظة. ويجدر القول إن الشخص موضوع اهتمامه كان يشعر بالحرج من أثر شوكات هذه النظرة التي تنفذ إلى الأعماق.

عندما يتحدث ستالين جلوساً كان من السهل عليه تغيير جلسته منحنياً لجهة أو لأخرى. وكان بحركة خفيفة من يده أحياناً يؤكدّ فكرته التي أراد إبرازها، علماً أنه لم يكن مكثراً باستخدام الحركات، كما كان يرفع صوته في حالاتٍ نادرة جداً. لقد كان يتكلم بصوت هادىء بشكل عام ومتّزن كأنه مكتوم. وحين كان يتكلّم فلا بد أن يخيّم الصمت المطبق مهما بلغ عدد الحضور، وقد ساعده ذلك أن يبدو على حقيقته من دون تصنع أو زيف.

تتميّز خطابات ستالين بأسلوب خاص بها وحدها، فقد كان يأسر المستمعين بدقّته في صياغة أفكاره وفرادة نمط تفكيره.

أما في ما يختص بالشخصيات الأجنبية فأُضيفُ أن ستالين لم ينعم عليهم بعطفه كثيراً، ومن أجل ذلك فقط كانوا يعتبرون رؤية ستالين وسماعه حدثاً كبيراً.

أظهر ستالين دائماً التأنّي في حركاته، لم أرَهُ وقد خفّ الخُطى أو استعجل إلى أي مكان. كان يُفترض أحياناً أن يسرع في عقد هذا الاجتماع أو ذاك بسبب الأوضاع وأن يتعجّل في الكلام، نفسَه والآخرين، لاقتصاد الوقت، إلاّ أن ذلك لم يحصل أمامي أبداً. كأنّما الزمن يتوقّف عن الركض حين يكون هذا الإنسان منهمكاً في أمر.

غالباً ما تمشّى ستالين في مكتبه حيث تعقد الجلسات بحضور عددٍ قليلٍ من المشاركين، كما يُدعى أحياناً الرفاق الموكول إليهم تقديم تقارير. يتمشّى ويصغي في الوقت نفسه إلى الخطباء أو يُدلي بآرائه، يخطو بضع خطوات ثم يتوقّف وينظر إلى المحاضر والحضور، يقترب منهم محاولاً إلتقاط ردود فعلهم، ثم يبدأ المشي من جديد.

ويتوجّه بعد ذلك إلى الطاولة ويجلس في مكان رئيس الجلسة، يجلس لبضع دقائق فقط. وكانت تحصل استراحات قصيرة في الكلام وهذا معناه أنّه ينتظر ما سيكون وقْع الموضوع المثار على الحاضرين أو يسأل بنفسه:

ـ ماذا تعتقدون؟

وكان يعرض الحضور أفكارهم عادة بإيجاز، متحاشين الكلام الزائد قدر الإمكان. وستالين استمع وأعطى ملاحظاته في سياق خطابات المتحدثين.

تصوّر الأفلام السينمائية التي ظهرت بعد وفاته بسنوات اجتماعات المكتب السياسي، حيث ستالين ينهض ويتمشّى في الوقت الذي يجلس المشاركون الآخرون في الجلسة في أماكنهم. أجل، هذه حقيقة طالما أنّ الحديث يدور عن الاجتماعات الداخلية.

غير أنّني رأيته في المؤتمرات الدولية عندما كان يجلس دائماً مصغياً بانتباه إلى المتحدّثين، لينهض من وراء الطاولة في فترة الاستراحة فقط أو بعد انتهاء الجلسة.

من الملفت للانتباه أن ستالين لم يتأبّط قط ملفاتٍ وأوراقاً، فقد كان يأتي فض اليدين إلى الاجتماعات أو الجلسات. هكذا كان يحْضر إلى اللقاءات الدولية أثناء أعمال مؤتمرات طهران ويالطا وبوتسدام. ولم أرَ في يده قط أثناء الجلسات قلماً أو ورقة، فلم يكن يدوّن الملاحظات جهاراً.

كانت كافة المواد الضرورية موجودة في متناول يده، في مكتبه. وحبّذ ستالين العمل ليلاً أكثر من العمل نهاراً.

وكان يأتي دائماً إلى الاجتماعات أو جلسات المؤتمرات الدولية وهو على

أتمّ الاستعداد والتحضير. أما الوفد المرافق إلى الجلسة فقد كان يعرف دائماً علام سيتكلّم ستالين. كان وحده تقريباً يتحدث باسم الاتحاد السوفياتي، إلاّ أنه كان يعتمد بشكل أساسي على ف.م. مولوتوف في المسائل الخارجية، وحين الضرورة ينحني فوق الطاولة ويتشاور مع المختص من أعضاء الوفد ويطرح بعد ذلك فكرته.

علقت في ذاكرتي الحادثة التالية التي حدثت في إحدى الجلسات. فقد حدث أنني ألقيت تقريراً حول بعض المواضيع الدولية المتعلّقة بنتائج الحرب. وتطرق الحديث في سياق النقاش إلى محاولات الهتلريين استخدام بلدان البلقان لمآربهم الخاصة من خلال التزلّف إلى الأوساط الحاكمة في هذه البلدان، مثبتين بذلك جهلهم بأن القيادة والشعب أمران مختلفان.

وانحصر الحديث بشكل خاص عن بلغاريا التي يستخفّ الهتلريون بشعبها معتبرينه متخلّفاً، لكنهم ينحنون بالتحية أمام أوساط البلاد الملكية. وعبّر ستالين عن ذلك بقوله:

ـ إن سياسة هتلر بالنسبة إلى بلغاريا مبنيّة على اكتسابها إلى جانبها كدولة حليفة معتمداً في ذلك على الغطرسة البروسية بالإضافة إلى كل ما عداها، فالألمان يزعمون أنّ البلغار المتخلّفين يسهل جذبهم إلى الاتجاه الذي تراه ألمانيا مناسباً.

ونهض ستالين من وراء الطاولة، ثم تابع:

ـ إن الغرور البروسي والاختيال يفسران التعاطي على هذا النحو مع بلغاريا.

وتوقف قليلاً عن الكلام ثم قال وكأنه يركّز على كل كلمة يلفظها:

ـ تؤكد الوقائع التاريخية أن الشعب البلغاري لا يقلّ عن الألمان في شيء من حيث مستوى تطوّره العام. لقد كان البلغار يملكون حضارة رفيعة في الأزمان الغابرة، في الوقت الذي كان فيه أسلاف الألمان يقطنون الغابات.

أثار رأي ستالين عن البلغار موجة من الإعجاب في صفوف الحاضرين.

انتقل الحديث ذات مرّة إلى عدم جدوى عناد القيادة الهتلرية ومقاومة الألمان في نهاية الحرب، بعد أن أصبحت الخطة الفاشية على خطوات من الهزيمة الحتمية، بحيث أنّ العميان فقط لا يرون ذلك. وقد تحدث عدد من الأشخاص حول هذا الموضوع. استمع ستالين بانتباه إلى الجميع ثم قال وكأنه يجمل حصيلة النقاش:

ـ الحقيقة في كل ما قيل وأنا موافق معكم. بيد أنّه لا يجوز في الوقت عينه أن نُغفل مَزِيّة خاصة بالألمان وقد أثبتوها أكثر من مرّة في الحروب، ألا وهي عناد الجندي الألماني وبأسه.

ثم أعرب في هذا الشأن عن الرأي التالي:

ـ يذكر التاريخ أنّ الجندي الروسي هو الأكثر بأساً، يليه الألماني في المرتبة الثانية، أما في المرتبة الثالثة..

وصمت لبضع ثوانٍ ثم أضاف:

ـ ... فالبولنديون، الجنود البولنديون، أجل البولنديون

وقد وافقه الرفاق المشاركون في الجلسة في أن التقويم محقّ وعادل، أما أنا فترك رأيه في نفسي انطباعاً عميقاً. فقد كان الجيش الألماني محطّماً في حقيقة الأمر وتلقى هزيمة ساحقة في الحرب. كان من المنطقي أنْ يصفه

بأقذع العبارات من زاوية نظر الصفات الشخصية لجندي هذا الجيش العدواني، جيش المغتصبين والمارقين والسارقين والجلاّدين. بينما أعطى ستالين تقويماً للجندي الألماني من حيث البعد التاريخي للموضوع معتمداً على الوقائع وبعيداً عن الانفعالات.

ينتمي ستالين إلى تلك الفئة من البشر الذين لا يسمحون أبداً للاضطراب الناشىء بسبب هذا الفشل أو ذاك في الجبهة أنْ يحجب التحليل العاقل والمتَّزن للوضع والإيمان في قوى حزب الشيوعيين والشعب وقواه المسلّحة وإمكانياتهم. فوطنية السوڤيات وحقدهم المقدَّس ضد الغزاة الفاشيين زرعا الثقة في تحقيق النصر النهائي على الأعداء وفي الحزب ولجنته المركزية وستالين. وكان النصر صعب المنال لولا هذه الثقة.

تبيَّن فيما بعد أن التوتُّر وصعوبات زمن الحرب الهائلة قد فعلت فعلها في قوى ستالين الجسدية وما يثير العجب أن ستالين عاش حتى النصر رغم العمل الكبير الذي أضناه.

كم من الشخصيات الحكومية والعسكرية قُوِّضَتْ قواها ثم حصدتها الحرب دون شفقة، لا في ساحة المعارك بل في المؤخَّرة! كان من هؤلاء مثلاً، بوريس ميخائيلوفيتش شاپوشنيكوف رئيس الأركان العامة للجيش الأحمر في أشد أيام الحرب صعوبة، في تموز ١٩٤١ - أيار ١٩٤٢؛ وقائد عسكري آخر كبير هو الماريشال السوڤياتي الوحيد الذي لم يعِش حتى يوم النصر، فقد توفي قبل أيام من تحقيقه. وثمّة قائد آخر كان شخصية حكومية وحزبية كبيرة، إنّه ألكسندر سرغييفيتش شيرباكوف السكرتير الأول لمنظمة الحزب في موسكو، توفي عن عمر أربعة وأربعين عاما، وقد تمّ دفنه أثناء أيام النصر.

هل اعتنى ستالين بصحته؟ أنا مثلاً لم أرَ قط طبيباً إلى جانبه أثناء مؤتمرات دول الحلفاء الثلاث. ولا اعتقد أن ذلك ادِّعاء متعمَّد من جانب ستالين. وهو لم يكن يهوى النزهات الطويلة، وإذا صودف وجوده في منزله الصيفي، فهو يخرج إلى الهواء الطلق لبعض الوقت، بحيث لا يجوز اعتبار ذلك نزهات حقيقية بالمعنى الذي ينصح به الأطباء مرضاهم عادةً.

وإذا ما تحدثنا عن مظهره الخارجي فإنه كان مربوع القامة. كما أن الفكرة حول استعداد كبير للسمنة عنده ليست بذي أساس. طبعاً، كونه شخص لم يكن يمارس عملاً جسدياً لربّما اتسم بميل إلى السمنة، لكنّه سعى إلى الحفاظ على لياقته. ولم ألاحظ أبداً أن ستالين اجتهد في استخدام الملعقة والشوكة في الأكل. حتى يمكن القول وكأنه كان يأكل دون حماس.

لم يتعاطَ ستالين كذلك المشروبات الروحية الثقيلة، إذ لم يتسنَّ لي رؤية ذلك. كان يشرب الخمر المصنوع من العنب كالنبيذ مثلاً، وكان يحرص بالمناسبة على فتح القنينة بنفسه. يقترب منها يتأمّل ملياً البطاقة الملصقة عليها وكأنه يقوِّم مزاياها الفنيّة، ثم بعدها فقط يعمد إلى فتحها.

وممّا يسترعي النظر أن شكله الخارجي بدا دائماً متعباً. وقد سنحت لي الفرصة أن أراه عدّة مرات يسير في ممرّات قصر الكرملين وهو يرفل بزيٍّ الماريشال، بما يجعل المرء يشعر أن هذا الزي يعجب ستالين ويرتاح إليه. إذا لم يرتدِ البزَّة العسكرية كنت تراه في بذلة نصفها عسكري ونصفها الآخر مدني، أما الاستخفاف وقلة الاكتراث في الملبس فلم يكونا من طبيعته.

تنبّه الجميع إلى أنّ ستالين لم يكن تقريباً يتحدث بنفسه مع أحدٍ، بمن

فيهم الأجانب، عن أسرته: زوجته وأولاده. (حدثني) الأجانب أكثر من مرة عن ذلك، حتى أنهم كانوا يسألون:

ـ لماذا؟

إنّ الكثير مما نُشر ويُنشر في الخارج عن علاقات ستالين مع زوجته وأبنائه وأقاربه لا يعدو كونه نسج خيالٍ في الجزء الأكبر منه.

عندما يدور الحديث عن ستالين يُطرح أحياناً السؤال التالي:

ـ كيف كانت علاقته بالفن والأدب، خصوصاً الروائي؟

أعتقد أنه من الصعب على أيّ شخص إعطاء جواب محدَّد على هذا السؤال. وانطباعاتي الشخصية تنحصر في التالي:

لقد أحبَّ ستالين الموسيقى. كان يتقبّل بشغفٍ بالغ الحفلات التي تقام في الكرملين، وخصوصاً باشتراك المغنّين أصحاب الأصوات المرنة. فقد أحبَّ الأصوات القوية الرجالية والنسائية على السواء. وكان يتوق إلى سماع الموسيقى الكلاسيكية وبشكل خاص حين يجلس وراء البيانو عازفنا البارز إميل غيليلس، كما كان معجباً كثيراً بعددٍ من المغنّين المنفردين في مسرح البولشوي، ومنهم إيڤان سيميونوڤيتش كوزلوڤسكي.

أذكر أن في إحدى حفلات كوزلوڤسكي أعرب عدد من أعضاء المكتب السياسي بصوت مسموع عن رغبتهم في أن يؤدي أغنية شعبية حماسية مرحة. وقال ستالين بصوت هادىء يسمعه الجميع:

ـ لماذا الضغط على الرفيق كوزلوڤسكي. فليُغنِّ ما يحلو له. إنه يريد تأدية مقطع لينسكي من أوپرا «يفغيني أونيغين» لتشايكوڤسكي.

ضحك الجميع ضحكةً وديّة، بمن فيهم كوزلوڤسكي، الذي أدّى

مقطع لينسكي على الفور. وتقبّل الحضور دعابة ستالين بسرور.

وفي موضوع الأدب يمكنني التأكيد أن ستالين كان يقرأ كثيراً، فقراءاته وسعة اطّلاعه ظهرت في خطاباته وما عداها. عرف الأدب الروسي الكلاسيكي جيّداً، وأحبَّ مؤلَّفات غوغول وسالتيكوف ـ شيدرين بشكل خاص. أما حكمي على معارفه في الأدب الأجنبي فأصعب، لكن من خلال بعض ملاحظاتي أقول إنَّ ستالين كان على اطّلاع على مؤلفات شكسبير، هاينِه، بالزاك، هوغو، غي دي موباسّان، وقد مدح الأخير كثيراً. وكان أيضاً مطّلعاً على مؤلفات كثيرين غيرهم من الكتّاب الأوروبيين الغربيين. ومن الواضح أن قراءاته كانت واسعة جداً في التاريخ، فقد حملت خطاباته أمثلة يمكن إيرادها فقط إذا كنتَ على اطّلاع على المصدر التاريخي المناسب.

قُصارى الكلام، إنّ ستالين كان شخصاً مثقفاً، ولعلّ أيَّ ثقافة شكلية لم يكن بمقدورها أن تعطيه بمقدار ما أعطاه التحصيل الشخصي. وما اللغة الستالينية الشهيرة ومقدرته على صياغة فكرة معقّدة ببساطة وبطريقة مفهومة من أوسع الجماهير إلاّ محصلة للجهد الذي بذله على نفسه.

وثمة ملاحظة محقّة حول دماثة سلوكه، إذ لم يكن يحتمل رفع التكلّف، كالتربيت على الكتف أو الظهر، الذي يُعتبر في بعض الأحيان علامة على الأُنس والأُلفة والتسامح. ولم يخرج ستالين عن طوره أو عن حدود المقبول حتّى في لحظات الغضب ـ وقد كنت شاهداً على هذا أيضاً ـ كما أنه تحاشى العبارات المُقْذعة.

وكنت شاهداً كذلك مرات عديدة على تعاطي ستالين مع الشخصيات

القيادية السوڤياتية الأخرى آنذاك، إذ كان يملك طريقة خاصة يعامل بها كل واحد منهم. وقد سمح ڤوروشيلوف ومولوتوف لنفسيهما فقط ببعض مظاهر عدم الكلفة في علاقاتهما مع ستالين، وتفسير ذلك أنه كان يعرفهما أفضل من الآخرين، إذ أن علاقات الثلاثة كانت تعود إلى أيام العمل السرّي قبل الثورة.

كان ستالين حراً ومنطلقاً في سلوكه وتصرفاته على المائدة بصرف النظر عن مستوى الضيوف أو أصحاب الدعوة.

وفي أثناء الحفلات البروتوكولية في المؤتمرات طرح ستالين الأسئلة على روزڤلت وتشرشل، وأجاب بسرور على أسئلتهم. وطالت الأحاديث، إضافة إلى المواضيع السياسية، المسائل الحياتية البحتة إلى حدّ تقويم مزايا الأطعمة الشعبية والمشروبات والاستيضاح عن انتشارها في مختلف البلدان.

في يالطا مثلاً تغنّى ستالين بأنواع الخمور الجيورجية، ثم سأل:

ـ هل تعرفون الفودكا الجيورجية المصنوعة من العنب؟ إسمها «تشاتشا».

ولم يكن تشرشل أو روزڤلت قد سمعا قط بالتشاتشا من قبل. وتابع ستالين:

ـ إنها الأفضل بين جميع أنواع الفودكا، بحسب رأيي، علماً أنني شخصياً لا أشربها فأنا أفضل الخمور العادية

إهتم تشرشل بموضوع التشاتشا على الفور وسأل مستفسراً:

ـ كيف يمكننا أن نجرّبها؟

ـ سأحاول تأمينها لكم لتتذوقوها.

وفي اليوم التالي أرسل ستالين التشاتشا إلى روزڤلت وتشرشل.

قصة أحد التوجيهات

كان عليّ في أحد اجتماعات المكتب السياسي أنْ أقدّم تقريراً حول جملة من المسائل، وفتحت حافظة الأوراق التي تحتوي على المواد المُعدّة والوثائق. وجبَ أن أعرض ثلاثاً وعشرين مسألة، كما أذكر الآن. كانت اجتماعات هذه الهيئة تجري بين فترات متباعدة وهذا ما يجعل المسائل تتكدس من اجتماع إلى آخر. رتبتُ الأوراق بالشكل المناسب وبدأت كلمتي. في هذا الوقت أدلى مولوتوف بالملاحظة التالية:

ـ رفيق غروميكو، من المستحسن أن يبقى هذا الموضوع إلى النهاية، لأن هناك مسألة أخرى تجب معالجتها بالدرجة الأولى.

أعترف أنّي فوجئت قليلاً ماذا يرمي ف.م. مولوتوف من وراء إعادة ترتيب المسائل، علماً أنه لم يعد وزيراً للخارجية في ذاك الوقت بل شغل منصب النائب الأوّل لرئيس مجلس الوزراء. لقد تهيّأ لي أن ملاحظته ترمي إلى أقرب ما يتعلق بالذوق من ناحية الترتيب.

لكنّ ستالين قاطعه بالقول:

ـ الأمر يعود إلى المحاضر في ترتيب المسائل، فليرتبها الرفيق غروميكو بالشكل الذي يراه مناسباً.

فعلتُ ذلك بطبيعة الحال، وقدمتُ المسائل الثلاث والعشرين بإيجاز، طبعاً، كما اقتضى الأمر آنذاك بمعدل دقيقتين أو ثلاث لكلّ مسألة.

هكذا تصرّف الآخرون، إلاّ في الحالات الخاصة.

علقت في ذاكرتي الحادثة التالية: أقدمت السلطات العميلة في كوريا الجنوبية بتشجيع من واشنطن على إشعال نار الحرب ضد جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية.

خلَقت بداية الأحداث العسكرية في كوريا توتّراً جدياً في الوضع الدولي. وأصبح واضحاً للجميع أن هذه الحرب تنطوي على خطر كامن قابل لتوسيع رقعة النزاع.

دُعي مجلس الأمن بصورة عاجلة لبحث الوضع الناشىء. قبل انعقاد الجلسة بأربع وعشرين ساعة، كانت تُناقش في موسكو مسألة أي موقف على مندوب الاتحاد السوڤياتي اتخاذه. لم يساور الشك أحداً في ضرورة الشجب الصارم للعدوان ولسياسة الولايات المتحدة الأميركية بصفتها شريكة في العدوان. بيد أنّه كان مطلوباً اتخاذ قرار: هل يتوجّب على المندوب السوڤياتي المشاركة في الجلسة التي تنعقد بناءً على الرسالة الاستفزازية بل المهينة في لهجتها، والتي كانت الولايات المتحدة قد تقدمت بها إلى مجلس الأمن حيث ضمّنتها رواية كاذبة عن الحرب.

بعد قراءته البرقية المرسلة من نيويورك من قبل يا. أ. ماليك المندوب السوڤياتي في الأمم المتحدة، اتصل ستالين بي هاتفياً في المساء:

ـ رفيق غروميكو، أي توجّه برأيكم يجب اعتماده في هذه الحال؟

قلت مجيباً:

ـ الرفيق ستالين، لقد أعدّت وزارة الخارجية توجيهاً لتصدّقوا عليه،

ينحصر جوهره في الآتي: أولاً، الرفض الحازم للاتهامات بحق كوريا الديمقراطية والاتحاد السوڤياتي والاتّهام الصريح للولايات المتحدة بالمشاركة في إشعال نار العدوان ضد جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية. ثانياً، في حال سيقدَّم اقتراح إلى مجلس الأمن لاتخاذ قرار ضد كوريا الديمقراطية أو ضد هذه الدولة والاتحاد السوڤياتي معاً، يتوجب على ماليك استخدام حق النقض «الفيتو» وعدم السماح باتخاذ قرار كهذا.

انتظرت ردّة فعل ستالين على ما قلته. لكنّه أعلن:

ـ بحسب رأيي يجب على الممثل السوڤياتي ألاّ يشارك في جلسة مجلس الأمن.

وهنا صبّ غضبه بعبارات قاسية على واشنطن لرسالتها المعادية لبلادنا ولكوريا الديمقراطية إلى مجلس الأمن.

وتحتّم عليّ لفت انتباه ستالين إلى نقطة هامة:

ـ إن غياب مندوبنا سيسهّل على مجلس الأمن اتخاذ أي قرار بما في ذلك إرسال قوات، إلى كوريا الجنوبية، من الدول الأخرى تحت راية «قوات منظمة الأمم المتحدة».

بيد أنّ هذه الحجّة لم تؤثر على قرار ستالين وأحسستُ أنه غير عازم على تبديل وجهة نظره.

ثم نصّ ستالين عملياً التوجيه، علماً أنه كان يلجأ عادةً إلى هذا الأسلوب في الحالات النادرة. وقد تمّ إرسال النص إلى مندوبنا في مجلس الأمن بعد حوالي أربعين دقيقة.

لقد حصل ما حذّرت منه، فكما هو معلوم اتخذ مجلس الأمن قراراً مفروضاً عليه من واشنطن. وألصقت على القوات المتجهة إلى كوريا الجنوبية بطاقة «قوات منظمة الأمم المتحدة». لم يقدم ستالين في تلك الحال على أفضل خطواته المدروسة، فقد أملت انفعالاته عليه اتخاذ مثل هذه الخطوة. وهذا لا يتوافق حتماً مع طريقة تفكيره في الأمور، لكن الحقيقة تقول إنّ هذا ما حصل.

في أحد الاجتماعات وعند نقاش مسائل السياسة الخارجية تطرّق ستالين إلى موضوع الجهاز الحكومي وضرورة تطويره. وحدث ذلك حين تناول أحد أعضاء المكتب السياسي موضوع نشاط بعض الأجهزة الحكومية التي تتعاطى أحيانا بالأمور الخارجية علماً أن مجال عملها الأساسي في القضايا الداخلية. وبدأ المشاركون في الاجتماع بالانتقال تدريجاً إلى مناقشة هذه الناحية بالتحديد.

واحتدّ النقاش حول عمل أجهزة السلطة في المدن، وخصوصاً في العاصمة موسكو. وتعالت أصوات مشيرة إلى أنّ مجلس سوڤيات العاصمة يحلّ المسائل ببطء، وهناك تباطؤ في بحث مشاكل المدينة ونقاشات لا حاجة إليها. وقيل إنّ حتى الاسم - سوڤيات نواب موسكو - يدلّ على الصفة الاستشاريّة وليس الحل السريع والعملي للمسائل.

وأعلن ستالين فجأة:

- لماذا لا يُصار إلى إحياء شيء ما من الماضي؟ فالسلطة كانت يوماً ما في أيدي «الرأس»، الذي كان المرجع النهائي لاتخاذ القرارات في نطاق المدينة.

وقد أيدّ عدد من أعضاء المكتب السياسي هذه الفكرة، وأعرب

مولوتوف عن شكوكه. أمّا الآخرون فتهرّبوا من الإفصاح عن رأي محدّد، وبدا جلياً أنهم متردّدون.

لم يلحّ ستالين على اتخاذ قرار، ربّما اعتبر أن هذا الموضوع يحتاج إلى تفكير إضافي. وعلى حدّ علمي لم تبذل محاولات فيما بعد لمناقشة مشكلة «رأس المدينة». يبدو أن ستالين شخصياً توصل إلى استنتاج يقول بإبقاء الوضع على حاله.

قيمة هذه الحادثة في أنها تسمح بإبراز وإيضاح إحدى الخصوصيات الملازمة لهذا الرجل، فقد كانت بعض الصفات تجذبه إليها كالمغناطيس ومنها: الأفكار ذات الطبيعة التسلطية وتدبير الأمور بالطريقة البيروقراطية وهاتان صفتان ملازمتان لعبادة الشخصية.

* * *

عندما اقتربتُ، أثناء وضعي هذا الكتاب، إلى ضرورة الادلاء برأي حول ستالين، فقد انطلقت من التالي:

أولاً، لقد كنت معاصراً له وراقبت تصرفاته في عدّة مناسبات متعلقة بالشؤون الخارجية في شكل أساسي، في سنوات الحرب والفترة التي تلتها.

ثانياً، يطرح الناس سؤالاً محقاً وسيطرحونه في المستقبل:

- كيف تُصاغ العلاقة بستالين الذي قُدّر أن تجتمع فيه - واجتمعت فعلاً - خصال متناقضة كلياً؟

ستبقى شخصية ستالين موضع أحكام مختلفة بما فيها المتناقضة، خلال عشرات، إن لم نقل مئات السنين.

هذا الرجل الكبير يشكّل دون شك ظاهرة في التاريخ.

وتنطقُ بأشياء كثيرة مسألة أن يعتلي ستالين سدّة قيادة الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية بعد وفاة لينين وعلى مدار ثلاثة عقود لعب فيها دوراً مقرِّراً في قيادة دولة عظمى تحلّ مهام ضخمة في تطورّها. كان مقاتلو الجيش الأحمر والأنصار يقدمون حياتهم في سبيل الدفاع عن الوطن في النضال ضد المحتلين الفاشيين، وهم يحملون على شفاهم إسم ستالين.

لكن رؤية الجانب الإيجابي فقط في ستالين أمر خاطىء، فستالين كان شخصية متناقضة في العمق، متناقضة إلى حدّ مأساوي.

شغل ستالين المركز الأول في الدولة السوفياتية على امتداد فترة طويلة. وقد قال حزب الشيوعيين والتاريخ بشكل أساسي الكلمة الفصل فيه.

فمن جهة، ثوري متوقّد الذهن وحديدي الإرادة، قائد ذو عزيمة لا تلين على تحقيق النصر على العدو الماكر والقوي، رجل تمتّع بمقدرة على إيجاد التفاهم المتبادل مع الحلفاء في سنوات الحرب والاحتفاظ بمكانة رفيعة تليق ببلادنا في عالم ما بعد الحرب.

ومن جهة أخرى، رجل ذو سطوة لم يقم اعتباراً لمقدار الأرواح التي أزهقها في سبيل تحقيق الهدف المرسوم. ولم يتوانَ عن التعسّف المريع الذي أودى بحياة الكثيرين من المواطنين السوفيات. هذه هي نتيجة عبادة الشخصية. لن يغفر له الشعب والوطن هذه الجرائم أبداً. القضاء بالجملة على الشيوعيين وغير الحزبيين الأبرياء من أي ذنب، الوطنيين المخلصين لقضية الاشتراكية.

لن تُمحى أسماء ضحاياه من صفحات التاريخ أبداً. لقد دوت بقوة

كبيرة كلمات م.س. غورباتشوف الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي التي وردت في خطابه ابّان الاجتماع الاحتفالي المكرس للذكرى السبعين لثورة أوكتوبر الاشتراكية الكبرى.

إنها تعبّر عن آراء ومشاعر المواطنين السوفيات.

النصر العظيم في المعركة العظيمة

كان ذلك في يوم مشمس. الوقت في موسكوليل بينما تسطع الشمس على شاطىء المحيط الهادىء لجهة الولايات المتحدة الأميركية، فالفرق بالتوقيت إحدى عشرة ساعة بين سان فرنسيسكو وموسكو. كنّا نشارك في أعمال المؤتمر حيث يصاغ ميثاق منظمة الأمم المتحدة. وقد غادر ف.م. مولوتوف إلى موسكو وبقيتُ مكانه على رأس الوفد السوفياتي. ودعيتُ فجأةً إلى الهاتف:

- مستر غروميكو؟

- نعم، إنّي أسمعكم، من المتحدث؟

- ليوبولد ستوكوفسكي، أبلغكم تهانيّ، لقد انتصرت بلادكم العظيمة على ألمانيا.

انتظرنا جميعا هذه الساعة باستعداد تام. ومع ذلك فقد حلّ هذا اليوم علينا فجأة. وكان ليوبولد ستوكوفسكي. الشخصية الغنيّة الشهيرة، أول المهنئين وأول من زف إلينا نبأ النصر.

ودارت الدائرة. بقي يوم النصر عالقاً في مخيلتي كونه يوم سيل التهاني المتدفّقة التي انهالت علينا من كل حدب وصوب. اتصل أناس مختلفون من معارفنا وسواهم. بمن فيهم يوجين اورماندي، تشارلي شايلن،

دبلوماسيون، شخصيات رسميّة، ممثّلو المنظمات الاجتماعية الأميركية المختلفة، وطبعاً عدد كبير من المهاجرين الروس من زوّار السفارة السوڤياتية الدائمين والذين لم تذبل الروح الوطنية فيهم.

اتصلت ليديا دميتريڤنا بعد فترة (كانت آنذاك في واشنطن) وقالت بصوت مرتفع يشوبُه الاضطراب:

ـ يتدفّق الناس بلا نهاية إلى مبنى السفارة. وقد تشكّل طابور بشري هائل أمام أبوابها، والجميع مسرور الناس يهنئوننا. آلاف الأشخاص ينتظرون خروجك لتلقي كلمة بالجموع، ونحن نحاول إفهامهم أن السفير موجود في سان فرنسيسكو وليس هنا، ورغم ذلك ما زال الناس محتشدين ويطالبون: «فليخرج الروس فنحن نريد أن نهنئهم. فهذا النصر هو فرحة عظيمة مشتركة لنا جميعاً».

٩ أيار ١٩٤٥: يوم مُسجَّل في تاريخ الإنسانية إلى الأبد بأحرف من ذهب، ففي هذا اليوم حلّ النصر الذي طال حنين المواطنين السوڤيات إليه. لقد كان عيداً لكل الشعوب المناضلة ضد الفاشية.

يعرف العالم بأسره أن النصر العظيم الذي حقّقناه كلّفنا ضحايا كبيرة وحرماناً لا حصر له. لكنّ القوات المسلّحة السوڤياتية وشعبنا أدّيا واجبَهُما الوطني والأممي بشرف.

لا ينكر أحد مساهمة الدبلوماسيين السوڤيات في صنع النصر، فقد أشار ستالين أثناء الحفل الذي أقيم في الكرملين على شرف قادة أسلحة الجيش الأحمر إلى ذلك بالقول:

ـ إنّ سياسةً خارجية جيّدة تساوي في قيمتها أكثر من جيشين أو ثلاثة في الجبهة.

لم يتسنّ للرئيس روزڤلت الاحتفال بالنّصر الذي قدّم الكثير من أجل تحقيقه، لكنّ القدر، للأسف، كان قد أصدر حكمه...

تكوّن لديّ رأي ثابت أنّ روزڤلت كان يتعاطى مع الاتحاد السوڤياتي، وخصوصاً مع ستالين باحترام فائق.

ومن المعلوم أن أجهزة المخابرات السرّية الأميركية بشخص آلين دالاس كانت تجري في سويسرا محادثات مع بعض قادة الرايخ الألماني، الذين مثّلهم في المفاوضات المنفردة الجنرال الألماني ڤولف.

وعندما علم ستالين بالمباحثات وجّه رسالة إلى الرئيس الأميركي حمّلها استنكاره لأعمال المخابرات الأميركية.

في الثاني عشر من نيسان ١٩٤٥ وجّه روزڤلت رسالة إلى ستالين يؤكّد فيها عزمه على توطيد التعاون بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوڤياتي. لقد كانت هذه هي الرسالة الأخيرة إلى ستالين، بل كانت الوثيقة الأخيرة بشكلٍ عام التي خطّها الرئيس الأميركي، فمساء ذاك اليوم فارق فرانكلين روزڤلت الحياة.

وبموته تكوّن خلل في الحياة السياسية في الولايات المتحدة، كانت نتائجه الدولية كبيرة جداً. تسلّم دفّة الحكم ترومان الذي كان نائباً للرئيس، إذ أنّ حضوره كسياسي كان بمثابة ضوء القمر أي الضوء المعكوس. فقد بدأت تظهر تقريباً بعد تسلّمه السلطة بوادر البرودة الجدّية في العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية.

إنّ علاقة روزڤلت الطيبة بالاتحاد السوڤياتي كانت ملموسة في كثير من أفعاله، وبشكل خاص حين دعا مفوّض الشعب للشؤون الخارجية إلى حضور مؤتمر سان فرنسيسكو في خريف ١٩٤٥، وقد وصل مولوتوف

إلى الولايات المتحدة الأميركية تلبية لهذه الدعوة، وكانت طريقه تمرُّ عبر واشنطن.

لكنَّ روزفلت أمسى في عداد الأموات، عندها استقبل ترومان الضيف السوفياتي، وقد رافقته إلى البيت الأبيض بصفتي سفيراً.

تجدر الإشارة إلى أنني إلتقيت ترومان قبل ذلك أكثر من مرَّة، ففي إحداها دعاني إلى حضور فيلم وثائقي (كان ذلك قبل حوالي شهرين من وفاة روزفلت) يعرض مشاهد عن قتال الأميركيين في المحيط الهادىء، ثمَّ أعقب ذلك شريط وثائقي سوفياتي عن المعارك على الجبهة السوفياتية - الألمانية، شاهدناها بمعيّة مساعدي نائب الرئيس فقط، فقد كان ترومان الجالس إلى جانبي يتفاعل مع المشاهد على الشاشة، وتجري على لسانه تعليقات هي أشبه بصيحات:

- يا لَلْعَجَبْ! ما هذه العظمة! عجباً لبطولة هؤلاء الناس! كم هو قدير هذا الجيش.

لم أشاهد هذه اللقطات من قبل، فسفارتنا لم تكن قد تسلّمتها، أما الأميركيون فقد حصلوا عليها بطرقهم الخاصة. حدت بي الرغبة في سماع صوت المذيع الذي رافق الشريط السينمائي، لكن ترومان الجالس بجانبي كان يتكلّم ويتكلّم دون توقّف.

حتى بعد انتهاء العرض تابع ترومان ترداد عبارات الإعجاب بالجيش الأحمر وبطولاته، وبقسط الاتحاد السوفياتي في النصر المشترك على الفاشية. لم تحمل تلك العبارات سوى مظاهر الإعجاب، علماً بأني أعرف أن هذا الشخص الذي هو هاري ترومان ذاته صاحب التصريح الشهير

الذي كان له دويّ الرعد في الولايات المتحدة وخارجها. وقد أدلى به في بداية الحرب عندما هاجمت ألمانيا الهتلرية الاتحاد السوفياتي. وتضمّن تصريحه ما يلي:

- إذا ما رأينا أن ألمانيا تحرز النصر في الحرب فعلينا مساعدة روسيا، أما إذا رجحت كفّة روسيا فيجب مساعدة ألمانيا، فلتتقاتلا ما وسعهما ذلك.

في يوم النصر ألقى الرئيس ترومان خطاباً عبر التلفزيون الأميركي تحدث فيه عن المناسبة ولكن بنوع من الجفاء وبعبارات روتينية في وقت كانت أميركا كلها تغلي ابتهاجاً بهذا اليوم. لقد كانت تغطي وجه الرئيس الأميركي الحجري مسحة من التحفظ. وليس هناك ما يدعو للدهشة من أنه وتشرشل سوياً سعيا فيما بعد بكل طاقتهما إلى تخريب تلك العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية في سنوات الحرب.

وها قد دخلتُ ومولوتوف البيت الأبيض.

مرّ اسبوعان لم ألتقِ خلالها ترومان. أسبوعان فقط، لكني تعرّفت فيه بصعوبة بالغة على ذاك الشخص الذي كان منذ فترة قصيرة خلت تفيض منه الدماثة ولباقة المعاملة. أمّا الآن فقد تصرّف ترومان بقسوة مع المفوض السوفياتي، فبدا الجفاء في كل حركة من حركاته. ورفض أي اقتراح يطرح عليه ومهما كان موضوع الحديث. بدا وكأنه أحياناً لا ينصت إلى محدّثيه.

انتقل الحديث إلى الدورة الأولى للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة التي ستعقد قريباً. وأبدى الاتحاد السوفياتي استعداده لتوحيد الموقف مع

الولايات المتحدة والتنسيق حول عدد من المسائل. كان مولوتوف مكلَّفاً بنقاش هذه المسألة مع ترومان، ولكن النجاح لم يقدر لهذا الحديث.

يمكن الاستنتاج في تحليل هذا اللقاء أنَّ ترومان تصرَّف على هذا المنوال بسبب حداثته على كرسي الرئاسة. فقد أصبح بصفته شخصاً يقف على رأس السلطة في الدولة، على علم أن أميركا ستصبح بين ليلة وضحاها المالك الوحيد للقنبلة الذريّة، أخطر سلاح في العالم، السلاح ذي القوّة التدميرية الهائلة سيغدو بوسع أميركا أن تفرض إرادتها على الاتحاد السوڤياتي.

ترك اللقاء أثراً سيئاً، فلم يتمّ التوصّل إلى أي إتفاق مع ترومان، إذ انه لم يقدّم عملياً أي مساومة، حتى في المسائل الصغيرة.

حاول ترومان عمداً تأزيم اللقاء. ويمكن الحكم على ذلك ممّا بدا عليه من أنه غير مرتاح لمقرّرات يالطا في ما يتعلق بمنظمة الأمم المتحدة وعدد من مبادىء نشاطها. وبدر من الرئيس ما يشبه مشاكسة الديوك وذلك في تعرضه لكل فكرة تقريباً عرضها الجانب السوڤياتي عن مغزى المنظمة العالمية وعن مهمة درء خطر نشوب حرب جديدة يمكن أن تشنّها ألمانيا في المستقبل. وبدا ترومان على قاب قوسين أو أدنى من التحوّل إلى الموقع الآخر.

علاوة على ذلك، وبشكل مفاجىء جداً، نهض ترومان في منتصف الحديث وأوحى لنا بأنّ اللقاء قد انتهى. وهكذا فشل اللقاء في البيت الأبيض عملياً، وكان مولوتوف غير راضٍ عنه، وخالجني شعور مماثل.

وسبق ذلك قبيل نهاية الحرب وفي حياة روزڤلت، أن ترومان حاول

BUC Lib.

أن يُبقي انطباعاً جيداً في موسكو، لكن اللقاء مع مولوتوف أظهر وكأن الرئيس الأميركي الجديد تمّ إبداله، فقد كان يتمتع بمقدرة لا يستهان بها على تملّك التحولات السياسية التي ما لبثت أن ظهرت في القريب العاجل.

وُضع ستالين طبعاً في أجواء اللقاء، لكنّه لم يذكر مرّة واحدة الحادثة المشار إليها أعلاه. ومع ذلك فأنا أكيد من أنّ ستالين أولى اهتماماً جدياً لخلف روزڤلت الذي لم يُحسن، بل لم يرغب في إخفاء كراهيته لوطن الاشتراكية الذي قدّم أكبر عدد من الضحايا والخسائر في سبيل تحقيق النصر على العدو المشترك.

وأخيراً پوتسدام

إن تحققت هزيمة ألمانيا الفاشية حتى انطرحت مسألة حيوية حول إجمال نتائج الحرب، والدعوة إلى مؤتمر لقادة الدول الثلاث. ومن المنطقي أن العواصم الثلاث كانت في مرحلة الإعداد الجدّي لمؤتمر كهذا، يلتئم على أنقاض «الرايخ الثالث» الذي لم تخمد نيران انهياره بعد. لقد شكلّت هذه الندوة أيضاً حدثاً ذا أهمية استثنائية في حياتي السياسية، كوني عضواً في الوفد السوڤياتي، سفيراً لدى الولايات المتحدة الأميركية.

وكان قد سبق اشتراك الاتحاد السوڤياتي في مؤتمر پوتسدام عمل تحضيري ومتوتر. حدّدت القيادة السوڤياتية برئاسة ستالين الاتجاه الأساسي لهذا العمل. وأولى ستالين أهمية استثنائية للمشكلات التي سيتعين على المؤتمر أن يناقشها. وأشير إلى أنّي ساهمت بقسط محدّد في هذا العمل من خلال وجودي في موسكو آنذاك. لقد كان الوفد

السوڤياتي على استعدادٍ تامٍّ أمام المؤتمر وعاقداً العزم على التوصُّل إلى نقاط الاتفاق.

وأصبح ذلك كله ممكناً بالدرجة الأولى بعد المأثرة الخالدة التي اجترحها الجندي السوڤياتي إضافة إلى وقوف الجيش الأحمر في برلين قلعة الفاشية السابقة. لقد التأم المؤتمر في ظل أجواء نهوض المشاعر التقدمية في أوروبا والعالم، هذا النهوض الذي ولَّده النصر.

مثّل ترومان الولايات المتحدة الأميركية، الذي كان شخصية محدودة الشهرة بالمقارنة مع ستالين، أما في المجال الشخصي فهي شخصية غير معروفة إطلاقاً. أما تشرشل فكان على اطّلاع أكبر بالطبع على وجه ترومان السياسي. ولاحظ جميع من شارك في المؤتمر أن تشرشل وترومان كانا يفهمان بعضهما دون استخدام الكلمات تقريباً في الأيام الأولى للمؤتمر.

وأثناء المؤتمر حلّ إيتلي مكان تشرشل في رئاسة الحكومة والوفد البريطاني إلى مؤتمر پوتسدام. وقد انتهجت قيادة إنكلترا العمالية الجديدة الخط الذي سلكه تشرشل والمحافظون في المؤتمر من قبل، وهذا ما جعل ترومان يتفاهم بسهولة مع إيتلي.

يجدر بي التذكير ببعض أوجه الوضع في المؤتمر ذاته، علماً أنه سبق لبعض من شاركوا فيه أن كتبوا عن هذا الموضوع، ولكن بكثير من عدم الدقة.

بما أن پوتسدام تقع في المنطقة التي يحتلها الجيش السوڤياتي فالمسؤولية عن تأمين النظام والحفاظ على أمن رؤساء الوفود وغيرهم من المشاركين في

المؤتمر، وقعت على عاتق الجانب السوڤياتي. وقد نُظِّم ذلك كله على أكمل وجه، بحسب رأي الجميع.

كان مقرّ إقامة الوفد السوڤياتي في بابلسبورغ، وهي مدينة صغيرة تبعد بضع دقائق في السيارة عن پوتسدام قصر ملوك ألمانيا السابق، أما جلسات المؤتمر فكانت تعقد في قصر سسيليينهوف.

وأذكر جيداً عندما وصل الوفد السوڤياتي الأساسي إلى القصر، التفت ستالين حوله إلى الأدراج والممرّات ثم قال معلّقاً على ما رآه:

– لا أرى علامات الفخامة الزائدة، فالقصر متواضع بشكل عام. المسألة عند القياصرة الروس مهيبة أكثر، فالقصر عندهم هو حقاً قصر، وكذلك الأدراج.

أصغينا جميعنا بتفهُّم إلى كلماته لأنه كان معبّراً بدقّة عن الواقع.

على امتداد الطريق من بابلسبورغ إلى قصر سيلييينهوف كانت سيارة ستالين وغيرها من السيارات تمرُّ عبر صفين من جنود الحماية الموزعين على مسافة خمسة أو ستة أمتار تفصل واحدهم عن الآخر، عدا عن صفين آخرين على مسافة خمسين متراً تقريباً من الصفين الأوّلين ولكن مع مزيد من المسافة بين الجنود.

غالباً ما كان ستالين يدعو مولوتوف ليرافقه في سيارته، وقد دعاني أيضاً، لاستقلال السيارة ربما لأنه كان لديه أسئلة واستيضاحات يريد طرحها على السفير السوڤياتي لدى الولايات المتحدة الأميركية، وذلك قبل التوجه إلى الجلسات. وقد تمحورت هذه الأسئلة حول موقف ترومان وأمزجة الأوساط السياسية الأميركية وغيرها.

كنت في البداية أشعر ببعض الحرج عندما يجلس ستالين في وسط المقعد الخلفي ويترك لي ولمولوتوف المكانين الآخرين بجانبه ، لكنّي فهمت فيما بعد أن هذا المكان يعجب ستالين لأنه في وسط السيارة ويهتز أقل من غيره حين سيرها ، ذلك أن ستالين لم يكن يحب الارتجاج .

وقفت الفتيات السوڤياتيات منظمات المرور وفي أيديهن الأعلام على كافة تقاطعات الطرق والساحات في خط سير السيارات . كنّ يرتدين لباساً عسكرياً أنيقاً ، جديداً ، خالياً من أي عيب . وكان تحكّمهن بالرايات وكل حركة من حركاتهن تبدو رشيقة إلى درجة يتهيأ معها أنهن راقصات باليه . وقد وصلنا أن المشاركين في المؤتمر من أميركيين وإنكليز أعجبوا بهن إن لم يكن مثلنا ، فأكثر منّا .

فوق أطلال العرين

قررتُ وغوسييف أن نتجوّل في برلين قبل بداية أعمال مؤتمر پوتسدام بيوم واحد . لقد نصحنا عسكريّونا بذلك ، وأتت النصيحة متطابقة مع رغبتنا الذاتية .

لقد شاهدنا أنقاض عاصمة الرايخ الهتلري من الأرض هذه المرّة وليس من الطائرة ، زد على ذلك أننا رأينا بيوتاً قليلة غير مهدّمة كليّاً أو جزئياً . فقد سلمت البيوت الصغيرة على أطراف المدينة بشكل أساسي . وأذكر أن « الجيب » كان يتحرك بصعوبة بالغة في شارع أونتر - دير - ليندين ، الذي غطّاه الزجاج المتناثر وأحجار الطوب . جبال من أحجار الطوب المتهشّمة . . .

نصحنا مرافقونا الضباط بتفقّد ديوان الفوهرر السابق ، وقد وصلنا

tzius Lib. BUC

بعد صعوبات جمّة بسبب انسداد الطريق بالجدران المتهدّمة وأكوام المعادن وحديد البناء المتجمّعة عشوائياً . لا بدّ ان هذه الزبالة تنتظر مَنْ ينظّف الأرض منها . لم تقدر السيارة على بلوغ مدخل الديوان ، مما اضطرنا لمتابعة الطريق سيراً على الأقدام .

كانت الدوريات السوڤياتية منتشرة في كل مكان تسلّمنا بحذر من واحدة إلى أخرى بطريقة التتابع ، وصولاً حتى المدخل الرئيسي الذي بطل شكله طبعاً أن يكون رئيسياً أو احتفالياً ، ذلك أنّ الديوان قد دُمّر كلياً تقريباً إبّان القتال . أمّا ما تبقى منه فجدرانه المخرّمة بالشظايا التي لا تُعدّ ولا تُحصى والمنفغرة عن فجوات كبيرة من جراء القذائف . والسقوف سلمت في أماكن نادرة ، أما النوافذ فعبارة عن مساحات سوداء .

لقد حمل الانطباع الأوّل عن البناء بعض الغرابة عموما . يبدو أنّ مَنْ هندس بناءه أربَ إلى خلق ، في كل من يقترب منه ، الشعور بالإجلال والهلع مع شيء من الصرامة الشيطانية .

لا يمكن لشكل الديوان الخارجي أن يثير في الناظر إليه أيّة مشاعر إيجابية ، فهو واجم وباعث على الخوف حتى قبل تدمير ، كما روى لنا كثيرون من الألمان . وإذا ما حاولنا تصغير أحجام هذا المبنى في خيالنا مع الحفاظ على تناسبه وشكله الهندسي ، لغدا شبيهاً ربّما بناووس قديم .

تجوّلنا في قاعات الديوان التي كانت مكاناً للاجتماعات والاحتفالات التي أقامها هتلر وجماعة القيادة من حوله . لم تتأثر القاعة الرئيسية بالدمار كغيرها لأسباب ما . فقد اقتصر الخراب فيها على السقف والأرض بشكل أساسي . واحتفظت الأبواب والثريّات والنوافذ بآثار المعركة التي أتت على معظمها .

ثم قادنا مرافقونا إلى القسم السفلي من المبنى المؤلف من عدّة طبقات تحت الأرض، في واحدة منها توجد محطة لتزويد البناء بالكهرباء.

وقال الضابط الذي كان يرافقنا مشيراً إلى حطام المحطة الكهربائية:

ـ كانت تؤمن الطاقة لكل المبنى عند الحاجة. برلين بأكملها غارقة في الظلام الدّامس بينما الضوء يتلألأ هنا.

الطبقات السفلى بمثابة صورة كاملة للفوضى. يبدو أن حامية القلعة قاومت بمراس شديد. كان الممرّ طويلاً جداً، ربّما على امتداد ديوان الرايخ كله. والتنقّل فيه يتم عبر ألواح خشبية موضوعة لهذه الغاية لتجنّب الوقوع في الماء المتجمّع على عمق كبير من جرّاء تفجّر الأنابيب.

ولّد ذلك كله انطباعاً كئيباً ومؤلماً. لو تسنّى لمصور أخذ صور فوتوغرافية لهذه الفوضى في سراديب القلعة الهتلرية، لصلُحت رسوماً لجحيم دانتي ولبقي تحديد الدائرة المناسبة للرسوم في هذا الجحيم.

كم ارتحنا عندما خرجنا من هذا المبنى الذي كان منذ زمن وجيز عرين المجرم الفاشي الأول، والشبيه بالحصن من الخارج. لقد تنفسنا الصعداء.

وانتقلنا بعدها لتأمّل مشروع آخر، صومعة هتلر. لو أن الأمر تطلب بناء تمثال يكون رمز اللعنة لكل الإجرام والحقد على الإنسانية، لكل ما يرتبط بالهتلرية، لما انوجد أفضل من هذه الصومعة المدمّرة.

برز أمامنا نُصب دائري الشكل كأنه نُحت من صخرة، يبلغ ارتفاعه حوالي العشرة أمتار وقطره يناهز الخمسة أو الستة أمتار. يؤدي المدخل إلى سرداب غمرته المياه كله تقريباً، أما الممرات من جناح إلى آخر في

الصومعة فقد سدّت بقطع الإسمنت المسلّح المهشّمة. على ما يبدو عمل مقاتلونا جيداً من أجل تحطيم مخبأ الفوهرر المتعجرف، فقد بانت أحشاء الأرض حول الصومعة، من جرّاء الانفجارات القويّة على عمق كبير.

وكأنّ بصور مبنى الرايخ والصومعة المدمّرين تجسد انهيار ألمانيا الفاشية ونظامها المجرم، وتترك هذه الصور في الزائرين انطباعاً لا يُمحى.

من المؤكد أن بعض ممثلي الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا زاروا أطلال مبنى الديوان الامبراطوري والصومعة، غير أن الملفت للنظر أنهم قصدوا هذه الأماكن دون رغبة، على كلّ حال لم نصادف أحداً منهم هناك.

وقادنا مرافقونا إلى البقعة التي كان اسمها منزل غوبلز، علماً أنه لم يبق أي شيء تقريباً من المنزل. وروى لنا الضباط السوڤيات أنهم عندما وجدوا جثث أبناء غوبلز الستة حملوهم إلى الشارع، ثم عثروا بعد قليل على جثتي غوبلز وزوجته مرميتين بالقرب من الصومعة، فوضعوا الثمانية بالقرب من بعضهم البعض وألحفوهم. وسمحوا من بعدها لعدد محدود جداً من الأشخاص بمعاينتهم والتعرّف عليهم وقد رسّخت هذه العملية في صور أصبحت فيما بعد مشهورة.

يعجز القلم عن وصف الانطباع الفظيع والأليم من جراء الحدث الذي وقع في هذا المكان.

الثرثار الإذاعي الفاشي يقتل نفسه بيده بعد أن يأمر بالقضاء على زوجته وأولاده.

وبعد مصرع الزوج تلتفت الأم المجرمة نحو أولادها وتقول:

ـ لا تخافوا فسيعطيكم الطبيب الآن لقاحاً، يعطى لكل الأولاد والجنود على السواء.

ثم يحقن الأطباء النازيون، وبأمر من ماغدا غوبلز، الأولاد بالمورفين فيغرق الصغار في شبه غيبوبة. وتأخذ السيدة غوبلز حينئذ أنابيب سيانور البوتاسيوم وتفتحها بأعصاب باردة لتصبها في أفواه أكبادها المرتمين من تأثير المورفين. وبعد أن تتأكّد من نجاح عمليتها تقتل نفسها.

يعرف التاريخ قليلاً من الجرائم التي يمكن مقارنتها من حيث الانحطاط والوحشية بتلك التي نفّذها هذان الزوجان من القتلة المحترفين. وتصحّ مقارنتهما بالعقرب فقط الذي يلسع نفسه ويموت حين يقع في ورطة لا مخرج منها.

افتقاد الحرارة

وجدت نفسي وراء طاولة المؤتمر مع انطباعاتي الحديثة عن برلين. كان العمل يسير بوتيرة نشيطة، والرئاسة يتناوبها قادة الدول الثلاث. لقد كُتب ونُشر عن المؤتمر الكثير من المواد الرسمية وغير الرسمية.

ولا بأس هنا من التذكير بالجو العام الذي ساد المؤتمر، والذي كنت له شاهداً. كان من المفترض بلقاء قادة الدول الحليفة أن يكون لقاء النصر بعد أن ألقى الخصم سلاحه معلناً استسلامه غير المشروط. فحريّ بهؤلاء القادة أن يدعّموا التعاون في الحرب والنصر، ويقطعوا العهد على تقديم كل ما في وسعهم من أجل ألاّ ترفع الفاشية رأسها أبداً بعد اليوم، بدل

شد الأيادي المصطنع كما ينص البروتوكول واللياقة. إن حرارةً عفويةً برزت أثناء تلاقي المحاربين السوفيات والأميركيين في جبال الألب وعناقهم. تحدوهم الأفكار والأحاسيس نفسها.

لقد اتبعت قواعد اللياقة بصرامة في پوتسدام، وبدا من حيث الشكل وكأن كل شيء على ما يرام، فقد حيّا القادة بعضهم وأعربوا عن سرورهم باللقاء. غير أن حرارة اللقاء وراء «الطاولة المستديرة» لم تكن كافية. تلك الحرارة التي تطلّبها جو اللحظة التاريخية، الحرارة التي انتظرها بشوق مقاتلو الجيوش الحليفة كافة وشعوب الأرض.

منذ أن بدأ المؤتمر أعماله برز خلف الرزانة الظاهرة حذر وجفاء سياسيان في كل خطوة من جانب رئيس الولايات المتحدة الأميركية ورئيس وزراء بريطانيا. واتضح هذا الأمر شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت، فقد كان الاختلاف في مواقف الحلفاء ظاهراً تقريباً في كل المسائل الرئيسية التي طرحت للنقاش، ابتداءً من مسألة مستقبل ألمانيا وكيفية التعاطي معها الآن بعد هزيمتها، إلى مسألة التعويضات التي لم تُحلّ في القرم، إلى موضوع الخطوات العملية المطلوب اتخاذها لتجريد ألمانيا من السلاح وإنعاش الديموقراطية فيها، وانتهاءً بالمسألة البولندية ووجهة التصرف بالسلاح الألماني.

كان الحديث بمعظمه متوتراً رغم أن أحداً لم يضرب الطاولة بقبضته. ومنذ بداية المؤتمر بدا جلياً لكافة المشاركين فيه أن هناك طريقاً شائكاً أمام الوصول إلى اتفاقيّات، أما في بعض المسائل فلم تظهر أيّ علامة تشير إلى إمكانية الاتفاق حولها.

وسعى ستالين والوفد السوفياتي معاً خلال أعمال المؤتمر إلى إضفاء طابع

الثقة على جو المؤتمر وأبدوا احتراماً إلى الشركاء الغربيين في المحادثات، مع الحفاظ على المواقف المبدئية. وهذا ما خفّف إلى حدٍّ ما من الميل المتشنّج الذي أوجده الوفدان الأميركي والبريطاني.

وكنا جميعاً، ممثلو الجانب السوفياتي، نمعن النظر في وجه ترومان، إذ لم يسبق لنا أن خضنا مباحثات معه على أعلى المستويات بعد أن أصبح رئيساً، ولم نناقش معه المسائل المبدئية، مع أنه سبق ذلك تبادل الرسائل بينه وبين ستالين. وجَهَدْنا لفهم أفكاره وما هي أهداف واشنطن في الشؤون الأوروبية، خصوصاً ما يتعلق منها بألمانيا والسياسة الدولية بشكل عام.

وتوصّلنا إلى رأي مشترك مفاده أن ترومان أتى إلى پوتسدام واضعا نصب عينيه المهمة التالية: عدم التلاقي مع الاتحاد السوفياتي بقدر المستطاع والحفاظ على أكثر ما يمكن من الفرص والإمكانيات من أجل ربط ألمانيا بعجلة الاقتصاد الغربي. ويمكن القول إنه من خلال هذه الزاوية قوّم جوهر الاتفاقيات الممكنة في پوتسدام.

من الواضح طبعاً أن تشرشل كان حليفه الأمين والمجرب في هذا المجال. وقد عمد ترومان إلى «تصحيح» روزفلت الذي أبدى، بحسب رأيه تفهّماً بالغا في القرم لما يتعلّق باقتراح ستالين حول تعويضات الحرب المطلوبة من ألمانيا. ومؤدى هذه التعديلات هو مشاكسة الاتحاد السوفياتي في طلب التعويضات من المناطق الغربية المحتلة في ألمانيا، أي المناطق الصناعية وهكذا بقيت هذه المسألة دون حلّ.

والملفت للنظر أن ترومان حاول عمداً إدخال عناصر التأزيم حتى في نقاش تلك المسائل، التي لم تكن مسائل مبدئية إلى هذا الحدّ. وترك ذلك

إحساساً بأنّ الرئيس قد ركب موجة معيَّنة حتى قبل وصوله إلى برلين.

جدير بالذكر أن الأعمال جرت بخطوات حثيثة في الولايات المتحدة الأميركية لإنجاز القنبلة الذريّة، وذلك قبل زمن بعيد من التئام المؤتمر. وبنت الأوساط الأميركية الحاكمة آنذاك مشاريع استغلال سلاح الإبادة الجماعية الرهيب هذا بصفته سلاحاً سياسياً لتحقيق مآربها على الصعيد الدولي. ومن جملة ذلك، وبشكل خاص، اللجوء إلى هذا السلاح في مؤتمر پوتسدام.

وليس صدفة أن الرئيس الأميركي حاول بكل الوسائل تأجيل لقاء القمة في پوتسدام طالما أنّ المواعيد المحدَّدة لإنتاج القنبلة الذرّية كانت تتأخر. فباقتراح من ترومان نُقل موعد بدء المؤتمر من شهر حزيران إلى تموز.

ولم تقدر شخصيات عديدة مقرّبة من رئيس الولايات المتحدة الأميركية أن تشرح مناورات واشنطن تلك. علماً أن الأهداف الحقيقية لها لم تكن واضحة في بلدان الحلف المعادي للهتلرية الأخرى باستثناء، ربّما، بريطانيا العظمى.

«ورقة رابحة» بشكل قنبلة ذرية

اتّضح سلوك ترومان وتشرشل قبل مؤتمر پوتسدام كما في أثنائه، بعدما انكشفت جملة وقائع مرتبطة بتصنيع القنبلة الذريّة في الولايات المتحدة الأميركية. وقد كتب وزير الدفاع الأميركي في مذكراته أن واشنطن اعتبرت أنه من الضروري المماطلة في حلّ المشكلات الأوروبية ما بعد الحرب وغيرها من المسائل، إلى حين الحصول على «ورقة رابحة» حاسمة بشكل سلاح نووي.

وكان رهان القيادة الأميركية على استخدام هذا العامل في المسائل الدولية، عامل التهديد دون شك، يزداد كلّما اقتربت مواعيد اختبار القنبلة. وانتظر ترومان على أحرّ من الجمر نتائج التجربة. وما إن تبلّغ أنها حصلت، وكان ذلك في ١٦ تموز / يوليو عام ١٩٤٥ أي قبل يوم من بدء أعمال مؤتمر پوتسدام، حتى قرّر إبداء صلابة بالنسبة للمشكلات المطروحة للبحث في برلين.

وأكثر ما برز هذا في المسائل المتعلقة بأوروبا الشرقية. ففي نبرة عالية ودون أيّما أساس أعلن الرئيس الأميركي:

ـ إن الجانب السوڤياتي لا يطبق الالتزامات التي قطعتها دولنا الثلاث على نفسها في القرم.

وردّ الوفد السوڤياتي هذا الإدعاء بحزم وكذلك مطامع واشنطن التي شكّلت انعكاساً لنهجها المفعم بالأطماع التوسّعية نحو أوروبا الشرقية وغيرها من مناطق العالم.

واضطرت الولايات المتحدة الأميركية إلى الإقرار بأن سياستها «القاسية» لم تعطها شيئاً بعدما لاقت الصدّ من جانب الاتحاد السوڤياتي. ومن الملفت للنظر أن الوفدين الأميركي والبريطاني أعدّا سيناريو إبلاغ ستالين عن امتلاك الأميركيين للقنبلة الذرية. وتم تنفيذ هذا السيناريو على الشكل التالي: بعد إنتهاء الجلسة يوم ٢٤ تموز / يوليو توجه ستالين نحو باب الخروج فاستوقفه رئيس الولايات المتحدة الأميركية وقال:

ـ أريد أن أدلي بتصريح سرّي.

فتوقف ستالين وتابع ترومان كلامه:

ـ لقد اخترعت الولايات المتحدة سلاحاً جديداً ذا قوة تدميرية هائلة ونحن عازمون على استخدامه ضد اليابان.

تلقّى ستالين هذا النبأ ببرودة أعصاب ولم يبدُ عليه أي أثر للانفعال. أما الرئيس الأميركي فقد أصيب بالإحباط من ردّ فعل القائد السوڤياتي كما اتضح فيما بعد.

كان ستالين ينتظر بقلق نهاية الحديث مع ترومان وبمجرد أن انتهى هرع رئيس الوزراء الإنكليزي إلى الرئيس الأميركي ليسأله:

ـ كيف الأمور؟

أجابه ترومان:

ـ لم يطرح ستالين عليّ أي سؤال للتدقيق واكتفى بتوجيه الشكر لي على هذا النبأ.

حين تذكّر ترومان هذا الحديث فيما بعد عمد إلى تصوير ستالين وكأنه لم يفقه الأمر ولم يستخلص العبر المناسبة من بعض الجمل والعبارات التي قيلت بشكل عام عن السلاح الجديد. أما الواقع فيقول إن ستالين اتصل فوراً من پوتسدام بالعالم الفيزيائي إي. ڤ. كورتشاتوف وأعطاه تعليمات بضرورة الإسراع في إنجاز القنبلة الذرّية. وكان هذا هو القرار الصائب الوحيد في ظل امتلاك الولايات المتحدة الأميركية للسلاح النووي. لقد أرغم الاتحاد السوڤياتي على الإقدام على هذه الخطوة الجوابية.

لقد تغيّر وبشكل جذري الوضع الستراتيجي العسكري برمّته في العالم مع ولادة السلاح النووي، ذلك أن أضخم الاختراعات في الماضي لم تؤثّر في هذا المستوى على الحياة الدولية كافة، كالتأثير الذي خلّفه اختراع القنبلة الذرّية.

وأضحت الولايات المتحدة أول دولة تمتلك في ترسانتها سلاحاً نووياً وأول دولة استخدمت هذا السلاح.

وبنجاح بلادنا بتخطّي الكثير من الصعاب التي خلقتها مواقف الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا في مؤتمر پوتسدام، تمكنّ من إقرار قرارات مهمّة وافق عليها المؤتمر، ومنها تلك القرارات المبدئية المتعلقة بمسألة تنظيم ألمانيا على أسس ديمقراطية وتجريدها من السلاح وإزالة بقايا النازية، غير أنّ سياسة الدول الغربية نمّت عن عدم رغبة في تطبيق هذه القرارات.

فمن خلال إقدام واشنطن ولندن ثم باريس على إنشاء منطقتين فثلاث مناطق، ثم دولة ألمانية غربية إنفصالية، برهن هؤلاء على تنكّرهم لمبدأ إقامة ألمانيا واحدة ديمقراطية حقّة ومنزوعة السلاح. وكانت الاقتراحات السوڤياتية في هذا الصدد تلقى الصدّ، إلى أن برز في النهاية وبعد عدّة مراحل انتقالية، دولتان ألمانيتان مستقلتان هما، جمهورية ألمانيا الديمقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية.

من يتحمل مسؤولية مستقبل بولندة

من الضروري التطرق إلى بعض الأمور أيضاً المتعلقة بمؤتمر پوتسدام طالما أن المؤرخين الغربيين غالباً ما يجانبون الدقّة فيها.

اشتدت النقاشات الحامية مجدداً حول المسألة البولندية، كما في مؤتمر القرم. وكان القادة الثلاثة يتوقعون طرح هذه المسألة كل يوم، وفعلاً كانت تبرز في النقاش بشكل شبه يومي. تجدر الإشارة إلى أنه شُكّلت حكومة بولندية مؤقتة هي حكومة الوحدة الوطنية برئاسة أدوارد

أوسوبكا ـ موراڤسكي، وذلك قبيل افتتاح مؤتمر پوتسدام وعلى أساس القرارات التي تمّ التوصّل إليها في يالطا. واضطرت الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا إلى إقامة علاقات ديبلوماسية مع هذه الحكومة، غير أنهما كانتا تماطلان قدر المستطاع في حلّ الحكومة البولندية في المنفى. لقد كانت الدولتان مرتاحتين إلى هذه الازدواجية الفريدة.

اتخذ قادة الدول الثلاث قراراً ينصّ على ارتياحهم لتأليف حكومة الوحدة الوطنية، وذلك بعد مناقشة مستفيضة للمسائل المتعلقة بقيام هذه الحكومة وبعدما استمعوا وأخذوا بعين الاعتبار رأي وفد بولندة الذي دعي إلى پوتسدام برئاسة بوليسلاڤ بيروتْ. وأشار البيان كذلك إلى أن إقامة العلاقات الديبلوماسية بين كل من الولايات المتحدة وإنكلترا وبين حكومة الوحدة الوطنية المؤقتة في بولندة «أدّى إلى سحب اعترافها بالحكومة البولندية السابقة في لندن، التي لم تعد قائمة».

لقد استجاب هذا البيان لمصالح بولندة وطرح جانباً الحجج التي كان بإمكان الولايات المتحدة وإنكلترا مواصلة استخدامها للتدخّل في الشؤون الداخلية للشعب البولندي، كما أسهم في تعزيز وتثبيت مواقف حكومة الوحدة الوطنية المؤقتة في بولندة.

ولكن الملاحظ أنه كان من بين أعضاء هذه الحكومة شخصيات (على سبيل المثال س. ميكو لايتشيك) لم يستحقوا ثقة الشعب وأغفلوا مصالح بولندة الوطنية، مفضلين عليها السير في طريق أخرى أفضت بهم في النتيجة إلى الإفلاس السياسي الكامل.

وحين أدركت الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا أنه مع تعزيز سلطة الوحدة الوطنية في بولندة، ستنهار الأحلام والآمال المعقودة

لتحويل هذا البلد إلى «مجال وقائي» ضد الاتحاد السوڤياتي، عمدت الدولتان إلى التهرُّب من معالجة مسألة الحدود الغربية لبولندة التي تم الاتفاق عليها في پوتسدام، إلاّ أنَّ هذه المحاولات مُنيت بالفشل.

ووافق تشرشل وترومان في النهاية على تحديد الحدود الغربية لبولندة بشكل نهائي في مؤتمر پوتسدام، وذلك تحت تأثير براهين ستالين الدامغة والحجج المقنعة للوفد البولندي الذي أوضح بجلاء مشروعية إقتراحه حول الحدود الغربية وأهميتها من وجهة النظر التاريخية والاقتصادية والأمنية، وأخذاً بعين الاعتبار الواقع العملي على الأراضي التي أعيدت إلى پولندة. لكن، والحق يقال، ربط الزعيمان الغربيان موافقتهما تلك بقبول الوفد السوڤياتي بموقفهما حول مسألة التعويضات المفروضة على ألمانيا.

لقد احتلّت مسألة التعويضات المفترض بألمانيا أن تدفعها حيزاً مهمّاً جداً في مؤتمر پوتسدام، خصوصاً أنَّ الاتحاد السوڤياتي كان يملك ما يكفي من الأسس للمطالبة بتعويض الخسائر التي لحقت باقتصاده من جراء الحرب. فقد امتدت من الحدود الغربية لبلادنا مروراً بشمال القفقاس والڤولغا وصولاً إلى موسكو ولينينغراد منطقة من الأرض المحروقة وركام المدن والقرى، أكوام من الإسمنت والمعادن مكان المؤسسات الإنتاجية والأبنية الإدارية والمنازل السكنية. وهذه ليست الصورة كاملة، فالطيران الهتلري قصف في سنوات الحرب المدن الواقعة بين موسكو ومنطقة الأورال فأحدث دماراً هائلاً فيها. وتطلب ذلك كله الترميم أو حتى إعادة بناء كلية في كثير من الحالات. غير أنَّ أحداً من الزعماء الغربيين سواء تشرشل وإتيلي أو ترومان لم يرغب في تفهّم وضع الاتحاد السوڤياتي، فأصرّوا على عدم دفع ألمانيا أي تعويضات.

في إحدى المرات أثناء الاستراحة قال ستالين لأعضاء الوفد السوڤياتي، عندما تناول الحديث هذا الموضوع:

ـ يريد الأميركيون والإنكليز الإمساك بخناقنا، لكن شيئاً من هذا لن يحدث فنحن خرجنا من ذلك في أعوام الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي، والآن لا بدّ خارجون.

أقدم الاتحاد السوڤياتي بنتيجة المحادثات النشطة والمكثّفة على بعض التنازلات في موضوع التعويضات لقاء الاتفاق على الحدود الغربية الجديدة لبولندة كما رودت في المقترحات البولندية المدعومة من الوفد السوڤياتي، أي على امتداد خط أودر ـ نيسي. وهكذا، تمّ في پوتسدام، ولأوّل مرّة في تاريخ بولندة، حلُّ مشكلة حدودها الدولية بشكل نهائي وعادل.

ولاقى رسوخ الحدود الغربية لجمهورية بولندة الشعبية فيما بعد تعزيزاً وتأكيداً حقوقياً ودولياً تجسَّدا في الاتفاقيات المعقودة مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٥٠ وألمانيا الاتحادية عام ١٩٧٠ والاتفاقية السوڤياتية ـ الألمانية الغربية في العام ذاته، كذلك في الوثيقة الختامية لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا (هلسنكي، ١٩٧٥).

لم يقتصر عمل مؤتمر پوتسدام على الجلسات فقط، فقد كان رؤساء الوفود يتبادلون إمارات اللياقة، كما نُظّمت حفلات الغداء والعشاء والتصوير للذكرى، علماً أن ستالين وترومان وتشرشل، ومن ثم إيتلي، لم يبخلوا غالباً على المصوّرين في إلتقاط صور لهم.

وأذكر الحادثة التالية: أقام ترومان حفل عشاء، بعد أن نهض الضيوف من وراء الطاولة، جلس الرئيس إلى البيانو وعزف لحناً موسيقياً

ربما كان قد تدرّب على عزفه قبل ذلك، فمن المعروف عن ترومان أنه كان «يتسلّى» بالعزف على البيانو وحين إنتهائه من العزف مدحه ستالين قائلاً:

ـ أجل، الموسيقى شيء جميل، إنها تطرد الوحش من نفس الإنسان.

تملّكني ومولوتوف وغوسيف الضحك من كلمات ستالين هذه.

وأعجب ترومان بدوره بهذه الكلمات، ففي النهاية ليس من الواضح تماماً إلى مَن وجّه ستالين كلامه ومَن هو ذاك الشخص الذي تقوم الموسيقى بطرد الوحش من داخله في هذه اللحظة.

يكمن المغزى التاريخي لمؤتمر پوتسدام في أنه أسدل الستار الفاصل بين مأساة الحرب التي عاشتها أوروبا وبين أفق الحياة في ظروف السلام الذي انفتح أمام الشعوب. والفكرة المركزية التي حملتها مقررات المؤتمر هي إرادة الدول الثلاث المنتصرة في عدم السماح بنشوء عدوان جديد من الأراضي الألمانية. وقد قيل بوضوح ودقة. وحتى لو أنّ التفاهم في پوتسدام أدى إلى إعلان هذا الهدف فقط، لكان بالإمكان اعتبار المؤتمر في جملة الأحداث العالمية البارزة. طبعاً، هذا صحيح في حال أن الدول التي اتفقت في ما بينها ستعمل لتنفيذ الاتفاق بروحيته.

في ضيافة ويلهالم پيك

أي جهد هائل هذا الذي تطلّبه تنظيف العاصمة المستقبلية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، من أجل رفع الدمار والأنقاض بعد الموقعة الضخمة بين القوات السوڤياتية المنتصرة بقيادة المارشال جوكوف والوحدات المتبقية من الجيش الهتلري المجرم.

كما أشرت، كانت المدينة مهشّمة لدرجة كبيرة، فأكوام الركام في كل زاوية وعلى كل قارعة طريق. ربّما أنه لم تفعل أية كارثة طبيعية في أي مكان وزمان مثل ما سببته الفاشية لهذه المدينة ولألمانيا. لقد كان أرباب الفاشية يحلمون بالانتصارات و «المجال الحيوي»، أما في الواقع فقد حرموا أنفسهم الحق في مجال يعيشون فيه على وجه الأرض.

سنحت لي الفرصة أن أزور مرة أخرى بعد بضع سنوات برلين، عاصمة ألمانيا الديمقراطية. لقد أدهشتني الأعمال التي نفذت في المدينة منذ زيارتي الأولى، فقد اختفى الركام والنفايات وتم ترميم كل ما يمكن ترميمه بشكل أساسي. طبعاً كان هناك ثغرات لا زالت فاغرة في الشوارع والطرقات. ولم تُبنَ بعد أبنية جديدة، فقط، مكان تلك الفتحات التي تكوّنت من جراء انهيار الأبنية الضخمة في هذه المدينة، التي بمقدور حجارتها أن تروي الكثير عن تاريخ الألمان.

وقد دُعيت أثناء زيارتي تلك إلى الرئيس پيك. وأقول بصراحة إن الارتباك اعتراني لحظة دخولي القصر الرئاسي، علماً أني التقيت بالرئيس في موسكو في اجتماعات موسعة. أما في هذه المرّة فقد تناول البحث بعض المسائل السياسية.

وشدّد پيك أثناء اللقاء على التالي:

ـ من الضرورة بمكان تعزيز الدولة الألمانية الحديثة التي يجب أن تسير على نهج التطور الاشتراكي، طالما أن الدول الغربية لن تسمح بالطبع لهكذا منحى في الشطر الغربي من ألمانيا الذي يحتلونه.

ثم أضاف:

ـ ولكن لا ضير في ذلك، فنحن سنبني في الشرق دولتنا الألمانية.

لقد أذهلني الوضوح في أفكار هذه الشخصية التاريخية في الحركة العمالية الألمانية، الشيوعي الراسخ العقيدة.

وانتبهت أثناء اللقاء إلى الخزائن الكثيرة في الغرفة حيث نحن جالسون، وقد ملئت جميعها بالكتب. ولاحظ صاحب الدار اهتمامي فقادني إلى ثروته الكتبية، التي تفحصناها خزانة تلو الأخرى.

وقال:

ـ ترى هنا أعمال غوته الكاملة التي تضم حوالي مئة وخمسين مجلداً.

لا أخفي القارىء سراً أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مجموعة كهذه لأعمال الشاعر العبقري والعالِم.

قال پيك:

ـ غالباً ما أتسلّلَ إلى «أفكار غوته».

ثم أضاف:

ـ طبعاً، غوته والنازية، مفهومان متناقضان. النازية، هي خواء الفكر وغرائز حيوانية. أما غوته فمخزن الحكمة مع أنه رجل زمانه.

وقلت في نفسي لدى مغادرتي پيك: «شيء جيد أن ويلهالم پيك، هذه الشخصية الألمانية الفذّة، يحيا ويزدهر عطاؤه! إن اسمه وحده يعني ما يعنيه للألمان، بل ليس لهم وحدهم».

من الممكن كتابة الكثير عن ويلهالم پيك. فيكفي أن نذكر مشاركته في ثورة تشرين الثاني ١٩١٨ في ألمانيا ونشاطه في الرايخستاغ بصفته نائباً شيوعياً أيام جمهورية ڤيمار، وعن عمله في هيئة الكومنترن التنفيذية في فترة

ما قبل الحرب وأيام الحرب العصيبة، كذلك قيادته اللجنة الوطنية لـ «ألمانيا الحرّة» التي جمعت في صفوفها قوى الشعب الألماني الخيّرة التي هبّت على درب النضال ضد الفاشية. وفي الأخير عن نشاطه المتّقد في فترة ما بعد الحرب الصعبة، حين أصبح ويلهالم پيك رسمياً قائداً حكومياً كبيراً.

لقد توفي في العام ١٩٦٠.

يحتلّ إسم ويلهالم پيك مكاناً مشرّفاً في تاريخ الحركة الشيوعية الألمانية والعالمية.

لقد ترك ذكرى طيبة عن نفسه بوصفه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الألماني والحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وكأول رئيس لجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

* * *

يوجد الآن في الدول التي كانت حليفتنا في الحرب، شخصيات تدعو إلى توحيد الألمانيتين، الديمقراطية والفدرالية. ويلقون باللوم على الاتحاد السوڤياتي كونه يعارض هكذا اتحاد.

يستأهل موقف هذه الشخصيات أن يوصف بأنه غير صادق وغير شريف. فهم يسعون في الواقع، إلى ابتلاع جمهورية ألمانيا الديمقراطية من قبل جمهورية ألمانيا الفيدرالية. ويدرك هؤلاء قبل غيرهم والعالم كذلك أن الدول الغربية عرقلت قيام دولة ألمانية ديمقراطية ومسالمة وموحّدة. فقد أقدمت هذه الدول على جرّ ألمانيا الغربية إلى حلف الناتو، ضاربة بذلك عرض الحائط بروح ونصّ إتفاقية پوتسدام حول مستقبل ألمانيا.

وتحمل هذه المسألة برمتها وجهاً آخر، فعلى كل ألماني أن يعرف الحقيقة. أينما كان مكان إقامته. والحقيقة تقول إن الاتحاد السوفياتي فقط لم يسمح في حينه بتفتيت ألمانيا إلى أجزاء. لقد سعت الولايات المتحدة الأميركية وانكلترا بكل ما أوتيتا من قوة في المؤتمرات الحليفة لقادة الدول الثلاث إلى تمزيق ألمانيا. لقد تراءت لها ألمانيا، كبناء دولتي، مقسمة إلى مجموعة دويلات صغيرة. إنه سراب القروسطية، دويلات ألمانية متناثرة، هكذا كان تصورها لمستقبل الألمان.

من غير المستحب تذكر هذه الأمور الآن في الغرب، لكن التاريخ يملك ذاكرة جيدة، وهي لا تسمح بنسيان ما قد حصل.

* * *

سان فرنسيسكو:
عند جسر «البوابات الذهبية»

أقرت دول الحلف المعادي للهتلرية في أعوام الحرب ضرورة تأسيس منظمة الأمم المتحدة التي ستكون مهمتها الأساسية، بل غاية إنشائها حفظ السلام الدولي في فترة ما بعد الحرب. ويمكن القول إن هذه الفكرة قد برزت بشكل عفوي في الأوساط العليا في الدول الحليفة الثلاث. لم تنجلِ نهائيا ملامح منظمة كهذه، لكن أمراً واحداً كان واضحاً هو أنه على هذه المنظمة أن تتميز بفاعلية أكثر من عصبة الأمم التي بدت مكتوفة الأيدي أمام الحرب العالمية الثانية الزاحفة نحو البشرية.

لقد عكس الانهيار السياسي لعصبة الأمم إفلاس نهج الدول الغربية، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا اللتان حولتا عصبة الأمم إلى أداة لسياستهما. لم تشترك الولايات المتحدة الأميركية في أعمال هذه المنظمة، لكنها تعاطت معها بشكل منع النهج الأميركي في السياسة الدولية من الإسهام في إعاقة العدوان الهتلري. فلم تحرك الولايات المتحدة الأميركية ساكنا من أجل بث الحياة في نشاط عصبة الأمم الغارقة في بحر من الخطابات التي لم تحمل وراءها أي أعمال موجهة لمنع أو وقف استعدادات هتلر للحرب. والأنكى من ذلك أن الرأسمال الأميركي الكبير ساعد

عملياً ألمانيا النازية في صقل سلاح العدوان، من خلال اشتراكه في تمويل المجمّعات الصناعية الحربية الألمانية.

انتقل الحلفاء بعد فترة من تبادل الآراء الأولية حول فكرة إنشاء المنظمة العالمية، إلى المباحثات حول طابعها وهيكليتها وحقوقها وواجباتها.

معركة من أجل مبدأ الاجماع

لقد تسنّى لي تمثيل الاتحاد السوڤياتي في المؤتمر الذي انعقد في دومبارتون ـ أوكس واستمر من ٢١ آب / أغسطس إلى ٧ تشرين أوّل / أوكتوبر ١٩٤٤. لقد نجح المؤتمر في قطع شوط كبير على طريق إعداد مشروع ميثاق المنظمة الجديدة.

كانت طريقة تعاطي الاتحاد السوڤياتي مع هذه المنظمة واضحة منذ البداية، وتتلخّص في ضرورة إنشائها على أن تكون فاعلة. ويتذكّر إ. ستيتينيوس ممثل الولايات المتحدة في المؤتمر ونائب وزير الخارجية: «لقد اقنعتني المحادثات مع غروميكو وغيره من أعضاء الوفد الروسي في دومبارتون ـ أوكس أن قادة الاتحاد السوڤياتي كانوا مهتمّين إلى أقصى حدّ في قيام المنظمة الدولية».

جلست وفود الدول الثلاث، الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا، إلى طاولة المفاوضات في منزل هادىء ومريح يقع في طرف من أطراف العاصمة الأميركية.

وتركيب الوفود معروف، فالوفدان السوڤياتي والانكليزي يرئسهما سفيرا البلدين لدى واشنطن، أما الوفد الأميركي فبرئاسة النائب الأول وزير الخارجية.

افتتح المؤتمر في جوّ احتفالي. الممثل الرئيسي للولايات المتحدة الأميركية كان وزير الخارجية كورديلّ هيل. جرت الأعمال في المؤتمر بشكل فعّال ونشيط على كافة المستويات والأشكال، من الجلسات العامة إلى مجموعات العمل إلى لقاءات رؤساء الوفود وغيرها من اللقاءات والاجتماعات المختلفة. فقد كان المشتركون يدركون كم هو ضروري التوصل إلى اتفاق.

وقد نوقشت المسائل المهمّة المتعلقة بهيكلية ميثاق منظمة الأمم المتحدة ومضمونه باستفاضة ودقّة فائقتين. وتركّز الاهتمام الأساسي حول أنه لا بُد للمنظمة الدولية الجديدة وأن تستجيب لآمال الشعوب وتسهم في حفظ السلام وعدم السماح بنشوب حرب جديدة.

وحُلّت المسائل واحدة تلو الأخرى وتم الاتفاق على انضمام جمهوريتي أوكرانيا وبيلوروسيا السوڤياتيتين، بالإضافة إلى الاتحاد السوڤياتي، إلى المنظمة الجديدة.

يمكن القول إنه تم الاتفاق في دومبارتون ـ أوكس على تسعين بالمئة مما يخصّ إنشاء منظمة الأمم المتحدة. وبقيت المسألة الأساسية دون حلّ. وهي تلك المتعلقة بصلاحيات مجلس الأمن لدى تقسيم الحقوق والصلاحيات بينه وبين الهيئة العامة. وقد لاقى هذا انعكاسه في مواقف المشاركين حول المسألة المتعلقة بمبدأ إجماع الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن. وبقي موضوع آخر ذو أهمية استثنائية عالقاً، وهو ما يتعلّق بترتيب وطريقة اتخاذ القرارات في مجلس الأمن الدولي الذي ستقع عليه المسؤولية الأساسية في حفظ السلام. وبرز موقف الولايات المتحدة الأميركية حول هذه المسألة في اقتراحها الذي يقول إنه عندما يكون أحد

البلدان الأعضاء في مجلس الأمن طرفا في موضوع النقاش، لا يُحسب صوته في هذه الحالة عند اتخاذ القرار المناسب من قبل المجلس. وتطابق موقف إنكلترا مع هذا الطرح.

كان الاقتراح الأميركي يحمل خطراً جدّياً يتمثل في توجيه الدول الكبرى بعضها ضد بعض وبالتالي تقويض التعاون في ما بينها، الأمر الذي يجعل من منظمة الأمم المتحدة مشلولة الوظيفة كمنظمة دولية، بل وتقويض أسس قيامها. فنظام التصويت في مجلس الأمن، المقترح من قبل الولايات المتحدة لا يؤمن الضمانات اللازمة ضد تحويل منظمة الأمم المتحدة إلى مؤسسة تُملى فيها إرادة مجموعة من الدول على بقية البلدان، في المقام الأول الاتحاد السوڤياتي.

ويمنح مثل هذا النظام الدول الغربية، انطلاقاً من مصالحها الضيقة، إمكانية اتخاذ قرارات حول فرض عقوبات، بما فيها العقوبات الحربية. وستندفع الدول التي تتمتع بالأغلبية في مجلس الأمن، وراء مغريات استخدام القوة، بدلاً من البحث عن الحلول المقبولة من كافة الأطراف. ويحمل هذا بدوره تهديداً مباشراً بجرّ العالم إلى لجة كارثة جديدة.

لقد عارض الاتحاد السوڤياتي بحزم الاقتراح الأميركي انطلاقاً من سعيه الدائم والثابت إلى أن تخدم منظمة الأمم المتحدة فعلاً قضية الأمن الدولي. ودافع بعناد عن فكرته القائلة إن القرارات المتصلة بالمشكلات الأكثر أهمية لحفظ السلام والعلاقات بين الدول يجب أن تتخذ بالموافقة الإجماعية للدول الثلاث المنتصرة (الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا) وكذلك فرنسا والصين اللتين تستحقان التمتع بهذه الحقوق ذاتها، بحسب ما أجمعت الآراء. وبكلام آخر، مبدأ إجماع الدول

الخمس، الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن هو أساس النشاط المثمر والفاعل لهذه المنظمة.

كانت العواصم الثلاث على إدراك تام أن عليها اجتياز عائق عسير. وبرزت ثقة في أن فرنسا والصين لن تثيرا مشاكل وستقبلان بشكل الحل الذي يتفق عليه الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا. لكن بقي تحديد شكل هذا الحلّ وكيفية التوصّل إليه. بقدر ما كان الأفق يتزيّن أكثر بأكثر بفجر النصر على الفاشية، كانت مسألة قيام منظمة عالمية جديدة تُلحّ في طرح نفسها وتتطلب الإسراع في إيجاد الطرق لذلك.

قرّر روزڤلت التباحث شخصياً مع السفير السوڤياتي، انطلاقاً من أهمية المسائل العالقة، فدعاني إلى البيت الأبيض لهذه الغاية.

روزڤلت المهذّب والمتوثّب دائماً، يحسن براعة الجمع بين الأدب والأسلوب العملي للمباحثات. ولم يشكل لقاؤنا هذا استثناء، فبعد تبادل التحية قال روزڤلت:

- يقلقني فقدان التفاهم المتبادل حول بعض المسائل المرتبطة بالمنظمة الدولية المنوي إنشاؤها.

وشدد بعد ذلك على أهمية مجلس الأمن ونشاطه لحفظ السلام.

ورَدَدْت على ما قاله الرئيس:

- إن ملاحظتكم ذات الطابع العام تتطابق كلياً مع فهمنا لدور هذه الهيئة في منظمة الأمم المتحدة، لكن الاختلاف في وجهات النظر بيننا ليس قائماً حول هذه المسألة المبدئية.

عرض روزفلت فوراً الموقف من مبدأ الإجماع، ذلك الذي يدافع عنه المندوبون الأميركيون في دومبارتون ـ أوكس. كانت تحدوه الرغبة طبعاً في التأثير على سير النقاش اللاحق للمشكلة الناشئة وعلى حلّها. ومع ذلك فلم أشعر أثناء اللقاء أن الرئيس يعقّد المسألة بشكل خاص، بل على الأغلب ناقش المشكلة وحلّلها باحثاً عن سبل إزالة الصعوبات.

واضطررت إلى عرض حججنا لروزفلت دفاعاً عن موقف الاتحاد السوفياتي.

فقلت:

ـ لا نملك مجالاً للتراجع عن موقفنا هذا، كما لم يكن مجال أيضاً لدى قواتنا المقاتلة في ستالينغراد. هكذا كان يقول جنودنا الذين أدركوا أنه ممنوع التراجع عن الفولغا نحو الشرق.

ولم يُعطِ اللقاء في النهاية أساساً للافتراض بأن واشنطن قد أصبحت على استعداد لتغيير رأيها. ولكن بدا أن مساعي البحث عن اتفاق حول هذا الموضوع ستتواصل، من خلال تحليل الرئيس الأميركي لهذه المشكلة وتبصّره فيها وإعماله فكره للتوفيق بين الموقفين.

لم تنجح المباحثات في دومبارتون ـ أوكس حتى النهاية في تخطّي الحدّ الذي يقطع الطريق إلى حلّ مسألة حق النقيض (الفيتو). وكنا نتمازح بالقول:

ـ لا تقوى ثلاث دول حليفة على التمكّن من هذا الخطّ، في الوقت الذي تستولي جيوشهم بنجاح على خطوط الجيوش الفاشية المحصّنة واحداً تلو الآخر ويحرزون انتصارات رائعة في ساحات المعارك.

ومع ذلك لم يفقد الوفد السوفياتي الثقة في أنّ الأميركيين والإنكليز سيدخلون تعديلات على موقفهم لإدراكهم دقّة الأمر ومدى تأثير عدم تجاوبهم على شطب فكرة منظمة الأمم المتحدة. وهذا ما حصل فعلاً، فقد حلّ مؤتمر القرم لقادة الدول الثلاث مسألة حق الفيتو. وتقدّم روزفلت شخصياً باقتراح يتوافق من حيث الصياغة بشكل أساسي مع ما كان الاتحاد السوفياتي يلحّ عليه منذ البداية.

وتم التوصّل في النهاية إلى اتفاق يقضي بأن تؤخذ القرارات في مجلس الأمن حول كلّ المسائل المهمّة بالتصويت الإجماعي من قبل الأعضاء الدائمين كافةً، ما عدا تلك ذات الطابع الإجرائي. وهذا في حدّ ذاته ينطوي على أهمية مبدئية.

قيل الكثير في الغرب وطُرحت تساؤلات كثيرة: لماذا تنازل روزفلت أمام الاتحاد السوفياتي؟ وتعرّض للوم الكثيرين، لكن الخطوة التي اتخذها يمكن تفسيرها ببساطة. لقد استطاع أن يقوّم بتبصّر، أكثر من بعض الشخصيات السياسية الأخرى في واشنطن ولندن، الموقف ويدرك أن الاتحاد السوفياتي لن يتراجع عن مبدأ إجماع الدول الخمس لدى اتخاذ القرارات المهمّة في المجلس. ويعود فضل كبير في هذا للرئيس.

حُلّت هنا المسائل الأساسية

مع الوصول إلى الاتفاق المبدئي حول حق الفيتو بقي أن يتفاهم الحلفاء حول مسألة من الذي سيحدّد المسائل المطروحة على مجلس الأمن من حيث أهميتها أو إجرائيتها. غير أن وجود الاتفاق المذكور جعل من الممكن التنسيق في المستقبل، في مؤتمر الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو

(٢٥ نيسان / ابريل ـ ٢٦ حزيران / يونيو ١٩٤٥)، البيان المشترك السوڤياتي، الأميركي، الانكليزي، الفرنسي، الصيني حيث تمت الإشارة إلى أن المسألة الاجرائية هي تلك التي لا يعارض أحد من الأعضاء الخمسة في اعتبارها كذلك.

وصادف افتتاح المؤتمر في سان فرنسيسكو في ذاك اليوم التاريخي عندما التقى الجنود السوڤيات والأميركيون في ألمانيا في جبال الألب في محيط مدينة تورغاو. ذاك المؤتمر الذي تعيّن عليه تأسيس منظمة الأمم المتحدة، المنظمة الدولية المدعوّة لتوحيد جهود البلدان المحبّة للسلام في سبيل حفظ السلام العالمي.

لقد تطابقت أعمال المؤتمر مع الفترة التي تنفّس فيها العالم الصعداء بعد انهزام ألمانيا الهتلرية. وقد مثّل هذا المنتدى الدولي الضخم أهمية استثنائية من عدة نواحٍ منذ أيام عصبة الأمم. فللمرّة الأولى التقى ممثلو مختلف دول العالم تحت سقف واحد على الشاطىء الأميركي للمحيط الأطلسي من أجل إقامة سدٍّ قويٍّ أمام خطر حرب جديدة. وكان الجميع يطرحون الأسئلة التالية:

ـ كيف ستكون صورة هذا المانع؟ وبأي مقياس سيتم سبر صلابته؟ ماذا سيوضع في أساسه؟.

تعيّن على مبعوثي دول أوروبا التي طالها القسط الأوفر من لهيب الحرب بكل بشاعتها وقسوتها، الاضطلاع بمسؤولية استثنائية عن حصّتهم المفترض أن يسهموا فيها لحل المهمة موضوع البحث. طبعاً كانت أعناق جميع المشاركين مشرئبّة نحو وفد الاتحاد السوڤياتي.

إنّ الفضل التاريخي للشعب السوڤياتي أمام البشرية لم يكن بحاجة

للدعاية، فالجميع يعرفون انتصار الجيش الأحمر ودوره في سحق الفاشية. وشعرنا، نحن أعضاء الوفد السوڤياتي، بهذا الأمر ولمسناه منذ أن وطئت أقدامُنا أرض سان فرنسيسكو.

ومع ذلك لوحظ فارق معيّن في الميول بالنسبة إلى بلدنا وفي ردود الفعل على مقترحاتنا المحددة وجهودنا في المؤتمر، بأوستراليا ونيوزيلاندا واتحاد جنوب أفريقيا وعدد من دول أميركا اللاتينية تفهّموا موقف الاتحاد السوڤياتي بدرجة أقل من غيرهم من الدول. ويمكن ردّ ذلك إلى أن لهيب الحرب لم يطل البلدان المذكورة بشكل مباشر، وخسائرها لا تقاس بأي شكل مع تلك التي تكبدتها بلادنا. كما أبدت بعض بلدان آسيا وشمال أفريقيا شيئاً من التحفظ.

أما في ما يتعلق بحلفائنا في الحرب، الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا وفرنسا، فكنا نشعر وكأن لهم قلبين في السياسة. واحد يقرّ بالأفضال التاريخية لوطن الاشتراكية في إنقاذ الحضارة البشرية من نير الفاشيين البرابرة، وآخر يعكس مصالحهم الخاصة الضيقة ويدفعهم، لدى نقاش المسائل الأكثر أهمية، إلى البحث عن حلول من شأنها تأمين الغلبة للدول الغربية الكبيرة في السياسة العالمية. وقد تجلّت هذه الازدواجية في أمور كثيرة، وصورة لقاء ترومان ـ مولوتوف قبل أيام من بدء المؤتمر التي أوردتها آنفا بحد ذاتها تدعو للحذر واليقظة.

بينما كانت آراء الدول الأخرى المشاركة في المؤتمر، كبولندة وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا، في المسائل المهمة متقاربة تقريباً مع وجهة نظرنا، علما أن أوضاع هذه البلدان الصعبة كانت لا تزال بادية للعيان. يمكن القول إن اتصالاتنا مع وفود هذه الدول كانت بشكل عام وديّة وعملية، وإذ كنا نلتقي مع مندوبيها كل يوم تقريباً.

كنا إبّان المؤتمر نتتبّع قاعة الجلسات العامة التي تغصّ كل مرّة بالحضور. كان الجوّ هناك دائماً مشحوناً بالانتظار. أما الصحافة فقد تفنّنت في طرح التنبوءات المختلفة والافتراضات وحتى الخلافات بشأن الجلسات. لم يكن عود التلفزة قد قوي بعد، وأتى دورها في صبّ شلالات الأخبار على رؤوس الناس متأخراً.

وبالرغم من ذلك، فإذا قارنّا الأجواء التي كانت سائدة في النقاشات أثناء مؤتمر سان فرنسيسكو مع حدّة نقاش المشكلات المشابهة في المنتديات الدولية اليوم، لأتت النتيجة في صالح النقاشات آنذاك دون أدنى شك، وهذا يطال منظمة الأمم المتحدة. ففي تلك الآونة لم تكن لغة ممثلي العالم الرأسمالي قد تزينّت بعد بـ «لآلىء» فنّ الخطابة الحديث مثل «السياسة من موقع القوة» و «الحرب الباردة» و «الزحف الصليبي ضد الشيوعية» و «الاتحاد السوڤياتي، إمبراطورية الشر» إلخ.. لكن أعصاب مندوبي بعض الدول الغربية كانت تبلغ قمة التوتّر لدى نقاش المسائل الحرجة، ومنها مسألة حق الڤيتو على سبيل المثال.

كانت الأمور الأساسية في المؤتمر تُحلّ في اجتماعات مندوبي الدول الكبار التي كانت تعقد كل يوم عملياً، وليس في جلسات المؤتمر العامة أو في اللجان المختلفة التي تشارك فيها كافة الدول، وبشكل خاص لجنة قيادة المؤتمر. ويحضر الاجتماعات عادة رؤساء وفود الدول الثلاث وإثنان أو ثلاثة من مساعديهم ومستشاريهم.

ممثل الولايات المتحدة الأميركية في مؤتمر سان فرنسيسكو كان ادوارد ستيتينيوس الذي أصبح آنذاك وزيراً للخارجية. وانتقلت رئاسة الوفد السوڤياتي إليّ بصفتي سفير الاتحاد السوڤياتي لدى واشنطن، وذلك

إثر سفر مولوتوف الذي مكث قليلاً في بداية أعمال المؤتمر. وترأس وفود إنكلترا وفرنسا والصين وزراء الخارجية في المرحلة الأولى وهم على التوالي: أنطوني إيدن وجورج بيدو وسون زيڤين. وانتقلت المهمة بعدها إلى السفير البريطاني في واشنطن آنذاك اللورد هاليفاكس (وكان يقابله أو يوازيه ممثل وزارة الخارجية البريطانية ألكسندر كادوغان)، الوجه السياسي الفرنسي المرموق جوزيف پول ـ بونكور، الديبلوماسي الصيني الكبير في عصره كوفيتزون (الذي يعرفه العالم باسم فلينغتون كو).

بعد الجلسات

شغل نشاط رؤساء وفود الدول الكبرى مكانة خاصة في أعمال المؤتمر، فقد كانت درجة التفاهم في ما بينهم، أو على العكس من ذلك، التنافر، تتحكم بالنبض السياسي لهذا المنتدى، وبالتالي باتخاذ القرارات حول المسألة المطروحة للمعالجة.

وسارت الأمور بشكل أن الدوافع الأساسية في طرح المسائل ذاتها وتذليل الاختلاف في وجهات النظر والعثور على الحلول المقبولة، كانت تنبعث من الوفدين السوڤياتي والأميركي. لو أن أحداً ما راقب عن قصد مشاركي اللقاءات الضيقة وهم يغادرون قاعة الاجتماعات لرأى لوحة طريفة. في حال الوصول إلى اتفاق يخرج المجتمعون وإمارات الرضا بادية على وجوههم، يتبادلون الحديث بحيوية، وأحياناً يتبادلون الملاحظات المضحكة.

ويتميز الوفد الصيني عن الآخرين كافة بأن وجوه أعضائه لا تنمّ عن شيء محدد، فوضع طغمة شان كاي تشيك المهتز ترك انطباعه على نشاط

المندوبين الصينيين ومزاجهم. حتى أن شخصاً معروفاً بقدمه في الدبلوماسية الصينية مثل كو فِيْتزون كان دائماً حائراً ومنغلقاً على نفسه. وكان في الاجتماعات يؤثر الصمت وتكسو مسحة من الكآبة وجهه، لم يفلح حتى المندوبون الأميركيون في إزالتها رغم موقف العطف والمجاملة الذي اتخذوه بالنسبة له ولزملائه في الوفد.

وفي الحالات التي لم تسفر عن اتفاق حول هذه المسألة أو تلك يخرج المشاركون في الاجتماع وعلى سيمائهم إمارات الصمت والانغلاق على النفس. ونشأ انطباع يوحي بأنهم قد اخترعوا لغة خاصة قوامها الحركات. وتعبّر هذه اللغة جيداً عن آرائهم بنظرائهم «الملاعين» الذين لم يوافقوهم الرأي.

أما حول موضوع النوم في الليلة التالية فيجدر الإقرار دون مكابرة أنه لم يكن مستقراً عند الكثيرين من أعضاء المؤتمر. والمندوبون السوفيات في هذا المجال لا يشكلون استثناءً، ذلك أننا كنا ندرك جيداً أهمية المشكلات المطلوب التوصل إلى اتفاق حولها، إذا ما انطلقنا من ضرورة إنجاز المهمة الموضوعة أمام المؤتمر وهي انشاء منظمة دولية فاعلة لحماية السلام.

كانت مجموعة المشاركين في اللقاءات الضيقة المشار إليها أعلاه تتألف من أناس مختلفين كلياً من حيث الطابع وطريقة التصرّف وأسلوب التعبير عن الرأي والإصغاء للغير. بدا وكأن صاحبة السيادة الصدفة شاءت أن تكون الجوامع بين هؤلاء أقل بكثير من الصفات الخاصة المميزة لكل فرد منهم.

بطبيعة الحال لم تخضع لقاءات «الخمسة» ودورها الموجّه للمؤتمر إلى

الدعاية الواسعة. غير أن كافة المشاركين في الندوة كانوا على علم بها وتقبّلوها كتحصيل حاصل، فالحرب علّمت الناس أشياء كثيرة.

إذا ما قيّمنا موضوعياً أهمية هذه اللقاءات فلا بدّ من الإشارة إلى أنها فُرضت بحكم الضرورة وليس لواجب اللياقة فقط. لولا اللقاءات المذكورة لكان من الصعوبة بمكان البحث عن حلول للمشكلات في ظل سيل من الخطابات تتدفق كل يوم في الاجتماعات الموسّعة والجلسات باشتراك كافة الوفود، خطابات غالباً لا تحمل شيئاً سوى الكلام الفارغ. وقد فاق هذا النوع من الخطابات في الجلسات العامة على كل ما عداه، خصوصاً حول مسائل حق الفيتو وصلاحيات الجمعية العامة.

واجتماعات هيئة قيادة المؤتمر المؤلفة من رؤساء الوفود المشاركة لم تكن بأفضل من الجلسات العامة، غير أن حضور رؤساء الوفد سمح بالاطّلاع على الخط السياسي الذي تنتهجه هذه الدولة أو تلك بالنسبة للمسائل موضوع النقاش. أضف إلى ذلك أن توضيح المواقف للزملاء في الهيئة كان يتم بشكل سهل نظراً لأن الحديث يجري بين أناس يتمتعون بصلاحيات واسعة.

ويحدث أن المستشارين والخبراء يوصلون المناقشات إلى مآزق يبدو معها المخرج مسدوداً، ويتبيّن فيما بعد أنه موجود لكن لا يعلم به سوى رؤساء الوفود. تجدر الملاحظة أن هذه الأمور ليست غريبة عن اللقاءات الدولية في أيامنا الراهنة.

شعر المندوبون السوفيات خلال أعمال المؤتمر كافة أن مبعوثي الغرب أناس من عالم آخر يفكرون بحسب مقاييس وطرائق أخرى، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة؛ علماً أن أكثر الناس تقريظاً في النقاش معنا ليس

مندوبو الدول الغربية الكبرى، بقدر ممثلي الدول الدائرة في فلكها وبرز في هذا المجال الخط الذي انتهجه ممثلو الدومينيك الإنكليزية، ذلك أن هذه الدولة لم تكن مالكةً بعد وجهها الوطني في السياسة.

بدا مضحكاً في الجلسات أمر رؤساء وفود استراليا ونيوزيلاندا وكندا، هاربرت ايفات و بيتر فرازر و كينغ ماكنزي. فهؤلاء استخدموا سيلاً من الكلام وكافة أصناف الحيل لدفن حق الفيتو.

كنا ندرك جيداً أن الانكليز يلجأون إلى شركائهم المخلصين في الكومنولث البريطاني، عندما يعجزون هم أو يخجلون من تصدّر الواجهة مباشرة في الصراع ضد مبدأ إجماع الدول الكبرى.

لقد أعطى المؤتمر جملة تأكيدات حول أن المصالح الطبقية لأولئك الممسكين بدفة السياسة في الغالبية العظمى للبلدان الرأسمالية، تغلب كل الاعتبارات والدوافع الأخرى. أليس إنشاء حلف شمال الأطلسي بعد أربع سنوات فقط من قيام منظمة الأمم المتحدة، دليل ساطع على ذلك؟

لقد تم الإتفاق قبل بداية المؤتمر على البحث المسبق لكافة المسائل الهامة في اجتماعات «الخمسة الكبار»، علماً أن الدول الخمس توصلت إلى هذا الحلّ بدون صعوبات تذكر لأن الجميع كانوا على يقين من أن أي اتفاق لن يرى النور إذا لم يحز على موافقة الوفود الخمسة مجتمعة. علاوة على ذلك أدركت هذه الدول أن نجاح المؤتمر سيكون مرتبطاً بمواقف الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية والوفاق بينهما سيحمل أهمية فائقة ومقرّرة لبقية البلدان كافة.

إلى جانب لقاءات وفود «الخمسة الكبار» كانت من حين لآخر

تحصل اجتماعات مصغّرة: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وإنكلترا. لكن غالباً ما كانت هذه الاجتماعات المصغّرة ثنائية، بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، التي حققت نجاحات كثيرة. وكانت تجري وكأنها دون سابق علم من الطرفين وبطريق الصدفة.

حصل أحد هذه اللقاءات بيني وبين ستيتينيوس وكان ذلك في ذروة المناقشات الحادة حول مسائل حق النقض (الفيتو) للأعضاء الدائمين في مجلس الأمن وصلاحيات الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة، كذلك حول المستقبل اللاحق لأراضي المستعمرات. لقد بقيت هذه المسائل مركز اهتمام المشاركين في المؤتمر من لحظة افتتاحه وحتى نهاية أعماله.

وقد تحدد تقريباً الاتجاه الذي تطور على أساسه نقاش هذه المسائل، أما الحلول فلم تتم صياغتها بشكل نهائي بعد من أجل إدخالها في ميثاق الأمم المتحدة. وأدرك الجميع أن الصيغ الملائمة قد تختلف، وهذا ما سيساهم في قيام منظمة عالمية فاعلة وقادرة، أو سيتم دفعها إلى طريق إقرار ميثاق هشّ لن يكون بالإمكان تعديله فيما بعد.

كان الحديث مع ستيتينيوس وجهاً لوجه، نحن الاثنين فقط.

أول مسألة طرحناها كانت تلك «القديمة المعروفة»، حول حق الفيتو. وبدا وكأن الأمر لا يحتاج إلى تفسير، فقد تمّ الإتفاق حول هذا الموضوع في مؤتمر القرم، أي قبل مؤتمر سان فرنسيسكو بكثير. لكن واشنطن في عهد الرئيس الجديد ترومان، الذي لم يرق له كثير مما اتفق عليه في يالطا مع سلفه الرئيس روزفلت، قرّرت السعي إلى هزّ الإتفاقية المعقودة هناك. وللإنصاف تجدر الإشارة إلى أن الإدارة الأميركية لم

تكن قد حزمت أمرها لدفن مبدأ الإجماع بأي ثمن.

لفتّ انتباه ستيتينيوس خلال حديثنا إلى الآتي:

- لا يظهر مندوبو الولايات المتحدة الأميركية الصلابة المطلوبة في اللجان المختلفة للدفاع عن الصيغة المتعلقة بحق النقض، والتي أقرّها مؤتمر القرم. لن يكون هناك تراجع عن اتفاق يالطا، والاتحاد السوڤياتي لن يقدم على ذلك في أي حال من الأحوال. فهو يعتبر أن قيام المنظمة الدولية غير ممكن إذا لم يُحلّ موضوع حق الڤيتو وبالشكل المناسب من وحي مقررات يالطا. ونعرب في هذا المجال عن أملنا في أن الولايات المتحدة الأميركية وبقية البلدان أعضاء مجموعة «الخمسة»، ستدافع فعلاً لا شكلاً عن مبدأ الإجماع للأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

أصغى ستيتينيوس إلى تصريحي بانتباه، ثم قال:

- إني أؤيد القول بإن تعريض اتفاق يالطا للإهتزاز معناه الإقدام على مخاطرة كبيرة وأعد بالاهتمام لئلاّ يسمح مندوبو الولايات المتحدة الأميركية في اللجان ومجموعات العمل المختلفة بهزّ هذا الاتفاق.

تكوّن لدي انطباع حول هذا القسم من اللقاء أن ستيتينيوس يحتاج نفسه لتحرير موقفه من الحيرة والتردّد، فوزير الخارجية الأميركي حافظ في قرارة نفسه على الولاء لنهج روزڤلت وتأييده. لكن هذا التأييد لم يعن المقاومة اللازمة للمترددين في إدارة ترومان بشأن هذا الموضوع.

يجب الإقرار أن ستيتينيوس بذل فيما بعد، خصوصاً أثناء أعمال القسم الثاني من المؤتمر، جهوداً كبيرة من أجل عدم فشل هذا المنتدى الدولي.

تطلب الأمر الإجابة على سؤال حول توزيع المسائل التي يبحثها مجلس الأمن والجمعية العامة، أي ما هي الأمور التي تعتبر موضوعاً لاستخدام الڤيتو، أم لا.

طبعاً، كان موقف الاتحاد السوفياتي يصرّ على أن كل مسائل الحرب والسلام الهامة يجب أن تحل في مجلس الأمن. أما واشنطن ولندن فأصرّتا على تقسيم هذه المشكلات بطريقة تعطي حقوقاً أكثر للجمعية العامة على حساب مجلس الأمن. لقد بنت الإدارة الأميركية مساعيها إلى نزع أكبر قدر من الصلاحيات من مجلس الأمن وإعطائها للجمعية العامة، على ثقتها في أن الولايات المتحدة قادرة على الحصول هناك على الأغلبية اللازمة وتمرير القرارات التي تستجيب لسياستها. في حين أن مندوبي طائفة من البلدان، الصغيرة بشكل خاص، كانوا يلحّون على إعطاء الجمعية العامة صلاحيات توازي صلاحيات مجلس الأمن إن لم تكن أوسع منها.

من الواضح أن هذه النزعة موجهة من أجل نقل مركز الثقل في المسؤولية عن حفظ السلام بواسطة توسيع الصلاحيات للجمعية العامة وتحجيمها لمجلس الأمن. وهنا برزت بكل أبعادها مسألة رسم الحدود الفاصلة بين وظيفة كل من هيئتي منظمة الأمم المتحدة.

وتدفقت هنا الاقتراحات حول منح الجمعية العامة الحقوق لبحث كل المسائل عملياً التي لا تتعلق باتخاذ عقوبات ضد الدول. لذلك أعلن الوفد السوڤياتي أنه لا يجوز طعن مجلس الأمن من الخلف بحجة تنظيم منظمة الأمم المتحدة على أسس ديمقراطية.

وقد طرحت في حديثي مع ستيتينيوس هذا الموضوع في هذه الصيغة بالتحديد.

وقلت له:

ـ إن الغلاف الديمقراطي المزيف للمطالبة بتوسيع حقوق الجمعية على حساب حقوق المجلس تتعارض أيضاً مع اتفاقية يالطا.

تعاطى ستيتينيوس بتفهم مع موقف الاتحاد السوڤياتي، قال:

ـ من الضروري طبعاً العمل من أجل توزيع عادل للصلاحيات بين الجمعية العامة ومجلس الأمن. وأعلن استعدادي لذلك.

بعد محادثات مضنية بانت إمكانية التوصل إلى تفاهم متبادل: بمستطاع الجمعيّة العامة أن تناقش، فقط، تناقش أية مسألة تتقدم بها هذه الدولة أو تلك أو مجموعة دول، لكنها لا تملك حق اتخاذ قرارات إلزامية. أو بكلام آخر الإدلاء برأيها الاستشاري على أن تعود صلاحية اتخاذ القرار إلى مجلس الأمن بعد موافقة كافة أعضائه الدائمين.

وأعلن الوفد السوڤياتي بحزم:

ـ لن توافق بلادنا على ميثاق لمنظمة الأمم المتحدة مؤهل لأن يزرع بذور نزاعات عسكرية جديدة بين الدول.

واني لأذكر أنه بعدما قلنا ذلك في أحد اجتماعات الدول الخمس، خيّم صمت متوتر على الاجتماع واتجهت أنظار الحضور في هذه اللحظة إلى رئيس الوفد الأميركي منتظرة منه الاجابة على ما طرق أسماعه.

بدا ستيتينيوس مضطرباً، فهو من جهة من أنصار نهج التعاون مع

الاتحاد السوڤياتي، وقد حافظ على ولائه لخط روزڤلت الذي أقرّ بحق الڤيتو في مؤتمر القرم. أما من جهة أخرى فإن تعليمات البيت الأبيض تلزم ستيتينيوس بالدأب على زرع الألغام في موضوع حق الڤيتو. التزم الصمت أيضاً السيناتور ڤاندنبرغ، العضو الآخر في الوفد الأميركي.

واستمر المشهد الصامت قرابة العشر دقائق. وانتهى الأمر بالاتفاق على أمر واحد فقط ألا وهو فضّ الاجتماع والعودة إلى دراسة الموقف. غادر جميع المشاركين القاعة ورؤوسهم منكّسة. فليعذرني أرباب المسرح على هذا المصطلح الجديد «مشهد صامت متحرك»! نظراً لطول الممرات بدا خروج الوفود واحداً بعد الآخر شبيهاً بموكب التشييع.

يمكن القول، إن واحداً فقط من بين جميع المشاركين حاول أن يخفي ابتسامة علت وجهه لإدراكه أن مبدأ الإجماع سينتصر في النهاية. إنه ليو باسفولسكي، الدماغ المحرّك لوزارة الخارجية الأميركية في المسائل المتعلقة بمنظمة الأمم المتحدة.

كانت بعض لقاءات «الخمسة الكبار» متوترة جداً. وينمو هذا التوتر ليصل إلى الذروة عندما يتبيّن بشكل قاطع أنه من المستحيل التوفيق بين الموقفين الأميركي ـ الإنكليزي والسوڤياتي حول مسائل توزيع الصلاحيات بين مجلس الأمن والجمعية العامة، إلاّ إذا تراجع أحد الطرفين.

اتضح أن الرئيس ترومان زوّد الوفد الأميركي بتعليمات تتضارب مع الحلول التي أقرّها مؤتمر يالطا وقد أحسّ المشاركون فوراً بالمتغيرات الطارئة على نشاط واشنطن في هذا المجال.

ولعب دوراً مميزاً في هذا الأمر آرثور ڤاندنبرغ عضو مجلس الشيوخ وعضو الوفد الأميركي، فقد كان شخصية مؤثرة في الحياة السياسية الأميركية من خلال تزعمه المعارضة الجمهورية في الكونغرس.

عاد الوفد السوڤياتي وأكد مرة أخرى بشكل قاطع:

ـ لن نخضع للضغط أو للإلحاح. يجب الإقلاع عن التعاطي معنا بالأساليب عينها المتبعة في مجلس الشيوخ الأميركي، فالأمم المتحدة منظمة دولية وعلى ميثاقها أن يكون مقبولاً لدى جميع الدول، بما فيها الاتحاد السوڤياتي.

لقد تراجع أعداء الفيتو عن عنادهم بعد هذا الموقف الحازم فقط.

تحرّك الجليد أيضاً بالنسبة لمناقشة صلاحيات الجمعية العامة، مع العلم أن وفد الولايات المتحدة لم يقلع عن أسلوب «المعارك في الخلف». وأخذت تنجلي معالم صيغة اتفاق تساومي بالنسبة للجمعية العامة يعطّيها الحق في نقاش أية مسألة ولكن دون اتخاذ قرارات ملزمة للدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة. كما نرى فالحل أصبح قريباً.

أخذت علائم سرور المشاركين بالازدياد وكنت تسمع نكات لطيفة، حتى أن أحد المندوبين قال ذات مرّة عن الاتفاق حول الميثاق:

ـ النجمة التي كانت تشع بصيصاً باهتاً أصبح ضوؤها الآن ثابتاً وقريباً.

تبدّل الجو السياسي في المؤتمر بعد بضعة أيام، فقد برزت المادة العاشرة من الفصل الرابع في ميثاق منظمة الأمم المتحدة التي تحدّد

صلاحيات الجمعية العامة بصياغة قرارات التوصية التي لا تحمل صفة الإلزام، كما حُلّت مسألة الڤيتو مثلما كان متفقاً في القرم.

مسلك واشنطن المعيب

تفاقم النقاش في سان فرنسيسكو حول مسألة الوصاية الدولية وتحديد وضع الأراضي الواقعة تحت الوصاية، أي مصير مجموعة من المستعمرات السابقة التي كانت إدارتها تتم وفق قانون الانتداب الذي سنّته عصبة الأمم. وقد اتبعت الدول الغربية، وفي مقدمتها انكلترا سياسة المحافظة على نظام السيطرة الاستعمارية، مع العلم أن مسلك الولايات المتحدة الأميركية اختلف بخصوصيات مميزة. فقد كانت واشنطن ميّالة لمناقشة الإمبراطوريات الاستعمارية في شكل تكوّنها التاريخي بصفته خطأ في تسلسل تواريخ الحدث. ومن أجل ذلك فهي لن تكتئب من تفكك المستعمرات. لقد كانت حسابات الرأسمال الاحتكاري الأميركي قائمة على أنه بنتيجة تفكك المستعمرات ستنفتح أمامه إمكانيات جديدة، بما فيها سياسية.

كان مندوبو الولايات المتحدة الأميركية متحفظين مع مندوبي الاتحاد السوڤياتي خلال نقاش موضوع الأراضي الواقعة تحت الوصاية. وحاولوا التركيز على الفكرة القائلة إنّ الدول الاستعمارية عاشت في هذه الأراضي ما فيه الكفاية ولا بأس للمالكين القدامى الآن من التنحي لغيرهم. ولم يبخل ستيتينيوس، في اللقاء المذكور معه بشكل خاص في كيل عبارات التهكّم الموجهة إلى تلك التي عليها، بحسب رأي واشنطن، فهم أن الزمن قد تبدّل ويجب أن تودّع مستعمراتها إلى الأبد.

لقد ناقشتُ مشكلة الأراضي المستعمَرة ومستقبلها أكثر من مرة مع

هارولد ستاسن المسؤول عن هذا القسم في الوفد الأميركي. كما كان يلتقي به عضوا الوفد السوڤياتي أ. إي. لافرينتيف و ك. ف. نوفيكوف، حول الموضوع عينه.

تجدر الإشارة إلى الاختلاف الواضح في جوهر الموقفين الأميركي والسوڤياتي، فقد طالبت بلادنا بأن تهيّىء الوصاية الدولية لإيجاد ظروف تسمح لسكان الأراضي المذكورة بالحصول على استقلالها.

ويعود الفضل إلى الاتحاد السوڤياتي كونه أدخل، إلى الفقرة التي تحدد في ميثاق الأمم المتحدة أهداف الوصاية الدولية، عبارة تحقيق الاستقلال وليس فقط الإدارة الذاتية، كما كان مقترحاً في المشروع الأميركي. لقد كان موقف الولايات المتحدة الأميركية معارضاً في البداية لشكل الصيغة هذا.

خلال كل المناقشات كان الأميركيون حريصين على دفع فكرتهم الراسخة في رؤوسهم ومؤداها أن على واشنطن استخلاص منفعتها الذاتية بالدرجة الأولى من الوضع الجديد للمستعمرات السابقة. وكانوا يطرحون لهذا الغرض خططاً للاستحواذ على بعض الأراضي الواقعة تحت الوصاية. وفي المقام الأول جزر ميكرونيزيا في المحيط الهادىء وهي الماريان، الكارولين ومارشال، أي تلك الجزر التي استولت الولايات المتحدة الأميركية عليها فعلياً فيما بعد، مخالفة بذلك ميثاق منظمة الأمم المتحدة وقرار مجلس الأمن في هذا الصدد. وهكذا يتضح أن ما كان يقوله الأميركيون تلميحاً أثناء قيام منظمة الأمم المتحدة تحوّل الآن إلى نهب إمبريالي واستبداد.

إن كل الدول التي تقف في سياستها الخارجية إلى جانب العدالة

واحترام الاتفاقيات الدولية، لا يمكنها إلا أن تشجب بشدة تلك السياسة التي تمارسها واشنطن بحق الأراضي المذكورة أعلاه. إن أعمال واشنطن هذه تشكل انتهاكاً لمبادىء الأمم المتحدة وأهدافها، كذلك انتهاكاً لوعودها الرنانة باحترام ميثاق منظمة الأمم المتحدة وحق سكان جزر المحيط الهادىء هذه.

لا بد من ذكر مادة أخرى للنقاش الحامي في سان فرنسيسكو.

لم يتطرق البحث سواء في دومبارتون - أوكس أو القرم إلى موضوع حق الدول الأعضاء في المنظمة العالمية الخروج منها لاعتبارات تراها هذه الدول موجبة لخروجها من المنظمة. المسألة تبدو سهلة لكنها معقدة في الوقت نفسه بما أنها تمسّ بمبدأ سيادة الدول.

فمن جهة لا يجوز لأية دولة أن تلغي عضويتها من المنظمة المدعوة لحفظ السلام الدولي. ومن جهة أخرى ماذا سيكون عليه الحال إذا رأت هذه الدولة أو تلك أن المنظمة العالمية مقصّرة في واجباتها. ألا يحق للدولة في هذه الحالة أن تلغي عضويتها؟ وأخيراً، إذا قررت إحدى الدول إعلان حيادها مع سحب عضويتها من منظمة الأمم المتحدة فهل يجوز حرمانها هذا الحق؟ لم يكن بمقدور هذه الأسئلة ألاّ تبرز، وقد برزت فعلاً وتوجّب على المشاركين في المؤتمر تحديد مواقفهم منها.

أبدت الولايات المتحدة الأميركية وانكلترا وفرنسا حرصاً ظاهرياً على عدم إضعاف منظمة الأمم المتحدة عن طريق خروج دولٍ من صفوفها، أما في الواقع فكانت الدول الثلاث تسعى إلى توجيه طعنة إلى المبدأ المقدس في نظام العلاقات الدولية، مبدأ سيادة الدول. فمسألة زعزته من خلال نص الميثاق تزرع فيه وراثياً خطر تدخل بعض الدول في

شؤون غيرها الداخلية. والأنكى من ذلك أن بإمكان هذا الأمر إذا ما تحقق، أن يشرّع الأبواب أمام امكانية المنظمة الدولية ذاتها للتدخل في شؤون الدول الأعضاء فيها.

عارض الاتحاد السوفياتي بحزم طرح المسألة على هذا الشكل وألحّ على حصانة مبدأ السيادة. وتقدمت بدوري، بتكليف من الحكومة السوفياتية، بمذكرة في هذا الخصوص إلى المؤتمر وطلبت إدراجها في محضر الجلسة.

واتخذت معظم الدول، الواحدة تلو الأخرى، مواقف مشابهة للموقف السوفياتي. وتم ادخال نص خاص يقول إن ميثاق منظمة الأمم المتحدة لا يعطيها الحق بأي شكل من الأشكال بالتدخل في الشؤون التي تخص من حيث جوهرها الوضع الداخلي لأية دولة (النقطة السابعة في المادة الثانية من الفصل الأول).

وفي اعادة تقييم للنقاش في سان فرنسيسكو حول هذه المسألة تبرز الصورة واضحة أنه منذ أكثر من أربعين سنة سدّد موفدو الدول الغربية نيرانهم إلى مبدأ سيادة الدول. وتتقاطع أو تلتقي تلك الطلقات مع مسلك واشنطن وبعض حلفائها اليوم بالنسبة لهذا المبدأ.

إن التاريخ يساعد في فهم أفضل لبعض وقائع الوضع الحديث، أو على العكس من ذلك.

ستيتينيوس والسناتور ڤاندنبرغ

غالباً ما كنت ألتقي مع ستيتينيوس بشكل خاص خلال أعمال المؤتمر. إثر وفاة روزڤلت ومع ظهور ميول جديدة في السياسة الأميركية سبق وتكلمت عنها، استقالت الغالبية العظمى من أعوانه وموظفيه من

المسؤوليات التي كانت تشغلها، منهم من ترك منصبه بملء إرادته ومنهم من تم إبداله بغيره. إلاّ أن ستيتينيوس «صمد» بعض الوقت.

وتفسير «صمود» ستيتينيوس يركز بالدرجة الأولى على أن وزير الخارجية كان يمثّل أوساط الأعمال الاحتكارية في الولايات المتحدة الأميركية. ولعبت دوراً في ذلك العلاقات التي تربطه مع «يونايتد ستايتس ستيل كوربوريشن» الذي ترأس مجلس إدارته لفترة طويلة قبل اندلاع الحرب. وتنتمي امبراطورية الفولاذ هذه إلى عداد تجمعات المال والأعمال التي تفرض على كل رئيس وكل إدارة في الولايات المتحدة الأميركية، أخذها بالحسبان.

وعلى الرغم من ذلك فإن التغييرات في إدارة ترومان الجديدة طالت ستيتينيوس بعد حوالي الثلاثة أشهر، فقد استبدلوه بجيمس بيرنس الذي كان يرتاح ترومان له سياسياً أكثر من ستيتينيوس.

انطبعت صورة ستيتينيوس في مخيلتي بدقة. ها هو جالس في الكرسي أثناء اجتماع ممثلي الدول الكبرى خلال أعمال المؤتمر. شعر رأسه بلون الثلج الذي هبط منذ هنيهات. يجول بناظريه على الحضور. عندما يتكلم فإنه يجد العبارة المناسبة لكل واحدٍ من رؤساء الوفود. كلامه متزن، لا يرفع صوته أبداً. إلاّ أنّ الحجج التي يوردها تبدو دائماً ذات لونين، أبيض أو أسود. يحاول عدم الغوص في عمق المشكلات، أما إذا تطلب الأمر ذلك فيوكل المهمة إلى باسفولسكي أو السناتور ڤاندنبرغ.

وأحسست أن المناقشات حول المشكلات السياسية المعقّدة لا تروق لستيتينيوس، فرغم إقراره بضرورتها كان يعتبرها مهمة غير مريحة أو

حتى كريهة. يبدو أن موقع القيادة والأمر الذي شغله في صناعة الفولاذ في الولايات المتحدة الأميركية، ترك آثاره على طابعه وتكوين ذهنه بدرجة ملحوظة.

بقي ستيتينيوس في منصب مندوب الولايات المتحدة الأميركية لدى منظمة الأمم المتحدة حوالي السنة، بعدما ترك وزارة الخارجية، ولم يشغل بعد هذا التاريخ أية مناصب حكومية. وقد نشر في العام ١٩٥٠ كتاباً تحت عنوان «روزفلت والروس. مؤتمر يالطا» الذي ضمّنه وجهة نظره في مسألة العلاقات السوفياتية ـ الأميركية.

ومن خصال ستيتينيوس أيضاً أنه في لقاءاته مع المندوبين السوفيات لم يحاول أبداً أن يفرض عليهم أحاديث حول أفضلية المبادرة الفردية والديمقراطية الأميركية ونمط الحياة الأميركي، علماً أن الفرص والإمكانيات تسمح له بذلك، مثلاً أثناء النزهة التي قمنا بها على اليخت حول مانهاتن، الحي الرئيسي في نيويورك. وكان ذلك في فترة المؤتمر في دومبارتون ـ أوكس.

لقد دعانا ستيتينيوس، أنا وليديا دميتروفنا وولدنا أناتولي. ورافق صاحب الدعوة زوجته وولداه. كان الطقس جيداً ذاك النهار، عزمنا على مشاهدة معالم مانهاتن، الجسور والتماثيل وغيرها.

انطلقنا على متن اليخت في خط سير يلتف حول الجزيرة. كانت إيضاحات ستيتينيوس وشرحه يدلآن على أنه ضليع في تاريخ وحاضر المدينة... وقال فجأة

ـ أنظروا، هذا هو وول ستريت.

لم يعمد إلى شرح ماذا يحمل هذا الشارع من معاني، أضف إلى أنه لم تكن هناك ضرورة لذلك. لكني أقول إن تلك المرة كانت الأولى التي أرى فيها بوضوح بيوتات المصارف وبورصة نيويورك، أو بكلام آخر رهان الرأسمال الأميركي القائم على هذا الشارع، البعيدة كل البعد عن البذخ من حيث شكلها الخارجي بالمقارنة مع ناطحات السحاب والأبنية الفخمة التي تقف إلى جانبها. يؤدي أحد طرفي هذا الشارع إلى مياه المحيط فيما الطرف الآخر ينتهي عند المقبرة. وهذا ما سهّل رؤيته كله بشكل جيّد.

أراد مضيفنا أن يرى من مسافة قريبة نصب الحرية الشامخ عند مدخل خليج نيويورك من جهة الأطلسي. وهنا تأمّلنا «الليدي» الشهيرة من زوايا وأبعاد مختلفة. وتأكدنا من حجمها المهيب.

كم كانت رغبتي كبيرة حين تفقّدنا النصب، في أن أعيد على مسامع صحبي ملاحظة تيودور درايزر الصائبة حول أنه كان من الأفضل عند أقدام النصب خط الكلمات التالية من «الكوميديا الالهية» لدانتي: «تخلّص من كل أمل، أيها الداخل إلى هنا»، وذلك مكان النص المكتوب هنا على لوحة معدنية والمأخوذ من سونيت الشاعرة إ. لازاروس.

كان حلم الشاعرة نبيلاً، لكن للأسف كم هي بعيدة أمانيها عن الواقع القاسي للعالم الجديد، حيث أن كل ما هو شريف وإنساني غالباً ما يُنحر من أجل مصالح الإحتكارات.

وفي ختام انطباعاتي عن ستيتينيوس أريد الإشارة إلى الفكرة التي تكونت لدي حول هذا الإنسان. فبالرغم من أنه يمثل عالماً اجتماعياً آخر،

كان يجمع في شخصه نموذج الدبلوماسي والإنسان الذي بالإمكان التحدث إليه والاتفاق معه.

تمتع السناتور أرثور ڤاندنبرغ بنفوذ جليّ في الوفد الأميركي إلى مؤتمر سان فرنسيسكو. كان ينتمي إلى ذاك الصنف من الناس الذين شاركوا بشكل مباشر في العمل داخل وفود الدول الغربية، فقد آثر فاندنبرغ الصمت في اللقاءات الضيّقة أو الموسّعة على السواء.

أصبح ڤاندنبرغ زعيم المعارضة الجمهورية في الكونغرس منذ انتخاب روزڤلت رئيساً في العام ١٩٣٢. لقد سعى إلى عدم الاعتراف بالاتحاد السوڤياتي وطالب في خطاباته مراراً بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بلادنا.

وقبيل الحرب العالمية الثانية دافع ڤاندنبرغ عن الرأي القائل إن ألمانيا الهتلرية لا تتهدد دول الغرب. وفور اندلاع الحرب العالمية أدلى بتصريح أعلن فيه «أن ليس للولايات المتحدة الأميركية أية علاقة بها (الحرب)». وفي شباط ١٩٤١ وقف معارضاً لقانون لاند - ليز (المساعدات الغذائية والحربية الأميركية إلى دول الحلفاء - المترجم).

وقاد فاندنبرغ حملة على امتداد الحرب كلها، ضد سياسة روزڤلت من خلال معارضته المستميتة لمسألة فتح الجبهة الثانية في أوروبا والمطالبة بتجميع قوة الولايات المتحدة العسكرية في المحيط الهادىء. ومع ذلك فقد دعاه روزڤلت للإنضمام إلى الوفد الأميركي إلى سان فرنسيسكو، آخذاً بعين الإعتبار نفوذه داخل الحزب الجمهوري.

قبيل افتتاح المؤتمر تقدم السناتور بتعديلات وإضافات إلى مشروع ميثاق المنظمة الدولية المزمع إنشاؤها، هذا الميثاق الذي تم التوصل إليه في

دومبارتون - أوكس. وقد هدفت هذه التعديلات إلى إضعاف دور مجلس الأمن وتقويض التعاون بين الدول العظمى في مسألة إنشاء منظمة الأمم المتحدة. لكن هذه الأمور مجتمعة لم تكن قوية للصمود أمام اتجاه الرأي العام الأميركي، مما اضطر ڤاندنبرغ، بعد انتهاء مؤتمر سان فرنسيسكو، مطالبة الكونغرس بالتصديق على ميثاق منظمة الأمم المتحدة الذي تم إقراره في المؤتمر.

نما تأثير ڤاندنبرغ على سياسة الولايات المتحدة الأميركية الخارجية بشكل ملحوظ بعد وفاة روزڤلت. لقد أصبح عملياً الساعد الأيمن لبيرنس الذي خلف ستيتينيوس كما ذكرنا آنفاً. وبرز ڤاندنبرغ بصفته رجلاً راسخ العقيدة في عدائه لتعاون الدول الأعضاء في الحلف المعادي للهتلرية في فترة ما بعد الحرب.

اللورد هاليفاكس وبول - بونكور

والآن عن اللورد هاليڤاكس الذي ترأس الوفد البريطاني بعد سفر إيدن من سان فرنسيسكو. إني أرى قامة اللورد أمامي بوضوح لدرجة كأني التقيت به لبضعة أيام خلت. كان المشاركون في المؤتمر يطلقون عليه إسم «برج الشاطىء» مزاحاً نظراً لطول قامته وعرض منكبيه.

أما إذا توخّيت الدقة فأقول إن لقبه هو «اللورد إيرڤين» وقد حصل عليه عام ١٩٢٦ عندما أرسله ملك بريطانيا جورج الخامس نائباً له على الهند. ادوارد فريدريك وود هاليڤاكس عضو مجلس العموم منذ عام ١٩١٠ تقلّب في حقائب وزارية عدّة وكان شخصية سياسية مشهورة في عالم السياسة إلى درجة أنه أصبح يدعى «اللورد هاليڤاكس» وليس «اللورد إيرڤين».

ترك اللورد هاليفاكس أثراً كبيراً في سياسة انكلترا الخارجية قبل الحرب العالمية الثانية، وكان من بين الساعين إلى إنجاز اتفاقية مع ألمانيا على قاعدة العداء للسوفيات. ودخل بصفته وزيراً للخارجية في عداد حكومة تشمبرلن الذي يعتبر أحد آباء اتفاق ميونيخ. وحافظ هاليفاكس على هذه المنصب في الحكومة الإئتلافية التي ترأسها تشرشل قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، غير أنه لم يكن حاسماً وغالباً ما بدّل موقفه السياسي بالنسبة إلى هتلر. وهذا السبب بالتحديد أدّى إلى أن يودّع اللورد الحقيبة الوزارية.

حاول هاليفاكس في مذكراته التي نشرت عام ١٩٥٧ أن ينزع عن نفسه المسؤولية عن سياسة «تهدئة» المعتدين التي أوصلت إلى النهاية المحتّمة، الحرب العالمية الثانية، وإلقاء المسؤولية على أكتاف السياسيين البريطانيين والأوروبيين الآخرين، الذين بحسب زعمه «فاتتهم الأحداث في ألمانيا. ويؤكّد أن اتفاق ميونيخ. بالرغم من أنه «أمر رهيب ومحزن، إلا أنه كان واحداً من شرّين أحلاهما مرّ» حتى بعد ما عانته الشعوب في أعوام الفاشية فإن تنظيم عملية مناهضة ألمانيا الهتلرية الحازمة كانت الأخطر من بين كافة الشرور، بحسب ما يرى هاليفاكس. ولم يعترف حتى آخر أيامه بصوابية رأي الاتحاد السوفياتي التاريخية، الذي بذل أقصى جهوده من أجل درء خطر الحرب.

تعرّفت إلى هاليفاكس في واشنطن التي كان فيها سفيراً لبلاده لدى الولايات المتحدة الأميركية منذ شهر كانون الأول ١٩٤٠.

لا يجوز القول إن هاليفاكس ينتمي إلى تلك الفئة من الناس الذين يستجيبون للعلاقات بسهولة. يبدو أن القصور الجسماني قيّده إلى حدّ ما،

فإحدى يديه مصابة بالضمور منذ الولادة.

علاوة على ذلك فإن هاليفاكس، الارستقراطي الضامر ربّى في نفسه عادة التعامل مع وسط الأقوياء فقط، الذين كان يحسب نفسه من عدادهم. وهذا ما كان مدعاة لابتسامات الأميركيين وغيرهم، بل أن كثيرين كانوا يتمازحون سراً فيما بينهم من حوله.

قامت علاقات طبيعية بيني وبين هاليفاكس وكان أحياناً يقصد المهرجانات التي تحييها جمعية الصداقة الأميركية ـ السوفياتية، بل إنه ألقى كلمة في أحد المهرجانات الذي أقيم في نيويورك في «ماديسون سكوير غاردن».

أيد هاليفاكس في أوقات لقاءاتنا الحديث حول المسائل المتعلقة بالوضع على الجبهات، كما كان من محبّي تناقل الأخبار عمّا يسمع أو يرشح عن «أروقة السلطة» في واشنطن. لكني لاحظت أنّ آراءه عن الولايات المتحدة الأميركية غالباً ما تكون مطلية بمسحة من السخرية. يبدو أنه كان «يردّ الصاع» على الأوصاف التي نادراً ما تتحلى بالإطراء أو الرضى، والتي يطلقها الأميركيون على مواقفه حين كان وزيراً للخارجية. وكان يسمح لنفسه أمام المندوبين الأميركيين بترداد بعض النكات المتداولة عنهم في صالونات لندن المخملية.

لكن أكثر ما يغيظ هاليفاكس هو تذكيره بموقفه من ألمانيا قبل الحرب. وكانوا يرحمونه على هذاب الصعيد فلا يتطرق أحد إلى هذا الموضوع في حضوره. وكان هذا الموقف بمثابة قاعدة عامة. وأنا بدوري لم أسْعَ إلى توفير هذا الإزعاج له.

كان هاليفاكس محدّثاً لطيفاً، من محبي الأحاديث عن الحرب،

الرؤساء ، الحكومات ، اللقاءات الدولية ، دسائس الهتلريين ضد الدول المحايدة ، همس الدبلوماسيين الأجانب . يلتقط هذه الأمور ويعلّق عليها موافقاً أم لا . لدى استماعه إلى أي شيء كان يسحب رقبته الطويلة إلى الأمام وكأنه يزيد طولها . كان من الأفضل عدم نقاش مواضيع كهذه ، مثل الاقتصاد ، البطالة ، أرباح الاحتكارات ، النقابات . فقد كان إرستقراطياً حتى العظم في قناعاته .

عُهد إلى هاليڤاكس بعض الأحيان رئاسة الوفود الإنكليزية إلى اجتماعات الحلفاء ، علماً أن مندوبين آخرين بإمكانهم أن يرأسوا الوفود . ويعود ذلك في الغالب إلى أنه كان لفترة وزيراً للخارجية . وهذا ما حصل في مؤتمر دومبارتون ـ أوكس ، ثم في سان فرنسيسكو .

خلال اجتماعات مندوبي « الخمسة الكبار » في سان فرنسيسكو كان يبدو لي أحياناً أن هاليڤاكس ينظر إلى ما يجري نظرة غير مبالية ، غائبة تقريباً .

وحين يريد قول شيء ما يكون متفقاً عليه مع كادوغان . فإنه يشدّد على إبراز أسلوبه المنمّق في الكلام لدرجة يبقى غير مفهوماً من قبل الحضور بعض الأحيان .

بدا من جملة أمور ، وملاحظات أن هاليڤاكس لا يجيد التحديد في نقاش المواضيع أحياناً ولا يحب ذلك . ولم يكن في هذه الحالات مشتركاً نشيطاً في المؤتمر يتمنّى له النجاح ، بل شخصاً يرتاح أكثر إلى أجواء الإجتماعات في الكواليس التي تجري خلالها المحادثات وحيث لا يخلو الأمر من جرعة وافية من النميمة المخملية .

وكان يردّ عدم تكوّن القرار لديه في بعض المسائل المعيقة لأعمال مؤتمر

سان فرنسيسكو ، إلى « مصالح » و « شدّة مراس » البلدان الصغيرة . ومع ذلك كنا نضطر أثناء النقاش للعودة إلى ما قلناه في الجلسات السابقة . وهنا لا يسعني القول إنه بقي على كلامه من اجتماع إلى آخر . ومن خلال علاقاتنا مع هاليڤاكس وغيره من ممثلي الدبلوماسية الإنكليزية ، بما في ذلك خلال مؤتمر سان فرنسيسكو لم نكن أبداً على يقين من أنهم سيفون بهذا الوعد أو ذاك الذي قطعوه لنا من قبل .

أذكر أن هاليڤاكس لم يسمح لنفسه بآراء تسيء إلى الاتحاد السوڤياتي أثناء اتصالاته مع الوفد السوڤياتي . لا يعني هذا أنّ انقلاباً ما قد حصل في قناعاته ، لكن واجبه كممثل دولة حليفة أجبره على مراعاة اللياقة .

لم نناقش أبداً مع هاليڤاكس مسائل النظام السياسي في الاتحاد السوڤياتي أو تلك ذات الطابع النظري والإيديولوجي . فقد كان يوحي أكثر من مرّة أنه ليس ضليعاً في هذا المجال ، ويعرف أمراً واحداً وهو أن الأنظمة في بلدينا مختلفة . ولم يكن من محبذي الكلام في المواضيع الفلسفية بشكل عام لأن معارفه ضئيلة في هذا المجال العلمي .

نشد هاليڤاكس لإنكلترا الحياة . وكان يشدد على ذلك دائماً . ولبقائها على قيد الحياة كان لا بد من تحطيم الآلة العسكرية الهتلرية كمخرج وحيد . وقد أدرك هاليڤاكس جيداً دور الاتحاد السوڤياتي في هذا الأمر .

أنهى هاليڤاكس في أواسط عام ١٩٤٦ عمله في واشنطن بصفته سفيراً لبلاده ولم يعد بعدها إلى ممارسة نشاطات سياسية كبيرة .

شهد هاليڤاكس آخر « ازدهار » في حقل السياسة الخارجية باشتراكه في مؤتمر سان فرنسيسكو المكرّس لإنشاء منظمة الأمم المتحدة . وتلاه

زمن الوحدة والتمتع بزهور وأعشاب حديقة منزله حتى العام ١٩٥٩ عندما غادر هذا العالم إلى الأبد. تحوّل هاليڤاكس في السنوات الأخيرة من حياته إلى ما يشبه معروض المتحف، هكذا قال لي معارفي من الشخصيات الإنكليزية. حين المرور أمام منزله كانوا يقولون عادة الملاحظة التالية:

ـ هنا يقطن اللورد هاليڤاكس. الارستقراطي والوزير والسفير السابق.

لم تعد هذه الشخصية تثير أية مشاعر، فالانفعالات السلبية ذهبت مع الماضي أمّا الإيجابية فلم تظهر.

تطغى السلبيات على مصير هاليڤاكس السياسي بشكل عام. فقد أحنى هاليڤاكس وتشمبرلن رأيها أمام هتلر... عندما تطلب الأمر الدفاع عن مصالح بلاده وشحذ الإرادات في وجه مشاريع الفاشية الألمانية العدوانية.

لا بدّ «لرسماتي التحضيرية» من أن تتضمن خللاً جوهرياً إذا لم أتطرق ولو بإيجاز إلى جوزيف پول ـ بونكور، رئيس وفد فرنسا. لقد كان فرنسياً في الصميم، مربوع القامة يكسو رأسه الشعر الأبيض المشرئب دائماً إلى فوق رغم تصفيفه. كان أنيق الهندام ولكن دون شغف بالبرهجة. بان هذا الشخص وكأنه خرج لتوه من إحدى روايات بالزاك.

وقف پول ـ بونكور دائماً إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية وانكلترا في المسائل التي اختلفت فيها الآراء بين الاتحاد السوڤياتي ودول الغرب، علماً أنهم لا زالوا حينذاك حلفاءنا في الحرب. ومع ذلك كان أحياناً يطرح وجهة نظر فرنسا حول مشكلة معينة في صيغة أكثر ليونة من

طرح المندوبين الأميركيين والإنكليز. ويمكن استحضار عدة حالات ساعد فيها اعتدال المندوب الفرنسي في التوصل إلى حلول مشتركة.

لقد كان پول ـ بونكور متواضعاً بشكل عام، بعكس بيدو تماماً الذي شغل أيضاً منصب وزير خارجية فرنسا لعدّة سنوات.

وسألت پول ـ بونكور في أحد اللقاءات وبعدما تبادلنا الآراء حول بعض المسائل المتعلقة بسير عمل المؤتمر:

ـ كيف تتصورون مستقبل فرنسا في ضوء الوضع المعقّد؟

أجابني بطريقة غير معهودة وبجرأة متناهية:

ـ ستقف فرنسا على رجليها حتماً بصفتها دولة مستقلة. لقد فهم ديغول روح البلاد، وهي ستسير وراءه دون شك.

تحاشى محدّثي وضع تنبؤات حول التطور الاجتماعي الداخلي، لكنه كان متفائلاً في ما يخص دور فرنسا في أوروبا والعالم.

شعرت أن پول ـ بونكور أعلن عن رأيه هذا بعد تفكير، فقد كان بعيداً عن التبجّح والغطرسة اللتين عرف بهما بيدو في أحاديثه عن مستقبل فرنسا.

ترأس پول ـ بونكور وفد فرنسا خلال فترة طويلة من أعمال مؤتمر سان فرنسيسكو وشارك في العديد من المعارك السياسية في فرنسا ما قبل الحرب. لم يجد پول ـ بونكور مكانه فوراً بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية لكنه لم يوصم بتهمة التعاون مع الاحتلال. وإذا انتبهنا إلى أن الشخصيات الجديدة في فرنسا لم تفلح بعد في إبراز نفسها في ميدان الدبلوماسية فور

انتهاء الحرب، تصبح واضحة الأسباب التي أدت إلى إرسال پول ـ بونكور إلى سان فرنسيسكو.

لم يبدِ پول ـ بونكور والوفد الفرنسي فاعلية مميزة في جلسات «الخمسة»، مع أنهم ساهموا عموماً في خلق جوّ بنّاء. ولم يرق تحفظ پول ـ بونكور في كل المرّات لمندوبي الولايات المتحدة.

الفيلد مارشال سميتس:

أنا مع أن يكون الله في ميثاق منظمة الأمم المتحدة

تميز المارشال سميتس من بين مندوبي الدول إلى مؤتمر سان فرنسيسكو، الذي ترأس وفد اتحاد جنوب أفريقيا. وقد أصبح الاتحاد يعرف في ما بعد بجمهورية جنوب أفريقيا، كان هذا الشخص يمثّل تقريباً فلقة من الماضي الذي أصبح في ذمّة التاريخ. يمكنني القول إن مندوبي الإتحاد السوڤياتي التقوا للمرة الأولى بشخص كهذا.

يان كريستيان سميتس، ابن مزارع هولندي كبير في جنوب أفريقيا، تلقى علومه في جامعة كمبردج. وبعودته إلى جنوب أفريقيا ثم تعيينه نائباً عاماً في ترانسفال وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. وفي الأعوام ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢ أصبح من أبرز قادة نضال البوريين (*) من أجل الاستقلال وضد نير الاستعمار الإنكليزي، علماً أنه لم يدافع أو يمثّل مصالح اكثرية سكان جنوب أفريقيا الأفارقة. وتم إيفاده عام ١٩٠٥ إلى انكلترا للاشتراك في المفاوضات حول منح الحكم الذاتي للبوريين. وعاد

(*) Boers اسم عرف به المستعمرون من أصل هولندي في أفريقيا الجنوبية ـ (المترجم).

سميتس من هذه الرحلة نصيراً للتعاون مع بريطانيا العظمى. شغل بعد ذلك ولمرات عديدة مناصب وزارية مختلفة وعين رئيساً لوزراء إتحاد جنوب أفريقيا أكثر من مرّة. طرح سميتس في مؤتمر السلام الذي عقد في باريس إثر انتهاء الحرب الكونية الأولى، فكرة نظام الإنتداب الذي سعت الإمبريالية بفضله إلى إخفاء سيادتها على «الأراضي غير المدارة ذاتياً».

استلم سميتس دفة الحكم عام ١٩٣٩ على أثر سقوط الحكومة المؤيدة للألمان في اتحاد جنوب أفريقيا. وقد أصبح رئيساً للوزراء إضافة إلى الحقائب الأخرى التي جمعها في يديه وهي وزارتا الخارجية والدفاع ورئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة في البلاد. وفي العام ١٩٤١ منحه التاج البريطاني رتبة مارشال الجيش البريطاني.

لقد أطلقنا عليه في سان فرنسيسكو لقب «آخر العمالقة» (*) قاصدين بذلك أنه أضحى في ذاك الحين ربما الشخص الوحيد على قيد الحياة من قادة انتفاضة البوريين.

وقال لي ذات مرة وكأنه يأتمنني على سرّ:

ـ سيد غروميكو، هل تقصدون تلك الواقعة في سنوات الحرب البورية ـ الإنكليزية عندما أخذت تشرتشل في الأسر.

وعلّقت على قوله:

ـ غير أن هذا لم يمنعكم من الوقوع في أسر سياسته فيما بعد.

(*) رواية للكاتب كوپر عن الهنود.

لم يلاحظ المارشال السخرية في ملاحظتي ولم يعارضني.

لقد أصبح فندق «سان فرنسيس» الذي نزل الوفد السوڤياتي فيه، مكان لقائي بالمارشال. ما السبب الذي دفعه إلى طلب هذا اللقاء؟

ما إن تصافحنا وتبادلنا عبارات المجاملة المألوفة في هذه الحالات حتى أخذ سميتس يعرض السبب الذي دفعه إلى استنصاح الاتحاد السوڤياتي. فقال:

ـ إن مؤتمراً موسعاً كهذا يُعدّ ظاهرة بالنسبة لي. إني أفهم الكثير طبعاً مما يجري في الجلسات العامة واجتماعات اللجان، إلا أنه هناك أمور تبقى غامضة بالنسبة لي على الأقلّ.

ثم أضاف:

ـ في ما يتعلق بأكثر المواضيع حدّة في نقاشات المؤتمر، حول حق الڤيتو، فوفدنا يرتكز هنا بالدرجة الأولى، على الدول الخمس، الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

ولكن في الحقيقة لم يشر سميتس في هذا السياق إلى ان اتحاد جنوب أفريقيا أيّد أولئك الساعين إلى زعزعة مبدأ الاجماع لدى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

ـ وقال سميتس:

ـ إنّ وفدي وأنا شخصياً نثبّت وبأسف أن الله غير موجود مطلقاً في مشروع ميثاق منظمة الأمم المتحدة المطروح للنقاش والذي تم إقراره في مؤتمر دومبارتون ـ أوكس.

BUC

سألت المارشال الشائب مستفسراً:

ـ ما معنى أن «الله غير موجود»؟ وأين يمكن له أن يتوجد هنا؟.

أوضح محدّثي فكرته بهدوء تام:

ـ ما هذا الذي يجري؟ لدى نقاش أية مسألة حول وضع ميثاق منظمة الأمم المتحدة، سواء كان ذلك المبادىء ستقوم المنظمة على أساسها أو بعض فصول الميثاق المنصوص فيها عن صلاحيات هيئات منظمة الأمم المتحدة أو تحديد واجبات الدول الأعضاء في المنظمة أو صلاحيات المحكمة الدولية، لا ترد في هذا كله كلمة حول أن الله يقف وراء هذه الأعمال. فالدول مثلها مثل الناس، عليها أن تخاف الله وتأتمر بمشيئته. ومن المفترض بميثاق المنظمة أن يعكس هذا الأمر نصاً.

أراد سميتس أن يُفهم من كلامه أن عصبة الأمم قد انهارت لأن الدول لم تنصاع لإرادة الله.

تبحّرت في محدثي في محاولة لفهم ما إذا كان مؤمناً نفسه بما يقول. من خلال حماسه المفرط في عرض هذا الموضوع وتشديده على بعض الكلمات في حواره المنفرد. استخلصت أنه مؤمن فعلاً بالأمر.

تعكس آراء سميتس أحد الأسرار التي تقف حائطاً منيعاً أمام عقل ومشاعر الأشخاص المتديّنين، يفصلهم عن العالم الواقعي والطبيعة والعلم. ولا بد من بذل جهود كبيرة أيضاً لتحطيم هذا الحائط. لقد توصلت إلى هذه القناعة مرّة أخرى أثناء لقائي مع المارشال العجوز.

انتظر سميتس ردّة فعلي على آرائه. قلت في بداية ردّي:

ـ ستتمثل في منظمة الأمم المتحدة دول مختلفة تسيطر فيها نظريات وعقائد مختلفة، بما فيها المادية.

أصغى إلى حديثي بانتباه، تابعت:

ـ أنتم تعلمون أن الشعب السوفياتي وحزب الشيوعيين، القوة القائدة في المجتمع، يسترشدان بالمذهب الماركسي ـ اللينيني العلمي. إن عقيدتنا وفلسفتنا الماركسية اللينينية تنفي المثالية والاعتقاد بالقوة الخارجية، الماورائية. ودولتنا ملحدة من حيث طابعها الإيديولوجي، لكن هذا لا يمنع من أن تكون عندنا حرية المعتقدات الدينية وحرية الأديان. بأي شكل سيتطرق ميثاق منظمة الأمم المتحدة الذي يجب أن يكرّس خصيصاً للأمور الدنيوية، إلى مسألة الله وجعله من أحد مبادىء المنظمة؟ على الميثاق توجيه كافة الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة إلى درء حرب جديدة وحفظ السلام بين الشعوب. وهذا هو الأساس الذي يجب أن تنطلق منه كافة البلدان بغض النظر عن النظام الاجتماعي أو الايديولوجية السائدين فيها.

كان من الصعب قراءة الأفكار والمشاعر التي خلّفتها آرائي عند سميتس من خلال النظر إلى وجهه. بعد إصغائه جيداً لوجهة نظري قال:

ـ رغم أني لا أشاطركم موقفكم المبدئي من موضوع إدخال الله إلى ميثاق منظمة الأمم المتحدة أو عدم إدخاله، فانا أدرك بالطبع التسلسل المنطقي في أحكامكم بصفتكم ممثلاً لدولتكم. يبدو أن أمنياتي في هذه الحال لن ترى النور.

لقد قصدنا سميتس حاملاً هذا الموضوع، بعد مشاورات مع بعض

ممثلي الدول الغربية على الأرجح. غير أنه لم يطرح «مسألة الله» علناً في المؤتمر، أما وفود الدول الغربية فلم تجرؤ على تحويل «الموضوع حول الله» إلى موضوع جدي لاسيما وأنه بقيت جملة من المواضع الهامة عالقة وبحاجة إلى تسويتها.

افترقت مع المارشال بلطف مع بقاء كلٌّ منا عند رأيه. لقد بقي سميتس بسلوكه وطريقة تصرفه انكليزاً محضاً، علماً أن القوات التي قادها في النضال من أجل الاستقلال حاربت ضد انكلترا في منطقة حسّاسة من أملاكها الاستعمارية.

قليلاً ما ألقى سميتس خطابات في مؤتمر سان فرنسيسكو لاعتباره ربّما أن هذا الشكل من النشاط لا يليق به، فمعارفه في مجال القتال والسلاح أوسع بكثير من إلمامه بالخطابات والتصاريح والبيانات.

كان سميتس يحبّذ التجوال في شوارع سان فرنسيسكو في سيارة مكشوفة ويروق له كثيراً أن يتعرّف الجمهور إليه ويحيّيه، حيث كان يجيبه بإشارة من يده. وهذا ما يجلب له السرور، كما أكدت ملاحظاتنا ذلك.

كان سميتس والبلد الذي يمثّله حلفاء أوفياء في المجال السياسي لانكلترا وأميركا والدول الغربية الأخرى. وتقف جمهورية أفريقيا الجنوبية في صفوف هذا الحلف في يومنا هذا، مع فارق طبعاً، وهو أن سياستها الخارجية مكشوفة في عدوانيتها. وقد فضحت المنظمة الدولية هكذا سياسة أكثر من مرّة، هذه التي أراد سميتس أن يضعها أمام الله وجهاً لوجه. أما في ما يتعلق بسياسة جمهورية جنوب أفريقيا الداخلية

فيبقى الأرباتهيد والعنصرية من مكوناتها الأساسية، واللذان بلغا أقصى درجات القسوة والبشاعة.

حَوْل المؤتمر

وفي الحديث عن أجواء إقامة الوفود إلى سان فرنسيسكو فإن السلطات الأميركية وفرت ظروفاً مقبولة لعمل المؤتمر، مقبولة ليس إلاّ. فقد ساعد الأميركيون الوفود في الحصول على أماكن للإقامة والعمل. امتاز الوفد السوڤياتي عن غيره في هذا المجال بسبب وجود قنصليتنا في سان فرنسيسكو. أما في ما يختص بالمباني المستأجرة فالأسعار غالية جداً والدفع مسبقاً.

لم يُسمح في المدينة لأية أعمال عدائية ضد الأشخاص السوڤيات، وهذا بعيد كل البعد عن سلوك السلطات الأميركية الحالي، فالأوساط التي تحدّد سياسة واشنطن اليوم لعلّها تشعر بالارتياح من إحداث الحالات الحرجة للمندوبين السوڤيات، بل تنظم الاستفزازات المباشرة التي غالباً ما تشكل خطراً على حياة مواطنينا. إن سلطات البلد المضيف لمنظمة الأمم المتحدة تلجأ في تعاطيها مع المواطنين إلى الخرق الفاضح للأعراف المتعارف عليها في القانون الدولي، كما تتجاهلها تماماً في حالات أخرى.

من المفترض بالولايات المتحدة الأميركية بصفتها الدولة المضيفة أن تقوم على الأقل بالحد الأدنى من الأمور البروتوكولية لخلق جوٍ مؤاتٍ لإنجاح أول مؤتمر دولي ضخم بعد الحرب. غير أن الحكومة الأميركية لم تقدّم شيئاً من هذا القبيل، واختصرت علائم اهتمامها إلى مستوى حاكم المدينة أورّين والعُمدة ليفيم، اللذين قاما بواجبهما على وجه العموم.

ولم يشرّف الرئيس ترومان حفل افتتاح المؤتمر بحضوره، مع العلم أنّ واقع بدء أعماله بحد ذاته شكّل ظاهرة استثنائية ذات أبعاد كبيرة في الحياة الدولية. غير أن هكذا «تحفّظ» بالنسبة لهذا المنتدى في ظروف ما زالت فيها المعركة على أشدّها مع الفاشية، كان بإمكانه أن يؤدي إلى تكاليف سياسية. وبسبب تخوّفه من نتائج هذا الأمر بالذات توجّه الرئيس الأميركي إلى المشاركين في مؤتمر سان فرنسيسكو في يوم افتتاحه بالذات برسالة تحية ركّز فيها بشكل أساسي على دلالة جهود الأمم المتحدة لإنشاء منظمة دولية لحفظ السلام. وجاء في التحية: «لم يشهد التاريخ من قبل لقاءً أكثر أهميةً أو أشد ضرورةً من هذا الذي نفتتحه اليوم في سان فرنسيسكو».

يا لها من هوّة هائلة تمتد بين كلمات ترومان هذه التي أملاها النهوض العام في العالم في ضوء نصر الحلفاء الذي أصبح على الأبواب، وبين سياسة إدارته في الواقع. لقد بذلوا جهوداً حثيثة في الولايات المتحدة الأميركية، ومن عدة نواحي، فوراً بعد إنشاء المنظمة الدولية من أجل تقييد هذه المنظمة في نشاطها.

هل أتى صدفةً «التحفظ» الذي لاقت فيه الولايات المتحدة الأميركية افتتاح مؤتمر سان فرنسيسكو؟ كلا، ليس صدفة. لقد استعدت إدارة ترومان سياسياً ومعنوياً لمؤتمر قادة الدول الحليفة في بوتسدام، لتعمل هناك ليس من منطلق الاهتمام بضرب إمكانية نشوب عدوان جديد من الأرض الألمانية، بل لمعارضة هذه الأهداف من خلال شهرها الرماح في وجه المقترحات السوڤياتية الموجّهة لنزع سلاح ألمانيا وتنظيمها على أسس ديمقراطية ولضمان السلام في أوروبا وعلى وجه البسيطة كلها.

تم التعويض، بمدينة سان فرنسيسكو، إلى حدٍ ما بالنقص في العناية الذي بدا من جانب سلطات الولايات المتحدة الأميركية تجاه الوفود والمؤتمر بحد ذاته.

حيثما مررنا راكبين أو راجلين يظهر لنا كل يوم تقريباً جسر «غولـدن هايتس بريدج»، جسر «البوابة الذهبية» الذي يمرّ فوق المضيق ويربط المدينة بضواحيها. وبدا الجسر في أحلى تجلياته في الأيام المشمسة حين تبدو هذه المعجزة الهندسية كأنها تبتسم للنّظر إليها وتقول:

ـ أنظر ماذا يستطيع أن يأتي الإنسان!

ـ أجل يقدر الإنسان أن يبني وهو سيبني اختراعات أكبر وأضخم بعد، إذا استرشد بالبصيرة ولم تسيطر على عقله عزيزة التدمير والتعطّش إلى الدماء.

إن من زار سان فرنسيسكو يعرف أن شوارعها أو قسماً كبيراً منها على الأقل، يشكّل صعوبات جمة للراجلين بسبب الطلعات والنـزلات الكثيرة فيها. أما غير الأصحاء جسدياً من البشر فلا يمكنهم التجوّل إلاّ بواسطة السيّارة. تلتحق الأماكن المخفضة في المدينة بضباب كثيف في أوقات معيّنة من السنة. وهذا ما حصل في فترة عمل المؤتمر، فالسيارات تكاد تزحف على الطرقات. وحركة السير في حالات كهذه يمكن أن نطلق عليها إسم «توقف السير». واعتبرنا أن هذه الظاهـرة هـي مـن نـزوات المدينة الجميلة.

ربّما أن أحداً من المشاركين في المؤتمر لم يفوّت فرصة زيارة ريد وود، الغابة الحمراء. هناك أشجار قدّر العلماء عمرها بأكثر من ألف سنة.

عندما وطأنا، نحن الدبلوماسيون، السوڤيات، أرض هذه الغابة أحسسنا وكأننا دخلنا خابية هائلة الحجم، لا تصلها الأصوات المنطلقة من الأرض حولها. ننظر إلى الأعلى فنرى رؤوس الأشجار تتمايل، هذا معناه أن هناك ريحاً في الأعلى، أما في الأسفل فسكون تام. كان إحساسنا عظيماً من جراء ما يحيط بنا.

وتأمّلنا شجرة عملاقة بإمكان سيارة أن تدخل في فتحة جوفها. ومن أجل تبديد أية شكوك لدى الزائرين فقد أُوقفت سيارة سياحية في فسحة قرب الشجرة.

بإمكان الرحلة إلى ريد وود أن تنعش الشخص، تجمعه إلى الطبيعة وتجبره على الراحة من النقاشات الحامية التي لا يقال فيها كلمة طيبة بالوسط المحيط بالإنسان إلاّ فيما ندر. لكن هذه المشكلات تقتحم فيما بعد قاعات المنتديات السياسية وتجبر الناس على التفكير، أي مصير ينتظر الأرض كلها ونحن معها إذا ما عصف الإعصار النووي بالكرة الأرضية؟

أي بلد سيستضيف مقرّ منظمة الأمم المتحدة؟

جرى إقرار اتفاق مبدئي في مؤتمر سان فرنسيسكو حول مكان إقامة منظمة الأمم المتحدة، حيث تم التفاهم في الجوهر بين الدول العظمى.

وقد أعطى الاتحاد السوڤياتي موافقته على اختيار الولايات المتحدة الأميركية مكاناً لمقرّ منظمة الأمم المتحدة، وذلـك انطلاقـاً مـن عـدة اعتبارات، أوّلهـا التعاون مع الحلفاء الأميركيين في النضال ضد العدو المشترك. كذلك تعهّدات واشنطن المتكررة حول أن الولايات المتحدة ستتعاون في مسألة درء اندلاع نار حرب جديدة.

على ضوء تجربة يمتدّ عمرها أكثر من أربعين سنة من نشاط منظمة الأمم المتحدة يمكن القول إنه لو طرحت اليوم مسألة اختيار مقرّ لمنظمة الأمم المتحدة لكان من المفترض التفكير طويلاً في أهلية الولايات المتحدة الأميركية لهكذا خيار.

بقي أن يصل الأمر إلى النهاية بعدما نفّذت الإجراءات الضرورية حسب الأصول. وقد أنشئت هيئة تنفيذية في سان فرنسيسكو من أجل هذا الهدف، ودخلت في تركيبها أربع عشرة دولة، بما فيها الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن. وتقرّر أن تبدأ اللجنة أعمالها في ١٥ آب / أغسطس ١٩٤٥ في لندن.

وقد اجتمعت اللجنة في اليوم المحدَّد في المبنى القديم تشرش ـ هاوس، حيث مقرّ الكنيسة الأنكليكانية. ويقوم هذا البناء في وسط لندن قرب الساحة التي تضم أيضاً مبنى البرلمان البريطاني.

فرض مؤتمر سان فرنسيسكو أنه بعد انتهاء أعمال الهيئة التنفيذية لمنظمة الأمم المتحدة سوف تجتمع اللجنة التحضيرية التي سيدخل في تركيبها كافة أعضاء منظمة الأمم المتحدة. وتعين على هاتين الهيئتين حلّ دائرة كبيرة من المسائل التنظيمية المتعلقة ببدء نشاط المنظمة.

ومن المسلم به أن القرار الأولي بمكان إقامة منظمة الأمم المتحدة يجب أن يتخذ بحسب الأصول، مع إعطاء كل دولة عضو في المنظمة الدولية الحق في التصويت على هذا الخيار أو ذاك، وكذلك التقدم بالاقتراح الذي تراه مناسباً. استغرقت الدول ـ الأعضاء المؤسسون في منظمة الأمم المتحدة في التفكير سنة بعد انتهاء مؤتمر سان فرنسيسكو حول شكل القرار الذي سيتخذ.

ولم يكن الجميع موافقين بالإجماع أن يكون مقرّ المنظمة الدولية في الولايات المتحدة، وعلاوة على ذلك لم يحصل هذا القرار في البداية على الأغلبية الشكلية المطلوبة، فدول كثيرة بما فيها انكلترا وفرنسا، فضلّت أوروبا. وكان الجدل حامي الوطيس، خصوصاً في اللجنة التحضيرية.

وذُكرت عواصم جملة دول خلال النقاش، الأوروبية منها بشكل خاص: كوبنهاغن وباريس وجنيف، بل إن موناكو اقتُرحت في إحدى المرات. بيد أن كوبنهاغن لم تحصل على تأييد الأغلبية المطلوبة، علما أن أحدا لم يتقدم بحجج مقنعة ضد هذه المدينة أو معها.

وراقت للكثيرين باريس أو أي مدينة فرنسية أخرى، غير أن بعض الدول الأوروبية الكبرى نظرت إلى هذا الاقتراح شزرا. ومهما يكن، فلو تم هذا الخيار فإنه كان سيعني حتماً أن الأفضلية في هذه الحال تعطي لباريس أو أي مدينة فرنسية أخرى بالمقارنة مع لندن أو واشنطن. ولم ترد روما في اللائحة لأن إيطاليا التي كانت أحد الأطراف الضالعين في التسبّب باندلاع الحرب، كما لم تكن من بين الدول المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة.

أما جنيف فقد لقيت من يدافع عنها بحماسة، غير أن عدد الدول المعارضة كان أكثر بكثير. فمؤيدو جنيف استشهدوا بالحياد السويسري وأسباب الراحة المتوفرة في المدينة لمقرّ منظمة الأمم المتحدة.

أما المعارضون فأشاروا إلى أنه لا يجوز للمنظمة الجديدة أن تتخذ مقرا لها في المكان الذي كانت فيه عصبة الأمم. وأكدوا أن جنيف قد اقترنت في ذاكرة الشعوب بعجز عصبة الأمم التي تكشفت عدم مقدرتها على درء نشوب الحرب العالمية الثانية.

غير أن مؤيدي وجهة النظر هذه من الخطباء تهربوا من الاعتراف علناً بأنَّ جنيف نفسها ليست السبب، بل إن المذنبين في فشل عصبة الأمم هم السياسيون المتلاعبون في لندن وباريس، وحتى في واشنطن. فبالرغم من أن الولايات المتحدة الأميركية لم تكن عضواً في العصبة إلا أنها بوزنها الدولي كان بمقدورها مساعدتها في الشفاء ممن العجز في قضية مقاومة العدوان الهتلري، ولكنها لم تُبْدِ رغبة حقيقية في هذا الاتجاه.

استَعَرَ الجدال بين مندوبي أوروبا وأميركا بشكل أساسي وبرزت هنا بالتحديد تناقضات حادَّة بين بريطانيا والولايات المتحدة. ولقد أدرك الحضور جميعاً أن المدينة والبلد اللذين سيقع عليهما الاختيار لاستضافة الهيئات الرئيسية لهذه المنظمة، سيحققان أولاً تدفقاً كبيراً من العملة الصعبة بنتيجة الخدمات المقدمة إلى العدد الهائل من الضيوف الأجانب، وثانياً سيحصلان على إمكانية توظيف عدد لا بأس به من مواطنيهما لتسيير خدمات هيئات منظمة الأمم المتحدة.

ومع ذلك فقد بقيت هذه الأسباب الرئيسية مختبئة في مكانٍ ما، ولم يذكرها أحد علناً، بل لجأوا إلى إعلان حجج من نوع آخر.

كان ثمة فريق يقول: أوروبا قريبة من آسيا وأفريقيا. فيما يردِّد آخر مؤيِّداً: يوجد هنا في أوروبا قصر الأمم، حيث كانت عصبة الأمم تجتمع قبل الحرب.

وبرهن فريق ثالث بحماس أن: القارة الأوروبية كانت منبتا لحربين عالميتين، لذلك فإنَّ مشكلات الأمن تحتل أهمية خاصة بالنسبة لأوروبا.

وراح فريق رابع يؤكِّد: أوروبا مركز الحضارة العالمية المعاصرة.

أما «أخصام أوروبا» فقد دعموا ردَّهم بالذرائع التالية:

- إن الموافقة على أن تستقر منظمة الأمم المتحدة في الولايات المتحدة الأميركية سيعني الإقرار بالجميل من جانب الدول الأعضاء في الحلف المعادي للهتلرية، للولايات المتحدة على اشتراكها في الحرب ضد دول «المحور».

والملفت للنظر أن بعض دول أميركا اللاتينية والفيليبين هي التي ساقت هذه الذريعة وليس الولايات المتحدة الأميركية. لم يتحدث الوفدون الأميركيون رسمياً في الجلسات، إلا أنهم دبّروا عملاً كبيراً في الكواليس. وقدم موفدون من إحدى عشرة ولاية إلى لندن ومعهم اقتراح بالموافقة على تشييد مقر منظمة الأمم المتحدة على أراضيهم.

وتحدث إدلاي ستيفنسون، ممثل الولايات المتحدة الأميركية، مرّة واحدة فقط في جلسة الهيئة التحضيرية، حين قرأ نص التوصية التي أقرها مجلسا النواب والشيوخ بالإجماع حول دعوة منظمة الأمم المتحدة إلى الولايات المتحدة. وجرى التصويت العلني بعد نقاشات حادة، بعدما رفض الاقتراح الذي دعا إلى سرّية التصويت. تم التصويت في البداية على اقتراح اختيار أوروبا مكاناً للمنظمة فأتت النتيجة على الشكل الآتي: ثلاثة وعشرون صوتاً «مع»، خمسة وعشرون «ضد» وامتنعت دولتان.

تم التصويت بعدها على اقتراح حول اختيار الولايات المتحدة الأميركية مكاناً لمقرّ منظمة الأمم المتحدة. صوتت ثلاثون دولة إلى جانب هذا الاقتراح وعارضت أربع عشرة وامتنعت ست دول. وهكذا قالت اللجنة رأيها بشكل دامغ إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية مقرّا للمنظمة الدولية.

ومع ذلك فقد انقضت عدة أشهر بعد التصويت قبل أن تحل نهائياً المسألة حول المقرّ المحدد لمنظمة الأمم المتحدة. لقد كان على الهيئة

التحضيرية أن تعين في أي مكان بالتحديد في الولايات المتحدة الأميركية ستقام مباني الهيئات المركزية لمنظمة الأمم المتحدة. واستحدثت لجنة مختصة لهذا الشأن جال أعضاؤها على الولايات ودرسوا الاقتراحات المقدّمة وأظهر ممثلو البلديات نشاطاً ملحوظاً، وتميّزت سلطات سان فرنسيسكو المحلية في هذا الخصوص برغبتها العارمة في استضافة منظمة الأمم المتحدة.

كما شهدت اللجنة التحضيرية نقاشاً حول أيها أفضل الساحل الشرقي أم الغربي لتشييد مركز الأمم المتحدة ولجأ الأعضاء مجدداً إلى التصويت.

ومنحت خمس وعشرون دولة موافقتها للساحل الشرقي، فيما صوتت خمس فقط للساحل الغربي وامتنعت عشر أخرى عن التصويت.

وحسم نهائيا موضوع المكان المحدد لإنشاء مركز منظمة الأمم المتحدة في الدورة الأولى للجمعية العامة التي افتتحت في لندن في أوائل سنة ١٩٤٦ واشترك فيها وفود مثلت واحداً وخمسين بلداً. يبدو هذا الرقم عديم الوزن أمام عدد البلدان التي تضمها منظمة الأمم المتحدة اليوم وهي ١٥٩ بلداً. لكن الأمر كان في تلك الأيام في صورة مهيبة واحتفالية. وعلق العالم آمالا مشرقات على منظمة الأمن العالمية.

اجتمع لهذا السبب أكثر من ٤٠٠ مندوب لوسائل الإعلام لتغطية أعمالها، وكانت الجلسات تنعقد في المبنى الأثري سنترال - هول.

واضطربت أثناء إلقائي كلمتي الأولى في دورة الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة إلى التركيز على مسألة تعزيز السلام، وكذلك القضاء على بؤر الفاشية المتبقية بعد الحرب.

وأعلن مندوب الولايات المتحدة الأميركية في هذه الدورة تحديداً أن بلاده بحثت بنفسها عن الأرض التي ستقوم عليها منشآت المنظمة، واقترح

مدينة نيويورك لهذا الغرض، فلم يلق الاقتراح أي معارضة.

اتخذ مجلس الأمن خلال السنوات الثلاث - الأربع الأولى من عمره مقراً له في ضاحية نيويورك، لايك ساكسيس عند لونغ آيلاند التي تبعد حوالي ٤٠ أو ٤٥ كيلومتراً عن مدينة نيويورك. عمل المجلس في أبنية ضخمة أشادتها هنا شركة إنتاج الطائرات «سبيري». أمّا البناء الضخم المخصّص للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة فكان على طرف نيويورك في منطقة فلاشينغ - ميدواي. وتجدر الاشارة إلى أن المنطقتين المذكورتين لم تكونا ملائمتين لعمل المنظمة الدولية.

كان الجميع على علم بأن المقر الثابت لمنظمة الأمم المتحدة سيشاد في مانهاتن في وسط نيويورك. وأسهمت في ذلك نشاطات روكفلر وكرمه الشهير، إذ وهب منظمة الأمم المتحدة قطعة أرض من ممتلكاته في المكان المذكور. فقد فهم روكفلر بحدسه الخاص أن الخسارة الكبيرة التي تكبّدها في هذه الهدية ستدرّ عليه أموالاً طائلة في المستقبل من جراء ارتفاع الأسعار الذي سيصيب الأرض المحيطة بمقرّ منظمة الأمم المتحدة. وبالفعل، لم يتوقف ارتفاع أسعار الأراضي هناك حتى يومنا هذا.

تم تشييد البناء الضخم المخصص لجلسات الهيئات الأساسية في المنظمة الدولية في أمد قصير نسبياً. واستغرق بناء ناطحة السحاب للسكريتاريا الفترة الزمنية نفسها تقريباً. وأخذت ممثليات الدول الأعضاء تتوزع على المنازل المحيطة التي حصلت عليها سواء ببنائها أو باستئجارها.

وقد تحوّل البناءان الرئيسيان، فور انتهاء تشييدهما، إلى ما يشبه قرية نمل، فلا ينقضي يوم دون أن تجتمع هذه الهيئة أو تلك من هيئات منظمة

الأمم المتحدة. ويصادف أن تجتمع عدة هيئات في الوقت نفسه. وأكثر ما تبرز كثافة الاجتماعات في أثناء دورات الجمعية العامة.

الأمناء العامون لمنظمة الأمم المتحدة

كان في نية مُنْشِئي منظمة الأمم المتحدة ـ وهذه النيّة مبرّرة ـ أن تتولى قيادتها العملية شخصية ذات هيبة، ولم يشك أحد في هذا الأمر على الإطلاق. ولكن الانتقال إلى بحث صيغة المادة المناسبة في الميثاق كان يكفي لتبرز الخلافات فوراً. فقد أصرّ وفدا الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا منذ مؤتمر دومبارتون ـ أوكس على وجهة نظرهما القائلة بضرورة إعطاء الأمين العام صلاحيات واسعة. وعند البحث الدقيق تبيّن أن هذه الصلاحيات تزيد عن الصلاحيات التي تملكها دولة كبيرة. وحاولنا استيضاح مدى جدّية موقف حكومتي البلدين الداعيتين لمنح الأمين العام هذه الصلاحيات. وتساءلنا:

ـ أين يمكننا العثور على تلك الشخصية التي تحظى بثقة الشرق والغرب على السواء؟ إلاّ أننا لم نتلقَّ جواباً.

وتوصلنا مع شركائنا في المؤتمر إلى حلٍ وسط خلاصته أن الأمين العام، بصفته المسؤول الأساسي من الوجهة الإدارية، تحمَّل مسؤولية إدارة عمل هيئة السكرتاريا لمنظمة الأمم المتحدة. وهو مخوّل لفت نظر المنظمة، بما فيها مجلس الأمن، إلى الأوضاع التي تتطلب بحثاً أو تسوية بحسب رايه. لكن يجب ألاّ يدخل في صلب مهامه متابعة أي قضية عن طريق تشكيل لجان أو غيرها. وهنا مرَت الحدود بين ما هو مسموح وما هو غير مسموح به في صلاحيات الأمين العام للأمم المتحدة.

توافق الجميع على هذا الحل في مؤتمر دومبارتون ـ أوكس وثبّته مؤتمر سان فرنسيسكو في الميثاق.

لم يهدف الاتفاق على الإطلاق إلى تحجيم وضع الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة ودوره، بل على العكس من ذلك إذ حدّد الاتفاق مهمته بواقعية وتبصّر. فمسألة إعطائه صلاحية اتخاذ قرارات سياسية من شأنه أن يخلق المشاكل ويعرض المنظمة نفسها للخطر. إن ميثاق منظمة الأمم المتحدة يضمن عدم الوقوع في أخطار كهذه وهذا من مصلحة المنظمة ذاتها.

ولم يكن من السهل اختيار الأمين العام، إذ كان عليه أن يحظى بقبول الجميع به. وقد ووجهت المنظمة بصعوبات جدّية عندما بدأت للمرة الأولى البحث عن هذه الشخصية، وعثروا أخيراً عليها في شخص السياسي والحقوقي النروجي تريوغفي لي.

عاد تريوغفي لي إلى أوسلو إثر تحرير النروج ربيع عام ١٩٤٥، حيث أصبح وزيرا للخارجية في حكومة غيرهاردسون. وقد شارك في أعمال مؤتمر سان فرنسيسكو وترأس الوفد النروجي إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة في لندن عام ١٩٤٦.

لقد أيد الاتحاد السوڤياتي ترشيح تريوغفي لي متأملاً بنزاهته التي لم تدم طويلاً للأسف. ولم تؤثّر في ذلك آراؤه السياسية فحسب وكونه ممثلاً للعالم الراسمالي. بل وأن الجهاز البشري حول الأمين العام تألف بشكل اساسي من الاميركيين وغيرهم من مواطني العالم الغربي. ولم يعد خافياً على احد ان الوثائق والتقارير والاقتراحات وغيرها تمرّ عبر الغربال الاميركي قبل ان تجد طريقها إلى طاولة تريوغفي لي.

لم يتحلَّ أول أمين عام لمنظمة الأمم المتحدة بطبع حازم. فقد كان بإمكانه افتعال الصراخ والضجة يساعده في ذلك جسمه الرياضي. لكن من يعرفه عن قرب يدرك جيداً أن شحنة الغضب هذه ستنحسر بعد لحظة لتحلَّ محلها السكينة والمزاج الرائق الذي قد لا يستمر بدوره طويلاً.

وخلال لقاءاتي المتعددة مع تريوغفي لي في لندن ونيويورك كان دائماً يحرص على إبداء المشاعر الحسنة التي يكنها للاتحاد السوڤياتي ويؤكد على فضل الجيش الأحمر في هزيمة ألمانيا الفاشية وتحرير شمال النروج من المحتلين الفاشيين الألمان. ولكن عندما كانت النقاشات في مجلس الأمن أو الجمعية العامة ترتدي طابعاً حاداً كانت الرياح تحمله دائماً إلى الشاطىء الغربي للأطلسي بالمعنى السياسي.

وهكذا خضع تريوغفي لي أكثر فأكثر لضغط الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية. ففي تقريره السنوي عن العام ١٩٤٨ حول نشاط منظمة الأمم المتحدة أسقط عملياً أيَّ مسؤولية عن الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا في نسف تنفيذ قرارات منظمة الأمم المتحدة الأكثر أهمية وامتدح «مشروع ماريشال» التوسُّعي. وعندما شنَّت الولايات المتحدة عدواناً مكشوفاً على الشعب الكوري استغل تريوغفي لي منصبه كأمين عام للأمم المتحدة من أجل التأييد الفعال للطغمة العسكرية الأميركية، من خلال تغليف الغزو بعلم منظمة الأمم المتحدة.

لو سئلت رأيي حول أهلية تريوغفي لي لمنصب الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة لكان جوابي على الشكل التالي:

ـ لقد رسب في الامتحان.

Lib. BUC

لم ينجح لي في تحمُّل الاعباء الجدية والحساسة لهذا المنصب. على الأرجح بسبب التوجُّه السياسي الغربي الذي انتهجه.

كنت أكنُّ لتريوغفي لي كشخص مشاعر العطف في البداية، خصوصاً عندما يغدق الكلام على مشاعر الصداقة التي يحملها صدره تجاه بلادنا والمواطنين، وعن اهتمامنا المشروع بصون أمننا. لكن تأكيداته هذه لم تكن في الغالب تتفق وممارساته العملية المعاكسة تماماً. وعلى هذا الأساس عدلت عن الثقة بأقواله، فقد تأكدت عندي هذه الحقيقة من خلال ممارسته منصب الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة.

كانت مهمة البحث عن بديل لتريوغفي لي شاقة وطويلة، فالمرشحون كُثر لكن الدائرة أخذت تضيق واستقر الرأي في النهاية على داغ يالمار همرشولد الذي تبوّأ قبل ذلك مناصب عدة في الحكومة السويدية. لقد حلت المسألة بإجماع الدول الخمس وأصبح همرشولد أميناً عاماً لمنظمة الأمم المتحدة عام ١٩٥٣.

أخذ الجميع يرقبون باهتمام الشخص الجديد في المنصب المسؤول. وقد تميّزت علاقتنا به بالاتزان وحسن النية. لكن التبدل الذي طرأ على الأمين العام الجديد لم يمهل طويلاً. فعلى الرغم من محاولته الشكلية للحفاظ على شيء من الواقعية في نهجه، كان سلوكه العملي يبتعد أكثر فأكثر عن الواقعية المنشودة. وعندما هبّت رياح «الحرب الباردة» العاتية جرفت همرشولد في طريقها. ولم تفلح كافة المحاولات للحفاظ على هذه الشخصية في الأطر المعقولة. حتى أن واشنطن ولندن كانتا تشعران أحياناً بالحرج من غيرة الأمين العام وحماسه في صبِّ الماء في طاحونة دول النّاتو. وبالرغم من ذلك تابع الأمين العام العوم في الاتجاه نفسه.

من غير الجائز القول إن همرشولد لم يرَ ما يفعله بصفته المسؤول الأساسي في منظمة الأمم المتحدة. لقد كان مدركاً تماماً لأفعاله، كذلك لمسألة أنه لن يحظى بتأييد موسكو لانتخابه لفترت ثانية في منصب الأمين العام. لكن، على الأرجح، لم يقم وزناً لذلك وتكوّن انطباع وكأنه ينتشي من المديح الذي يكيله لواشنطن وعواصم دول الناتو. واتخذ لنفسه المبدأ التالي: «أولاً وآخراً لن أبقى في هذا المبنى، لذلك فالموضوعية يجب أن تتنحّى جانباً، المهم أن أمضي فترتي حتى الانتخابات».

أذكر لقائي معه خلال دورة الجمعية العامة، كان ذلك قبل رحلته المأساوية إلى أفريقيا عام ١٩٦١ حيث قضى بتحطم طائرته. حضر اللقاء مندوب الاتحاد السوڤياتي الدائم لدى الأمم المتحدة أ. أ. سوبوليف. كان همرشولد في ذاك اللقاء كثير الكلام على غير عادته. وقد اقتضى ذلك منا، نحن الاثنين، جهوداً كثيرة لدفعه إلى الكف عن الكلام. أمّا هو فقد كان يشعر بالنشوة من الفيض الكلامي الذي انتابه، وحاول مراراً تبرير أعماله.

لقد استطعنا أن ننقل إليه وجهة نظرنا، وهذا هو الأساس في لقائنا معه، حول أهمية وضرورة تقديم عون حقيقي للبلدان الأفريقية المستقلة حديثاً وقلنا:

- من الضروري حماية هذه الدول من مؤامرات الدول الإمبريالية وضغوطها، وهذا يخص تحديداً المستعمرات البلجيكية السابقة.

حاول سوبوليف بعد اللقاء صياغة انطباعه عن المحادثات مع همرشولد فتساءل بطريقة يشوبها المزاح:

أي نوع من الأقراص تناول استعداداً للحديث معنا، حتى بدا مهتاجاً إلى هذا الحدّ؟

كان همرشولد يحب المواقف الاستعراضية. وأثناء عمل الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة عام ١٩٦٠ تعرض لانتقادات عنيفة بسبب مساعدته المستعمرين. فوقف عند ذاك وأعلن:

- لن أبقى يوماً واحداً في منصبي حين ألمس أن عملي لا يعود بالفائدة على منظمة الأمم المتحدة.

الأقوال شيء والأفعال شيء آخر. لقد كان من الوجهة العملية يفعل عكس ما يقول.

ورغب همرشولد، بصفته شخصية سياسية، الظهور بمظهر الأسد، لكن هذا لم يحصل. وحتى حلول نهايته المأساوية كان قد أصابه الإفلاس في المجال السياسي.

إن التمثال الذي أشيد تكريماً له على مدخل المبنى الرئيسي لمنظمة الأمم المتحدة لجهة إيست - ريڤر يمثل قلباً اخترقه شيء ما. ربّما يكون الأمر كذلك، فسرّ الإبداع الفني لا يكون مفهوماً دائماً للجميع، وأحياناً لا يفهمه حتى الفنانون أنفسهم. لقد شاهدت هذا التمثال مراراً لكنه لم يقترن في ذهني بقلب سواء ذي ثقب أو من غير ثقب. إني أرى فيه ببساطة قطعة كبيرة من الغرانيت تتخللها فجوة في الوسط.

إن درس تريوغفي لي أولاً ومن بعده داغ همرشولد علم الكثيرين أموراً عديدة. ومن ذلك أنه يجب إيجاد شخص لمنصب الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة معروف باستقامته وأن يدرك أن النجاح في وظيفته يكمن في حياده وواقعيته.

ترتب على اختيار أمين عام جديد لمنظمة الأمم المتحدة متاعب كثيرة وردحاً من الوقت.

ووقع خيار الجميع على يوثانت السياسي المرموق من بورما. وهكذا انتخبته الجمعية العامة بعد توصية من مجلس الأمن عام ١٩٦١ لمنصب أمين عام بالوكالة، ثم أميناً عاماً في السنة التالية.

لقد عرفت يوثانت لفترة طويلة قبل اختياره لهذا المنصب. كان مساعداً لوزير خارجية بورما واستفاد من شهرته كشخصية مقربة من الرئيس البورمي أوْ نو الذي عمل الكثير لتطوير العلاقات البورمية ـ السوڤياتية. امتلك يوثانت نمط السلوك الأوروبي، عاش كدبلوماسي على الطريقة الإنكليزية.

بعد خمس سنوات على انتخابه أميناً عاماً للأمم المتحدة وخلال حديث بيننا صارحني بقوله:

إن «شهر العسل» الذي أمضيه في هذه المنظمة شارف على نهايته على الأرجح.

لقد فوجئت بعض الشيء بهذا الكلام، إذ لم يشعر أحد بهذا الأمر من خلال سلوك يوثانت، أما هو فقد تابع يقول:

يعمل في سكرتاريا منظمة الأمم المتحدة جيش من مواطني الولايات المتحدة الأميركية معظمهم متعاون مع أجهزة المخابرات. وهم يعلنون دائماً أنني لست عادلاً في التعاطي مع الولايات المتحدة الأميركية.

لقد تحسر كثيرا لذلك، ثم أشار:

في الحقيقة هذا اختلاق محض.. إنهم يريدون مني أن ابتعد عن

الموضوعية في مواقفي تجاه الاتحاد السوڤياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى.

وقد أدلى يوثانت بآراء مشابهة فيما بعد، إلا أنه استطاع، بصفته شخصاً حذراً وذا طوية محايدة، الاستمرار في منصبه حتى العام ١٩٧١ حين اضطر للاستقالة بسبب داء عضال ألمّ به، ثم ما لبث أن توفي بعد ذلك بزمن قليل.

أما كورت ڤالدهايم، الشخصية السياسية النمساوية فقد أصبح رابع أمين عام لمنظمة الأمم المتحدة. والنمسا دولة محايدة وبضمانات دولية والاتحاد السوڤياتي إحدى الدول التي صادقت على حماية حياد هذا البلد. يملك ڤالدهايم تجربة غنية في السياسة الخارجية من قبل أن يصبح أميناً عاماً للأمم المتحدة، فقد كان مندوباً لبلاده في المنظمة، ثم شغل فيما بعد منصب وزير خارجيتها.

أما الأمين العام الخامس للمنظمة الدولية الراهن فهو خافييه بيريس دي كويلار الديبلوماسي من دولة البيرو، وقد انتخب لمنصب الأمانة للمرة الثانية. ويتعيّن عليه أن يسير طريقه في بحر سياسي هائج تزيد فيه الصخور والنتوءات عن الخلجان الآمنة. وهو يسير دون شك بنجاح وثبات.

إن أهم عامل في نشاط الأمناء العامين للأمم المتحدة هو الحفاظ على تطبيق ميثاق منظمة الأمم المتحدة، وهذا المطلب بحد ذاته مهم ويحتاج إلى مسؤولية كبيرة.

لقد ذكرنا آنفا كم كان الصراع السياسي من أجل صياغة الميثاق صعباً

وشاقا. ومع ذلك نرى أن المسائل ذاتها التي تتطلب معارك حامية من أجل إقرارها تعود اليوم لتطفو على السطح بين الحين والآخر.

ومن جهتنا فقد وجهنا السؤال أكثر من مرة إلى معارضي مبدأ الإجماع:

ـ ماذا كان سيحصل لو أنه تبين لدى مناقشة قضايا الحرب والسلم أن الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن غير قادرين على الاتفاق بعضهم بين بعض؟ هل يجوز الانطلاق من أن الدولة أو الدول التي لم تحصل على الأصوات اللازمة إلى جانب رأيها عليها أن تستسلم للأمر حتى لو كان الحق حليفها؟

أصحاب النقد إما لا يجيبون عادة أو أنهم يعلنون:

ـ أجل، على الدولة أو الدول التي لم تحصل على الأغلبية المطلوبة، تنفيذ قرار الأكثرية.

ونسأل بدورنا:

وإذا كانت هذه الدولة غير موافقة على رأي الأكثرية، ماذا تفعل؟

لا جواب لدى النقاد على هذا السؤال. ولكن لماذا ينتفي الجواب؟ لأنه يمكن في هذه الحالة أن تنشب حرب طالما أنه بطريقة التصويت حسب الأكثرية لن تحل قضايا التسوية فقط، وإنما مسائل الإجراءات القسرية بما فيها استخدام القوة العسكرية. وفي هذه الحالة لن تعيش منظمة ارتضت تكريس هكذا نظام في ميثاقها وعملها، وسوف تحرق نفسها وميثاقها دون شك في أتون الحرب.

وحول هذه المسألة هناك جانب آخر لا يخدم مصلحة منتقدي الميثاق

الحالي. من المعلوم أنه بحثت في مجلس الأمن الذي يسوده مبدأ الإجماع صراعات وقضايا نزاع عدة. وغالباً ما تكون الدول صاحبة العلاقة المباشرة لا تتمتع بحق النقض. لقد طلبت هذه الدول مراراً إلى الاتحاد السوفياتي الدفاع عنها في وجه قرارات غير عادلة قد تلزمها الدول الإمبريالية بها. وهذا يخص بشكل خاص مشكلات الشرق الأوسط.

لقد وقف الاتحاد السوفياتي دائماً مدافعاً عن المطالب المشروعة لشعوب هذه الدول. والغريب أن بعض هذه البلدان التي طلبت العون السوفياتي كانت من بين المتهجمين على مبدأ الإجماع وبأقذع الكلام!

إن نشاط منظمة الأمم المتحدة وتجربة نقاش المسائل في مجلس الأمن برهنا على أن حق النقض ضروري للمنظمة الدولية، فمن دونه كان يمكن أن تتحول الأمم المتحدة إلى كتلة من الخراب. لقد أدرك قادة الدول الثلاث الكبرى هذه المسألة جيداً، ولذا توصلوا في يالطا إلى الاتفاق حول كيفية اتخاذ القرارات في مجلس الأمن.

يوم لا يُنسى

إن ما قامت به الدول المنتصرة في مؤتمر سان فرنسيسكو وعملها المنسق في نهاية الأمر. قد أمن نجاح هذا المؤتمر. وساعد موقف الاتحاد السوفياتي في ضمان هذا النجاح. لقد أكّد وفد الاتحاد السوفياتي في إحدى الجلسات على الآتي:

سعى وفد الاتحاد السوفياتي خلال أعمال المؤتمر كافة من أجل إيجاد ميثاق للمنظمة الدولية يكون بمقدوره ضمان تحقيق المهام المطروحة أمامها... إن شعوب البلدان الممثلة هنا في المؤتمر ترنو إلى هدف

مشترك، ألا وهو عدم السماح باندلاع حرب جديدة.

خلص المؤتمر في سان فرنسيسكو إلى التوقيع على ميثاق منظمة الأمم المتحدة، هذه الاتفاقية الدولية الجامعة والفريدة التي أعلن فيها الهدف الرئيسي للمنظمة: «تخليص الأجيال القادمة من مآسي الحرب». وقد كلفتني القيادة السوفياتية أن أوقع هذه الوثيقة التاريخية باسم الاتحاد السوفياتي.

وقمت بتنفيذ المهمة الموكلة إليّ في ٢٦ تموز / يوليو ١٩٤٥.

لم يشهد التوقيع أي احتفالات مع أن ترومان رأى أنه لا بأس من إلقاء كلمة في يوم اختتام المؤتمر، يتوجه فيها إلى المشاركين. جاء في كلمته:

- إن ميثاق منظمة الأمم المتحدة الذي وقعتم عليه الآن يمثل بناءً متينا، يمكننا بالاعتماد عليه بناء عالم أفضل. والتاريخ سوف يشكرنا على ذلك. فبعد النصر في أوروبا والنصر النهائي في اليابان، نكون قد حققنا انتصارا على الحرب نفسها في حرب هي الأكبر والأكثر تدميراً من بين ما شهده التاريخ.

وهكذا، أعلن رئيس الولايات المتحدة الأميركية في العام ١٩٤٥ تأييده لبناء عالم أفضل، غير أنه لم تكد تجف تواقيع الدول على ميثاق المنظمة حتى شمرّ ترومان عن ساعديه وبدأ العمل على إنشاء حلف النّاتو السياسي العسكري. إن قيام هذا الحلف بحد ذاته قد شكل طعنة قوية إلى منظمة الأمم وأمل الشعوب في ضمان السلام للجيل الحالي والأجيال القادمة.

ما إن أطفئت الأنوار في القاعات التي شهدت المؤتمر حتى بدأ جميع المشاركين بطرح الاسئلة على بعضهم وعلى أنفسهم.

- ماذا بعد؟ متى سيبنى حقيقةً بناء السلام المنشود الذي استغرق جهودا كبيرة في دومبارتون - أوكس ويالطا وسان فرنسيسكو؟

وطرحنا الأسئلة حينها، نحن المندوبين السوفيات. وكانت الأجوبة تأتي متنوعة.

وهاكم جواب مندوب إحدى الدول الحليفة لنا على السؤال الأول:

- يجب الآن حلّ مهمة أخرى صعبة، إركاع اليابان. وعلى الاتحاد السوفياتي أن يساعد الولايات المتحدة في ذلك، وإلاّ فالأمر سيصعب علينا.

وحول السؤال الثاني قال مندوب دولة أوروبية حليفة:

إن مدى ثبات بناء السلم مرتبط بمؤتمرات الحلفاء القريبة وبطابع الاتفاقيات السلمية التي يتعيّن عقدها مع الدول الخصمة سابقاً.

كل جواب من الاثنين يملك أساسه وأسبابه. ليس من يهتم بشؤون السياسة الخارجية، وإنما الرجال والنساء المرتدون المعاطف العسكرية والتي لم يرموها عن أكتافهم بعد، أدركوا بوضوح أن على الدول المنتصرة قول الكلمة الفصل حول درجة التنسيق الذي سيتوصلون إليه في أعمالهم بعد أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ويعاد سيف الانتقام إلى غمده.

من خلال النظر الآن إلى الأحداث التي مضى عليها أكثر من أربعة عقود لا يجوز إلاّ أن نتوقف عند السؤال التالي: طالما أن أكبر مأساة في

تاريخ البشرية قد شارفت على نهايتها لماذا بقي الناس خائفين من أنها لن تكون الأخيرة. ربّما كان صوت داخلي يقول:

لا تستعجلوا الأمور. العالم عالمان، كل واحد منهما ينظر إلى المستقبل من زاويته.

إن أحدا من السياسيين المتبصرين والواقعيين اليوم لن يجادل حول أنه لو لم يتوصل الحلفاء والدول الأخرى إلى إنشاء منظمة الأمم المتحدة فوراً بعد الانتصار الكبير، لكانوا عجزوا كليا عن إنشائها فيما بعد.

إن ضمير الاتحاد السوڤياتي وقيادته الحكومية مرتاح في هذا الصدد، فقد بذلوا كل طاقتهم من أجل تشييد عمارة الأمن الثابت والفاعل للجميع فوق أساس النصر الكبير على عدو قوي وماكر. ويتأكد ذلك في نشاط الاتحاد السوڤياتي في مجال السياسة الخارجية سواء في فترة الحرب وحتى أيامنا هذه.

* * *

يُعد العمل في منظمة الأمم المتحدة مدرسة رائعة لكل ديبلوماسي. لقد بذل العديد من الممثلين السوڤيات جهوداً كثيرة خلال عملهم في المنظمة الدولية. وأذكر منهم على سبيل المثال الديبلوماسيين السوڤيات الشهيرين: ف.أ. زورين، يا.أ. ماليك. اللذين عملا طويلاً في نيويورك مدافعين بعزة عن مصالح بلادنا في منظمة الأمم المتحدة، وكذلك أو.أ. ترويانوڤسكي الذي مثل الاتحاد السوڤياتي لدى المنظمة لفترة تزيد على عشر سنوات.

ايمانا بالعقل

اربعون سنة مضت وأنا أتعاطى بشكل أو بآخر المسائل المتعلقة بنزع السلاح. فمنذ الايام اللينينية الأولى، ودولتنا وحزبنا يوليان هذا الموضوع اهتماما كبيرا.

ولقد كنت شاهداً على الكثير من اللقاءات، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مهمة أو قليلة الأهمية، فشاركت في العديد منها، ولكن بصفة رسمية مختلفة، هذا إذا لم أذكر اللقاءات الثنائية الكثيرة، التي كنا نناقش فيها مع الدول الأخرى مختلف المواضيع.

وبطبيعة الحال، فأنا لا اريد هنا استعراض التسلسل الزمني للأحداث، وحتى المهم منها، كما وإني لا أريد الدخول في تفاصيل المواضيع وجوانبها.

وسأتطرق إلى الحديث عن بعض الوقائع المتعلقة ببعض اللقاءات والمحادثات، وهي تُبرز تلك الـهُوّة الكبيرة التي تفصل بين مواقف الاتحاد السوڤياتي ومواقف دول الغرب. ومع ذلك، فإن هذه الحقائق لن تكون إلاّ إيضاحات لبعض النتائج السياسية المحدَّدة.

وما أريد التوقف عنده هو تقويم المواقف المبدئية للأطراف من موضوع نزع السلاح، وذلك لاعتبارين:

أولهما، ضرورة فهم القضايا المبدئية ليتسنى لنا فهم الأمور الفرعية بشكل صحيح، تلك الأمور، التي تتسم بأهمية كبيرة في عصرنا هذا. **وثاني** الاعتبارين أن التقدير المبدئي لاقتراحات الدول التي تتعلّق بالحد من التسلح (النسب، التكافؤ، المعايير التوصيفية، وكذلك المسافات ومشاورة الدول الحليفة، إلخ..)، تعتبر متاهات كبيرة، وخصوصاً في الظروف الراهنة، المتميّزة بتضخّم ترسانات العالم بشتى أنواع الأسلحة النووية وغير النووية. وفي كتابنا هذا، الذي يحمل طابع المذكرات، لا يمكنن أن نعطي إلا تقويماً عاماً لمواقف الجهات المختلفة، إن في المراحل السابقة أو في الوقت الحاضر.

ففي نيسان (إبريل) من عام ١٩٤٦ عُيّنتُ ممثلاً دائماً للاتحاد السوڤياتي لدى الأمم المتحدة. وفي الوقت نفسه تقريباً شغلت منصب نائب وزير الخارجية في الاتحاد السوڤياتي. ومنذ ذلك الحين تشغل مسألة نزع السلاح، بدرجة أو بأخرى، حيزاً كبيراً من تفكيري. وهنا، تدخل قضايا اللقاءات والمحادثات وغيرها وهي كثيرة جداً.

لقد ظل الاتحاد السوڤياتي وفياً لوعده الذي قطعه على نفسه في بوتسدام مباشرة بعد سحق الآلة العسكرية الهتلرية. أما جوهر هذا الوعد، الذي لم ينس عبر تلك السنين فهو: النضال الحازم من أجل ألاّ يكون هناك أبدا حرب عالمية جديدة.

لقد أتاح منبر الأمم المتحدة لبلدنا، واحدة من الإمكانيات المحدودة لفتح أعين الشعوب على نهج قوى الغرب، وللتوجه إلى جميع شعوب

العالم، شارحين الأهداف السلمية لسياسة الاتحاد السوڤياتي الخارجية، التي تولي قضية نزع السلاح أهمية قصوى.

لقد تنبأ لينين في إبان سنوات الحرب العالمية الأولى «بالإمكانية المحزنة» من أن «البشرية ستشهد حرباً إمبريالية ثانية أيضاً»(*). بيد أنه مع ذلك رفض بحزم النظرة التشاؤمية إلى الحياة. وقد أكّد بشكل خاص، أن البروليتاريا تعبّد طريق الاشتراكية، التي ستمنح الشعوب المعذبة السلّم والخبز والحرية.

والدولة السوڤياتية لا تزال حتى الآن تعمل كل ما باستطاعتها لترسيخ دعائم السلم على الأرض واجتثاث شأفة الحرب من حياة الشعوب. وأما العنصر الأساسي في حل هذه المعضلة الإنسانية المهمة فقد كان، ولا يزال، وقف سباق التسلح ونزع السلاح.

أكثر من مائة مبادرة سوفياتية

إن رقم «المائة» يعتبر رقماً كبيراً في الحياة الدولية، وخصوصاً إذا كان يعكس اقتراحات دولة عظمى. فقد تقدّم الاتحاد السوڤياتي في عام ١٩٤٦ بمبادرة تقضي بتقليص التسلح وتنظيمه. وقد شكل هذا الاقتراح حجر الزاوية لمقررات الأمم المتحدة، المتعلقة بمبادىء نزع السلاح الشامل. وبمبادرة من الاتحاد السوڤياتي، اتخذت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في جلستها الثانية قراراً تدين فيه الدعاية للحرب.

ومنذ ذلك الحين، تقدم الاتحاد السوڤياتي في الأمم المتحدة بأكثر من

(*) لينين ف.إ: المؤلفات الكاملة، المجلد ٣٠، ص ١٣٩ - ١٤٠ (بالروسية)

مائة مبادرة تتعلّق بوقف سباق التسلّح ونزع السلاح. فالعالم يعرف أن بلادنا هي التي تقدمت باقتراح يدعو إلى نزع سلاح كامل وشامل، ترافقه رقابة كاملة وشاملة. وكم من اقتراحات سوڤياتية قُدّمت من أجل الحدّ من سباق التسلّح ووقفه في اتجاهاته المختلفة!

وفي إحدى خطبي الأولى التي ألقيتها من على منبر الأمم المتحدة غداة إنشائها، صرّحت أنني مُخَوّلٌ من قبل دولتي لأن أتقدّم من الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة بالتصريح التالي:

ـ إن عملية تنظيم التسلح وخفضه تعد أحد أهم العناصر الضرورية لقيام نظام أمني. ونحن نرى أنه من الضروري أن نكرّر هذا الكلام عشرات ومئات المرات، بل وحتى ألوف المرات لأولئك الأشخاص الذين يريدون، فعلاً، التعرف على هذه المسائل.

إنّ ما قيل منذ أربعين سنة عن سلمٍ راسخ، باعتباره أحد أهم أهداف بلدنا، نكرره اليوم أيضاً، ذلك أنه جوهر سياستنا في مجال نزع السلاح. وعن هذا يجري الحديث في وثائق المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوڤياتي، في ظل الظروف الجديدة المتمثلة بتزايد الخطر المهدّد للسلام. فقد صرّح غورباتشيوف أمام المؤتمر قائلاً:

ـ إن الاتحاد السوڤياتي يقترح أن تتمّ معالجة قضايا نزع السلاح من جميع جوانبها وأبعادها.

ولنتذكر عام ١٩٢٢. مؤتمر جَنَوَى (Genova)... تكلّم أمام المؤتمر مفوض اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية غيورغي ڤاسيليڤيتش تشيتشيرين. ولأول مرة يجري الحديث عن نزع للسلاح من قبل المندوب السوڤياتي

أمام هذا المؤتمر الدولي. كان هو المتكلّم، بيد أن كلامه كان لينينياً:

ـ إن دولتنا تقترح تخفيضاً عاماً للسلاح، وعندها يصبح بالإمكان إبعاد شبح حرب جديدة.

لقد تكلّم تشيتشيرين بتكليف مباشر من لينين، فحدس زعيم الثورة كان عظيماً إذ حدّد بدقة أهمية مسألة نزع السلاح، وأمّا مفوّض الشعب السوڤياتي للشؤون الخارجية فقد طرحه بمنتهى الثقة والحزم.

لقد كان اقتراح دولة السوڤيات هذا، هو الأول من نوعه حينذاك. وكما كان متوقعاً، فإن مبادرة الشيوعيين أحدثت إرباكاً في المعسكر الإمبريالي. وقد حاول رئيس الوزراء البريطاني لويد ـ جورج أن يخفي حيرته وارتباكه بابتسامة متهكّمة.

منذ ذلك الوقت انصرمت أعوام كثيرة، وقد ولّى عهد التهكّم والابتسام عندما يتعلق الأمر بالحديث عن مسائل نزع السلاح. وأما النظرة إلى هذا الموضوع فإنها تتحدّد من خلال طبيعة الأحزاب السياسية وجوهر سياسة الدول.

ونحن نتساءل: هل وجدت، في أي وقت من الأوقات، دولة ناضلت بثبات من أجل نزع السلاح، كما فعل ويفعل الاتحاد السوڤياتي؟ كلا! لم توجد دولة كهذه، ذلك أن كل التدابير الجزئية حول نزع السلاح والحدّ منه، والتي تصب في الهدف الأساسي المتمثل بإزالة الأسلحة، كانت مبادرات سوڤياتية.

وفي عام ١٩٤٦، أي بعد الحرب مباشرة، بدأت الأمم المتحدة، وبمبادرة من الاتحاد السوڤياتي، بمناقشة مسألة نزع السلاح، فأنشئت إثر

ذلك لجنة خاصة، ضمت كلاً من الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وكندا؛ حيث كانت تعقد اجتماعاتها في لندن.

وقد اتضح مباشرة أن الاتحاد السوڤياتي وحده، من بين مجموع الأعضاء، هو الذي يُصِرّ على ضرورة نزع السلاح.. دولة واحدة فقط. وأما الأعضاء الآخرون، فإنهم لم يعطلوا كل اقتراح يدعو إلى نزع السلاح فحسب، بل عطلوا أيضاً اقتراحات الحدّ من سباق التسلّح.

وكان ممثل الولايات المتحدة الأول في اللجنة المذكورة بعد الحرب الدبلوماسي الكبير إدلاي ستيڤنسون، الذي غالباً ما أكّد خلال الاجتماعات باستمرار أنه ليس بمستطاع الحكومة الأميركية الموافقة على أي اقتراح يتعلّق بنزع السلاح؛ ذلك أن اللجنة كانت عهد ذاك مشبعة بروح فولتون(*).

دعاني ممثل الولايات المتحدة في إحدى المرات إلى الغداء في مقره، وهناك صرح لي، بشكل مباشر، أن الولايات المتحدة لا توافق أساساً على مجرى النقاش حول نزع السلاح. ثم قال هنا، ولأول مرة منذ إقامته في لندن:

– إن العمل التجاري الكبير في الولايات المتحدة لا يمكنه أن يستمر بمعزل عن صناعة الأسلحة. ليس في الولايات المتحدة مَنْ ينظر إلى فكرة نزع السلاح بجدية. بيد أنني لن أدلي بأي تصريح رسمي في هذا الخصوص.

(*) فولتون مدينة أميركية، خطب فيها تشرتشل عام ١٩٤٦. وكان خطابه المشبع بالعداء للاتحاد السوڤياتي إيذاناً ببدء «الحرب الباردة» الموجّهة ضد الاتحاد السوڤياتي – (الناشر).

لم يكن ثمة صراحة كهذه التي صدرت عن ممثل إدارة الولايات المتحدة الأميركية. وسألته:

– ومع ذلك، فما هو برأيك، النهج الصحيح في ما يتعلّق بهذا الموضوع والذي يمكن أن تعتمده سياسة الدول العظمى؟

أجابني قائلاً:

– التسلّح المُراقب.

وبكلمات أخرى وأدق: نهج التسلح.

لذا، فليس من الغريب أن هذا السياسي الذي رشح نفسه فيما بعد لرئاسة الجمهورية عن الحزب الديمقراطي، لم يستطع أن يقدم لناخبيه أي برنامج ملفت للنظر بشأن السياسة الخارجية، وخصوصاً في الشأن المتعلق بنزع السلاح. فلعبته لعقد اتفاق مع كبار رجال الأعمال، الذين اعتمدوا على سياسة توسيع الإنتاج الحربي، لم تحقق له النجاح. وهكذا، فقد هزم في الانتخابات.

ومع ذلك، فإن ستيڤنسون لم يكن الأسوأ بين الشخصيات الأميركية، التي عملت آنذاك في ميدان السياسة الدولية.

وبعد انتهاء الحرب جرت عدة لقاءات للبحث في مسائل نزع السلاح. هذه اللقاءات جرت على جميع المستويات. وكانت دائماً تُطْرَحُ تلك الأسئلة الملحة، التي وضعها الاتحاد السوڤياتي، بما فيها:

– لماذا تحتاج الولايات المتحدة إلى قواعد عسكرية في البلدان الأخرى؟

ـ ضد أي عدو تُنْشأ هذه القواعد، أو يُحْتَفَظُ بالقواعد القديمة؟

لقد طَرحَت هذه الأسئلة من قبل ستالين، كما طرحها أيضاً مولوتوف وجميع مُمثلي الاتحاد السوفياتي أمام المؤتمرات الدولية، ولقد طرحت، بدوري، على العديد من ممثّلي دول الغرب. هذه الأسئلة التي كانت ولا تزال مطروحة منذ أربعين عاماً.

وأنا أذكر ذلك التعنّت الذي كان زعماء الغرب يواجهون به محاولات طرح المسائل، المتعلقة بالقواعد العسكرية على أراضي الدول الأخرى، على بساط النقاش. هكذا كان الأمر في جنيف عام ١٩٥٥، أثناء لقاء زعماء الدول الأربع الكبرى ـ الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا. وهكذا كان أيضاً في اللقاءات الثنائية بين الاتحاد السوفياتي وبين كل من هذه الدول، وفي اجتماعات الجمعية العمومية ومجلس الأمن واللجان المختلفة والمصغَرة، التي أُلِفَتْ لبحث قضايا نزع السلاح.

... يجلس، مثلاً، الرئيس الأميركي إيزنهاور في منتجعه الريفي بكمب دايفيد مستمعاً إلى تصريح خروتشوف في هذا الصدد، بوجه متحجر ونظرة تجول في مكان ما فوق رؤوس مُجالسيه أو ربما في أمكنة أعلى...

وقد خيّل إلينا آنذاك أن من يجلس أمامنا ليس إيزنهاور الذي كان الإعلام يصوره بأنه شخص لا يعرف إلا أن يبتسم، بل شخص آخر مختلف تماما. ففي هذه المرة، حين جرى الحديث عن نزع السلاح، بدا صامتا. لقد كانت صورة ملفتة ومثيرة للفضول. هكذا تصرف أيضاً سلفه ترومان، الذي كان يكرر في أحسن الحالات:

ـ إن القواعد الأميركية في الخارج تخدم السلام.

أما الرئيس الأميركي جون كينيدي فقد كان يتصبّب عرقاً وهو يحاول العثور على «حججٍ» للدفاع عن القواعد الأميركية في الخارج، كان ذلك حين سُئل:

ـ لماذا تحتفظ الولايات المتحدة بهذا القدر من القواعد والجيوش في أوروبا، في وقت ليس فيه لهم عدو؟

كان كينيدي ينفي أن الولايات المتحدة تسعى إلى زيادة عدد قوّاتها في أوروبا، ولكنه، مع ذلك، استمرّ يفكّر في هذا الوضع.

وبهذه المناسبة، أريد أن أورد الحقيقة التالية:

ففي عام ١٩٦٣ وصلت نيويورك لحضور جلسة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وحضر كذلك إلى الجلسة وزير الخارجية الأميركية راسك، ساعيا إلى الاجتماع بي ممثلاً لكينيدي بقصد مناقشة بعض المسائل. وقال لي معلنا:

ـ إن الرئيس هو من مناصري وجهة النظر القائلة بضرورة البحث عن فرص تساهم في تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، وكذلك من أجل تخفيف حدة التوتر.

وتابع راسك مقترحاً:

ـ لماذا لا نذهب في جولة خارج المدينة لمتابعة حديثنا وللتباحث في بعض الشؤون؟

وأدركت على الفور أن وراء دعوة كهذه يكمن أمر ما جدي.

وبالطبع فقد أجبته:

- حسناً، أنا موافق.

وتوجّه كلٌّ منا على حدة إلى خارج مدينة نيويورك.

وهناك أخبرني راسك بوجهة نظر الرئيس المثيرة فقال:

- إن الرئيس كيندي يفكر بإمكانية تقليص عدد الجنود الأميركيين في أوروبا الغربية.

كنا نتحدث عن هذا، ونحن نتنزّه على جانب الطريق.

وكان لإعلان راسك، دون شك، أهمية بالغة، إذ بدا لي مفاجأة غير متوقعة. لا بد وأن الرئيس فكر ملياً قبل أن يخلص إلى هذا الاستنتاج.

ومعلوم أن كيندي فكر، قبل فترة قصيرة من مقتله، بإمكانية تقليص حجم القوات الأميركية في أوروبا، وقد عنى ذلك أن واشنطن بدأت تفكر بشكل سليم في ما يتعلق بهذه المسألة.

والفكرة التي أعرب عنها راسك كانت تتعلق، دون شك، بموضوع مهم. حيث كانت حاضرة، بهذه الدرجة أو تلك، في كل اللقاءات السوڤياتية - الأميركية بعد الحرب. فكانت تناقش المسائل المتعلقة بسياسة حلف الأطلسي (الناتو) وبالوضع في ألمانيا الغربية، التي انتهجت خط إعادة بناء قوتها العسكرية.

وكان الاتحاد السوڤياتي ينطلق من المبدأ القائل إن وجود قواعد عسكرية أميركية على أراضي دول أوروبا الغربية يعتبر عاملاً يتناقض مع مصالح السلام، ولذا فإن فكرة كيندي حَظِيَت باهتمام القيادة السوڤياتية.

tzius Lib.
BUC

لكن، وبعد بضعة أيام، انطلقت رصاصة القاتل لتتصرف بالأمور على هواها، وغاب كيندي عن الوجود.

وكيف لنا ألا نتذكر هنا، أن فكرة كيندي هذه كانت تعبّر، بشكل ما، عما قاله الرئيس روزڤلت أثناء مؤتمر يالطا:

- إن الولايات المتحدة سوف تسعى جاهدة للحفاظ على السلم، على ألا يكون ثمن هذا، الاحتفاظ بقوات كبيرة في أوروبا على بعد ثلاثة آلاف ميل من أميركا. من هنا، فإن الاحتلال الأميركي لن يستمر إلاّ لفترة قصيرة نسبياً.

بيد أن كل الإدارات الأميركية، - قبل كيندي وبعده - لم ترغب في إضاعة الوقت على النقاش في المسائل المتعلقة بالجيوش والقواعد الأميركية في أوروبا أو في أي مناطق أخرى من العالم.

بمبادرة جون كيندي حول إمكانية تقليص عدد القوات الأميركية في أوروبا، فأدرك على الفور الأهمية الكبرى لهذه المسألة وقال:

- إذا كان عند الرئيس ما يكفي من الشجاعة لتحقيق هذه الفكرة، فإنه يكون قد قدّم إنجازاً عظيماً يخدم مصالح أوروبا وأميركا والسلم. فلننتظر ولنرَ.

وكانت ملاحظته صحيحة.

المعركة الأولى

توجد لدى الدبلوماسيين، أيضاً، معارك حامية: فالاتحاد السوڤياتي خاض على امتداد أعوام طويلة معركة تهدف إلى منع إنتاج الأسلحة النووية، وجعلها أسلحة غير قانونية.

فلا يجوز إجبار البشرية على نسيان أولئك الذين قاموا باستخدام هذا السلاح أول مرة للقضاء على البشر. وليس هناك أي كلام يستطيع محو العار الذي التصق بمن اقترف الجريمة.

ولبلدنا موقف مبدئي وواضح في مسائل نزع السلاح عموماً، والسلاح النووي خصوصا، والشعوب لا تزال تتذكر: ما إن انطفأت نار الحرب، حتى كان الاتحاد السوفياتي أول من رفع صوته ضد هذا السلاح، مطالباً بمنعه.

ففي ذلك الحين، أعلنت الدولة السوفياتية أن استعمال الطاقة الذرية في الأغراض العسكرية يتنافى وضمير الإنسانية، وهي تقدمت باقتراح يدعو إلى عقد معاهدة دولية تقضي بمنع الاستخدام الحربي للطاقة الذرية إلى الأبد، وتحويلها لخدمة الأهداف السلمية فقط. كان هذا أحد إسهامات دولتنا الكبرى.

وقد فوضت تقديم هذا الاقتراح من على منبر منظمة الأمم المتحدة.

وباسم الاتحاد السوفياتي كان التصريح التالي:

ـ لقد أدت الظروف إلى تجسّد ماديّ لأحد أهم الاكتشافات البشرية على هيئة نوع محدد من السلاح، هو القنبلة الذرية. بيد أنه وعلى الرغم من أن هذا الاستعمال للطاقة الذرية يبدو الطريقة الوحيدة والعملية المعروفة في الوقت الحاضر، إلاّ أننا نقف على عتبة استعمال الطاقة الذرية على نحو واسع في ميادين سلمية ولخدمة البشرية... هناك سبيلان ممكنان للإفادة من هذا الاكتشاف: أولها، استخدامه في إنتاج وسائل الإبادة الجماعية؛ وثانيها، استخدامه لما فيه خير البشرية. ومفارقة الوضع تقوم في أن

الطريق الأول قد بات مدروسا ومستوعباً. وأما السبيل الثاني فإنه، عمليا، ما زال مجهولا. بيد أن هذا الواقع يجب ألا يقلل من أهمية المسائل المطروحة أمام لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة، بل إنه على العكس من ذلك يؤكد أكثر فأكثر أهمية هذا المسائل.

وكان للكلمات التالية، التي القيت باسم الاتحاد السوفياتي، وقعها المؤثر في الحضور:

ـ إن اكتشاف طرائق استخدام الطاقة الذرية لا يمكن أن يظل حكراً على دولة واحدة، مهما قصر الزمن أو طال... فعاجلاً أم آجلاً ستصبح الطاقة الذرية متوفرة للعديد من الدول. وبقصد تطوير هذه الموضوعات أتقدم من اللجنة، باسم حكومتي بالاقتراحات المحددة التالية:

أ) يمنع في كل الظروف والأحوال، استعمال السلاح الذري؛

ب) يُمنع إنتاج الأسلحة القائمة على استعمال الطاقة الذرية، ويمنع بالتالي تكديسها؛

ج) تصفية احتياطي السلاح الذري، الجاهز منه وما هو في طور الإعداد، وذلك ضمن مهلة لا تتجاوز الثلاثة أشهر...

ولقد نظر في الاقتراح السوفياتي عام ١٩٤٦ على مستوى لجنة الطاقة الذرية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة التي أنشئت، وكانت تضم ممثلي الدول الأعضاء في مجلس الأمن. ومن الطبيعي أن نواة هذه اللجنة كانت مؤلفة من الدول الكبرى الخمس، ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن.

وكان كل المشاركين ينتظرون ـ وكأنهم مشحونون بطاقة كهربائية ـ

ماذا سيكون بعد ذلك؟ أما ما حصل فيما بعد فهو أن اقتراح الاتحاد السوفياتي قوبل بعداء من دوائر الولايات المتحدة الأميركية الرسمية التي كانت آنذاك تحتكر السلاح الذري. إلا أننا برهنّا أن الاحتكار ليس سوى ظاهرة مؤقتة. وأن الاتفاق على منع استخدام السلاح النووي كان بإمكانه إزالة هذا السلاح من الوجود ومن قائمة أسلحة الدول وترساناتها إلى الأبد.

لقد صيغ وقتذاك الكثير من الأوراق كما ألقى رجالات الدول والديبلوماسيون الكثير من الخطب. بيد أن جهود بعض الدول كانت موجهة نحو الإبقاء على السلاح النووي أثناء مناقشة المسألة وتكريس احتكاره بين يدي الولايات المتحدة؛ فيما كانت جهود بعض الدول الأخرى منصبة على خطره ومنعه إلى الأبد وهكذا لم تتوصّل الأطراف إلى أي اتفاق. وأما النتائج فتقع مسؤوليتها بالكامل على عاتق من رفض آنذاك وما زال يرفض حل المشكلة.

باروخ و «خطته»

حدث، بطبيعة الحال، في سياق عمل لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة، أن أجتمع باستمرار مع ممثل الولايات المتحدة في اللجنة برنارد باروخ. فقد عيّنوه في هذا المنصب لأنه اعتُبر من كبار رجال الأعمال وعلى دراية كبيرة بأوالية سياسة واشنطن الرسمية. وكان هذا الثري وثيق الارتباط بالاحتكارات الأميركية وكان له من العمر آنذاك خمسة وسبعون عاماً.

وكانوا في الولايات المتحدة يطلقون عليه، أثناء الحرب العالمية الأولى، لقب «الدكتاتور الاقتصادي»، وبالطبع فإن من أطلقه عليه كان مبالغاً

بعض الشيء. بيد أنه كان يتمتع بتأثير كبير، فخلال الحرب العالمية الثانية كان يشغل منصب مستشار الرئيس لشؤون الاقتصاد الحربي. وكان يكفي أن تحادثه مرة واحدة حتى تعلم أن هذا الشخص ليس عالماً بظاهرات الحياة الاقتصادية الأميركية فحسب، بل هو على دراية بعملياتها العميقة، كما كان يدرك دقيق الإدراك، وقبل أي شيء آخر، مصالح رأس المال الاحتكاري للولايات المتحدة، فهذه المصالح كانت، بالنسبة إليه، قُدْسَ الأقداس.

وكان باروخ، الذي تَقَلّبَ في مناصب رفيعة عديدة، يجد دعماً كاملاً من طبقته، التي كان يؤمن بقوتها ويثق بها، أما نصائحه فقد ساعدت إدارة روزفلت على إيجاد قواسم ومصالح مشتركة بين أصحاب العمل الكبير وبين متطلبات ذلك العهد العسكرية.

التقيت باروخ أولَ مرة في واشنطن عام ١٩٤١. وقتذاك، كان الشبان الأميركيون ينتظرون ساعتهم: فالولايات المتحدة لم تكن قد دخلت الحرب بعد. وفي لقائنا تحدث عن الاتحاد السوفياتي بروح الصداقة، فلم يكن ذلك بالطبع حباً بالاشتراكية بل كرهاً للفاشية؛ ذلك أنه كان معاديا للفاشية، وقد قال يومها بجزم:

- على الولايات المتحدة وبريطانيا أن يفيا بوعدهما الحلفي فيفتحا الجبهة الثانية. وأنا تحدثت مع الرئيس بهذا الشأن.

ولا بد هنا من التذكير أن كثيراً من الأميركيين، في تلك الفترة، وخصوصا أولئك الذين تسنموا مناصب رفيعة في الدولة لم يكونوا يجرؤون في كل الأحوال على الخوض في حديث يتصل بالجبهة الثانية.

وقد حدث أنه إثر إنشاء لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة،

صار للقاءاتي مع باروخ أساس رسمي، حيث عُيِّنا معاً ممثلين لبلدينا في اللجنة.

ومن الصعب القول ما الذي دفع باروخ للقبول بمنصب لم يجلب له مجدا البتة. فقد كان من المتحمسين للاقتراح الأميركي، الذي أطلقت الصحافة عليه اسم «خطة باروخ»، وهو اقتراح لم يكن ملائماً بالنسبة إلى الاتحاد السوڤياتي. وكان من الممكن أن تُسمَّى الخطة، أيضاً، «خطة البنتاغون»، إذ قام على أساس تركيز السلاح الذري في يد الولايات المتحدة. الأمر الذي عنى أن تسلّم بلادنا، بل وكل البلدان، مصيرها وأمنها إلى واشنطن.

ومن أجل تمويه أهدافه، ارتأت الخطة الأميركية أن يُصار إلى إنشاء جهاز دولي للإشراف على استخدام الطاقة الذرية. بيد أن هذا الاقتراح رمى إلى تضليل الناس. فواشنطن لم تخف، عملياً، رغبتها في الاضطلاع بالدور الرئيسي في هذا الجهاز، مانحة نفسها دوراً قيادياً في جميع الشؤون المتعلقة بإنتاج المواد المنشطرة وحفظها، والتدخّل، تحت غطاء هذه اللجنة، في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا الإشراف وهذه الرقابة على الأسلحة النووية لم يكونا مقبولين. فالاتحاد السوڤياتي لم يكن ليقبل بمثل هذه الخطة، التي لم تعنِ إلاّ الإخلال بسيادة بلادنا وبمصالح أمنها.

فهل كان باروخ يعي أن الولايات المتحدة تتمسك بمطالب غير مبررة؟ لا أستطيع الحكم على ذلك. فهو قد أصغى بانتباه إلى الحجج والإيضاحات التي تقدمت بها بلادنا. ولكن حين بدأ باروخ بعرض الموقف الرسمي وتقديم حججه، كان يخرج دائماً باستنتاج واحد هو: أنه

ينبغي على الاتحاد السوڤياتي، وعلى باقي دول العالم، الاعتماد كلياً على «المصداقية المعنوية» للولايات المتحدة وحبِّها للسلام.

ولنفترض أن باروخ كان مؤمناً بهذه الحجة أو تلك، فماذا تراه كان ليقول الآن، لو بقي حياً، حين يستمع إلى تصريحات واشنطن الحالية عن حقها في توجيه الضربة النووية الأولى إلى الاتحاد السوڤياتي؟ أوَليست هذه التصريحات تصدر عن قادة الدولة التي مثّلها باروخ في لجنة الطاقة الذرية؟

إن في عقول أناس من وزن باروخ نمت، بل وتنمو الآن في أيامنا الراهنة، في الولايات المتحدة، أسطورة أن موجِّهي السياسة الخارجية الأميركية معصومون عن ارتكاب الأخطاء.

إن الغلبة هي دائماً للحقيقة في صراعها الأزلي مع الخداع. وهذا، بالضبط، ما ينطبق على مشكلة السلاح النووي. ألسنا نسمع اليوم أصوات ملايين الناس، بمن فيهم الأميركيون، وهم يهتفون ضد الحرب النووية، ويطالبون بالحد من الأسلحة النووية وتقليصها وتصفيتها؟ ومع ذلك فضحايا الخداع السياسي تظل كثيرة جداً.

إن «خطة باروخ» التي حاول الجانب الأميركي تسويقها وإحاطتها بالدعاية قد ولدت ميتة، ولم يكن الأمر ليختلف، لأنها كانت تحمل أصلاً في مضمونها وأهدافها أسباب موتها.

كان من حق باروخ الاعتقاد أنه إنما يدافع عن قضية خيِّرة، إلا أن ذلك لا يستطيع محو تلك البقعة التي «صبغ» بها نفسه في دفاعه عن خطة تحمل اسمه.

مصافحة المليونير الأخيرة

ظل باروخ مصراً على موقفه الداعي إلى عدم انبعاث ألمانيا فاشية جديدة، حتى بعد بروز خلافات الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة بشأن مسألة السلاح النووي، وكان إيجابياً في تقويمه لمقررات مؤتمر پوتسدام، حيث دعا إلى تطبيقها. وقد أكّد، أكثر من مرة، خلال أحاديثنا على فكرة واحدة هي:

ـ لا يجوز أن تكون الأرض الألمانية مصدراً لعدوان جديد.

هذا، وقد أيّد باروخ باستمرار خطة جذرية لاجتثاث الفاشية الألمانية، وظلّ أميناً لوجهة نظره هذه لسنوات عديدة لم يكن يشغل فيها أي منصب رسمي.

وعارك باروخ قرنه ـ وكان قد بلغ من العمر ثمانين عاماً ـ فقضى بقية حياته في منزله المطل على حديقة نيويورك المركزية. وعن هذا المنزل كان يقول:

ـ هو ذا بيت الحكيم باروخ.

وقد قُيِّضَ لي، فيما بعد، أن التقي باروخ وأتحدث إليه. وكان هو الذي يقوم بالمبادرة دائماً (خصوصاً خلال وجود الوفد السوڤياتي للمشاركة في اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة). وأحد هذه اللقاءات، تم في منزله، وقد حضره آنذاك ممثل الاتحاد السوڤياتي الدائم لدى الأمم المتحدة أ. أ. سوبوليف وابن مضيفنا، وهو أيضاً من رجال الأعمال.

وفي سياق الحديث استعاد باروخ، بصورة عامة، ذكرياته حول خطته

القديمة، فأبدى ملاحظات شبه ساخرة حول فشلها؛ حتى اننا، نحن ضيوفه، أشفقنا عليه من نفسه ولكن شعوراً مجدَّداً كان يخالجه، إذ كان يشك في مصداقية الأميركي في عهد الرئيس ترومان وبراءتها.

وأخيراً سألته:

ـ يا غوسپودين(★) باروخ، لقد مضى حوالى خمسة عشر عاماً على معاركنا تلك في عام ١٩٤٦. كيف تقوِّم اليوم ما دافعتَ عنه بالأمس؟

فأجاب:

ـ أنا اليوم لا أؤيِّد كُلّ ما جاء في الخطة التي عُرِفَتْ باسمي.

«لا أؤيد كل»... هذا يعني الكثير.

ولم نرغب ـ سوبوليف وأنا ـ بوضع الملح على جراحه.

بعد ذلك راح يشكو:

ـ لقد بدأ الأميركي يعاني من وطأة الغلاء. فأسعار المواد الضرورية قفزت بشكل هائل بالمقارنة عمّا كانت عليه، حتى في زمن الحرب.

لقد أصبنا بالدهشة لهذا التناقض: أمامنا مليونير يتذمَّر من غلاء المعيشة! ولكن، هذا بالفعل ما جرى. وتابع باروخ كلامه بحماس:

ـ إن الأسعار المرتفعة طالتني أنا أيضاً، فليس من السهل الآن، مثلاً، أن تستأجر مدبّراً للمنزل. فأنا أحاول منذ بضعة أشهر العثور على مدبّر

(★) غوسپودين تعني (بالروسية) سيِّد، بإزاء كلمة «مستر» الإنكليزية ـ (المترجم).

حتى أتمكن من التخلّص من ابن الكلبة هذا الذي بدأ يختلس احتياطي نبيذي.

ضحكنا، أنا وسوبوليف، من كل قلبنا، لأسى هذا المليونير الكبير. وأما الابن فقد كان يرمق والده بنظرة ملؤها الرجاء ليتوقّف عن الكلام، إلا أنه لم يجرؤ على توجيه اللوم إليه علناً.

ولقد التقيت باروخ مرتين أو ثلاث مرات في مبنى البعثة السوڤياتية لدى الأمم المتحدة أيضاً. أذكره حين جاء آخر مرة. فما إن فتحت له باب المكتب، حتى اتخذ وضعية الملاكم. وفهم كلانا الأمر في الحال: فقد أراد باروخ أن يذكرني بتلك المباراة الكبرى التي جرت في نيويورك عام ١٩٤٦. وبالمناسبة، فإننا كنا نعرف أحد المشاركين في تلك المباراة بطل العالم جو لويس الذي عرفناه معاً صديقاً للاتحاد السوڤياتي. وكان باروخ قد دعا جميع أعضاء لجنة الطاقة الذرية لحضور تلك المباراة. وكان لا يزال محافظاً على مشاعر الصداقة، فتكلم لصالح تطوير العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية. كما أنه أدان بحزم تلك التصريحات العدائية الموجّهة ضد الاتحاد السوڤياتي. وحين همّ بالخُروج سألني:

ـ مستر غروميكو، هل قرأت كتابي «كيف أصبحتُ مليونيراً»؟ لقد أرسلته إليك، منذ فترة غير بعيدة إلى موسكو عبر الممثّلية السوڤياتية في الأمم المتحدة.

فأجبته على سؤاله ملاحظاً:

ـ لقد وصلني الكتاب، وقد أنهيت قراءته تقريباً.

فبدا الاهتمام على باروخ وسألني:

ـ كيف وجدته؟ ما رأيك به؟

فأجبته مازحاً:

ـ لقد حاولت أن أتبع النصائح الموجودة في الكتاب. ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى شيء.

وتمازحنا قليلاً في هذا الموضوع أيضاً، ثم تصافحنا وودع أحدنا الآخر إلى لقاء تالٍ، بيد أن اللقاء لم يتم.

... لقد مات برنارد باروخ عن عمر يناهز الخامسة والتسعين.

معَارِفيَ: إينشتين، أوپنهايمر، جوليو ـ كوري

إن جميع الشرفاء، بمن فيهم أولئك الذين لم يكونوا يوماً من مؤيِّدي الاشتراكية، طالبوا دائماً ألاّ يصبح السلاح النووي الذي أطلق من عقاله سبباً في حدوث كارثة. فكثيرون رأوا هذا الخطر الداهم، حتى قبل هيروشيما. ومنهم، من كان على علاقة مباشرة بإنتاج هذا السلاح. فمن المعروف أن العديد من العلماء اللامعين كانوا من المطالبين بحظر هذا السلاح، نذكر منهم: ألبرت إينشتين وروبرت أوپنهايمر وفردريك جوليو ـ كوري.

في بداية عام ١٩٣٩، توصل كل من فردريك جوليو ـ كوري في فرنسا، والهنغاري ليو سيلارد ومعه الإيطالي إنريكو فيرمي، اللذين كانا يعملان في الولايات المتحدة، إلى استنتاجات متشابهة: فضمن شروط وظروف معينة، يُمكن إحداث انشطار تسلسلي لأنوية ذرات اليورانيوم، يصاحبه انفجار فظيع من حيث قدرته وحجمه.

وبطبيعة الحال، فقد رأى هؤلاء العلماء، أن بإمكان الألمان أيضاً أن يصلوا إلى هذه الاستنتاجات، فينتجوا على أساسها سلاحهم النووي. ولقد تأكدت هذه الآراء: ففي ذلك الوقت احتل الفاشيون تشيكوسلوفاكيا، ومنعوا تصدير خامات اليورانيوم التي كانت تستخرج من ياخيموف.

في هذا الوقت كان إينشتين يعيش في الولايات المتحدة. أما في العشرينات، فقد كان يرئس معهد الفيزياء التابع لمجمع القيصر ڤيلهيلم في برلين (هكذا كان الألمان يسمون تلك المنظمة التي كانت، عملياً، أكاديمية للعلوم). وبعد تسلّم هتلر زمام السلطة غادر عالم الفيزياء الكبير، مؤسس النظرية النسبية، ألمانيا متوجهاً إلى الولايات المتحدة هرباً من ملاحقة الفاشيين له.

وفي الثاني من آب عام ١٩٣٩، تمكن سيلارد من إقناع إينشتين بتوقيع رسالة وُجهت إلى الرئيس روزفلت. وقد تحدثت الرسالة عن الأبحاث التي يجريها كل من جوليو - كوري وفيرمي وسيلارد؛ كما تضمنت نداءً إلى الإدارة الأميركية لِتَولي هذه الأبحاث اهتمامها، لأنها - أي الأبحاث - تفتح الطريق أمام إنشاء قنابل قوية غير عادية ومن نوع جديد. وكان الهدف الأساسي من وراء ذلك أخذ قصب السبق قبل هتلر. فسجّل الرئيس قراره على الرسالة: «إنّ هذا يتطلب تحركاً»!

ووضع التاريخ التالي: «تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٣٩».

لكن البيت الأبيض لم يتّخذ قراره القاضي بصنع القنبلة النووية الأميركية، إلا في السادس من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤١، وقد حصل هذا التحوّل بعد نجاح الأبحاث التي قام بها العلماء الأميركيون. وفي

الثالث عشر من آب (أغسطس) ١٩٤٣ أُطلِقَ على البرنامج الأميركي إسم «مشروع مانهاتن» وكان يقضي، بتوحيد جميع الأبحاث من أجل صنع هذا السلاح الجديد للإبادة الجماعية.

وقد خصصت الولايات المتحدة مبلغ ملياري دولار لصنع ثلاث قنابل. وقد عمل في هذا المشروع حوالى مائة ألف شخص، كما استلزم الأمر، بناء مدينتين جديدتين، بمنتهى السرية.

مع اقتراب المشروع من نهايته، وجه إينشتين وسيلارد رسالة أخرى إلى رئيس الولايات المتحدة. منذ خمس سنوات قام هذان العالمان بإقناع الرئيس روزفلت بصنع القنبلة النووية. وأما الآن فإنهما يستخدمان كل نفوذهما للحؤول دون استخدامها.

... إني أذكر جيداً لقائي بإينشتين. كان ذلك في نيويورك في فندق «وولدورف استوريا».

ذهبت إلى هناك مع الديبلوماسي السوڤياتي ب.ف. بازيكين الذي كان يشغل. مسؤولا عن شؤون العلاقات الثقافية والعلمية في سفارتنا بواشنطن (تم تعيينه فيما بعد سفيرا في المكسيك). وكان رجلنا قد قابل هذا الفيزيائي العظيم في مدينة پرينستون، مركز العلم والفكر الأميركيين، حيث تقع الجامعة الشهيرة، وحيث عاش العالِم عندما قدم إلى الولايات المتحدة.

ومن المفارقات أن شاباً يافعاً كان يقف إلى جانب هذا العالم ذي القامة القصيرة التي زادتها السنون انحناءً. وبدا أن إينشتين لم يكن يلاحظه.

فحييناه ثم سألته:

- إني أشعر بالسعادة للقائك يا سيدي. للقائي بك. لقد قرأت وسمعت الكثير عنك. وأنا أحييك وأتمنى لك النجاح بوصفك عالماً فذاً.

فأجاب إينشتين باقتضاب:

- شكراً.

وبالطبع، فقد تطرق الحديث إلى موضوع السلاح النووي، أو كما كان يسمى آنذاك القنبلة الذرية، شغل أمر استخدامها الناس جميعاً، ولم يكن الرماد الذري قد انحسر بعد عن هيروشيما وناكازاكي. وسألته:

- من الملاحظ أنه بدأت تتسرَّب، إلى الصحافة أنباء عن القنابل النووية، التي ألقتها الولايات المتحدة على المدينتين اليابانيتين. ماذا سيكون عليه الوضع مستقبلا؟ إن هذا السؤال يهم الجميع.

من المعروف عن إينشتين أنه كان يعي جميع الأبعاد والمخاطر الرهيبة التي كان يخبئها السلاح النووي للبشرية. وقد كان لكلامه الدقيق والمحدد تأثيره الكبير علي.

تكلم بهدوء كان يميز دائماً تعبيره عن أفكاره، فقال:

- لقد كتبت إلى الرئيس روزفلت أعلمه أن الناس قد لا يلقون في انتظارهم إلا التعاسة بسبب هذا السلاح. ورأيي الآن معروف من الجميع. إن الشبان هنا لا يعون بشكل واضح ذلك المصير الذي ينتظر فَلَكَنا الكروي، هذا الذي يركبه الجميع، بمن فيهم الأميركيون.

لقد قصد العالم العظيم بكلمة «الشبان» سياسيي الولايات المتحدة، الذين كان عليهم اتخاذ القرار النهائي بشأن مصير السلاح الذري. وأما «الفلك الكروي» فهو بالطبع كوكبنا.

ثم اردف ملاحظاً:

- لو كان الأمر منوطاً برجال العلم، لكان العلماء الأميركيون، بأغلبيتهم على ما أظن، طالبوا بمنع هذا السلاح الرهيب.

وقد ذكر حينها عدة أسماء، كان أحدها مألوفاً لدي. إنه لورنس طبعا!... لقد عرفته جيداً. إنه إرنست أورلاندو لورنس، أحد علماء الفيزياء الأميركيين الكبار، إذ حاز في عام ١٩٣٩ جائزة نوبل لقاء أبحاثه في مجال الفيزياء النووية.

لم يذكر إينشتين إسم أوپنهايمر، ولعل ذلك لم يكن صدفة. فهذا العالم كان في فترة الحرب مشرفاً علمياً على المركز الذي أنتجت فيه القنبلة الذرية. وأما بالنسبة إلى لورنس فقد تذكَّرت أني تعرفت عليه شخصياً.

واضفت قائلا:

- في تلك الفترة العصيبة من أيام الحرب، كُلِّفت من قبل أكاديمية العلوم السوڤياتية بصفتي سفيراً، بتسليمه شهادة انتخابه عضواً فخرياً في الأكاديمية. وقد جاء وقتها إلى السفارة السوڤياتية في واشنطن، قادماً من سان فرانسيسكو، وكان آنذاك يدير مخبراً في جامعة ستانفورد. وقد سلمته براءة العضوية شخصياً. وأذكر أن لورنس أعرب عن شكره الحار للعلماء السوڤيات لاعترافهم بإنجازاته العلمية.

هذا، وما زلت أتذكر عبارة ذات معنى من محادثتي مع إينشتين قال:

- لو كنت أعلم أنه لن يكون لدى هتلر قنبلة ذرية، لما كنت أيَّدت مشروع القنبلة الذرية الأميركية.

وحتى الآن لا يزال صدى عبارته هذه يدوّي في أذنيّ، بالرغم من أنه قالها بطريقته العادية الهادئة.

حين التقينا هذا العالم الفذ كان قد بلغ من العمر أرذله. كان يعيش منزويا، نادرا ما يخرج إلى الناس. ولا بد أن ذلك كان بتأثير السن عليه وبتأثير الفكرة التي كانت تؤرقه باعتراف الناس القريبين منه، وهي: إلى أي درك يمكن للإنسانية أن تصل، خصوصاً بعد ابتكار السلاح النووي والبدء بمراكمة احتياطيه.

أما أوپنهايمر فقد كان مواطنا أميركيا من أصل ألماني ومن عائلة ثرية. ومع كونه أحد أفضل خريجي هارڤرد، إلا أنه قرر متابعة دراسة الفيزياء في جامعة كمبردج البريطانية ومن ثم في جامعة غيوتنفين الألمانية. ثم عاد الشاب بعد ذلك إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذاً محاضراً في جامعة كاليفورنيا. وكان لنجاحه في أبحاثه أثر في نيله احترام العلماء. وقد لفت اهتمام الدوائر العسكرية إليه، منذ مشى خطواته الأولى في طريق العلم، إذ وجدت فيه الإدارة الأميركية الشخص الاختصاصي المناسب، القادر على قيادة المجمع العلمي الذي يشرف على «مشروع مانهاتن»، الذي كان يضم أيضا أجانب ـ مهاجرين من أوروبا حيث اندلعت الحرب.

تم اختيار مركز أبحاث «المشروع الذري» بناء على اقتراح أوپنهايمر في لوس انجلوس الواقعة في منطقة جافة من ولاية نيومكسيكو. وكان أوپنهايمر قد زار هذه المنطقة للمعالجة من ذات الرئة. وحتى لحظة انفجار قنبلة هيروشيما، كان أكثر من ستة آلاف شخص يعيشون في هذا المكان في ظروف بالغة السرية.

اشتهر اسم فريدريك جوليو ـ كوري في أرجاء العالم، حتى قبل

اندلاع الحرب. ففي عام ١٩٣٤ تمكّن، هو وزوجته إيرين، من اكتشاف الإشعاعات الاصطناعية. وساعد كوري قبل نشوب الحرب نقل الاحتياطي الفرنسي من المياه الثقيلة ـ التي تعتبر أحد أهم العناصر المكوِّنة في تكنولوجيا الأبحاث الذرية ـ إلى إنكلترا. وكان أثناء الحرب عنصراً فعالا في حركة المقاومة ضد الفاشية. وبعد انتهاء الحرب عيَّنه ديغول رئيساً لمفوضية الطاقة الذرية الفرنسية.

أذكر جيدا أحاديثي مع كل من أوپنهايمر وجوليو ـ كوري، حيث التقيتهما أكثر من مرة. كان الأول يعمل مستشاراً علمياً لبرنارد باروخ في لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة، وكانت للثاني الصفة نفسها، مستشارا لممثل الحكومة الفرنسية ألكسندر پارودي. وكان يشاركني أحيانا اثنان من مستشارينا العلميين: الأكاديمي د.ڤ. سكوبيلتسين والبروفسور س.پ. ألكسندروڤ.

وكنا نحن، مندوبي الاتحاد السوڤياتي، نعلم أننا أمام عالمين فذّين وكبيرين. فقد كان اسم اوپنهايمر معروفاً قبل فترة طويلة من لقائنا، بيد أننا لم نع الحجم الحقيقي لهذه الشخصية في أوساط علماء الفيزياء إلا في وقت متأخر.

لقد وَعَى كلّ من أوپنهايمر وجوليو ـ كوري الخطر الذي ينطوي عليه السلاح النووي للبشرية جمعاء. فهما لم يستحسنا النهج القائم على إنتاجه وتكديسه، وتألما للواقع المستجد وطالبا بضرورة حظر هذا السلاح المدمر. ولطالما أكدا في أحاديثهما على هذه الفكرة. ومع، ذلك، فلهجة كلٍّ منهما اختلفت. إذ كان أوپنهايمر يطرح أفكاراً تدعو إلى استبعاد السلاح النووي من قائمة التسلح، بيد أنه تجنّب دائماً طرح أفكاره في

صيغة يفهم منها أنها تتعارض مع الموقف الرسمي لحكومة الولايات المتحدة. غير أن تصريحاته كانت تعبّر بوضوح عن قناعاته. أما جوليو ـ كوري فبالرغم من لباقته في ما يتعلق بالموقف الرسمي لدول الغرب، كان أكثر صراحة في التعبير عن موقفه السلبي من مواقف ممثلي الدول الغربية المشاركة في المفاوضات. وكنا نَجِلّ هذا الموقف الشجاع الذي كان يبديه العالم الفرنسي.

ولكن دوائر الغرب الرسمية بدأت تنظر إليها نظرة ارتياب وشك، ثم ما لبث أولئك، الذين لم يرغبوا يوماً بهجر الأسلحة النووية، أن بدأوا، وببساطة يشجبون هذين العالمين. وهذا ما بدا بوضوح، وخصوصاً بالنسبة إلى أوپنهايمر. ففي أثناء أحاديثنا معه، كنا نلاحظ في تصرّفاته بعض الضيق، وبدا أن خضوعه للرقابة مدة طويلة ترك بصماته على نحو معين، فنشأ عنده ردّ فعل تجلى في الحذر حيال الاجانب أثناء لقاءاته بهم.

من البديهي أن أوپنهايمر لم يصرح لنا بذلك مباشرة، بل إنه بذل جهدا للتصرف على سجيته، وبشكل طبيعي، خلال فترات عمل اللجنة. لكن من الصعب القول إنه تمكن من ذلك حتى النهاية. لقد برهن أنه ليس من الأشخاص الجبناء، وهذا ما أكده هو شخصياً فيما بعد، حيث أصبح يعارض بوصفه عالما بشجاعة وصراحة مواقف تلك الدوائر الأميركية، التي ربطت سياستها بالسلاح النووي على نحو وثيق. وفي أحد لقاءاتنا معه، صرح قائلا:

ـ إني أدعو، وبشكل حازم، إلى تأييد الاقتراح القاضي بحظرٍ غير مشروط على إنتاج السلاح النووي واستخدامه.

وكان لكلماته هذه وزن كبير. ومع ذلك فقد كان بإمكانه ـ وهو أحد

الاشخاص الفاعلين في «مشروع مانهاتن» ـ أن يعبّر عن رأيه قبل ذلك بزمن. فقد كانت كلماته ستحظى بالوزن نفسه، حتى قبل قصف المدينتين اليابانيتين، إلا أنه لم يقل شيئاً في تلك الحقبة. وعندما تكلم، كانت القنابل الذرية قد بدأت «بالخروج من المصانع».

لكن السلطات الأميركية ما لبثت أن انتقمت من هذا العالم بسبب المواقف التي اتخذها. ففي عام ١٩٥٣، أُدين أوپنهايمر بـ «عدم الإخلاص»، ومُنِعَ من معرفة المعلومات السرية. ومن الجلي أن هذا كان أمرا سياسيا مدبراً.

لدينا كل الأسباب للاعتقاد أن الموقف الذي التزمه أوپنهايمر بعد ظهور القنبلة الذرية يعكس، بدرجة ما، رأي الرئيس روزفلت، الذي لم يتمكن من إعلانه. وقد اتضح ذلك من خلال المذكرات الشخصية التي نشرها بعض رجال الدولة، ممن عاصروا الرئيس.

بعد عام ١٩٤٩ أي العام الذي حُلّت فيه لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة تسنى لي أن ألتقي أوپنهايمر مرة واحدة فقط في مناسبة غير عادية. حدث ذلك في واشنطن عام ١٩٥٩ أثناء دفن جون فوستر دالاس، وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق. حضرنا إلى عاصمة الولايات المتحدة، يومها، أنا وزملاء لي ممن شاركوا وقتذاك في اجتماعات جنيف لوزراء خارجية الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا. وفي طريقنا من الكنيسة إلى مقبرة آرلينغتون مرّت بجانب سيارتنا سيارة استقلّها أوپنهايمر، فأبطأت السير وحياني من داخلها بحركة من يده، فأجبته بمثلها وفي المقبرة لم أره، إذ من المحتمل أنه لم يكن متوجهاً إلى هناك.

لقد مرَّ أوپنهايمر وأشخاص آخرون شاطروه آراءه بأوقات عصيبة آنذاك في الولايات المتحدة. فقد عانوا من أجواء عدائية وإهانات وجَّهتها لهم جهات رسمية في واشنطن.

في التاسع عشر من آذار (مارس) عام ١٩٥٠، كان جوليو ـ كوري أول من وقع نداء ستوكهولم، الذي جاء فيه: «إننا نطالب بحظر غير مشروط على السلاح النووي، سلاح الرعب والإبادة الجماعية». وقبل نصف سنة من ذلك، ذيَّل حوالى نصف مليار شخص هذا النداء بتواقيعهم.

بعد ذلك تلاحقت الأحداث مسرعة في حياة هذا العالم الكبير. فقد قامت حكومة بيدو بعزله من منصبه كرئيس لمفوضية فرنسا العليا لشؤون الطاقة الذرية، الذي شغله على امتداد أربع سنوات. وقد منع من العمل في فورت شاتيلون، حيث كان يقع مركز الأبحاث الرئيسي في فرنسا. وحيث كان صنع هذا العالم الفرنسي نفسه أول مفاعل نووي وطني وشغله.

وقرر جوليو ـ كوري إثر ذلك تكريس حياته كلها من أجل النضال ضد السلاح النووي وضد التحضير لحروب جديدة، فأصبح رئيساً لمجلس السلم العالمي.

ومما يبعث على الغبطة، أن جسوراً غير مرئية قد امتدت عبر أولئك العلماء الكبار في العالم الغربي، ممن كانوا قد دعوا إلى نبذ السلاح النووي وحظره إلى الأبد، لتصل اليوم إلى كبار ممثلي العلوم، الموجودين في كل المعمورة، والذين توصّلوا اليوم إلى قناعة واحدة واستنتاج وحيد: يجب عدم تشريع السلاح النووي ثم إزالته. وأما الطاقة النووية فيجب أن تُستخدم في

الأغراض السلمية فقط. هؤلاء العلماء يزدادون كل يوم، ويزداد دورهم وتأثيرهم في ذلك النضال المستمر بين العقل من جهة واللامنطق من جهة أخرى. وأنا على اقتناع تام بأنه لن يكون في مقدور أحد أن يُبَرِّرَ نهج أولئك الذين يرفضون، وهم في موقع القرار في الولايات المتحدة، قيام حظر على السلاح النووي. فحبُّ الهيمنة على العالم كان بالنسبة إليهم أقوى من أي رغبة أو فهم لضرورة استبعاد هذا السلاح من ترسانات الدول.

وعبثاً تحاول الولايات المتحدة أن تؤكد، أنه في ما يتعلق بها، لم يكن لديها أبداً أي أهداف غير شريفة من وراء تمسُّكها بالسلاح النووي. وليس من الحقيقة في شيء ما يقال في تلك التصريحات التي تذيعها واشنطن على أعلى المستويات أحياناً، وتزعم فيها أنه لو كان لدى الولايات المتحدة أي أهداف عدوانية لكانت قادرة، لو أرادت أن تفرض على الاتحاد السوڤياتي شروطها، وهي التي احتكرت القنبلة الذرية في وقت من الأوقات؛ ولكنها لم تقدم على ذلك انطلاقاً من أهداف نبيلة.

ونحن ننصح السياسيين، الذين يردّدون مثل هذه المزاعم، أن ينظروا إلى الأحداث من زاوية أخرى: ما الذي كان بمستطاع الاتحاد السوڤياتي أن يفعله، مثلاً، حين كانت ألمانيا الفاشية راكعة على ركبتيها، وإلى أي حدود كان بإمكان ذلك الزحف الجبار للجيش السوڤياتي أن يصل، وهو الذي حطّم الرايخْ الهتلري لتوِّه، لو لم يكن ـ أي الاتحاد السوڤياتي ـ شريكاً موثوقاً وفياً لالتزاماته لحلفائه؟

من هنا نتساءل: لماذا يحاول، اليوم، أولئك الذين يقررون سياسة الولايات المتحدة الخارجية أن يصوروا الكذب حقيقة ويقدّموه بغلاف براق؟

من وقت لآخر، كان الاتحاد السوڤياتي يسعى لتحديد اتجاه الريح في دول أوروبا الغربية، حلفائنا السابقين. وحين اتضح، في النهاية أن الريح تهب في الإتجاه المعاكس لنزع السلاح، حاول المندوبون السوڤيات، أكثر من مرة، إقناع قيادات هذه الدول بأن المسألة يجب أن تُبحَث على القدر نفسه من اهتمام كلٍّ من الشرق والغرب

في زمن الحرب لم ترغب لا إدارة روزڤلت ولا الحكومة البريطانية بوضع هذه المسألة على جدول الأعمال المستقبلي أو مناقشتها. وكان بالإمكان فهم الأمر في ذلك الحين: فالحرب مستعرة، والشيء الأهم كان إحراز النصر.

ولكن بعد انتهاء الحرب، وبعد استسلام ألمانيا الهتلرية، وبعد يالطا وپوتسدام وإنشاء منظمة الأمم المتحدة، فإن عدم رغبة الغرب في اتخاذ موقف جدي، أثار، دون شك، ارتياباً لدى قادة الاتحاد السوڤياتي.

وبطبيعة الحال، كان ممثلو دول الغرب يناقشون من وقت لآخر منافع البحث عن سبل الحدّ من الأسلحة ونزع السلاح. بيد أن نقاشهم كان، على وجه الإجمال، يحمل طابعاً خطابياً. ولم تتجاوز الأمور حداً أبعد من رغبة البعض في طمس المسألة المتعلقة بإنشاء لجنة ما، أو هيئة ما. وفي هذا الإطار كان هناك أشخاص على استعداد دائم لدفن أي اقتراح بنّاء.

أحيانا كان يبرز في الولايات المتحدة وفي إنكلترا أشخاص مستعدون للتفلسف في موضوع نزع السلاح وحتى للكلام عن منافعه. ولكنهم كانوا، وفي كل مرة، يرفضون أي شيء يمكن أن يبدر عن الاتحاد

السوڤياتي. وهناك أسماء برزت على السطح أكثر من مرة: دالاس، ستاسين، ستيڤنسون، باروخ. ولكنهم كانوا جميعاً سلبيين بوجه عام في ما يتعلق بأي اقتراح عملي في مجال نزع السلاح.

هاكم، على سبيل المثال، نقاشين جريا مع دالاس في هذا الشأن. الأول جرى في سان فرانسيسكو في نهاية المؤتمر الذي نوقش فيه ميثاق الأمم المتحدة. فقد أبدى دالاس، المستشار غير الرسمي لبعثة الولايات المتحدة، اهتماماً بالقوات السوڤياتية المسلّحة. فسألني:

– قل لي من فضلك يا سيد غروميكو، هل سيطول الأمر بالاتحاد السوڤياتي للاستمرار بوضع ملايين الجنود تحت خدمة السلاح بعد انتهاء الحرب؟

لقد بدا لي السؤال غريباً، خصوصاً أن الحرب مع اليابان لم تكن قد انتهت بعد، وأن الولايات المتحدة استعجلت الاتحاد السوڤياتي أكثر من مرة لمساعدتها في هذه الحرب.

فأجبته:

– سنحاول، بطبيعة الحال، حل تلك المسألة التي عنيتها، بيد أن الوقت ما زال باكراً للخوض في هذا الموضوع.

ثم وجهت بدوري سؤالاً إلى دالاس:

– وأنتم ماذا تظنون أن الولايات المتحدة فاعلة بقواتها المسلحة في أوروبا وآسيا بعد انتهاء الحرب مع اليابان؟

فأجاب دالاس:

ـ أريد أن أنبه إلى أنني لا أشغل منصباً رسمياً في حكومة ترومان، لذلك لا أستطيع إلا أن أطرح وجهة نظري الشخصية. في اعتقادي أنه على الولايات المتحدة الاحتفاظ بتلك الجسور التي تملكها الآن في جزر المحيط الهادىء، وفي اليابان فيما بعد، لأني واثق من أن اليابان سوف تهزَمْ.

وهو طبعاً لم يحاول التطرق إلى مسائل عدد القوات المسلحة والاسطول العسكري البحري في أوروبا وآسيا وعلى جزر المحيط الهادىء.

لا بد وأن تكون آراؤه قد «تبلورت» بعد الحرب، خصوصاً حين بُدِىءَ النظر في مسائل نزع السلاح.

ولم يطل به الأمر حتى وجد نفسه في موقع رئيسي ومهم، إذ عين وزيراً لخارجية الولايات المتحدة (سكرتير الدولة)، فعمد إلى ترجمة تلك الأفكار، التي كان ذكرها، بشكل عملي، إلى اللغة الرسمية للسياسة الخارجية الأميركية.

ففي فترة وجوده كلها في ذلك المنصب الرفيع بدت السياسة الأميركية وكأنها عصية تماماً على أي خطوات يمكنها أن تساعد على قيام حوار مجدٍ حول قضايا التسلح أو حول إيجاد حلول لها.

ما زالت روحية أفكار دالاس غير البناءة حية حتى الآن في الموقف الأميركي من موضوع نزع السلاح، وهي تتغذى من التربة ذاتها التي غذت وقتها تصوّرات دالاس القديمة. ففي أحسن الأحوال، وعلى امتداد عشر أو خمس عشرة سنة، كانت الولايات المتحدة تبدي عملياً عدم اهتمام كلي بموضوع نزع السلاح. وقد تجلى ذلك في جوهر موقفهم،

وحتى في أساليبهم وطريقة مشاركة ممثليهم في المناقشات المتعلقة بتلك المسائل.

ولم نكن لنشعر أبداً أن لدى ممثل واشنطن أي قلق إزاء واقع سباق التسلح وتكديس السلاح النووي. كانت دائماً تتكرر التصريحات الدعائية ذاتها، الملأى بالخداع والافتراءات ضد الاتحاد السوفياتي. ولم تكن هذه التصريحات إلا لتؤكد حقيقة أن الولايات المتحدة، لم تكن أصلاً راغبة في حل مسألة المسائل، ألا وهي إزالة السلاح النووي. وأما الآن، فإنها تحاول وقف العمل حتى بتلك الاتفاقات الجزئية التي توصّلنا إليها في عهدي نيكسون وكارتر.

إن عامل الزمن هنا لا يخفف من حدة مسألة من نوع وقف سباق التسلح ونزع السلاح. فهي لا تفتأ تتضخم وتكتسب مخاطر وتعقيدات جديدة.

إن بعض الساسة البرجوازيين، في محاولة منهم لوضع أسس نظرية تخدم سياسة سباق التسلح، يؤكدون أن الإنسانية غير قادرة على الإفلات من حلقة سباق التسلح المفرغة التي لا مفر منها في عصرنا الحاضر. لقد سمعت مثل هذه التأكيدات أكثر من مرة، وبشكل خاص من ممثل إنكلترا. فقد خيل إلي أن جدران القصر الوردي في باريس، حيث كانت تجري لقاءات وزراء خارجية الدول الكبرى الأربعة، سوف تزداد «احمراراً» من ذلك التصريح ذي الروحية السابقة، والذي أدلى به ممثل إنكلترا.

فقد صرح سيلفين لويد، ممثل حكومة المحافظين في الاجتماع، بما يلي:

ـ إن اتباع خط يقضي باستبعاد الحروب من حياة المجتمعات وإزالتها

هو أمر غير مجدٍ. فالحرب كانت موجودة وسوف تستمر. إنها ليست إلا نتيجة لطبيعة الإنسان ذاتها.

منتهى الوضوح! فحتى في «الرايخ الثالث»، كانوا سيحسدون سيلقين لويد على الاندفاع والسهولة اللذين حاول بهما أن يصوغ فلسفة من يقف وراء سياسة التسلّح.

إن هذه الأشكال من البراهين «العلمية» لهي شيء مُخجِل. على أن واقع الأمر هو غير ذلك: فالإمبريالية تريد أن تؤكد هنا، أن تلك الظواهر التي تفرزها، ما هي إلا جزء لا يتجزأ، وصفة من صفات المجتمع المعاصر، بل والطبيعة الإنسانية.

فالنهج العسكري في الشؤون الدولية ما هو إلا نتاج لسياسة أولئك المستفيدين من سباق التسلح: فهو بالنسبة إليهم بيزنيس مربح. وهم لن يتورعوا عن استعمال أي وسيلة من أجل الحصول على الأرباح. يقول ك. ماركس في «رأس المال» مستشهدا بقول الصحافي والكاتب ت.ج. دانينغ: «امنوا لرأس المال ١٠ بالمائة وسيوافق على أي استعمال، اعطوه ٢٠ بالمائة فيصبح حيويا. أما عند ٥٠ بالمائة فهو مستعد لأن يحطم رأسه ايجابا. أما في حال المائة بالمائة فسيتجاوز كل القوانين البشرية، وحين يجري الكلام على ٣٠٠ بالمائة فلن يكون هناك جريمة عاجزاً عن ارتكابها حتى ولو كان ذلك تحت الرعب من حبل المشنقة»(*).

كثرة من الناس بدأت تعي هذه الحقيقة، وبدأت تفهم مدى ضِعَة مصالح رجال أعمال الصناعات العسكرية ودناءة مقاصدهم إذ ما قورنت بالمصالح الحيوية للشعب.

(*) ماركس ك. إنجلس ف. المجموعة الكاملة، المجلد ٢٣، ص ٧٧٠.

إن العقل البشري يقف ضد استغلال عبقرية العلماء، ومهارات العمال العالية وضد إهدار الوسائل المادية الهائلة في سبيل إنتاج وسائل الدمار وإبادة البشر. إن البشرية تملك الحق، كل الحق، لوضع نهاية لهذا الجنون.

لقد دأب الاتحاد السوڤياتي على توجيه النداء تلو النداء لكبح سباق التسلح والبدء بنزع السلاح.

وثمة العديد من المسؤولين الغربيين الذين لا يبدون ارتياحهم لكون بلدنا يقدم المبادرات البناءة الواحدة تلو الأخرى. ولكننا نتساءل، لماذا يجب على الاتحاد السوڤياتي ألا يقوم بتلك المبادرات؟ إننا نتكلم بلسان المواطن السوڤياتي، ونلقى التفهم والدعم من قبل شعوب العالم الأخرى، وقد أصبحت الكرة الآن في ملعب حكومات الدول الغربية.

جرس الهاتف يرنّ
في البيت الأبيض

في فترة الستينات والسبعينات بمبادرة من الاتحاد السوڤياتي عقد بعض الاتفاقات والمعاهدات الدولية في ميدان الحدّ من الأسلحة، بما فيها النووية. ومن الإنجازات الكبيرة في هذا المجال، كان عقد المعاهدة القاضية بمنع إجراء تجارب الأسلحة النووية فوق سطح الأرض وفي الفضاء الخارجي وتحت الماء. وقد تم توقيع هذا الاتفاق في الخامس من آب (اغسطس) عام ١٩٦٣. وقعته بوصفي وزيراً لخارجية الاتحاد السوڤياتي ووقعه كل من دين راسك وزير خارجية الولايات المتحدة وألكسندر دوغلاس ـ هيوم وزير خارجية إنكلترا. وفي العاشر من تشرين الأول (أوكتوبر) من العام نفسه أصبحت المعاهدة سارية المفعول بعد موافقة حكومات الدول المعنية عليها.

وقد سبقت توقيع المعاهدة محادثات جرت في موسكو في تموز (يوليو) عام ١٩٦٣. وقد شارك في هذه المحادثات كل من وزير خارجية الاتحاد السوفياتي، نائب وزير خارجية الولايات المتحدة أفيريل هاريمان ووزير الشؤون العلمية في إنكلترا اللورد هيلشم.

ومن مشاهد المباحثات أسوق المشهد المثير التالي: كان العمل على إتمام نص مشروع الاتفاقية بصيغته النهائية يقترب من نهايته. لكن بقيت هناك عقبة واحدة، ومن أجل تذليلها كان المطلوب العثور على جواب للسؤال التالي: ما هي الحالات التي يُمكن فيها لأي طرف من أطراف المعاهدة الخروج منها بشكل قانوني إذا رغب في ذلك؟

تقدم الاتحاد السوفياتي باقتراح يقضي بأن كل طرف مشارك يملك حق الخروج من هذه المعاهدة، حسبما تفرضه سيادته الذاتية وفي حالة استثنائية، أي حينما تتعرض المصالح العليا للدولة المعنية للخطر. وبعبارة أخرى، فإن صيغة كهذه، لن تدع للأطراف مجالاً للتحجج بأيّ أعذار لا تمت إلى الاتفاق بصلة، مما يمكنها من الخروج من المعاهدة وبالتالي القضاء عليها. وقد عكس هذا الاقتراح رغبة الاتحاد السوفياتي في عدم جعل هذه المعاهدة ظاهرة ظرفية في الحياة الدولية، بل كي تكون اتفاقاً مهما طويل الأمد.

وفي أول ردّ فعل لهاريمان وهيلشم، ظهرا وكأنهما لم يكونا مستعدين بعد لمثل هذا الطرح للمسألة. على أن ممثل الجانب البريطاني ما لبث أن حصل على موافقة مبدئية من لندن بقبول اقتراحنا. وأما ممثل الولايات المتحدة فإنه لم يعط موافقته متذرعاً بأنه لا يستطيع الإخلال بتعليمات الرئيس كيندي، التي لا تجيز له فعل ذلك.

وفي فترة الاستراحة التي تخللت المحادثات، اقترحت على هاريمان أن يأخذ سماعة الهاتف الموجود في القاعة المجاورة ليتصل مباشرة بالرئيس كينيدي، من هذا المبنى التابع لوزارة الخارجية السوفياتية، فأجابني قائلاً:

ـ في تلك الحالات والظروف، التي يتطلب فيها الاتفاق النهائي على الصيغة حلّ مسألة واحدة لا تتطابق فيها وجهات النظر، يُصبح إبلاغ الرئيس شخصياً، على وجه السرعة، أمراً منطقياً وضرورياً، حيث لن يكون في وسعه إلا أن يُقدّرَ ذلك.

ويجب إعطاء هذا الشخص حقه إذ قبل النصيحة واتصل حالاً بالبيت الأبيض، فأعطى كيندي تعليماته بقبول الاقتراح السوفياتي.

وحين عدنا إلى الاجتماع، رحب المندوبون الثلاثة بالاقتراح المتعلق بالمادة الرابعة من المعاهدة، التي تحدد شروط خروج الدول منها. وخلال ساعة من الزمن كانت المعاهدة قد وقعت بالأحرف الأولى (*) وأن المحادثات كانت ناجحة.

قد يُخيَل إلينا أن ما قام به هاريمان كان عملاً بسيطاً كونه اتصل بالرئيس ووضعه في صلب المشكلة وحصل على الرد. ولكن لو كان في هذا الموقع، مثلاً شخص آخر أقل خبرة وتأثيراً لكان من الممكن أن تجري الأمور بصورة مغايرة، أي في إطار آخر من المشاورات والمراسلات

(*) التوقيع بالأحرف الأولى هو إجراء يسبق عادة التوقيع النهائي على الصيغة، حيث يقوم كل طرف بوضع الأحرف الأولى من اسمه على كل صفحة من صفحات الاتفاق. وهذا الإجراء يعني أن الأطراف المعنية قد طابقت بين نصوص مشروع الاتفاق (الناشر).

الطويلة مع واشنطن. وكان من الممكن أن تقوم واشنطن بتجنيد حشد كبير ومهم من الخبراء المشهود لهم ومن رجال القانون الكبار للبحث في مسالتي «التأييد» أو «المعارضة». ولن يعلم أحد عند ذاك ما هو الرأي الذي كان سيقترحه مثل هذا التجمّع المبدع.

هاريمان

رجل الأعمال والديبلوماسي

لقد كان أڤيريل هاريمان، دون شك، شخصية مرموقة في الحياة الاجتماعية للولايات المتحدة ولعل أحد أهم أسباب بروزه، يكمن في انتمائه إلى طبقات رأس المال الأميركي الضخم التي تتحلّى بحسٍّ واقعي للتعامل مع قضايا الاتحاد السوڤياتي. وعائلة **هاريمان** معروفة في أوساط الأميركيين الكبار في السن، فهي عائلة معروفة بأنها من أصحاب سكك الحديد. فقلة هم الأشخاص الذين لم يتسنَّ لهم السفر من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق في الولايات المتحدة على سكك حديد **هاريمان**، التي ورثها عن والده. وكان آل هاريمان يتمتَّعون بتلك الجرأة الضرورية للقيام بأعمال كبيرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وهم لم يكونوا ليمارسوا إلا اللعبة الكبرى، معرِّضين بذلك صدورهم لضربات الأقدار، ومندفعين بثبات إلى الأمام لملاقاة الحظ؛ فدخلوا في عداد أولئك الأشخاص الذين استطاعوا ترسيخ جذورهم في اقتصاد البلاد. وقد قام **أڤيريل هاريمان**، حيث ورث عن أبيه وضعاً مادياً محترماً، بإنشاء مجموعة مالية، ما زالت تحظى حتى يومنا هذا بتأثير كبير في عالم البنوك وسكك الحديد والتعدين وغيرها من القطاعات الاقتصادية.

لم تكن لدى **هاريمان** الشاب أي رغبة خاصة في تعاطي العمل السياسي. والناس تعرف جيداً سيرته الشخصية المرتكزة إلى ما يلي: العمل ثم العمل، وقبل كل شيء في مجال السكك الحديدية. فهذا هو الشعار الذي كان يستغرق هاريمان، الإنسان غير العادي.

وفي السياسة، خطا **هاريمان** خطواته الأولى في الثلاثينات في عهد الرئيس **روزفلت**. فقد كانت الإدارة الأميركية تضم شخصياتٍ تعمل، وبوحي من سيد البيت الأبيض، على البحث عن أشخاص مرموقين وموهوبين، على أن يكونوا قبل كل شيء ممثِّلين لدوائر رجال الأعمال، وذلك بقصد اجتذابهم للتعاون مع الدولة. وبنتيجة ذلك أُنشِىء ما يسمى بـ «تريسْتْ الأدمغة»، وهي تسمية غير رسمية استُمِدَّت من قاموس رجال الأعمال. فضمّ ممثلي الرساميل الخاصة ورجال القانون والعلماء. وكانت الحكومة، وحتى الرئيس نفسه، بحاجة إلى مساعدة هؤلاء الأشخاص.

وبالرغم من أن **هاريمان** لم يدخل بشكل مباشر في هذا «التريْستْ» إلا أنه شغل في الفترة من عام ١٩٣٣ وحتى عام ١٩٤٠ العديد من المناصب الإدارية بما في ذلك منصب مستشار الرئيس لشؤون الصناعة والمال.

ونشبت الحرب. وبفعل التتابع المنطقي للأحداث وجدت الولايات المتحدة نفسها منجذبة إليها. وتطلبت الأوضاع أن يكون منصب سفير الولايات المتحدة في موسكو لشخص يتمتع بالتأثير، والمفضل أن يكون من بين ممثلي دوائر رجال الأعمال الكبار.

ولم تكن القيادة السوڤياتية تنظر بعين الرضا إلى **شتينغارد**، السفير

الأميركي في موسكو، الذي كان عُيِّنَ في هذا المنصب في بداية الحرب، وهو أمر كان يعلمه روزفلت. فتقاريره المرسلة إلى واشنطن والمثيرة للهلع عن أن العاصمة السوفياتية لن تستطيع الصمود أمام جحافل الهتلريين، وأن سلاح البحرية السوفياتي بدأ يتفكك، باتت معروفة على نطاق واسع. حتى أنه هو شخصياً لم يحاول تبرير نفسه. وتم تعيين وليام ستاندلي سفيراً جديداً بدلاً من شتينغارد، بيد أنه لم يعمل في موسكو أكثر من سنة (من نيسان ـ ابريل عام ١٩٤٢ حتى أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٣)، عاد بعدها إلى بلاده دون أن يترك وراءه أثراً يُذكر.

ووقع اختيار روزفلت في النهاية على هاريمان، الذي انتدبته الإدارة الأميركية آنذاك للقيام بمهمات سياسية متنوعة. فقد عُيِّنَ، مثلاً، في آذار (مارس) ١٩٤١ ممثلاً خاصاً للرئيس في إنكلترا للبحث في موضوع القانون المتعلق بـ «لِنْد ـ ليز». وفي أيلول من العام نفسه رَئِس وفد الولايات المتحدة إلى مؤتمر موسكو حيث التقى الثلاثة الكبار، للتباحث بموضوع المساعدات العسكرية المتبادلة.

لقد كُتِبَ وقيل الكثير عن هاريمان، ولكني أريد أن أُقاسِمَ القارىء انطباعاتي الشخصية عن هذا الرجل، الذي عرفته لأكثر من أربعين سنة.

فقرار تعيينه سفيراً للولايات المتحدة في الاتحاد السوفياتي أثار هاريمان كثيراً، وهو لم يحاول أن يخفي ذلك، أما أنا الذي لم يمض على وجودي في واشنطن إلا فترة قصيرة فقد أدركت ذلك. لقد اعتاد هاريمان القيام بالأعمال الكبرى: البيزنيس؟ فليكن البيزنيس إذاً كبيراً. السياسة؟ فلتكن السياسة كبيرة؛ وإذا كان هناك داع للعمل في دولة أخرى، فلتكن دولة كبرى أيضاً. وبالمناسبة، فقد حصل هاريمان في

BUC Lib.

سنوات «النيپ» (*) على امتياز لاستخراج المنغانيزيوم من مناجم شياتور في القفقاس.

وقد زار هاريمان، السفارة السوفياتية في واشنطن، لأوّل مرة، حين أصبحت مسألة تعيينه سفيراً لبلاده أمراً شبه محسوم. وهو في حديثه مع سفير الاتحاد السوفياتي تكلم بإعجاب كبير على المقاومة البطولية للشعب السوفياتي ضد المحتلين الفاشيين، فأشار:

ـ إن الشعب الأميركي يستقبل بفرح أخبار انتصارات الجيش الأحمر في هذا أو ذاك من مواقع الجبهة الكبيرة.

وقد أبدى هاريمان تفهُّماً لضرورة إيجاد لغة مشتركة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وذلك وصولاً حتى للقضاء النهائي على ألمانيا الفاشية.

ووصل هاريمان إلى موسكو في تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٤٣ بوصفه سفيراً لبلاده، وكانت ترافقه ابنته. وكان سفير الولايات المتحدة الجديد كثيراً ما يُسْتَقْبَلُ من قبل القادة السوفيات، أما في حالاتٍ محدَّدة فقد كان يستقبله ستالين ليتلقَّى منه رسائل روزفلت، الأمر الذي ساعده في ترسيخ اتصالاته الرسمية مع القادة السوفيات.

إن خبرة هاريمان الطويلة في مجال الأعمال، المليء بمشكلات تتطلّب حلولاً واتصالات بين أرباب العمل والعمال، فقد أعانته على هذا النحو أو ذاك في تنفيذ مهمّاته السياسية. وقد لاحظ السفراء السوفيات في واشنطن

(*) «النيپ» اختصار للخطة الاقتصادية الجديدة التي اعتُمِدت في الاتحاد السوفياتي في أعقاب الثورة ـ (المحرِّر).

(**أومانسكي، ليتڤينوف** ومن بعدهما كاتب هذه السطور)، أكثر من مرة، أنه قد تبلور لدى **هاريمان** أسلوب خاص في خوض المحادثات. فقد كان قادراً على الإصغاء إلى محدِّثه بانتباه، ولم يكن يلجأ إلى استعمال الصيغ المعدة سلفاً. وكان قادراً على الإعراب لمحدثه عن وجهة نظره، مؤكداً أن ما يقوله هو رأيه الخاص.

وباختصار، استطاع **هاريمان** أن يترك عند القادة السوڤيات انطباعاً أن المرء يمكنه التحدُّث مع هذا الشخص باحترام يتناسب وكونه ممثلاً لدولة كبرى.

وفي مطلع عام ١٩٤٦، نُقِلَ **هاريمان** من موسكو إلى لندن وتم تعيينه سفيراً لبلاده فيها بطلب شخصي منه، وعُيِّن مكانه وولتر سميث.

ولم يعد تأثير هاريمان على سياسة واشنطن فاعلاً كما كان الحال على عهد روزڤلت. غير أن الرؤساء الأميركيين من الحزب الديمقراطي، الذين حكموا بعد الحرب، غالباً ما كانوا يعهدون إلى **هاريمان** بمهمات ديبلوماسية كبيرة، فضلاً عن أنه تولَّى حقيبة وزير التجارة. وفي وقت لاحق، عُيِّن مساعداً خاصاً للرئيس للشؤون الدولية ونائباً لوزير الخارجية الأميركية.

وفي سنوات «الحرب الباردة» كانت تصدر عن **هاريمان**، أحياناً، تصريحات غير ودية بحق الاتحاد السوڤياتي، لكنه، مع ذلك، لم يغير موقفه القائل إنّ على الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، في ظروف السلم، أن يجدا حلولاً للمسائل المختلف عليها حول طاولة المفاوضات. وكان **هاريمان** شديد السلبية تجاه ذلك الخط المعادي للاتحاد السوڤياتي، الذي صاغه **تشرشل** في خطابه الشهير الذي ألقاه في ڤولتون. وهو لم يخف

ذلك. وكانت آراؤه الواقعية حول قضايا العلاقات السوڤياتية ـ الأميركية والسياسة الدولية تجد دائماً صدى لها في الولايات المتحدة.

لم يغير **هاريمان**، حتى يومنا، آراءه بضرورة التعايش السلمي بين الدول. وكان شديد الانتقاد لتلك المظاهر العدائية، في السياسة الأميركية الخارجية، الموجهة ضد الاتحاد السوڤياتي، فكان يرى أنه ليس من المقبول أن توجه الإهانات، عبر البيانات، إلى النظام الاشتراكي في الاتحاد السوڤياتي. والجدير بالذكر أنه شارك في المحادثات التي أدَّت إلى إنهاء الحرب في فيتنام ممثلاً الولايات المتحدة، كما صرّح أكثر من مرة، مؤكداً على موقفه الداعي إلى وقف سباق التسلح، ومذكِّراً بدوره الايجابي في الوصول إلى نتائج ايجابية لمحادثات موسكو بشأن حظر التجارب النووية في البيئات الثلاثة (الجو، الماء، الأرض).

يقول **هاريمان** في كتابه «أميركا وروسيا في عالم متغيِّر»: «ما يثير قلقي هو تلك النزعة الموجودة لدى الإدارة الحالية، والمتمثلة بالنظر إلى الروس بعين الارتياب الشديد، أو على الأقل بشكٍ سيء النية...»(★).

وقد وُجِّهَتْ هذه الكلمات إلى إدارة إيزنهاور، بيد أنه يمكن توجيهها، انطلاقاً من الأسس نفسها إلى بعض الإدارات التي تلتها.

في تلك الفترة، حين بدأت كتابة أفكاري هذه عن **هاريمان**، بلغنا خبر مُفجعٌ عن وفاته. من الصعب التصديق أنه لم يعد موجوداً بيننا،

(★) Harriman W.A. **America and Russia in a Changing world.** A Half Centure of Personal Observation. Doubleday and Company, Inc. Garden City. N. Y., 1971, p. 196.

وبأننا لن نتمكن من سماع صوته الدافىء. فكل من عرف **أفيريل هاريمان** يعرف أن هذا الصوت كان يحمل أفكاراً بنّاءة تعي تمام الوعي ضرورة التعايش السلمي بين الولايات المتحدة وبين الاتحاد السوفياتي.

بيت في شارع ألكسي تولستوي

من المحتمل أن القارىء قد يثير اهتمامه استطراد على هامش موضوع آخر متعلّق بالمحادثات التي سبق التعرّض لها، وهو موضوع وددت لو أخوض فيه. فعلى امتداد نصف قرن من الزمان وثمة بيت تابع لوزارة الخارجية السوفياتية، قائم في شارع ألكسي تولستوي، يشهد العديد من اللقاءات والمحادثات الثنائية والمتعددة الأطراف، ويشهد أيضاً توقيع المعاهدات المهمة والاتفاقات وغيرها من الوثائق الدولية.

فأي دولة تنظّم لقاءات أو محادثات تبذل الجهد، عادة، لتأمين الأجواء المريحة والظروف الفضلى للأطراف المشاركة. واختيار المكان الملائم مسألة ذات أهمية. أجل إن هذا العامل النفسي يلعب أحياناً دوراً مهماً.

ولهذا البيت والأرض التي يقوم عليها قصة طريفة. ففي عام ١٨١٤، شَيّدَ في هذا المكان بيت على الطراز الكلاسيكي للشاعر إيفان إيفانوفيتش دميتريف، عضو الأكاديمية الروسية.

وغدا بيت **دميتريف** هذا، القائم في شارع سبيريدينوفكا آنذاك، «نادياً ثقافياً». ففيه كانت تقرأ أشعارُ كلٍ من أ.س. **بوشكين** و إ.أ. **باراتينسكي** و **ف.أ. جوكوفسكي** و ك.ن. **باتيوشكوف** و **پ.أ. ڤيازيمسكي**، وكذلك أشعار أنصار حرب عام

١٨١٢ الوطنية الشاعر **دينيس داڤيدوف**. وهذه الكوكبة الصغيرة من الأسماء تعني الكثير بالنسبة للإنسان المثقف.

وتحوّلت ملكية هذا البيت، فيما بعد، إلى آل **أكساكوف**، بحيث انتقلت عام ١٨٩٣ إلى آل **موروزوف**، الذين كانوا يملكون معمل نيڤولسكي القائم في أوريخوڤو ـ زوييڤو.

كان **ساڤا تيموفييڤيتش** أحد أكثر أعضاء آل **موروزوف** دفئاً قبل الثورة، كما كان يتمتّع بالعديد من الصلات مع مشاهير شخصيات ذلك الزمن. ففي هذا البيت قرأ الكاتب **ليونيد أندرييف** على أصدقائه كتابه «الضحك الأحمر» وهو بعد مخطوطة. من جملة أصدقاء **ساڤا موروزوف** نذكر: أ.**پ. تشيخوف** و أ.م. **غوركي** وفنانة المسرح، عضو الحزب البلشفي م.**ف. أندرييڤا**، والتي كان يعرفها **ف**.إ. **لينين** معرفة شخصية.

وقد حدث أكثر من مرة أن توجه كل من **غوركي** و **أندرييڤا** إلى **موروزوف** طالبين التبرعات المالية لحزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي، فكان يلبي النداء بطيبة خاطر. أما تبرعاته للحزب فلم تقف عند هذا الحد، إذ أنه كان يقدم العمل للمحتاجين من أعضاء الحزب، أما في الحالات الطارئة فيساعدهم على الاختباء من رجال الشرطة، ومن هؤلاء نذكر، على سبيل المثال، الثوري المعروف نيقولاي باومان.

ثم اتّخذ البيت شكله المعاصر في مطلع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد صُمّمت واجهته على الطراز الإنكليزي القديم، أما مدخله فيقودنا إلى قاعة أمامية منيرة تنفتح على قاعة الأعمدة البيضاء

المصنوعة من المرمر وعلى قاعة الاستقبال الكبرى، التي صمَّمها الفنان بوغايفسكي، تليها قاعة الاستقبال الصغرى التي أبدع تصميمها الفنان ڤروبيل. وفي الجهة الأخرى من القاعة الأمامية تقع ساحة السُّلَّم الاستعراضي المزينة بالجداريات وبمجموعة تماثيل من أعمال ڤروبيل، ثم هناك غرفة الطعام الكبرى وفيها موقد كبير وثريا ضخمة من القرن التاسع عشر.

ويذهل المرء ذلك الخيال الخصب اللامحدود للمعماريين، والتفاتهم إلى جميع التفاصيل الدقيقة وإعطاؤهم كل قاعة مناخها الخاص.

لقد رأت جدران هذا البيت الكثير من الأحداث، وهي لو استطاعت لروت الكثير حتى عن تلك الفترات غير البعيدة. ففي التاسع والعشرين من أيلول (سبتمبر) وحتى الأول من تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٤١، عُقِدَ فيه مؤتمر ممثلي الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا، المخصص لبحث مسائل تبادل المساعدات العسكرية أثناء الحرب.

وفي النصف الأول من تشرين الأول (اوكتوبر) من العام نفسه عُقِدَ فيه مؤتمر وزراء خارجية الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة وإنكلترا، حيث جرت أثناءه مناقشة بعض المسائل الناتجة عن الوضع العسكري.

ومن حين لآخر كانت تجري هنا، في هذا البيت، لقاءات على أعلى المستويات. ففي العاشر من تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٤٤ أوْلَمَ ستالين لتشرشل الذي كان في زيارة للاتحاد السوڤياتي. وفي الثالث من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٤ أقيم كذلك حفل فطور على شرف ديغول تحت رعاية ستالين.

وفي الحادي والثلاثين من أيار عام ١٩٤٥ أقامت الحكومة السوڤياتية في البيت التابع لوزارة الخارجية، حفل استقبال للديبلوماسيين الأجانب بمناسبة الانتصار على ألمانيا الفاشية. وكانت تهيمن في حينها أجواء مفعمة بالأمل في مستقبل آمن ومشرق للبشرية.

وقد أسعدني الحظ، مع غيري من الشخصيات المدنية والعسكرية، أن أكون حاضراً في هذا الحفل الذي تميّز بخلوّه من الخطابات والأنخاب. وكانت أبهة اللحظات والفرحة بالانتصار العظيم باديتين في جميع الأحاديث والمشاعر، فكان يُخَيَّلُ للمرء أحياناً أنه يصغي إلى أنغام موسيقية ساحرة. وهكذا بقيت في الذاكرة أيام الفرح الشعبي الكبير.

بعد سنوات الحرب استُعمِل بيت شارع ألكسي تولستوي بشكل مكثّف لاستقبال الوفود الأجنبية، وهو ذو الحلة الزاهية، ما زال مستعداً أيضا ليستقبل تحت سقفه الأصدقاء والشركاء في المحادثات والمفاوضات.

إتفاقيات أخرى

إن سياسة الاتحاد السوڤياتي وسعيه الدائبين، ساهما على نحو واسع في عقد معاهدات واتفاقيات أخرى، تلت معاهدة حظر إجراء التجارب النووية في المجالات الثلاثة (عام ١٩٦٣) الرامية إلى الحدّ من سباق التسلّح. وكانت النتيجة ولادة مجموعة جديدة من المعاهدات والاتفاقيات منها: المعاهدة المتعلقة بالمبادىء المحدّدة لنشاط الدول في مجالات البحث العلمي واستغلال الفضاء الكوني، بما في ذلك القمر وغيره من الكواكب (عام ١٩٦٧): معاهدة حظر نشر الأسلحة النووية (١٩٦٨)؛ معاهدة حظر نشر الأسلحة النووية، وغيرها من أسلحة الإبادة الشاملة في قاع البحار والمحيطات وتحته (عام ١٩٧١).

وقد خولت التوقيع باسم الاتحاد السوفياتي على الاتفاق بحظر تصميم الأسلحة البكتيرية والسامة وإنتاجها ومراكمة احتياطياتها وإبادتها (عام ١٩٧٢). وقد كان الاتفاق الأول من نوعه في تاريخ العلاقات الدولية، وهو يضع حجر الأساس في مجال نزع السلاح. ووقعت كذلك الاتفاق القاضي بحظر استعمال الوسائل العسكرية وغير العسكرية التي تؤثر سلبياً على البيئة (عام ١٩٧٧).

ومن الاتفاقات المهمة تلك الاتفاقات الثنائية التي عقدت بين الاتحاد السوفياتي وبين الولايات المتحدة: كمعاهدة الحد من أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ (١٩٧٢) والبروتوكول الملحق بها (١٩٧٤)؛ والاتفاق المؤقت المتعلق ببعض قضايا الحد من الأسلحة الستراتيجية الهجومية سالت - ١ (١٩٧٢).

والناس العارفون بالوضع السائد في الولايات المتحدة غلبهم الذهول مرات عديدة من المفارقات المدهشة التي تُغْرِقُ الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على سلوك واشنطن في القضايا الخارجية المتعلقة بنزع السلاح. فبعد سنين طويلة من المباحثات المضنية تهيأَتْ الأطراف لتوقيع معاهدة الحد من الأسلحة الستراتيجية الهجومية الثانية (سالت - ٢). وكان الطرفان يريان في هذه النتيجة، دون ريب، نجاحاً كبيراً، يعمّ كلا الطرفين، الأميركي والسوفياتي على السواء.

تمَّ التحضير للمراحل الأخيرة من هذه المعاهدة في عهد الرئيس جيمي كارتر، الذي قابلته أكثر من مرة وقتها في سياق عملية تنسيق تناولت بعض المسائل العالقة.

حينها كان الاتفاق قد تَمَّ على توقيع هذه المعاهدة على أعلى المستويات، وهذا ما حصل بالفعل.

بيد أنه لم يكد يمر بعض الوقت، حتى سعى كارتر إلى عرقلة التصديق على المعاهدة في الولايات المتحدة.

فهو، ويا للعجب، أصيب بالغضب من سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، وخاصة في ما يتعلق بالوضع المستجد في أفغانستان وحولها. وبتعبير آخر، فما أن حكومة الولايات المتحدة غير موافقة على تصرف الاتحاد السوفياتي بتقديمه المساعدة إلى أفغانستان التي تدافع عن استقلالها وحقها في إيجاد الحلول لمسائلها الداخلية، فإنها - أي الولايات المتحدة - لا ترى أنه من الممكن إقرار المعاهدة الموقعة بالأحرف الأولى.

إنها سياسة المآزق التي لو اتُّبعت لكان من المستحيل، عملياً، حل أي مشكلة عالقة. وبالطبع، فإن كارتر وجميع معاونيه يعون جيداً أن فلسفة كهذه للمواقف هي فلسفة مشبعة بالزيف، بيد أنها كانت ضرورية لإرباك الرأي العام وصرف انتباهه عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء رفض الولايات المتحدة إقرار المعاهدة.

وأما القول إن أحداث أفغانستان هي التي كانت السبب في تعكير الوضع الدولي، فهو قول مغلوط. فالواقع أن كل قرارات الإدارة الأميركية، التي شكَّلت ركائز المقاربات الجديدة لكلا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، والتي كذلك باتت خطوة إلى الوراء نحو «الحرب الباردة»، كانت قد اتخذت مسبقاً، أي قبل أحداث أفغانستان وليس بعدها.

وهنا يدخل قرار حلف شمال الأطلسي بزيادة الموازنة العسكرية سنوياً على امتداد فترة خمسة عشر عاماً، الذي اتخذ في أيار (مايو) عام ١٩٧٨.

وهنا ويدخل في هذا الباب أيضاً قرار الرئيس الأميركي المتعلق بخطة « خماسية » تقضي بزيادة قوة الولايات المتحدة العسكرية إلى أقصى الحدود ، والتي أقرت في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٧٩ . وهنا نذكر أيضاً القرار الخطير الذي اتخذه حلف شمال الأطلسي عام ١٩٧٩ ، والقاضي بزيادة تسلّحه ، ونشر صواريخ نووية أميركية جديدة متوسطة المدى في أوروبا . فقبل بداية كانون الأول (ديسمبر) من تلك السنة أصبح واضحاً أن إقرار المعاهدة من قبل الولايات المتحدة لن يتم . إذاً ، فأحداث أفغانستان في آخر عام ١٩٧٩ ، لم تكن هي السبب . فهي ببساطة لم تكن سوى ورقة التوت ، التي استعملتها واشنطن لتغطي بها سياستها العارية في سباق التسلّح .

ويقفز إلى الأذهان السؤال التالي : ما هي قيمة تلك المشاعر المعبرة التي أبداها كارتر ؟ ففي ذلك الوقت الذي كانت توضع فيه اللمسات الأخيرة على المعاهدة ، أكد الرئيس الأميركي لكاتب هذه السطور ، خلال لقائنا في البيت الأبيض :

ـ إن الولايات المتحدة تولي هذه المعاهدة اهتماماً كبيراً . وهي يجب أن تُعْقَدَ ، والولايات المتحدة صلبة في موقفها .

وتأكد لنا مرة أخرى ، من خلال الموقف إزاء معاهدة « سالت ـ ٢ » ، كم هو نجس توقيع واشنطن الذي تمهر به اتفاقاتها الدولية .

عودة إلى الوراء

وازدادت الأمور سوءاً بعد تسلّم إدارة ريغان زمام السلطة . ففي تلك الأجواء التي كانت فيها السياسة الأميركية الخارجية قد تحددت ، باتت الغلبة للقوى ذات النهج العسكري .

لقد كانت سياسة واشنطن تهدف إلى تحقيق التفوّق العسكري حيث يمكن لها من خلاله فرض سيطرتها .

وأما ترسانة الولايات المتحدة والناتو فقد كانت متخمة بالأسلحة ومع ذلك عمدت واشنطن ، بنوع من الهستيريا ، إلى وضع برامج تسلّح تقدر قيمتها بمليارات الدولارات ، برنامجاً تلو آخر . وازداد دوران عجلات المصانع الحربية ، وأخذت عملية زيادة التسلح أبعاداً لم يسبق لها مثيل . ثم برز اتجاه جديد وخطير في مجال سباق التسلح ، ألا وهو نشر الأسلحة في الفضاء الخارجي .

وفي محاولاتها لتغيير الوضع العسكري الستراتيجي في العالم لصالحها ، بدأت الولايات المتحدة بالتذرّع بمصالحها ومصالح حلفائها الأمنية . وهي في تبريرها لهذه المصالح المتصادفة عملياً مع المصالح الأمنية للدول والشعوب الأخرى ، تعمد إلى قلب الحقائق رأساً على عقب .

لقد أصبح الأمن القومي والأمن الدولي في وقتنا الحاضر مترابطين ومتداخلين أكثر من أي وقت مضى . ولن يكون في مقدور الولايات المتحدة ولا حلف شمال الأطلسي توفير هذا الأمن أو ذاك عن طريق سباق التسلح أو عن طريق تلك السياسة التي تنتهجها ، سياسة « من موقع القوة » ، النقيضة لأمن الشعوب .

إن التاريخ القديم والحديث يعرف الكثير من اللاهثين وراء التفوق والهيمنة على العالم . ومن المعروف كذلك إلامَ انتهت المحاولات الشبيهة .

إن التجربة التي كابدها الجيل الراهن بعد أن دفع ثمناً غالياً ، بلورت تصوراً آخر ، أكثر واقعية ؛ بيَّنت لنا تلك الأسس التي يجب أن يُبنى عليها

الأمن والسلم، وهذا لن يكون إلاّ برفض التهديد باستعمال القوة. وبالتعاون السلمي بين الدول. على هذه الركائز يمكن للعالم أن يحيا ويستمر، وليس على ركائز مغايرة.

لقد تخطت البشرية تلك العتبة التي لم يعد معها تخزين السلاح النووي شأناً خطيراً فحسب، بل ودون مبرر. وأما محاولة الإفلات إلى الأمام للحصول على تفوق عسكري، فقد أصبحت مستحيلة في الظروف المعاصرة. ومن الوهم الاعتقاد بإمكان إحراز نصر في الحرب النووية سواءٌ أكانت صغيرة ومحدودة أو شاملة.

هذا هو رأي الجميع. رأي العلماء، والمراجع العسكرية والاختصائيين المدنيين. ومن الطبيعي أن يستثنى أولئك الذين خسروا شرفهم وضميرهم أو أولئك الذين حقدوا على الطبيعة لعدم إنصافها لهم.

إنّ هذا القرن النووي يتطلب تفكيراً سياسياً يتفق وواقعه. وأما شعارات «القوة» و«التخويف» و«التفوق»، فيجب أن تُستبدل بمفاهيم أخرى: كـ«عدم استعمال القوة» و«الثقة» و«المساواة» و«الأمن المتكافىء».

لقد حاول كارتر، إبداء بعض المرونة في البحث عن حلول للحدّ من الأسلحة النووية، ذلك أنه تحدث عن شيء مماثل عندما كان سيداً للبيت الأبيض منذ عهد قريب، الأمر الذي يمكننا التكلّم عليه بعض الشيء.

قمت بزيارته مُكَلّفاً بالحديث عن بعض المسائل المتعلقة بمعاهدة «سالت ـ ٢» والتي تحتاج إلى تنسيق بين بلدينا. وفي نهاية هذا اللقاء، الذي كان ناجحاً عموماً، وقد شارك فيه كلٌ من السفير السوفياتي أ.ف.

دوبرينين ووزير خارجية الولايات المتحدة سايروس فانس، قلت للرئيس **كارتر**:

إننا الآن نُجري المحادثات مع الولايات المتحدة غير آخذين بعين الاعتبار سلاح فرنسا وإنكلترا النووي. ولكن قريباً، سوف يكون من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا هذا السلاح، فهما حليفتان للولايات المتحدة.

فأجاب **كارتر**:

ـ إني أفهم وجهة نظركم المقنعة فهماً تاماً. ولكني أعترف أنني لم أصل حتى الآن إلى نتيجة مُحدّدة عن الحل الممكن لهذه المسألة.

كان لهذا التصريح أهمية بالغة. فالولايات المتحدة لم تكن، حتى ذلك الوقت، راغبة حتى في سماع الحديث عن ضرورة أخذ الأسلحة النووية التي تملكها فرنسا وإنكلترا بعين الاعتبار.

ولو أننا قمنا اليوم بالتقاط صورة فوتوغرافية واحدة، مستعملين أحدث تقنيات التصوير العصرية، لأظهرت لنا تلك الأبعاد الهائلة للاستعدادات العسكرية التي تقوم بها الولايات المتحدة وحلفاؤها في كل أرجاء الكرة الأرضية كافّة. ولكنّا رأينا مشهداً قادراً على إصابة أي شخص ذي تفكير موضوعي بالذهول: أسوار من الصواريخ، قاذفات القنابل الستراتيجية، أساطيل السفن الحربية في البحار والمحيطات، مئات القواعد العسكرية المنتشرة في أصقاع العالم: مخزون هائل من مختلف أنواع الأسلحة.

يمكنهم أن يقولوا: وعندكم! عند الاتحاد السوفياتي توجد أيضاً أسلحة

على الأرض وفي الفضاء وعلى سطح الماء وتحته. لكننا نجيب:

ـ نعم يوجد. ولكن هذا ليس خيارنا.

إننا مكرهون على اتخاذ خطوات مقابلة. هذا هو بالضبط ما نقوم به. ونحن إذ نقوم به بذلك الحجم الضروري واللازم، فهو أمر تتطلبه حماية الأمن الذاتي وأمن الحلفاء والأصدقاء فحسب. والاتحاد السوفياتي لم يسع ولن يسعى أبداً إلى التفوق، بل إن ما يرمي إليه هو التكافؤ العسكري في حدوده الدنيا.

لقد سعت واشنطن إلى تعطيل كل المعاهدات والاتفاقات السابقة والوقوف في وجه أي اتفاق جديد بين الاتحاد السوفياتي وبين الولايات المتحدة في مسائل الحدّ من السلاح وتخفيضه.

وفي أثناء اللقاءات مع ممثلي الإدارة الأميركية الحاليين، حدث أكثر من مرة أن وَجَّهْتُ انتقادات إلى واشنطن باسم الاتحاد السوفياتي.

ـ ماذا يحدث؟ في عهد إدارات **نيكسون وفورد وكارتر** عقدت ـ وإن بصعوبة ـ عدة معاهدات بالغة الأهمية بين دولتينا. فلماذا، إذن، لا تريد الإدارة الحالية السير في طريق الاتفاق؟

إن نهج واشنطن، الذي أدَّى إلى زيادة خطر نشوب الحرب في العالم، أحدث قلقاً حتى لدى حلفائها في الناتو، ومنهم من صرح مجاهرة بعدم رضاه. وزادت حدة الشعور بالقلق لدى قطاعات كبيرة من شعوب دول الغرب، كما تفاقمت على امتداد سنوات في أميركا نفسها موجات التحرُّك المعادي للحرب.

ولم يكن لأولئك، المتواجدين خلف المحيط، مفر من أخذ هذه

العوامل بالحسبان. لذا، فقد بدأنا نسمع اليوم تأكيدات على الرغبة في فتح حوار مع موسكو.

زيف واشنطن الفضائي

أمِنْ زمنٍ بعيد كانت مشاعر الناس تمتلىء دهشة وانشداهاً وهم يفكرون بالفضاء الكوني؟ فقد تجذر في وعيهم منذ الصغر أن هذا المكان هو الآمن، من حيث لا يمكن للخطر أن يطلَّ برأسه.

وفجأة، يطل علينا من يريد تحويل الاكتشافات العلمية الكبرى وقوانين الطبيعة إلى وسائل تُبيدُ الحياة نفسها على الأرض انطلاقاً من الفضاء الكوني. على الفكر البشري أن يقف بحزم ضد هذه المحاولات، ضد تلك المشاريع اللاإنسانية الهادفة إلى إبادة البشر وتحويل الأرض إلى مقبرة هائلة. وبمعزل عن القناعات، بمعزل عن عقائدنا الدينية والإيديولوجية، وبمعزل عن البُنى الاجتماعية التي نعيش فيها، بمعزل عن كل ذلك علينا جميعاً من دون استثناء، أن نرفع الصوت عالياً قائلين: إن مستقبل الانسانية هو الحياة لا المقبرة النووية.

وهكذا، فقد اتخذت القيادة السوفياتية قرارها بإجراء حوار صريح حول الفضاء، وبدء مرحلة جديدة من المحادثات مع الولايات المتحدة حول نزع السلاح.

وفي السابع والثامن من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٥، جرت في جنيف لقاءات بيني وبين وزير خارجية الولايات المتحدة **جورج شولتس** لتحديد المسائل المتعلقة بأطر قيام حوار حول الفضاء الخارجي وغيره من

المواضيع والأهداف المتوخَّاة من هذا الحوار. كان الطقس بارداً على نحو غير مألوف، وكان هذا القسم من المدينة هادئاً وصامتاً. بدت الشوارع شبه خالية، والسبب قد يكون أن الموسم السياحي لم يبدأ على الأرجح بعد.

وفي أي حال ففي هذه المدينة المسكونة كان ثمة شعور من الفهم المتبادل يسيطر أحياناً بيننا، فهم لأهمية ما يجري. وكان يخيل إلينا أن كل منزل هنا ينتظر ما سيقوله الجباران.

وكان الصحافيون، الذين قَدِمُوا من أنحاء كثيرة، يُبدون، كالعادة، فضولاً كبيراً. فقد تجمهروا وتجمَّعوا محاصرين مقرَّي وفدي الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة، حيث كانت المحادثات تجري مداورة.

وبالطبع يمكننا فهم الصحفيين، الذين «كُتِبَ» عليهم أن يوجدوا في أتون الأحداث، ليطلعوا القراء على آخر التطورات. بيد أن بعضهم ـ إذا أردنا الكلام على وسائل الاعلام البرجوازية وصحافتها ـ يؤدي دوره ضمن طيف واسع من الشك والتردّد في ما يتعلق بصدق نوايانا.

ووافقت الجهة الأميركية، ولكن بصعوبة، على القبول بوجهة النظر المتعلقة بموضوع المحادثات وأهدافها. فتمت الموافقة على أن المواضيع المتعلقة بمسائل الأسلحة الستراتيجية والأسلحة النووية متوسطة المدى، وحظر سباق التسلح في الفضاء الخارجي، يجب أن تدرس بشكل متكامل ومترابط. إن الاتفاق على هذه الأمور كان يحمل طابعاً مبدئياً مهماً جرى تأكيده في البيان المشترك. وهذا الأمر شكّل خطوة مهمة من أجل إرساء أسس الحوار بين الدولتين، ولكنه كان خطوة واحدة بالمقارنة مع تلك

المسائل التي طرحت بعد شهرين في جنيف على بساط البحث، والتي تناولت شؤون الفضاء والأسلحة النووية.

ولقد حذّر الاتحاد السوڤياتي الولايات المتحدة أنَّ تنفيذها لنواياها الفضائية سيعني أنه لن يكون هناك من مجال للحديث عن خفض الأسلحة، ناهيك عن القضاء على الأسلحة النووية وتصفيتها، لا بل أكثر من ذلك، حيث سيفتح هذا الباب على مصراعيه أمام سباق التسلح، غير المراقب حتى الآن، بجميع اتجاهاته.

إن تغليف مشروع «حرب النجوم» وإحاطته بجميع أشكال الدعاية المهمورة بعبارة «دفاعية» ما هو إلا خداع للناس مع سابق تصوُّر وتصميم. لذلك، فإن «المبادرة الدفاعية الستراتيجية» ما هي إلا خدعة فضائية أميركية.

ونحن لو سألنا أي شخص، في أي مكان وفي أيٍّ مدينة، في الولايات المتحدة أو في الاتحاد السوڤياتي أو في أي مكان آخر: هل يعتقد أنه يجب تحويل المجال الفضائي إلى ساحة للاستعداد للحرب، أو أنه يرى وجوب تلافي هذا الأمر، لكان الجواب واحداً بالطبع:

ـ يجب اعتماد وسائل فعّالة من أجل إبقاء الفضاء آمناً.

وفي أثناء بحث مسائل الفضاء والأسلحة النووية، كان يقفز السؤال التالي:

ـ ما هو ردّ فعل العالم على هذين الموقفين: موقف الاتحاد السوڤياتي وموقف الولايات المتحدة؟

هذا السؤال اقتحم أيضاً القاعة حيث كان يجتمع فيها السكرتير العام

للحزب الشيوعي السوفياتي م.س. **غورباتشيوف** ورئيس الولايات المتحدة **رونالد ريغان**. إن الاتحاد السوفياتي يملك كل المعطيات ليعلن أن العالم كله يؤيد الموقف السوفياتي. هذا ما قيل، وبمنتهى الإقناع، للرئيس الأميركي شخصياً أثناء اللقاءات. إن الشعوب تريد أن يكون مستقبلها مستقبل الحياة والسلام.

فليصيخوا إلى
صوت الأرض

في سياق متابعتي الحديث عن المفاوضات الأميركية ـ السوفياتية، اريد أن أعرض لهذه الفكرة: تحاول واشنطن البرهنة على أن الطريقة الفضلى للمحادثات، تلك التي تقوم على زيادة التسلح وتخصيص موازنات هائلة للأغراض العسكرية، وهذا المنطق يقودنا إلى القول إنه بقدر ما نصنع أكداساً جديدة من السلاح، بقدر ما يسهل الاتفاق على إزالتها.

طبعاً، لو نظرنا إلى كل هذه الأمور اللامنطقية، من سباق التسلح الأرعن إلى مبدأ استعمال القوة في السياسة، لرأينا أنَّ مَنْ يفرك يديه حبوراً هم جنرالات البنتاغون ورؤوس المجمع الاحتكاري الصناعي ـ العسكري في الولايات المتحدة.

وهذا ما يتطابق أشد التطابق مع روحية منهج **دالاس** وغيره من الرجعيين الأميركيين، الذين يخيفهم أيّ اقتراح يتقدم به الاتحاد السوفياتي ويكون موجهاً لوقف سباق التسلح، وخصوصاً القضاء على الأسلحة النووية ومنع قيام سباق للتسلح في الفضاء.

هم يقولون لنا إنّ الوصول إلى اتفاق يتطلب الكثير من الوقت

والصعاب. نعم، نحن ننظر بواقعية إلى الأمور. وإنَّ كل شيء مرتبط بوجود إرادة سياسية لدى الأطراف، واستعداد للاتفاق على أسس من التنازلات الواقعية، وهذه أمور متوفرة كلها لدى الاتحاد السوفياتي.

نعم، فموسكو تصر على العودة إلى المحادثات المتعلقة بالحظر التام على إجراء التجارب النووية وإيصالها حتى نهايتها، ذلك أننا لم نكن نحن البادئين.

ففي الأول من تموز (يوليو) عام ١٩٤٦ قامت الولايات المتحدة بإلقاء قنبلة نووية على مجموعة من السفن الحربية القديمة التي كانت قد جمعت في منطقة **بيكيني** في المحيط الهادىء. وكانت هذه أول تجربة تجرى لاختبار القنبلة النووية في عصر السلم.

وقامت إدارة ترومان بأول عرض «عضلات» نووي للولايات المتحدة بهدف الضغط قوياً على الاتحاد السوفياتي وعلى غيره من دول العالم.

وحتى الآن، فإن الصورة لم تتغير، ذلك أن واشنطن لا تخفي نيتها في متابعة التجارب بهدف زيادة القوة التدميرية لهذا السلاح.

ماذا نستطيع أن نقول لمثل هؤلاء الأشخاص؟ فليلصقوا آذانهم بالأرض، وليصخوا السمع: إنها تئن تحت ثقل السلاح.

من الأمور المبدئية والمهمة، أن يكون لدى الدول المالكة للسلاح النووي استعداد للسير ضمن قواعد محدّدة من التعامل في ما بينها: جعل «منع نشوب حرب نووية» هدفاً أساسياً في السياسة الخارجية؛ رفض برنامج الحرب النووية؛ الالتزام بعدم البدء باستعمال السلاح النووي

وبعدم استعماله، في جميع الظروف والحالات، ضد الدول التي لا تملك، ولا توجد على أراضيها أسلحة نووية، منع نشر الأسلحة النووية بجميع أشكالها وعدم نقل سباق التسلح إلى مجالات جديدة بما فيها الفضاء؛ الإصرار على تقليص السلاح النووي وصولاً حتى إزالته بشكل نهائي.

كلا، هذا ليس مجرد تعداد لحقائق، إنه جزء لا يتجزأ من حياة انسان اليوم.

فمن جنيف، حيث اجتمع **م.س. غورباتشيوف** و **ر. ريغان** في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٥، ارتفع صوت الاتحاد السوفياتي مؤيداً كل اتفاق. وهذه الاتفاقات يجب أن تأخذ، أيضاً، بعين الاعتبار رقابة فعالة على سير تطبيقها.

لقد بات الناس يعلمون جيداً أن سباق التسلح لا يحمل في طياته إلا المآسي، حتى ولو كانت المدافع صامتة، فهو يمتصُّ خيرات مادية ومعنوية كبيرة أكثر فأكثر. كما لا يسمح بحل مآسٍ بشرية كبرى كالجوع والمرض والمشكلات المتعلقة بالبحث عن مصادر بديلة للطاقة، والحفاظ على البيئة. والاستغلال النافع للبحار وللفضاء.

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٨٦ تقدمت دول معاهدة وارسو باقتراح جديد يخدم مصالح نزع السلاح عارضة إياه على الدول الأعضاء في الناتو وجميع الدول الأوروبية، ويقضي بوضع برنامج لتخفيض القوات العسكرية والأسلحة التقليدية في الساحة الأوروبية.

ويلحظ البرنامج إجراء تخفيض مهم في القوات البرية بجميع عناصرها، والجوية التكتيكية الضاربة للدول الأوروبية، وكذلك إجراء تخفيض

مقابل في القوات الأميركية والكندية الموجودة على الأرض الأوروبية. وأما المناطق التي يشملها هذا الاقتراح فهي كل الأرض الأوروبية من المحيط الأطلسي وحتى الأورال.

فماذا كان ردّ الولايات المتحدة على هذه المبادرة السلمية للدول الاشتراكية؟

جاء الرد في عام ١٩٨٧ بأن جعلوا من معاهدة سالت ـ ٢ نفسها معاهدة لاغية عملياً، وهي التي شكلت خطوة كبيرة إلى الأمام في مجال الحد من الأسلحة الهجومية.

لماذا لا نفلح في إزاحة الخطر؟

قد يكون من الغرابة أن نعرف أن العديد من قياديي بعض دول الغرب لم يتعاطوا خلال فترة طويلة موضوع نزع السلاح، ولنأخذ، مثلاً، المانيا الغربية. فمن هو الأولى من قادة هذه الدولة، وهي التي شهدت ما شهدت، بالتفكير في التصدي لسباق التسلّح ونزع نهائي للسلاح، وبالتفكير في الوسائل الكفيلة بمنع كارثة جديدة في أوروبا.

لقد حاولت شخصياً، وأكثر من مرة، حث وزير خارجية ألمانيا الغربية السابق **ڤالتر شيل** على النقاش في المسائل المتعلقة بالقوى المسلّحة وبتسلح الدول، ولكنني لم أنجح في ذلك. كان يستمع بانتباه، وكان أحيانا يُبدي ملاحظات، تدل، في أقصى الأحوال، على تفهم لموقفنا، ولكن حين كان الأمر يتطلب منه التحدث في صلب الموضوع كان يتهرب من المسألة ويدير دفة الحديث في اتجاه آخر.

عمليا، هناك رئيسان أميركيان فقط أبديا اهتماماً بموضوع نزع

السلاح، هما: **نيكسون وفورد**. وهناك، جزئياً، **كارتر**، الذي تم في عهده تتويج المعاهدة التي كانت قد وضعت خلال محادثات **ڤلاديڤوستوك** بين الرئيس فورد و ل.إ. **بريجنيف**.

ماذا يجري؟ ولماذا يحصل كل هذا؟

ثمة إجابة تَفْصحُ عن نفسها من خلال السياسة التي يمارسها عدد من قيادات دول الغرب، من مؤيدي سباق التسلح وتخزين السلاح النووي وعسكرة الفضاء الخارجي. هذا النهج يهدف إلى الضغط الشديد على الدول الاشتراكية. وكان الأحرى بهم أن يأخذوا بعين الاعتبار أن مثل هذا الاسلوب قد مورس سابقاً أكثر من مرة ولكنه أثبت عدم جدواه.

ماذا يأملون من ذلك؟ إنهم إما يعتقدون أن الكارثة النووية لن تحدث لسبب ما، أو أنهم يرون أن العالم يجب أن يوجد ويستمر في ظل نظام اجتماعي واحد، هو ذلك الذي يقرون به، وإلا فليكن ما يكون. وبعبارة أخرى، إما أن تكون الهيمنة للنظام الاجتماعي الرأسمالي، أو فليذهب العالم إلى الجحيم.

وهكذا، هناك صراع قوى حول مسألة العصر الأساسية، صراع بين قوى ذات اتجاهين متناقضين، مسرحه هذا العالم الشاسع، وسقفه السماء وحدها. ولكن، ومهما كان هذا الصراع مريراً، فإن مصالح الشعوب الحيوية هي التي ستقرر مصيره. وهذا الوضع الراهن المستجد يجب ألاّ يدفعنا إلى التشاؤم والإقرار بانعدام المخارج، بل على العكس يجب أن يزيدنا نضالاً من أجل المستقبل، خصوصاً أن قوى السلم هي دائماً أقوى من قوى الحرب وأكثر منها جبروتاً.

واجب كل البشر

لقد قطعت البشرية شوطاً طويلاً خلال أربعين سنة من السلم، أو بعبارة أدق، لم تكن هناك حروب كبرى ومن حق البشرية أن تضع على هذه الدرب التي قطعتها إشارات ذهبية تكريماً للمبادرات السوڤياتية.

دعونا نتمعَّن قليلاً: فبعد أن صمتت المدافع وساد الهدوء بعد آخر طلقة أطلقت قرب الرايخستاغ في برلين، وضع الاتحاد السوڤياتي اقتراحه على طاولة المفاوضات: حظر السلاح النووي إلى الأبد ومنع إنتاجه.

وفي وقتنا الراهن، أرهف كل العالم السمع ليلتقط البرنامج الجديد الضخم الذي تقدم به م.س. **غورباتشيوف** في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٦، الرامي إلى القضاء على السلاح النووي في فترة لا تتجاوز أواخر هذا القرن. وقد عرض هذا البرنامج موقف الاتحاد السوڤياتي وتقدم بحجج وبراهين منطقية تصب في صالح وضع اتفاق دولي في هذا الصدد. لقد ترك البرنامج صدى هائلاً لدى كل شعوب العالم، ووافق عليه المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوڤياتي، ورحَّبت به الدول الأعضاء في معاهدة وارسو.

وحتى لو افترضنا أن حل هذه المعضلة يتطلب وقتاً كبيراً، فإن المنطق يدعونا إلى العمل الآن على تسهيل الحل لمسائل وقف سباق التسلح والقضاء على الأسلحة النووية.

... وكيف لي هنا ألاّ أتذكَّر كلمات **هاري هوپكينس** مستشار الرئيس **فرانكلين روزفلت** ومساعده المقرب إليه:

حدث ذلك قبل نهاية الحرب. ففي جلسة مصارحة جمعتني وإياه ـ وقد

كنت آنذاك سفيرا للاتحاد السوڤياتي في الولايات المتحدة ـ قال هذه الكلمة ـ النبوءة :

ـ قد لا تصدق ، لكن هنا ، في واشنطن ، لا أحد يفكر ماذا سيفعل بالقوات المسلحة وبالأسلحة التي ورثتها الحربُ للبشرية .

فأجبته ملاحظا :

ـ هذا يعني ، أن ربح الحرب أكثر صعوبة من التصرف بالجيش وبالأسلحة بعد انتهائها .

فعلق **هوپكينس** على هذه الفكرة بقوله :

ـ أوافقك أن هذا السؤال يطرح نفسه . لكن بإمكان النصر أن يلعب برؤوس الناس .

وهنا أعطى وصفاً لنهج كل من الحزبين الجمهوري والديمقراطي بالنسبة لهذه المسألة :

ـ إن الحزب الديمقراطي حامل تقاليد **روزفلت** سيوافق بسهولة على تهيئة الجيش للتأقلم مع الواقع المستجد بعد الحرب . ولكنَّ الأمر يختلف بالنسبة للحزب الآخر ، الذي إذا تسلّم زمام السلطة فقد يكون له رأي آخر .

لقد ظننت أن ملاحظات **هوپكينس** مبنية على نظرة خاصة مناهضة للحزب الجمهوري . لكنه كان ، حتى في ذلك الوقت ، يتصور مشاريع السياسة الخارجية التي يمكن أن تكون لدى الحزب الجمهوري ، هذا الحزب الذي تجذّر فيه الفكر الرجعي .

وبالرغم من أن الحزبين انتهجا في الفترة الأخيرة سياسة سباق التسلح والتوسع والهيمنة على العالم ، إلا أن إدارة **ريغان** الجمهورية ، كانت مميزة بسياسة الجدران المسدودة وتوتير الأوضاع في العالم ، وذلك بنسبة أكبر وأغلب مما كانت تفعله الإدارات السابقة .

إنَّ كلمات **هوپكينس** فيها الكثير من الحقيقة .

الفهرس

- من المؤلف ٥
- الفصل الأول: عند بداية الطريق ١٣
- الفصل الثاني: قبيل إعصار الحرب ١٠١
- الفصل الثالث: سفيراً في أيام الحرب القاسية ١٤٣
- الفصل الرابع: طهران ـ يالطا ـ پوتسدام ٢٧٩
- الفصل الخامس: سان فرنسيسكو:
  عند جسر «البوابات الذهبية» ٣٦٧
- الفصل السادس: إيماناً بالعقل ٤٣١

من الذاكرة

هل حقاً كان أندريه غروميكو نادر الابتسامة ؟

عندما نقرأ ذكريات أندريه غروميكو ، لا نقرأ فقط الأحداث الكبرى التي صنعت عالمنا ولوّنته على امتداد القرن العشرين . اننا نعايش ، كذلك ، وعن كثب ، الشخصيات والقوى التي شاركت في صنع هـذه الأحـداث . حشـد مـن السياسيين والفنانين والمبدعين الذين طبعوا عصرنا تلتقيهم هذه الذكريات ، وتسجّل انطباعات وأحكاماً تكشف الجوانب الانسانية الأخرى القابعة خلف الصور الرسمية .

يقول المؤلف

« وبالطبع ، لم نضع في هذا الكتاب نصب أعيننا مهمة تقديم وصف إبداعي للشخصيات الذين التقيتهم عند مختلف طرق الحياة ، ولكنني رغبت أن أقول فيهم كلمتي ، مستعملاً ما تمخضت عنه تجربتي الشخصية . ووددت قبل أي شيء أن أتحدث عـن أولئك القـادة الذين أداروا أو يديرون دفّة السياسة في بلادهم مباشرة سواء أكان ذلك صياغة لاتجاهاتها أو تنفيذاً لها » .